ترجمة: الهدهد

نيران صديقة

كيف أصبحت "إسرائيل" أسوأ عدو لنفسـها، والأمل في مستقبلها

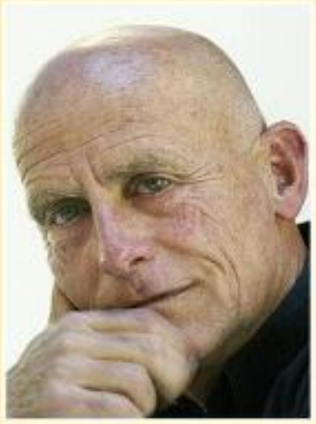

عامي آيلون

الرئيس الأسبق لجهاز الشاباك

بالتعـاون مع أنثوني ديفيد

قدم للكتاب

دينيس روس

نيران صديقة

كيف أصبحت "إسرائيل" أسوأ عدو لنفسها
والأمل في مستقبلها

عامي آيلون

الرئيس الأسبق لجهاز الشاباك

بالتعاون مع أنثوني ديفيد

قدَّم للكتاب:

دينيس روس

ترجمة الهدهد للشؤون الاسرائيلية

2021

"أعتقد أن جميع الرحلات سخيفة:

الرحلة الوحيدة التي لا تعود منها دائمًا خالي الوفاض هي الرحلة داخل نفسك"

عاموس عوز، قصة الحب والظلام

المحتويات

مقدمة 1

تمهيد 2

التسلسل الزمني.. 8

تمهيد الأمل هو أصل الأمان 9

الفصل الأول: هالوزيم – "تحرير" أرض "إسرائيل" 22

الفصل الثاني: مئير شاليف ورجل فانتا 32

الفصل الثالث: العمة هافا والظل الطويل للهولوكوست...........................43

الفصل الرابع: الصامتون 53

الفصل الخامس: كتلة المخلصين 64

الفصل السادس: إذا صح التعبير...71

الفصل السابع: المستقبل في أيدينا 77

الفصل الثامن: أرض فتح 87

الفصل التاسع: لحظاتي مع رجل الفانتا 95

الفصل العاشر: توراة الملك...102

الفصل الحادي عشر: د. خليل الشقاقي.....................................113

الفصل الثاني عشر: المفسدون 120

الفصل الثالث عشر: خط الحافلات 18 129

الفصل الرابع عشر: الدخول إلى "المجاري" والبحث عن شريك..............142

الفصل الخامس عشر: أجهزة الاستشعار 150

الفصل السادس عشر: رؤية النفق 161

الفصل السابع عشر: الأخوان عوض الله 171
الفصل الثامن عشر: القنبلة الموقوتة.. 184
الفصل التاسع عشر: كسر صمتي.. 195
الفصل العشرون: "الأمل سلاح قوي" 205
الفصل الواحد والعشرون: أخطر عدو لنا.. 214
الفصل الثاني والعشرون: السفر مع ساري...................................... 224
الفصل الثالث والعشرون: الطريق الخطأ للخروج 233
الفصل الرابع والعشرون: آلة السدس 241
الفصل الخامس والعشرون: حرب بين الناس 252
الفصل السادس والعشرون: حراس البوابة 259
الفصل السابع والعشرون: حجر الفلاسفة.. 268
شكر وتقدير.. 276

مقدمة

يسعى مركز دوماً لزيادة وعي المواطن الفلسطيني والعربي بالعدو "الإسرائيلي" عبر كافة منصاته ومواقعه، وذلك من خلال: المتابعات الإخبارية وتحليل مضمون الخطاب الإعلامي "الإسرائيلي"، إضافة لمجموعة من المواضيع المتنوعة التي تشارك في دعم ومساندة الإنسان الفلسطيني والإنسان العربي، وتدعم أيضاً صانع القرار الفلسطيني وصانع القرار العربي، بالإضافة إلى سعي المركز لإقامة الندوات والورش التي تفيد في تقريب وجهات النظر التي تُفضي لاستخلاص أجود ما لدى الخبراء من أفكار تخدم القضية الفلسطينية.

وفي إطار تطوير المركز، والموقع التابع له، عكف مركز على ترجمة بعض الكتب "الإسرائيلية" والأجنبية، التي يرى فيها فائدة كبيرة ، ويمكن من خلال قراءتها الاطلاع على طريقة عمل وتفكير العدو "الإسرائيلي"، خاصة في المواضيع الأمنية والعسكرية –وبلا شك أيضاً– المواضيع السياسية التي هي المحرك لكل المواضيع الأخرى.

لذلك قام طاقم مختص في مركز بترجمة بعض الكتب المهمة، ومن ضمنها كتاب "**نيران صديقة**" الذي كتبه عامي ايلون، المدير السابق لجهاز الشاباك بالتعاون مع أنثوني ديفيد.

يتحدث الكتاب عن سلسلة من الأحداث الأمنية والعسكرية التي حدثت خلال وجوده في المنظومة الأمنية، حيث يتحدث عن معارك الكيان "الإسرائيلي" وأهم العمليات الأمنية التي قام بها جيش الاحتلال وتأثيرها على الكيان "الإسرائيلي"، كما يتحدث الكتاب عن أهم العمليات الأمنية التي نفذها الشاباك ضد المنظمات الفلسطينية، ثم يكتب عن حياته بعد أن ترك الشاباك وتفرغ للعمل السياسي.

تمهيد

✍ دينيس روس

(بيثيسدا، ميريلاند، مايو 2020)

"عامي أيلون" رجل غير عادي، فقد التقيت به عندما كان رئيساً للشاباك في التسعينيات من القرن الماضي، وكنت حينها المفاوض الأمريكي الرئيسي بشأن الصراع العربي "الإسرائيلي"، حيث أمضيت وقتًا طويلاً في رحلات مكوكية بين "الإسرائيليين" والفلسطينيين، وما بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط خلال تلك الفترة.

في كل زيارة للمنطقة، كنت أقوم بزيارة "عامي" في مقره للتعرف على رؤية الشاباك للواقع الفلسطيني، وموازنتها مع رؤية ياسر عرفات وفريق المفاوضين.

أستخدم لفظة (الشاباك) لأن "عامي" لم يكن وحده، فقد كان يُحضِر معه نوابه ومراقبيه، الذين يشغِّلون الفلسطينيين ويتعاملون معهم يوميًا على الأرض، ويُعتبروا محللين للفلسطينيين ولمجتمعهم، وكنت أتحدث إلى الفلسطينيين –بعيداً عن الذين كنت أتفاوض معهم–.

أنا طبعاً أتبنى ما أسمعه في مقر الشاباك من آراء، ففي هذا الجهاز –الذي يعتبر تقاطع بين مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة المخابرات المركزية والمسؤولة بشكل كبير عن الأمن الداخلي "الإسرائيلي" ومنع المقاومة الفلسطينية–، اكتشفت بسرعة أنه لا توجد وجهة نظر واحدة للشاباك في الفلسطينيين، فقد كانت هناك وجهات نظر عديدة ومختلفة.

تأكد "عامي" من أنني سمعتهم جميعًا، عندما كانت في ذلك الوقت مفاوضات وأعمال نضالية فلسطينية بالمنطقة، فقد كان يرد على أسئلتي وملاحظاتي، ولكن بعدها أرى مواقف مختلفة من العديد ممن يعملوا معه، ويقدموا تفسيرات مختلفة لتصرفات الفريق الفلسطيني، فقد كان البعض مرتاباً لدرجة عالية من أهداف عرفات وفريقه، وكان بعضهم أكثر تعاطفًا مع الضغوط التي يتعرض لها المواطن الفلسطيني بسبب التأثير الحاد الذي أحدثته الأعمال "الإسرائيلية" مثل: بناء المستوطنات، ونقاط التفتيش، والاعتقالات، والإغلاق عليهم.

رأيت أن "عامي" لم يكن أمينًا على المستوى الشخصي فحسب، بل كان أيضًا صادقًا من الناحية الفكرية، لقد أراد سماع جميع وجهات النظر، بما في ذلك آراء الذين يعارضون أفكاره، ولم يكن يعترض على أحد –أمامي–.

لذلك –بالنسبة لي–، ليس غريباً أن يكتب مذكرات عميقة وصادقة عن نفسه، مثل الذين سيقرؤون قصته، قرأت الكثير عن خلفيته الفكرية وتطوره الشخصي، فقد نشأ "عامي" في كيبوتس في بيئة من العيش الجماعي، والمساواة، والعمل الشاق، وقلة الراحة، والنقاشات الأيديولوجية.

كان العيش تحت مرتفعات الجولان صعب والحياة مهددة دوماً، السوريون كانوا يقصفون الكيبوتس باستمرار ويطلقون النار على العاملين في الحقول الزراعية، "الاستيطان والأمن" كانا المبادئ الأساسية لليهود، خاصة مع رفض الدول المجاورة لوجود "إسرائيل" واستخدامهم للمقاومة المسلحة ضد هذه الدولة الجديدة الوليدة، فقد تم رسم حدود "إسرائيل" من خلال التواجد على الأرض والاستعداد للقتال من أجلها، وليس باعتراف جيرانها من الدول العربية، حتى أن المجتمع الدولي لم يكن مستعدًا لرسم الحدود نيابة عن "إسرائيل"، حيث كان الدعم الدولي "لإسرائيل" قليلًا جدًا في ذلك الوقت.

نشأ "عامي" في مثل هذه البيئة، مقتنعًا بحق اليهود في استعادة أرض تراثهم التوراتي، مع وجود التهديدات المستمرة لقيام الدولة، انضم "عامي" لأخطر الطرق العسكرية وأكثرها تطلبًا، فأصبح من الكوماندوز في الاسطول الثالث عشر (فلوتيلا 13)، وهو المكافئ "الإسرائيلي" لقوات البحرية الخاصة بالقوات الأمريكية، حيث التدريبات الصارمة، والمأموريات من البحر في أراضي العدو تكون خطرة للغاية؛ الأمر الذي قد يصيبه بجروح خطيرة، ومع ذلك أصر على قيادة وإجراء العمليات العسكرية، فقد كان مرتبطًا بالأسطول الثالث عشر (فلوتيلا 13) لمدة 22 عامًا، ثم أصبح فيما بعد قائدًا للقوات البحرية "الإسرائيلية".

كان الوضع القائم يَقتُل أو يُقتَل، فقد قُتِل مجندوه وأصدقاؤه مثل حاييم ستورمان، وعائلته من الجيل الثالث (مثل جده ووالده)، فقد قُتلوا في حرب مع العرب، بينما كان "عامي" ينفذ أو يشارك في مهمات قتلت نشطاء من المقاومة الفلسطينية رفيعي المستوى، –وكان "عامي" من أولئك الذين أعطوا الأوامر لقتل أبو جهاد أحد مؤسسي حركة فتح–، كان لدى "عامي" قانون ودستور يُلزمه لقتل الهدف المطلوب فقط، ويتجنب قتل الآخرين.

قاده هذا القانون إلى عصيان أوامر الجنرال رافول إيتان، قائد جيش الدفاع "الإسرائيلي" آنذاك، والذي يعتقد أن "الأضرار الجانبية" تقول أنه لا يوجد عنصر فلسطيني بعيد عن متناول

"إسرائيل"، وأن الثمن الذي سيدفعه المدنيين الفلسطينيين سيكون باهظاً عند الرد على أعمال المقاومة ضد "الإسرائيليين".

دستور "عامي" لم يقوده إلى التشكيك في هذا العالم الذي محصلته صفر، فقد بدا أن الحل الوحيد هو تصفية المقاومين، "عامي" لديه لحظات مفزعة منذ الثمانينات عندما كان نائب قائد الشرطة البحرية ويتحدث بانتظام إلى الصيادين الفلسطينيين، في أحد الأيام ذهب إلى مخيم للاجئين في غزة، ورُجِمت سيارته (الجيب العسكري) التي كان يستقلها بالحجارة، ورأى مراهقًا ينظر إليه نظرة تدل على الكراهية المطلقة، حيث ربط هذا التحديق بطريقة ما بمشاعره عندما كان مراهقًا وواجه تهديدات يومية في الكيبوتس، وكان يتوق إلى الحرية ووضع حدٍ لتلك البيئة القمعية، يسأل نفسه وهو في جيبه العسكري: ما الظلم والقهر الذي يشعر به هذا الطفل الفلسطيني؟ أولم يكن رمزاً للاضطهاد؟

مع ذلك فقد حدث التغيير الحقيقي لرؤيته للعالم عندما أصبح رئيساً للشاباك، فبعد اغتيال إسحق رابين تم تكليفه لرئاسة الشاباك، وفي وقت مبكر واجه موجة من التفجيرات الاستشهادية في "إسرائيل".

لقد أدرك أن قتل أو اعتقال المناضلين قبل أن يتمكنوا من التفجير أمر ضروري للغاية، ولكنه غير كافي لوقف المقاومة، وكان يسعى إلى فهم دوافع منفذي التفجيرات الجهادية، ليكتشف أن السبب هو غالباً عمليات القتل "الإسرائيلية" لأقاربهم أو إذلال أفراد عائلاتهم على يد الجنود أو المستوطنين "الإسرائيليين" التي ساهمت في ذلك، كما يرى أن اليأس والظلم لدى الناس يخلق مناخًا لتجنيد وتشجيع مناضلين ومجاهدين جدد من قِبَل حماس والجهاد الإسلامي –وهما مجموعتان إسلاميتان ترفضان وجود "إسرائيل"–.

بينما يخوض عامي معركة لا هوادة فيها ضدهم وضد نشطائهم، هو أيضاً يرى أنه إذا قام عرفات والسلطة الفلسطينية بمحاربتهم وتشويه سمعتهم، حينها يمكن هزيمة المقاومة من وجهة نظره، ويعتقد أن رابين ونتنياهو وباراك ارتكبوا أخطاء بحق عرفات، فقد كان على رابين أن يعطي إنذاراً بأن عملية السلام ستتوقف إذا لم يبذل عرفات جهداً أكبر لمحاربة المقاومة، كما أن نتنياهو وباراك لم يدركوا أنه إذا لم يستطع عرفات إظهار أن الاحتلال سيزول، فإن قدرته على محاربة حماس ستضعف، ولم ولن يستطيع عرفات ورجاله أن يظهروا أنهم يتعاونون مع "إسرائيل" لإدامة الاحتلال، ومن وجهة نظر عامي، فإن مطالبة الفلسطينيين بذلك كان نادراً، ويضر بالأمن "الإسرائيلي"، فخلال تعاملاتي مع عامي في هذا الوقت، رأيته يتصرف وفقًا لهذه المعتقدات ويتحدث عن حقيقة الحكم، فقد رأيت ذلك مع نتنياهو وباراك، وشاهدته مع عرفات أيضاً.

بعد عملية استشهادية في مدينة القدس سألت رئيس الوزراء حينها نتنياهو، إذا كان بإمكاني تنظيم لقاء مع عرفات ورؤساء الأجهزة الأمنية في غزة؛ للاجتماع –في وجودي– مع كل من أمنون شاحاك "قائد جيش الدفاع الإسرائيلي" وعامي، لمناقشة ما يجب القيام به لمنع ذلك، حيث وافق نتنياهو وعرفات، وفي الاجتماع شاهدت عامي كيف يتعامل بوحشية مع عرفات بسبب ما لم تفعله السلطة الفلسطينية حيال ذلك، والخطوات المحددة التي يجب اتخاذها من قِبلهم، وسَمَح عرفات لقادته بالرد على عامي، بقولهم: إن "الإسرائيليين" طلبوا من الفلسطينيين اتخاذ خطوات صعبة ولا يوجد تقدم سياسي، ورد عامي بالقول: إن دوره هو الأمن وليس السياسة، ولن يكون هناك تقدم سياسي بدون الأمن.

لم يتراجع أبداً، ولم يضلل عرفات أو من حوله، ولكنه تعلم أيضًا من هذه التجربة، وعندما انتهت فترة عمله في الشاباك سعى إلى تثقيف الرأي العام "الإسرائيلي" للقيام بمسؤولياتهم في إنهاء النضال الفلسطيني من خلال العمل على تطبيق السلام، قاده ذلك إلى العمل مع سري نسيبة حول مبادئ من أجل السلام التي يمكن أن تكتسب الدعم الشعبي بين "الإسرائيليين" والفلسطينيين.

المبادئ التي تم حصرها في صفحة واحدة، تتماشى إلى حد كبير مع معايير كلينتون التي قدمت في شهر ديسمبر 2000، كمشروع تجسير لإنهاء الصراع. فقد علمت من العديد من المفاوضين الفلسطينيين الذين حصلوا على تلك المعايير من البيت الأبيض في 22 ديسمبر 2000، أنهم يريدون قبولها، لكن عرفات لم يقبل ذلك. في العام الماضي سألني أحد المفاوضين الفلسطينيين السابقين بحزن، "هل يمكن أن نتخيل أين سنكون اليوم إذا قبل عرفات بما يريد كلينتون؟"، فقد استندت المعايير على فرضية أن كلا الجانبان يحتاجان إلى قبول بعضهم البعض، ولا إمكانية للسلام دون تلبية احتياجات كل جانب.

يتطلب السلام من كلا الجانبين التكيف مع الواقع والتخلي عن أوهامهما، كما لا يطلب السلام من أي جانب التخلي عن رواياتهم، لكنه يطلب منهم أن يقبلوا بأن الجانب الآخر له قصة تحدد تاريخه وهويته.

جاء عامي لفهم ذلك، وقام بإظهار التعاطف من أجل الفلسطينيين، لكنه لم يجد ذلك التعاطف أبداً من زملائه "الإسرائيليين"، بمن فيهم أولئك الذين يعتقدون أنه شخص بسيط وساذج ولا يعرف الغدر الفلسطيني، والذين كانوا ينتقدون بشدة جهوده لتعزيز السلام مع الفلسطينيين بعد مغادرته الشاباك.

سيرى القارئ كيف وصل عامي إلى منتقديه للاستماع إليهم، ومعرفة ما إذا كان من الممكن بناء تفاهم.

هو يتحدث إلى بينشاس وورستين، زعيم حركة المستوطنين، واتضح أنه يعتقد أن المستوطنين "الإسرائيليين" يشعرون بالكثير من القواسم المشتركة مع والديه وسكان الكيبوتس، الذي يرون أنفسهم أيضاً أنهم كمحررين لأرض "إسرائيل".

كان لديه شعور عميق بالمستوطنين الذين أُجبِروا على مغادرة قطاع غزة بعد قرار أرييل شارون بالانسحاب، ويعتقد أن "الإسرائيليين" يجب أن يرحب بهم نتيجة الصدمة التي تعرضوا لها في إجبارهم على إخلاء منازلهم ومعابدهم ومقابرهم.

لكن دور عامي ليس تعزيز السلام فقط باعتباره جيداً في حد ذاته، حتى إنه لا يحاول أن يقدم معروفاً للفلسطينيين، ويقوده التزامه "بإسرائيل"، وما يراه كحاجة للحفاظ على المُثُل الصهيونية في البناء، والحفاظ على دولة يهودية وديمقراطية، ويرى مغزى لكي تصبح "إسرائيل" دولة واحدة لشعبين، مما سيحافظ عليها كدولة ديمقراطية ولكن ليس دولة يهودية، أو دولة يهودية ليست ديمقراطية. وفي كلتا الحالتين سوف تفقد الدولة خصائصها وهويتها.

إنه على حق بخصوص مسار "إسرائيل" وآثار ذلك المسار، قد أكون (أكثر من عامي) أُحمِّل المسؤولية للقيادة الفلسطينية –عرفات أولاً والآن محمود عباس– لفشلهما في بناء مؤسسات الدولة، ورفض مقترحات السلام في: عام 2000 (معايير كلينتون)، وعام 2008 (عرض إيهود أولمرت)، وعام 2014 (مبادئ أوباما)، لكن الصحيح أن الزعماء "الإسرائيليين" بعد مقتل رابين قاموا بإضعاف القيادة الفلسطينية، ونادراً ما أخذوا مطالب الفلسطينيين في الاعتبار.

لسوء الحظ، خطة سلام ترامب، والتي شكَّل معظمها رئيس الوزراء نتنياهو، راعت الاحتياجات "الإسرائيلية" (عملياً ونفسياً)، في حين تجاهلت الاحتياجات الفلسطينية (سياسياً ومعنوياً) إلى حد كبير، فالدولة المقدمة للفلسطينيين في خطة ترامب لا تبدو دولة واحدة مترابطة. ونتيجة لذلك، فإن الفلسطينيين لم يقبلوا حل الدولتين، واعتمدوا بشكل متزايد مبدأ دولة واحدة، وتبنوا شعار له صدى عالمي: دولةٍ واحدةٍ، ذاتٍ واحدٍ، صوتٍ واحدٍ.

كتب عامي هذا الكتاب كمذكرات، محاولاً في كلماته إعادة تصوير "إسرائيل" وماضيها، على أمل أن تستطيع تشكيل مستقبل أفضل، فهو يريد من "الإسرائيليين" أن يتعلموا الدروس التي يوثقها؛ ويريدهم أن يعلموا أن الفلسطينيين شعبٌ لديهم هوية واحتياجات، كما ويريد من زملائه "الإسرائيليون" أن يقبلوا بأن الشعب الفلسطيني له الحق في تقرير مصيره على أرضه التاريخية،

كما الشعب اليهودي لديه الحق في تقرير مصيرهم في أرضهم التاريخية، وأن هذا الأمر ليس حكراً لهم وحدهم.

ولهذا السبب فهو يؤمن بحل دولتين لشعبين: "إسرائيل" كدولة للشعب اليهودي، و"فلسطين" كدولة للشعب الفلسطيني. علماً أن هناك من "الإسرائيليين" والفلسطينيين على حد سواء يرفضون هذه الرؤية.

لا أعرف متى يمكن أن تصبح رؤية عامي حقيقة واقعة، أو حتى متى ستصبح أمر واقعي، لكن هذه الرؤية كتبها "إسرائيليٌ" وطنيٌ خاض بشجاعة معارك لا توصف، حارب ولازال يحارب من أجل الدولة التي يحبها.

دينيس روس

بيثيسدا، ميريلاند

مايو 2020

التسلسل الزمني

السنـة/الفترة	الحـدث
❖ 1938	آباء الصهاينة يهاجرون من ترانسيلفانيا إلى فلسطين
❖ 1947	خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين
❖ مايو 1948	إعلان الاستقلال "الإسرائيلي"
❖ مايو 1948 – مارس 1949	حرب استقلال "إسرائيل"
❖ 1948	النكبة ، نزوح فلسطيني من "إسرائيل"
❖ 1963	انضمام عامي إلى الاسطول الثالث عشر(فلوتيلا 13)
❖ يونيو 1967	حرب الأيام الستة (النكسة)
❖ يونيو1968 –أغسطس1970	حرب الاستنزاف
❖ يوليو 1969	غارة على الجزيرة الخضراء
❖ أكتوبر 1973	حرب يوم الغفران
❖ ديسمبر1987 –سبتمبر1993	الانتفاضة الفلسطينية الأولى
❖ نوفمبر 1988	إعلان الاستقلال الفلسطيني
❖ 1992-1996	تولي عامي قيادة البحرية "الإسرائيلية"
❖ سبتمبر 1993	توقيع اتفاقية أوسلو للسلام
❖ أكتوبر 1995	اغتيال اسحق رابين
❖ 1995-1996	تولي شمعون بيرس رئاسة الحكومة
❖ 1996-2000	"عامي" مديرا للشاباك
❖ 1996-1999	أول رئاسة وزراء لبنيامين نتنياهو
❖ 1999-2001	تولي إيهود باراك رئاسة الحكومة
❖ 2000	"عامي" تقاعد من الشاباك
❖ سبتمبر2000 – فبراير2005	الانتفاضة الفلسطينية الثانية
❖ مارس 2002	مبادرة السلام العربية
❖ 2002-2007	حملة صوت الشعب
❖ 2006-2008	"عامي" سياسي، وعضو كنيست، ووزير في الحكومة
❖ 2012	حارس البوابة

تمهيد

الأمل هو أصل الأمان

قمتُ بإغلاق هاتفي الخلوي في منتصف الليل تقريبًا، الذي كان يرن بلا توقف من اتصالات أصدقاء وغرباء لإبداء آرائهم حول المقابلة التي أجريتها في وقت سابق من ذلك المساء في برنامج إخباري على القناة الثانية، حيث تخطت وأثارت غيظ أكثر من مليون مشاهد، سألني زميلٌ لي بشكل خاص وهو غاضب: "ماذا كنت تفكر بحق الجحيم؟".

من يستطيع إلقاء اللوم عليهم؟

كان ذلك في أواخر تشرين الأول (أكتوبر) 2000م، حيث كان "الإسرائيليون" يعانون من تجدد الهجمات الفلسطينية، لأنه في اليوم السابق قام حشدٌ في رام الله بقتل اثنين من جنود الاحتياط "الإسرائيلي" بقضبان معدنية وسكاكين.

لو أنني كنتُ من أحد دعاة السلام الذين يُدينُون حقنا في الدفاع عن أنفسنا وبقوة مميتة عند الضرورة، لما كان الناس يمانعون فيما قلته لأنهم لن يصغوا لكلامي، ولكن بالنسبة للمدير السابق للشين بيت، أو "الشاباك"، فإن التنسيق "الإسرائيلي" المدمج مع مكتب التحقيقات الفيدرالي والخدمة السرية، يعتبر أن التعبير عن أدنى تعاطف مع أعدائنا كان مثل البصق على البلد الذي خدمته منذ أن كنت في الثامنة عشرة من عمري في فرقة الكوماندوز البحري.

بدلاً من الاتصال بالقادة الفلسطينيين حول الطعن، خرجت بحقيقة لا تشوبها شائبة: أن "الإسرائيليون" دائماً يلقون اللوم على زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات في كل ما يحدث، لأن عرفات لم يكن بإمكانه إيقاف إراقة الدماء، وحتى لو سعى لذلك لكان شعبه قتلوه، فتجربتي داخل وخارج غرف استجواب الشاباك –مع الأصدقاء الذين دفنتهم، والأعداء الذين قتلتهم–، حطمت تصوراتي المسبقة عن الفلسطينيين، فإذا أردنا إنهاء المقاومة الفلسطينية، فلا يمكننا الاستمرار في اعتبارهم أعداء أبديين، وكنا بحاجة إلى التوقف عن تجريدهم من إنسانيتهم كحيوانات ضالَّة، لأنهم شعبٌ يرغبون بالحصول على نفس الحقوق الوطنية التي نتمتع بها، فالأشخاص الذين أعدموا الجنديين فقدوا الأمل في أن الحكومة "الإسرائيلية" ستُنهي الاحتلال وتسمح للفلسطينيين بالحرية.. واختتمت الحديث بالقول: "ولم نعطهم سببًا ولو بسيط للثقة بنا".

لطالما كنت مثل الطير الغريب والدخيل على المجتمع الذي أخدمه، وفي تلك الليلة لم أنم بسبب اتهامات الناس.

في حوالي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، خرجت مع زوجتي "بيبا" في نزهة مبكرة مع كلبينا من منزلنا في كرم ماهارال، موشاف (مجتمع تعاوني)، على المنحدرات الجنوبية لجبل الكرمل، وبعد اجتياز السياج الأمني الأبيض المشدد الذي أقامته الحكومة حول منزلنا خلال السنوات التي أمضيتها في الشاباك لمنع أي شخص من إطلاق النار عليّ، حيث اتجهنا لعناية بستان الزيتون، وسلكنا طريق غير مُعبَّد.

إذا نظرت حول موشافنا –ولسنوات كنت أغمض عيناي لفعل ذلك–، ستجد آثارًا من الماضي عند كل منعطف، فقد تم بناء الجزء الأحدث من منزلنا في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي لإيواء الناجين من المحرقة من تشيكوسلوفاكيا؛ والجزء الأقدم بكثير –المصنوع من حجر المحاجر– كان في يوم من الأيام مِلكًا لعائلةٍ عربيةٍ قامت ببنائه عندما كانت كرم محارال لا تزال قرية "إجزم" العربية المزدهرة، وهي ثاني أكبر قرية في منطقة حيفا، حيث يعيش بها الأطباء والمعلمون والمزارعون ويعتنون بالحقول التي نمتلكها الآن، فكل من كان يملك منزلاً هرب عندما استولت القوات "الإسرائيلية" على البلدة خلال حرب عام 1948.

على الجانب الأيمن من المسار الترابي يوجد منزل عربي آخر، به أشجار تنمو من شقوق في الجدران، وفي نهاية الطريق خلف الإسطبلات مباشرة، يوجد مبنى مزرعة قديمة عليها قفل لا يزال معلق على واجهة الباب الأمامي المكسور، حيث إنني أستطيع أن أتخيل شخصًا يُظهر المفتاح الصدئ لأحفاده في الضفة الغربية أو الأردن أو لبنان، وهو يروي قصتهم في ضياع فلسطين في حرب النكبة.

التاريخ موجود في كل مكان في البلد، حيث لا يمكنك حفر حفرة دون اكتشاف بعض الآثار، ثماني طبقات من الزمن تجد: الكنعانيون، "الإسرائيليون" –من فترتي الهيكل الأول والثاني–، الفرس، اليونانيون، البيزنطيون، والعرب والعثمانيون، فقد أنشأوا تجمعات سكنية في منطقتنا، ويؤدي طريق روماني من وادينا إلى قمة تل، حيث يمكنك رؤية البحر الأبيض المتوسط على بُعد عدة أميال، لكن لم يكن لدي وقت للتفكير في التاريخ القديم في ذلك الصباح.

في الحقول، عندما بدأنا في تقليم الأغصان، رن هاتفي الخلوي، أرييه روتنبرغ.. لم أكن بحاجة إلى ملف سري للشرطة بشأنه لأعرف أنه شخصية مميزة "ولُقطَة" في عالم الإعلام والإعلان في "إسرائيل"، فهو رجل ماهر في: العلامات التجارية للبنوك، واللبن الزبادي، ونجوم

موسيقى الروك، والسياسيين.. لقد كان أحد النقاد الذين ساعدوا زعيم حزب العمل إيهود باراك لهزيمة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو وحزبه الليكود في الانتخابات التي أجريت قبل ذلك بعامين.

دون أن يوضح السبب، طلب مقابلتي شخصيًا، لذلك دعوته إلى مكتبي الصغير في تل أبيب، حيث كنت أعمل كرئيس لشركة الري بالتنقيط، وهي الوظيفة التي شغلتها بعد تقاعدي من الشاباك.

بعد يومين، استقبلت روتنبرغ بمصافحة قوية.

"شكرًا على الوقت الذي قضيته في مقابلتي، سيد ايالون".

"من فضلك، ناديني عامي".

سألته عما يمكنني فعله من أجله، على افتراض أنه كان هناك ليفعل ما كان يفعله الناس لمدة يومين متتاليين، حيث تم اتهامي بالتخلي عن الحزب.

"عامي، تلك المقابلة في ليلة أخرى..." بدأ كما توقعت.. ومضى يشرح أنه كان يقوم بإخراج القمامة، سمع صرخة زوجته المريضة بمرض السرطان، "آريا، تعال، تعال! لن تصدق هذا!" فقد كانت رؤية مدير الشاباك السابق على شاشة التلفزيون صادمة بدرجة كافية.. فمنذ بداية الشاباك في الأربعينيات وحتى عام 1996، وبتردد كبير، توليت إدارة الشاباك في أعقاب مقتل إسحاق رابين، حيث كانت هوية المدير سرية، وظلت شخصية غامضة تعمل خلف الستار مع عدم الكشف عن هويته ودسائسه، متبنياً شعار كن "المدافع الذي لن يُرى". المدير السابق كان يُعرف ببساطة باسم "K" مثل بطل رواية "كافكاس" في فيلم "القلعة" ، أو "M" في أفلام جيمس بوند.. الآن المتقاعد حديثًا "المدافع" لم يكن يظهر على شاشة التلفزيون فحسب، بل كان يتكلم باسهاب أيضًا.

أريبه، الرجل المعتدل في عالم السياسة "الإسرائيلية"، قال إن فكه السفلي ارتخى للأسفل عندما سمع ما قلتُه، ثم ألقى محاضرة على من أعرفه أنا وكل "إسرائيلي"، كما وأعلن رئيس الوزراء باراك، أن التزام عرفات والفلسطينيون بالسلام كان مجرد كلام، لأنهم فعلاً أرادوا رمي اليهود في البحر، فلم يكونوا يوماً شركاء، عرفات بالباطن كان عدو عنيد، ما قلته كان –في رأيه– هراء.

كررت لأريبه ما قلته على محطة التلفزيون، أن هذا العمل "بلا شريك" كان مجرد كلام فارغ، لقد قلت نفس الشيء لرئيس الوزراء باراك، بعد القمة الفاشلة التي نظمها الرئيس كلينتون في كامب ديفيد، حيث طلب مساعدتي بصفتي مدير الشاباك السابق لترويج شعار "لا شريك" للصحافة الدولية.

"هل يريد عرفات السلام معنا من أعماق قلبه؟" سألت أرييه مخاطباً: "اذهب واسأل طبيبًا نفسيًا عما هو في داخله، لكن يمكنني أن أقول لك أن هذا (باراك) لم يحاول أبدًا أن يجد شريكًا في عرفات".

خلال محادثتنا القصيرة، لم يكن لدي وقت لأتحدث في تاريخي الشخصي، أو في الأحداث التي مررت بها على مر السنين، أثناء نشأتي في الكيبوتس، تعلمت أنه ليس فقط – نحن اليهود– شعباً نقاتل من أجل بقائنا، ونطالب بحقوق مثل أي شخص آخر، وقررنا القتال من أجل تلك الحقوق، ولكننا أيضًا كنا ثوارًا منحتنا الصهيونية الحق في توسيع مستوطناتنا إلى جميع مناطق أرض "إسرائيل"، دخلتُ الخدمة العسكرية في سن الثامنة عشرة من عمري، وكنت على استعداد للدفاع عن جماعة عمرها ثلاثة آلاف عام، لم يقدر عليها شيء، لا الرومان، ولا الفتح العربي، ولا الحروب الصليبية، ولا المحرقة.

في الاسطول الثالث عشر (فلوتيلا 13)، النسخة "الإسرائيلية" من القوات العسكرية البحرية، حيث خدمت ما يقرب من عشرين عامًا، كان المسلحون الفلسطينيون مجرد أهداف، أنظر بحذر دون أن أتراجع، كان جوهر روحي كمقاتل هو الإخلاص الثابت للحقائق كما رأيتها، كان عليّ أنا ورجالي قتل العدو، لأن العرب لن يقبلوا بمطالبنا عن طيب خاطر، إن الهدف من القتل البقاء والدفاع عن حقوقنا كمواطنين يهود في أرض "إسرائيل"، وعلى الأرجح سيكون هذا مصيرنا حتى نهاية الزمان.

كقائد للبحرية "الإسرائيلية" لمدة أربع سنوات، بقيت آرائي كما هي.

خلال الفترة التي أمضيتها في الشابك، فإن هذه الطريقة في رؤية العالم بمجموعة جديدة من الحقائق –في الكوماندوز البحري ولاحقًا في البحرية–، حيث علمت أن حواسنا الخمس على الأغلب تكون غير قادرة على اكتشاف ما هو خلف المظهر الخارجي، وللقيام بذلك نحتاج إلى مجموعة مختلفة من أجهزة الاستشعار: في حالة حرب الغواصات، مثل جهاز السونار –وهو جهاز في السفينة–، ولكن بصفتي مدير الشاباك فإن محاربة الإرهاب تطلبت تطوير أجهزة استشعار جعلتني أُبعد من تفكيري المعتاد بيننا وبينهم، ولمعالجة الأسباب الجذرية للانتفاضة الفلسطينية، استخدمت التعاطف والتفاهم وسحبت رأسي من الرمال –أياً كان ما تسميه–، كان على أولاً محاولة فهم المقاومين الفلسطينيين، وأيضاً فهم أسرهم وجيرانهم وأصدقائهم، وكان عليّ أن أحسب نفسيات ومشاعر الفلسطينيين، وغضبهم عند شعورهم بالإذلال في حياتهم.

لقد غيرت من أفكاري عند النظر للفلسطينيين كشعب، لم أعد أراهم مجرد أهداف، ولكن بدلاً من ذلك، كنت أرى أشخاصًا لديهم أحلام تم إحباطها في الغالب بسبب تصميم "الإسرائيليين"

على تحقيق أحلامنا فقط، لقد تنبهت من خلال النظر إلى الفلسطينيين أنهم بشر لهم حقوق، ووجدت عيب أساسي في سياستنا للحصول على الأمن، فغياب التعاطف أفسد قدرتنا على تقييم المخاطر والفرص، وأصبحنا نبالغ في رد الفعل بسبب الخوف.

كان عملي ضد النضال الإسلامي الفلسطيني سري للغاية، لدرجة أنني لم أستطع إعطاء أرييه تفاصيل حول العمل مع عرفات وكبار رجال الأمن، الرجال الذين كنت سأطلق النار عليهم يوماً ما بغمضة عين، وبدلاً من ذلك وجدت نفسي أقول الحقيقة البسيطة: الفلسطينيون كانوا شركائي، ويمكنهم أن يكونوا شركاء "لإسرائيل" في المستقبل.. لم يكن لدي أدنى شك في ذلك، فالسياسيون والصحفيون وعامة الناس الذين يجلسون أمام التلفزيون بعد وجبة الطعام الرئيسية، ربما يمكن أن يستوعبوا سبب تقسيم العالم إلى مجموعات من الأصدقاء ومن الخصوم؛ ومن مثلنا على الخط الأمامي لا يمكنهم فعل ذلك.. أخبرت أرييه أنني أستطيع أن أثبت بدقة حسابية –تقريبًا– أنه عندما تقوم "إسرائيل" بتنفيذ عمليات ضد الفلسطينيين في سياق سياسي فاشل، فإن الجمهور الفلسطيني سيدعم المقاومة، لأنه ليس لديهم ما يخسرونه.

قال أرييه: "سأصدقك عندما أسمع قادة فلسطينيين يؤكدون علنا على حق "إسرائيل" في الوجود كدولة، إذا فعلوا ذلك؛ فسأساعدك بكل سرور في إقناع الجمهور "الإسرائيلي" بأن لدينا شركاء من أجل السلام".

رددت: "سأفعل ذلك".

أخبرته أنني سأجعل من مهامي، البحث عن قادة فلسطينيين، مستعدين للقيام بذلك بالضبط.

قادني وعدي لأرييه –إلى جانب الانحدار السريع للأراضي المقدسة في سلسلة حمام دم، للسفر إلى لندن في العام التالي (2001م)؛ للمشاركة في حلقة نقاش بين "الإسرائيليين" والفلسطينيين البارزين حول المذابح المتبادلة والمستمرة، التي كانت دون جدوى لسنوات؛ للحيلولة منها.

توني بلير

بمباركة من رئيس الوزراء توني بلير، استضافت وزارة الخارجية البريطانية بشكل رسمي اجتماع نظمته السيدة/ ماري كالدور –أستاذة الاقتصاد في كلية لندن–، التقينا في يوم ممطر في مبنى وزارة الخارجية وبرلمان المملكة المتحدة في وايتهول، وأثناء صعودي الدرجات الحجرية من شارع الملك تشارلز، أعجبت بالتماثيل والتحف الفنية التي تمثل آلهة الفن والقانون والتجارة. من المضحك، أثناء إغلاق مظلتي ظننت أن *النحات ترك آريس إله الحرب*.

داخل الصرح الحجري المهيب، الذي تم تشييده لإدارة أكبر إمبراطورية في العالم، واصلت صعود الدرج الرخامي الضخم، ثم نزلت الممر إلى غرفة مبطنة بألواح من خشب البلوط المصقول، فخلال الحرب العالمية الثانية، قام مخترقو الشيفرات بعملهم داخل هذه الغرفة، حيث أن هذا المكان جيداً –مثل أي مكان مخصص– لفك شيفرة انفجار العنف في "إسرائيل" والأراضي الفلسطينية.

د. خليل الشقاقي

من بين الفلسطينيين المدعوين إلى المحادثات، تعرفت على ثلاثة منهم، أحدهم كان الخبير خليل الشقاقي، كنت أعرف عائلته جيدًا، فهو شقيق القائد فتحي الشقاقي الذي اغتيل لدوره كمؤسس لحركة "الجهاد الإسلامي".

في الشاباك، قمت بدراسة علمية لاستطلاعات الرأي التي أجراها الخبير خليل؛ لأنها شرحت طريقة تفكير الفلسطينيين العاديين بطريقة لا يستطيع أن يفعلها أي سجين معصوب العينين في زنزانة.

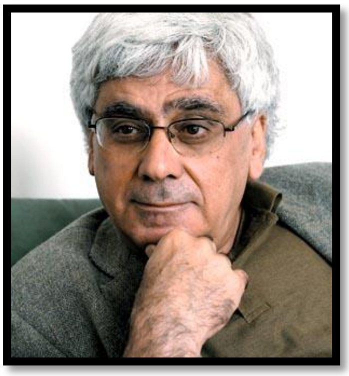

أ.د. سري نسيبة

مشارك آخر مألوف لدي، هو أستاذ الفلسفة سري نسيبة، رئيس جامعة القدس في القدس الشرقية، والرجل الأول لعرفات في مدينة القدس.

د. إياد السرَّاج

وأخيرًا، رجل درست عمله خلال أيامي في الشاباك، الدكتور إياد السراج، وهو طبيب نفسي فلسطيني، كان بالنسبة لي جهاز استشعار مفيد لكشف وتفسير المكون النفسي لعقل المقاومين.. وُلد د. إياد السراج في مدينة بئر السبع عام 1944م، وقبل عام من مجيئي إلى العالم، نزح السراج مع عائلته إلى غزة في عام 1948 عام النكبة.. وفي عام 2001 كان السراج رئيسًا للهيئة الفلسطينية المستقلة لحقوق المواطنين، وهي منظمة رقابية في غزة، وبصفته طبيبًا نفسيًا، عمل مع الأطفال الذين يعانون من ضغوط نفسية بسبب الصدمة التي مروا بها جرَّاء اعتقال آبائهم أو أفراد الأسرة أو قتلهم أو تشويه سمعة العائلة من قبل "إسرائيل"، فقد قرأت في منشوراته الواسعة حول هذا الموضوع، أن الأطفال الذين تعرضوا للضرب من قبل جنود الاحتلال، كانوا يقومون بأعمال جهادية ونضالية عندما

يكبرون.. وهنا نذكر ما دوَّنه الشاعر/ دبليو إتش أودن، بشكل مشهور في قصيدة بمناسبة اندلاع الحرب العالمية الثانية:

نعلم أنا والجمهور

ما يتعلمه كل تلاميذ المدارس

أولئك الذين يرتكبون الشرور

سيتلقون الشر في المقابل

أيضًا، فالسيرة الذاتية للسراج تتضمن الوقت الذي أمضاه في سجن غزة؛ لأنه كتب علنًا ضد نظام عرفات والسلطة الفلسطينية.

بشكل مدهش، كانت الجلسة الأولى تخلو من الحقد، كان لروعة مبنى برلمان المملكة المتحدة المكسو بالسجاد الناعم تأثير مهدئ، خلال الاستراحة توجهت إلى طاولة مليئة بالمرطبات، عندما كنت أقوم بتقليب القشدة في القهوة الإنجليزية، لاحظت من زاوية عيني –التي قد تدربت على التقاط مثل هذه الأشياء–، أن الدكتور السراج كان يحدق في وجهي من خلال نظارات ذات إطار فولاذي، استدرت نحوه، فقال، "مرحباً عامي، كيف حالك؟"

أعجبني عندما ناداني باسمي الأول.

وقفنا للحظة نقيِّم بعضنا البعض، كان يرتدي بدلة زرقاء أنيقة، ومظهره يشبه النظام الأرستقراطي، فعلى الرغم من أنه لم يحن وقت الظهيرة بعد، إلا أنه كان يرتدي عند الساعة الخامسة، قميصًا أبيضاً ناصعًا، وبنظرة خاطفة خلف الزر العلوي المفكوك لأزرار قميصه، والذي كان عبارة عن شريط أزرق يناسب بدلته.

بينما أنا كنت أرتدي قميصًا وجاكيت، كانت زوجتي بيبا قد وضبتها لي حينما غادرت من الكيبوتس الاجتماعي الرأسمالي الذي نشأت به.

عندما أمسكت بيده، وأمسكت بها بقوة، فاجأني الحنان في عينيه البنيتين اللامعتين، لا أستطيع إلا أن أتخيل ما كان يفكر فيه في تلك اللحظة في المخيلة الشعبية الفلسطينية، أن رأس الشاباك هو مثل جلاد كاسر عظام وشرير لا يرحم.

قلت: "من الجيد أن ألتقي بك في النهاية".

قال بنصف ابتسامة، مثل رجل ينصب كمينًا: "وبالمثل، على الرغم من أنني لن أخفي خيبة أملي معك".

قلت: "ولم ذلك؟" تناولت رشفة أخرى من القهوة السيئة.

قال: "لماذا، لعدم تهنئتنا؟ هذه ليست روحاً رياضية جيدة بالنسبة لك".. بدت لغته الإنجليزية وكأنه تعلمها من موقع BBC أو مسرح Masterpiece، سكب الدكتور السراج لنفسه فنجان قهوة، ونفخ عليه قليلاً، وبيده الأخرى نفض منديلًا كان مطويًا بدقة؛ لمسح العرق الذي تشكل على جبهته منذ أن اقتربت منه.

قلت: "يسعدني أن أهنئك يا صديقي، فقط أخبرني على ماذا".

رد السراج: "لماذا، على هزيمتك!"

"أنت تهزمنا؟" رددت متلعثماً، لا أُصدق.. في تلك المرحلة فيما يُعرف آنذاك بالانتفاضة الثانية، كانت نسبة الشهداء الفلسطينيين إلى القتلى "الإسرائيليين" في حدود مائة إلى واحد، كنا نقتلهم بالعشرات.

وتابع السراج: " نحن في الواقع، إلى جانب النصر أخيرًا"، قالها بِنَفْس الوجه اللطيف، والعرق لا يزال يتلألأ على جبهته.. "ماذا تسميها رجال الجيش؟ أوه نعم، لقد حققنا توازن قوة، والنتيجة فإن العمليات الاستشهادية لحركة حماس أبطلت مفعول طائرات (F16) الخاصة بك، فبمثل هذا العمل المشرِّف، نحن نستمتع بانتصارنا".

لا شيء يلهب مشاعري أكثر من الإشادة بالمقاومة الفلسطينية، دفعت إصبعي على صدره قائلاً: "دكتور السراج، دعني أذكرك بأننا قتلنا المئات من شعبك في الأسابيع القليلة الماضية فقط".. اعتقدت ببساطة أن هذه الحقيقة يمكن أن تمسح النظرة المرحة عن وجهه.. وأكملت: "الأسوأ أنك على وشك أن تفقد ما يسمى بالتحرير لديك.. لقد ناضلتم لعقود من أجل الحصول على حريتكم، ثم ماذا؟ شهداء ومقابر؟ هل تسمي ذلك نصر؟"

تحرك إلى الوراء بخطوتين أو ثلاث خطوات، كما لو كان يتوقع مني أن أرش القهوة في وجهه، أمسك بقطعة من الكعك وأخذ لقمة سريعة.. قائلاً: "نعم، هذا بالضبط ما أقوله".

كلمته الأخيرة أساءت إلى كبريائي المهني: "بعد كل هذا الوقت، لا زلت لا تفهمنا، أليس كذلك؟" اتسعت عيناه وقال: "نعيش في رعب منذ عام 1967، وأن يعيش شعبينا الآن في خوف بحد ذاته هو انتصار لنا".

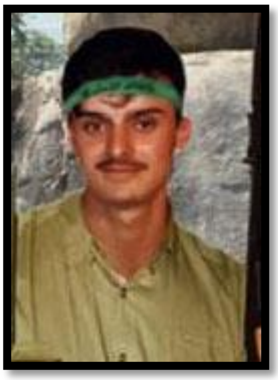

الشهيد/ سعيد الحوتري

تحولت أفكاري متذكراً هجوم حماس الأخير، الشهيد سعيد الحوتري، البالغ من العمر 22 عامًا، وهو مسلم متدين وعاشق للكاراتيه، غادر بلدة قلقيلية بالضفة الغربية متنكراً في زي يهودي أرثوذكسي مرتدياً قفطان.. لم ينتبه له أحد عندما استقل حافلة متجهة إلى تل أبيب.. كان هدفه هو ملهى الدلافين "دولفناريوم"، وهو ملهى ليلي على شاطئ البحر يرتاده المراهقون اليهود الروس.. الفتيات الصغيرات الواقفات في الصف خارج الملهى صرفوا النظر عن سعيد باعتباره شخصًا متدينًا يدق على صدره مثل موسى الغاضب ويتجول بلغة عبرية سيئة وكأن شيئًا ما سيحدث، لم يشك أحداً أنه كان يرتدي وراء زيه سترة ناسفة محشوة بإحكام بمئات الكرات التي تشبه الرصاص.

أسفر الانفجار الذي أعقب ذلك عن مقتل 14 شابًا صهيونياً، وبعد العملية البطولية، قام جيران سعيد في قلقيلية بترتيب الزهور على شكل قلب وسترة ناسفة تكريماً له.. وأقسم الأطفال الفلسطينيون على اللحاق به شهداء إلى الجنة.

قال السراج وهو يعدل نظارته: "من خلال تجربتنا المشتركة من الأذى الجماعي، نحن أخيرًا متساوون".

عادت تلك الابتسامة الهزلية إلى وجهه تدريجياً، بنفس السرعة التي تضغط بها على الزناد.. أفتخرت بنفسي لعودتي السريعة، لكن الكلمات خذلتني.. كل ما تمكنت من القيام به هو البصق عليه، وقلت له: "اذهب إلى الجحيم، دكتور!"

كنت أرفع رقبتي في التلفزيون "الإسرائيلي" وأُصر على أن الشعب الفلسطيني ليس أعداءنا، وهنا يأتي هذا الرجل الذي طالما احترمته وهو يبرر هذا النوع من القتل الجماعي، الذي قضيته طوال حياتي في القتال، كان ما أردت قوله "عليك اللعنة".

"كما يحلو لك يا عامي".. قالها بإيماءة مهذبة من رأسه، تناول بقية المعجنات وعاد إلى مائدته.

عاد معدل ضربات قلبي إلى طبيعته ببطء بينما كنت أعود إلى طاولتي للتحضير لحلقة النقاش التالية.. من مقعدي، لاحظت أن الطبيب يراقبني، وتعبيره لم يتغير، وشفتيه مضغوطة بإحكام، كما لو كان قد وضع شيئًا في قهوتي، منتظراً انهياري على السجادة.

تعقدت معدتي، وهرشت على النسيج الندبي[1] في رقبتي، الذي يذكرني بتاريخي مع الصراع المسلح.

ماذا يقصد الشيطان بالنصر؟ من الناحية العسكرية البحتة كانت هيمنتنا ساحقة.. بكلمة واحدة من وزير الجيش، يمكن لطيارينا المقاتلين أن يسحقوا غزة.

ومع ذلك، كلما فكرت في الأمر أكثر، كان على الاعتراف أكثر، بأننا نحن "الإسرائيليين" لم نشعر أبدًا بالنصر.. كيف يمكننا أن نطلق على أنفسنا الفائزين إذا كنا نخشى ركوب الحافلة أو الجلوس في حانة؟ لا أستطيع أن أحدد الوقت الذي بقيت فيه ضائعاً من التفكير، لكن في تلك الفترة الفاصلة، انهارت كل افتراضاتي عن الحرب.. ففي نظرية الحرب الكلاسيكية، من المفترض أن تجبر القوة الهائلة قيادة العدو على الخضوع لإرادة المنتصر، لكن كان العكس هنا.. كلما استخدمنا تفوقنا العسكري الهائل لقصف السكان الفلسطينيين، زادت قوة حماس.. كان الاختلاف في المعضلة القديمة المتمثلة في كسب كل معركة، ولكن خسارة الحرب. لقد أصبحنا نحن "الإسرائيليين" مثل مواجهة المصريين القدماء لأسلافنا التوراتيين في سفر الخروج: "كلما أصابهم أكثر، زاد عددهم وانتشروا في الخارج".. من سخرية الحياة أنها لم تفتني فلقد طغت علي حقيقةً.

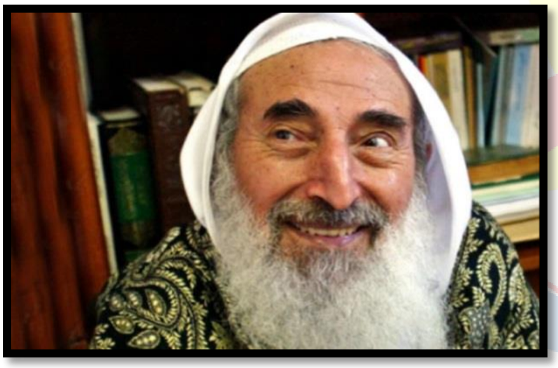
الشيخ/ أحمد ياسين

شيئًا ما قاله مؤسس حركة حماس، الشيخ أحمد ياسين، لأتباعه قبل أن نقوم باغتياله همس بنبرة عالية من على كرسيه المتحرك: "اليهود أغبياء. يعتقدون أن بقنابلهم الذرية يمكنهم هزيمة الإسلام .. لا .. فإن الصبر والإيمان يقودونا الى النصر". جهاز الأمن "الإسرائيلي" الهائل والمتطور المتمثل في: –الجيش "الإسرائيلي"، والموساد، والشاباك– هؤلاء منا، اعتقدوا أنهم كانوا دائمًا متقدمين بخطوة على أعدائنا الإسلاميين. لكنهم كانوا يراقبوننا عن كثب، ولم نلاحظ ذلك. لم يتوقع قادة المقاومة في حماس أن يهزمونا عسكريًا.. فمن خلال الخوف أرادوا منا أن نبالغ في استخدام الدبابات والطائرات المقاتلة التي تبلغ تكلفتها مائة مليون دولار. لقد أرادوا إفلاس خزائننا ومُثُلنا الديمقراطية.. الأهم من ذلك كله، أنهم أرادوا أن يُظهِروا لنا أنهم لن يستسلموا أبدًا، وأن نُثبِت

(1) النسيج الندبي: عندما يصاب الشخص بإصابة، يستجيب الجسم عن طريق إصلاح الأنسجة التالفة، مما ينتج عنه نسيج ندبي.. وهي عبارة عن مجموعة من الخلايا والكولاجين الذي يغطي مكان الإصابة.

للشعب الفلسطيني، وللناس في جميع أنحاء العالم، أن "الإسرائيليين" لا يمكن أن يكونوا شركاء لهم أبدًا – وقد وقعنا في ذلك.

الآن فهمت وجهة نظر الطبيب المحب للسلام والذي يكره العنف.. لقد انتصر الإسلاميون لأن معظم "الإسرائيليين" ولغوا في دماء الفلسطينيين.. كانوا يربحون لأنه في كل مرة تبكي فيها أم فلسطينية ثكلى على شبكة CNN، كانت تُضعف مكانتنا أكثر ما نحن فيه، الثقة في أننا يمكن أن ننتصر في الحرب على المقاومة دون الإخلال بقيمنا.. لقد كانوا يربحون لأن الجميع، من رئيس الوزراء إلى سائق التاكسي والمدير التنفيذي للإعلان، كرروا الشعار "لا شريك".. لقد أدركت فجأة أن هذا النهج الأيديولوجي –نحن مقابل هم– كان التهديد الأكثر فتكًا لأمن "إسرائيل"، وبقائنا كدولة يهودية ديمقراطية، لأنه لم يُترَك للفلسطينيين ما يخسرونه.

لذلك، لم يعد سؤالنا الأمني الأكثر إلحاحًا عسكريًا بحتاً.. فقد كانت أفضل طريقة لتعزيز الأمل بين الفلسطينيين.

كان أمننا مرهونًا بملايين الفلسطينيين، القاطنين في مدنهم الآيلة للسقوط ومخيماتهم البائسة، والذين يعتقدون أنهم قد يتحررون من هيمنتنا قريبًا.. الأمل، الأمل الفلسطيني، كان أساسياً لأمن "إسرائيل".. وهذا فقط عندما يعتقد الفلسطينيون أن العملية السياسية ستؤدي إلى إنهاء الاحتلال والتمييز العنصري، وإقامة دولتهم إلى جانب "إسرائيل"، فإنهم سيتوقفون عن دعم المقاومة.. استرجع عقلي التعهد الذي أعطيته لأربيه، وقلت لنفسي: *أريد أن أجد شريكًا.. هنا.. والآن.*

عدت إلى طاولة النقاش واقترحت على البرفسور "كالدور" إلغاء المناقشة المخطط لها، وبدلاً من ذلك، البحث عن معنى النصر في الشرق الأوسط الحديث.. تاركًا كل الذرائع، بدأنا بالصراخ على بعضنا البعض كما لو كنا نتجادل في سوق.. في جزء من النقاش الصاخب، رسمت بهدوء على منديل عدة نقاط، إذا وافقت عليها جميع الأطراف، اعتقد أنها يمكن أن تمنح "الإسرائيليين" أمنًا مستدامًا وتوفر الأمل للفلسطينيين.

عندما كان هناك مجال، رفعت المنديل وقرأت قائمة النقاط.. ثم سألت: مَن مِن بين زملائي "الإسرائيليين" أو الفلسطينيين الذين سيكونون على استعداد لدعم وثيقة تستند إلى المبادئ التي حددتها للتو.. ساد صمت محرج، ومعظم زملائي من أعضاء اللجنة تجنبوا النظر إليّ، باستثناء واحد. رفع الفيلسوف ساري نسيبة يده.

في النهاية، أطلقنا أنا وساري حركة سلام تستند إلى الملاحظات التي كتبتها على المنديل.. وبحلول عام 2004، وقَّع أكثر من 450,000 "إسرائيلي" وفلسطيني على خطتنا

لإنهاء الاحتلال وإقامة دولة فلسطينية على الأراضي التوراتية القديمة التي نسميها يهودا والسامرة.

جاءت فكرة هذا الكتاب بعد ذلك بخمس سنوات، بعد أن طلب مني ناشر "إسرائيلي" كتابة مذكراتي.. أردت أن أقول الحقيقة، وأن أكتب بصراحة عن مشاركتي الشخصية في محاربة المقاومة الفلسطينية –معاركُ حثت، ورجالٌ قُتلت، وأصدقاءٌ دُفنت، وهجماتٌ أُحبِطَت– وأن أقوم بعرض رأيي في الحرب من خلال التمجيد والإشادة بأهمية الأمل.

لكن مرت سنوات دون أن أكتب كلمة واحدة.. نرجع إلى الماضي، كان المفروض الحصول على الأفضل.. حتى عام 2013، وهو نفس العام الذي توفي فيه الدكتور السراج بسبب السرطان، ولكنني لا زلت لم أكتسب فهم شيئين أساسيين: ذاتي وبلدي.

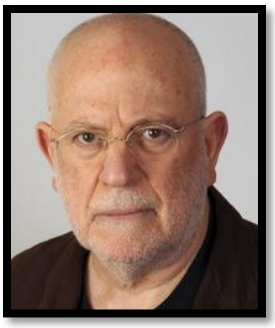

الكاتب الإسرائيلي/ حاييم غانس

في عام 2013، كتاب في الفلسفة نقض آرائي عن نفسي وعن بلدي للأبد، *"نظرية سياسية للشعب اليهودي"* من تأليف أستاذ القانون في جامعة تل أبيب حاييم غانس.. ترجم غانس قصة حياتي في إطار نظري تعبيري.. فنحن "الإسرائيليين" كأفراد مواطنو الدولة الناشئة، متفائلون ولدينا القدرة على اتخاذ المواقف.. لكن سياسة أجسامنا – عاداتنا الانتخابية وتكتيكاتنا العسكرية وإحساسنا بمكاننا في العالم– يهيمن عليها الخوف.

من الصفحات الافتتاحية لكتابه، أجبرني غانس على تغيير أدوات الاستجواب بداخلي. فبعد طول انتظار بدأت أفهم نفسي، وأن أفهم البلد الذي خدمته طوال حياتي.. إن مصدر التشاؤم "الإسرائيلي" ليس العداء الفلسطيني.. لقد جاء العداء منا، أو بشكل أدق، من القصص الصهيونية المعيبة التي نرويها لأنفسنا عن الماضي.

وضعتني قراءة كتاب غانس في رحلة داخلية مؤلمة، واستجواب قاسي للعقود السابقة من الماضي، وفحص واضح لمعتقداتي الأساسية وهوية بلدي.. في الوقت نفسه، أيقظني كتابه على الحاجة إلى تغيير الرواية الصهيونية التي نشأت عليها، والبحث عن بديل آخر، طريقة لرؤية الماضي يمكن أن يُعيد إيماننا بالمستقبل وربما يُنقذ "إسرائيل" باعتبارها دولة يهودية وديمقراطية.

أنا لا أدَّعي التفوق في الذكاء أو الأخلاق.. ولست مؤرخًا ولا باحثًا، ولا أشعر بالذنب تجاه الأشخاص الذين قتلتهم.. كما أنني لا أؤمن بالمدينة الفاضلة.. وبغض النظر عما نفعله، فإن النضال الفلسطيني، مثل الحوادث غير الطبيعية، سيستمر في إضعاف مجتمعنا والديمقراطيات الأخرى على النمط الغربي.. وهنا نقتبس من كتاب (*فائدة القوة*) للجنرال البريطاني

روبرت سميث عام 2007: "الحرب لم تعد موجودة.. المواجهة والصراع والقتال موجودة بلا شك في جميع أنحاء العالم".. فالحرب اليوم هي "حرب بين السكان".. وللفوز بهذا الصنف من الحرب، فإن صواريخنا تضر أكثر مما تنفع، لأنها تُلحق أضرارًا جانبية كبيرة، لدرجة أن شعوباً بأكملها تفر إلى أحضان أعدائنا، كما إن قتل قادة المقاومة الفلسطينية دون معالجة يأس مؤيديهم وتحسين وضعهم، هو مهمة حمقاء وتُنتِج المزيد من الإحباط واليأس، والمزيد من الفوضى والعنف.

وكلما "انتصرنا" في مثل هذه الحرب غير الشرعية، كلما قللنا من المجتمع المدني والأعراف الديمقراطية، وزاد تحويل مجتمعنا إلى ما يُعرف بحدة البصر الأورويلي[1]، حيث لا يمكننا التمييز بين الحقيقة والأكاذيب.. كما إنني لا أحاول إلقاء اللوم على الآخرين في المجتمع "الإسرائيلي"، كما يفعل مستوطنو الضفة الغربية الذين يزعمون بالحق الذي منحه الله لليهود "بإسرائيل" الكبرى.. إذا أصبحت "إسرائيل" كذلك، فلن يكون ذلك بفضل حفنة من اللاهوتيين المسلحين الذين جرونا إلى الماضي الكئيب.. وستقودنا الغالبية العلمانية إلى هناك بدافع الخوف وإجبارنا على الصمت.

من خلال هذا الكتاب، آمل أن أُبيِّن أن العمل الديمقراطي لا يمكنه الانتصار على العنف، إلا من خلال تبني القيم الإنسانية التي تقوم عليها مجتمعاتنا كسيفنا ودرعنا، إن القومية الفجة غير الناضجة، واللجوء إلى الأكاذيب ونشر المعلومات والاشاعات، وإثارة الخوف، وما أسميه "الاستبداد التدريجي" الذي ابتليت به الديمقراطيات الحديثة على نحو متزايد، لن يهزم العنف.. فقط بالقيم الليبرالية للتعددية والمساواة يمكننا أن تهزم العنف، ونأمل أن تفعل ذلك.

---

(1) الأورويلي: هي عبارة عن صفة تصف موقفًا أو فكرة أو حالة اجتماعية حددها جورج أورويل على أنها مهلكة لرفاهية المجتمع الحر.

الفصل الأول:

هالوزيم[1] – "تحرير" أرض "إسرائيل"

بعد وقت قصير من إطلاقنا أنا وساري صوت الشعب، أراد السناتور الأمريكي السابق جورج ميتشل، –المعروف بدوره في اتفاقية "الجمعة العظيمة" التي أنهت عقودًا من الصراع الأهلي في إيرلندا الشمالية–، عقد مناقشة عادلة بيني وبين ساري في الحرم الجامعي لكلية ماكاليستر في سانت بول، مينيسوتا، ولملء القاعة؛ قام أهل الخير في ماكالستر بالإعلان أن اللقاء هو "قمة سلام في الشرق الأوسط".

بدأ السيناتور ميتشل الأمسية بدعوة ساري إلى المنصة؛ ليشارك ببضع كلمات عن نفسه وعن إرث عائلته في القدس، وهو سلسلة متواصلة من العلماء والقضاة والتجار والأئمة يعودون إلى أيام الصحابي الجليل عمر بن الخطاب في القرن السابع الميلادي.. فقد شارك ساري بعض الحقائق السامية – على سبيل المثال: تمتلك عائلته المسلمة حتى يومنا هذا واحدة من مجموعات المفاتيح القليلة لكنيسة القيامة، وهو المكان الأكثر قداسة في العالم المسيحي– وقصص الخسارة: مثل فقدان والده لإحدى ساقيه بنيران القناصة خلال حرب النكبة "الاستقلال الإسرائيلية" عام 1948، عندما أشار السيناتور ميتشل إلى أن دوري قد حان لأقف وأتحدث، شعرت بنفسي في مأزق.

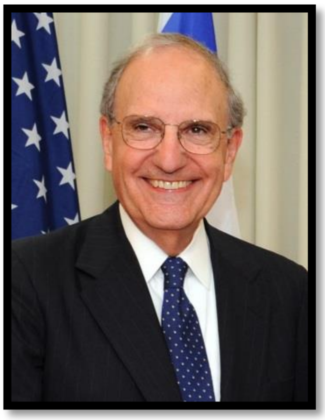

السيناتور/ جورج ميتشل

بالطبع، فإن للشعب اليهودي تاريخٌ مجيد، لكن جيل والدي كان من الصهاينة الذين عملوا من أجل إعادة بناء دولة مضى على اندثارها أكثر من ألفي سنة، فاختاروا رواية بناء الدولة التي ظهرت إثر ثورة بار كوخبا عام 132 ميلادية إلى هرتزل، ومن معارك المكابيين ضد الإغريق إلى أبطال تل حاي في عام 1920.

---

(1) هالوزيم: وهم اليهود الذين توافدوا على فلسطين للمساعدة في بناء الوطن القومي اليهودي، وهو توفير مكان للراحة لـ "قبيلة التائه والصدر المتعب" في أرض آبائهم القديمة. تتشكل جمعيات "هالوزيم" في جميع المراكز اليهودية الكبيرة في أوروبا الشرقية، وهم يستعدون لعملهم في فلسطين بتدريب شديد في كل نوع من العمل اليدوي.. "هالوزيم" كلمة جديدة أضيفت إلى مفردات اليهود في جميع أنحاء العالم.

في المدرسة، يتم تعليم اليهود "الإسرائيليين"، وتعريفهم على الأنبياء والمحاربين من الكتاب المقدس، وكذلك التعرف على الأبطال العسكريين، ومقاتلي حرب العصابات، وثوار العصور القديمة.

في التاريخ القديم الراسخ في أذهاننا، لم نتحدث أبدًا عن الحياة اليهودية في الشتات.. لقد نشأْتُ على اعتقاد أن يهود أوروبا خرجوا من المنفى لاستعادة هوياتنا القديمة، التي كانت مجمدة مع مرور الوقت، مثل الماموث الصوفي[1] في السهل السيبيري الأجرد.

رأينا أنفسنا عبرانيين لا يهودًا، كنا نتكلم العبرية، وليس اليديشية[2]، وتجاهلنا العرب الذين عاشوا على أرضنا ذات مرة، وكانت جرافاتنا تحرص على عدم وجود شيء لرؤيته.

لم يكن والداي من الأراضي المقدسة، بل من بلدة في وسط رومانيا اسمها "ترانسيلفانيا"، فلم يحدثاني عن طفولتهما.. وفي كيبوتس معجان، على الشاطئ الجنوبي لبحيرة طبرية –أكبر بحيرة للمياه العذبة على وجه الأرض–، كان نادراً ما يتم ذكر "الهولوكوست" أكبر جريمة في التاريخ، وعندما كُنتُ في العاشرة من عمري علمت أن والدي، واسمه (أباه Abba)، فقَدَ شقيقه الأصغر، وفَقَدَ أخته وزوجها في الهولوكوست.. وقد نجا والداه (جَدِّي وجَدَّتي) وشقيقه الأكبر (عمِّي) ولا يزالان على قيد الحياة، ولكني لم ألتقي بهم، وعندما وصلوا إلى أرض "إسرائيل" غيّر أبي وأمي اسم عائلتهما من هيرش إلى أيالون وتجاهلا شجرة العائلة.

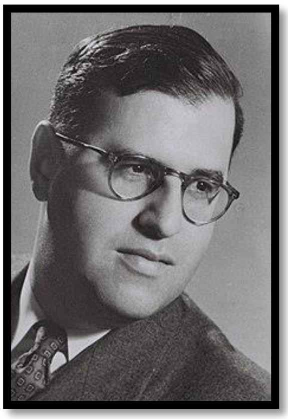

Abba Eban

أصبح "أباه" (Abba) المتحدث باسم الكيبوتس، ومديرًا للأعمال، ومشرفًا على مزارع الموز، فهو رجلٌ ذو نقاء أيديولوجي لا ينضب، وطاقة محمومة، ويتحدث دائمًا عن المستقبل الذي سنبنيه بأيدينا.. لقد دفن الماضي من أجل بناء المستقبل.

تلاشت الأجواء الودية في قاعة كلية ماكاليستر بالنسبة لي عندما اقتربت من المنصة بشكل محرج، ثم رفعت راحتي الفارغة، وقلت لتجمع الناس، "ليس لديَّ ماضي.. أعتقد أنني لم أفكر أبدًا في الأمر كثيرًا لأنني نتاج تمرد على الماضي".

لتحقيق أحلامنا في استرداد وتجديد أرض "إسرائيل"، كنا بحاجة إلى محاريث وعمال وخلاطات إسمنت وجنود، وليس دموع المؤرخين اليهود المشتتون في العالم.. فما الهدف من إحياء ذكرى نرغب في نسيانها بشدة؟

---

(1) الماموث الصوفي: هو نوع من الفيلة الضخمة المنقرضة.

(2) لهجة من اللهجات الألمانية.

حتى بعد أن أدركت مدى الألم في الكلمات وعدم الخوض بها.. وعندما قرأت وفكرت في نظرية البروفيسور جانز السياسية للشعب اليهودي، فإنني لم أفهم مغزى ذلك وتناولته على محمل الجد لعقود.

نعود للحدث الذي أقيم في ماكاليستر، حيث اتفقت أنا وساري على تجنب مناقشات الماضي وتركيز مبادرتنا على بناء مستقبل أفضل، لذلك ركزنا بقية المساء على عمل منظمة السلام الخاصة بنا، "صوت الناس". وعندما توفيت والدتي بعد عامين، في عام 2005، خسرت فرصة سؤالها عن حياتها في أوروبا. عند هذه النقطة فقط بدأ شك زاحف ينمو في وعيي بأننا –نحن "الإسرائيليين"– كنا مرعوبين من الماضي، الذي كنا ندَّعي بإصرار ونتظاهر أنه لا يهم.

بعد جنازة والدتي، قررت ألا أفقد قصص ومذكرات والدي أيضًا، فأعطيته دفترًا سميكًا لولبيًا، وهو من النوع اللطيف الذي يستخدمه الأطفال في المدرسة، وطلبت منه أن يكتب قصصه ومذكراته؛ وأن يكتبها من أجلي ومن أجل أولادي وأحفادي، فقد كنت أرغب في أن أفهم وأتعرف على والدي بشكل أفضل، أخذ (آبا) دفتر الملاحظات لكنه لم يكتب أي شيء مبشر بالخير.

حتى أن ذلك الأمر لم يتم إلا بعد مرور عامين عندما زرته –وكنتُ لا أزال أعيش في كيبوتس معجان– بعدها علمت أنه أخذ طلبي على محمل الجد.

كان ينتظرني على شرفة الكوخ المكون من غرفتين الذي كان يعيش به مع والدتي لمدة نصف قرن، وهو نوع من الأكواخ الخرسانية المتطابقة التي أُقيمت بالآلاف في السنوات الأولى لدولة "إسرائيل"، كانت السترة الصوفية التي يرتديها وسترته على شكل حرف V أفشت سر جذوره المركزية الأوروبية، كما أن لهجته المجرية الخفيفة فعلت ذلك.

كانت هذه من المحادثات النموذجية الأكثر تميزًا والتي لم نقولها من قبل.

"ما شلومخا؟" أنا سألت.. "هل ما زال قلبك يسبب لك المتاعب؟"

أجاب: "يقولون إنها قد تمطر هذا الأسبوع"، ووجه انتباهه إلى بضع غيوم قادمة من الشرق ، كما لو أن قوة الإرادة وحدها يمكن أن تستحضر عاصفة من البحر الأبيض المتوسط.

"لذلك أنا قد سمعت."

أشعل سيجارة، –فقد كان مدمنًا على التدخين لأن الكيبوتس الخاص بنا كان يوزع علب سجائر رخيصة–، وأشار بإيماءة إلى أنه يرغب في تفقد شاطئ البحر الساحلي، مررنا عبر قاعة الطعام الجماعية، والتي كانت مغلقة منذ فترة طويلة، وكذلك دار الثقافة، حيث استسلمت الكيبوتسات لرفاهية الطبقة الوسطى مثل أجهزة التلفزيون.

عند وصولي إلى الشاطئ، نظرت شمالًا إلى الأخاديد الصخرية لمرتفعات الجولان، عند هذه النقطة، كنت أدرك تمامًا أن هناك شيئًا لم أكن أعرفه في طفولتي.

قبل حرب الاستقلال، كانت قرية السمرة العربية تمتد على طول الأرض الساحلية حيث يقوم الكيبوتس لدينا الآن بزراعة الموز والمانجو، فلم يخبرني أبي قبل ذلك كيف طردت قواتنا العرب، علمنا فقط أن العرب هاجمونا، وقمنا بالمقابل بغزو أراضيهم بالأسلحة والمحاريث.

الملايين من أبناء شعبنا الذين قُتلوا في المحرقة، ومن قُتل في المعارك المريرة في غور الأردن، لم يتركوا مجالًا للندم على ما فعلناه خلال الحرب أو للتفكير في مصير اللاجئين العرب الذين يعيشون الآن في مخيمات بائسة عبر الحدود الأردنية.

علاوة على ذلك، كانت أرض "إسرائيل" حقنا بالإرث. كان الجميع يعرف أن الرومان الأشرار طردونا، وأخيرًا وبعد ألفي عام عدنا، ونحن مصممين على عدم المغادرة مرة أخرى، وعندما عدنا إلى البيت في ذلك اليوم، لاحظت دفتر الملاحظات الأزرق مفتوحًا على طاولة في مطبخه، وكتابته العبرية تملأ الصفحات، لم أقل شيئا في ذلك الوقت.

بعد وفاته في عام 2008، وجدت دفتر الملاحظات من بين ممتلكاته القليلة، وجدت فيه قصصًا لم أسمعها منه أبدًا، بدءًا من الماضي الأوروبي والتي افترضت أنه طردها من ذاكرته. فلأول مرة، تعلمت الحقائق المجردة من حياته، علمت أن أجدادي جاكوب وهانا هيرش عاشوا في سوفاتا، وهي قرية ليست بعيدة عن كلوج نوباكا(1).

جدي جاكوب، وهو صاحب مطحنة دقيق ورجل ذو آراء دينية تقليدية، خصص غرفة في منزله الحجري الكبير للعائلات اليهودية العشر في القرية للتجمع خلال الأعياد.

على الرغم من عدم حصول جدي على تدريب حاخامي، إلا أن أعضاء المجتمع كانوا ينظرون إليه كزعيم لهم. حيث كان للوثنيين(2) المنقسمين بالتساوي بين المجريين والرومانيين، موقف تجاه جيرانهم اليهود "عيش واترك غيرك يعيش".

ولد والدي في عام 1918، وهي فترة الاضطرابات الجيوسياسية؛ إقليم ترانسيلفانيا الذي كان ذات يوم جزءًا من الإمبراطورية النمساوية المجرية، أصبح الآن تابعاً لرومانيا، والرومانيون مثل مواطني الدول القومية الجديدة الأخرى في المنطقة، شرعوا في إعادة تجديد الماضي.

---

(1) مدينة في رومانيا.

(2) أي غير اليهود.

على سبيل المثال، في مدينة كلوج، المدينة الهنغارية العرقية إلى حد كبير، أقام الرومانيون على الجانب الآخر من الكاتدرائية تمثالًا، كان نسخة طبق الأصل من كابيتولين وولف، والتي تصور مشهدًا من التأسيس الأسطوري لروما، مع التوأم رومولوس وريموس وهما يرضعان من أنثى الذئب، فقد أرادت الحكومة الرومانية طرح فكرة أن إنشاء دولتهم كان شبيهاً بالجنود الناطقين باللغة اللاتينية في مقاطعة داسيا الرومانية، وبعد ألفي عام قاموا من الموت لاستعادة تراثهم القديم.

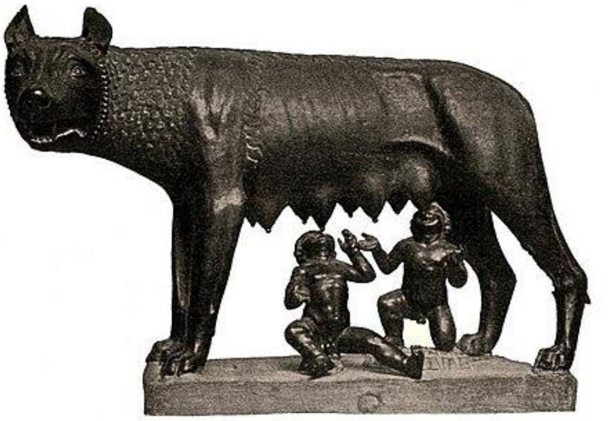

على الرغم من أن معاداة السامية لم تتجذر أبدًا في رومانيا كما كانت في مناطق أخرى من وسط أوروبا، إلا أن اليهود ظلوا غرباء في الدولة الحديثة، فمعظم اليهود لم يتحدثوا الرومانية، ولم يتعاطفوا مع الجنود الرومان القدماء، ولم يمجدوا البطل الروماني الشعبي الطاغية السيكوباتي فلاد المخوزق، والقدوة الكونت دراكولا لبرام ستوكر.

منذ أن كان والدي "آبا" في الثالثة من عمره، درس في معبد شيدر في الكنيس المحلي، ولكن شغفه كان بالرياضة، فهو رياضي يتمتع بحركات قوية وسريعة، ولم يواجه مشكلة مع المعادين للسامية، وكان الوثنيون يحبون أن يقولوا له بعد مباراة كرة قدم مفعمة بالحيوية "لو كان كل اليهود مثلك!"، ومع ذلك فهو لا يزال يتوق إلى هوية وطنية خاصة به.

ذات يوم، ذهب مع بعض الأصدقاء لمشاهدة فيلم دعائي يصور الفلاحين الاشتراكيين النبلاء في كيبوتس عين هارود، كان "آبا" مدمنًا للمخدرات، على الرغم من أن الأمر سيستغرق بضع سنوات ليحشد الشجاعة ليقول لوالده "لقد أصبحت صهيونيًا"، والذي كان في تلك الأيام بمثابة ترك دينه.

ومع ذلك، فإن سمة الصهيونية التي يتبعها "آبا" كانت أبعد ما تكون عن تلك السمات الخاصة برجال الأعمال ذوي القبعات العالية في لندن.. لهذا فقد كانت مجموعات الشباب الروماني التي طافت المناطق الريفية وهي تشعل النيران وتردد الأغاني الوطنية كانت مصدر إلهام "لآبا" وليس الدين، حيث شارك مع ساري –شريكي المستقبلي في السلام– في الجزء اللاعنفي من هذه الانتفاضة.

البعض الآخر، وعلى الأخص خطيب النهضة الإسلامية في سوريا، الشهيد عز الدين القسام، خريج جامع الأزهر بالقاهرة، والذي تقوم كتائب القسام التابعة لحركة حماس بتخليد ذكراه، اختاروا الأسلوب الجهادي المتمثل في زرع القنابل واستهداف الكيبوتسات.

في عام 1939، بينما كان والدي ومجموعته يخططون لمغادرة أوروبا والانتقال إلى فلسطين، قدم الإنجليز الورقة البيضاء، مما حدَّ وبشدة من الهجرة وحظر بيع الأراضي الجديدة لليهود، قام ديفيد بن غوريون –الزعيم الصهيوني في فلسطين، بـ "حرب الهجرة (غير الشرعية)"، لأنه كان يعتقد أن الصهيونية ستنجح وأن الشعب اليهودي سيفوز بالسيطرة على مستقبله من خلال التركيبة السكانية على الأرض.

كجزء من هذا الجهد، تم تعيين "أبا" في إحدى السفن الأُوَل المتجهة إلى فلسطين، ولكن قبل أن ينطلق، عاد إلى منزل والديه الحجري في القرية، حيث صافحه والده، وعانقته والدته وهي تبكي، قبل أن يضغط في يده على الخاتم الذي أعطاها والدها إياه يوم زفافها. قالت: إن هذا الخاتم كان في الأسرة لأجيال، ويجب أن يأخذ هذا الخاتم معه حتى يتذكرها دائمًا، قام الأب بربط الخاتم بسلسلة حول عنقه وانطلق.

في يوليو 1939، وفي ميناء على البحر الأسود، استقل أبا سفينة شحن صغيرة "كولورادو"، نقلته إلى الباخرة أتاراتو، وهي عبارة عن باخرة راسية في البحر، حيث كان العبور في باخرة أتاراتو المكتظ بطعامه الزنخ وهوائه النتن ومراحيضه المسدودة، أكثر إثارة للقلق مع لحظة دخول الباخرة المياه الإقليمية الفلسطينية، فقد كان الركاب خارجين عن القانون في نظر البريطانيين.

مع اقتراب الباخرة أتاراتو من شمال بلدة نهاريا الساحلية بالقرب من الحدود اللبنانية، استقل "أبا" والآخرون قوارب أصغر نقلتهم خفية إلى اليابسة، حيث تفرقوا قبل أن يتمكن الجنود البريطانيون من اعتقالهم. في حين أن يهود الطبقة الوسطى من بولندا وألمانيا قاموا ببناء فنادق وفتحوا متاجر في تل أبيب وحيفا، ثم اختفى معظم المهاجرين غير الشرعيين مثل أبا في شبكة المستوطنات اليهودية المتنامية. وبعد بضعة أيام من العمل في كيبوتس، حصل أبا على ما يكفي من السُّمرة ليبدو محليًا ثم غادر إلى حيفا بأوراق مزورة، ومن هناك غادر بالقطار إلى بحيرة طبريا وحاتزر كينيرت، وهي مستوطنة تعود إلى السنوات الأولى من القرن العشرين تم بناؤها كمدرسة زراعية للمستوطنين الذين استمروا في طريقهم إلى الكيبوتسات.

وهناك انضم إليه صديقه من كلوج "جونا روزين"، لقد التقطوا أفكار الكيبوتسات من الكتب والنقاش الطويل حتى الليل، فقد تركوا ممتلكاتهم الخاصة، حتى أن الملابس التي يرتدونها

تنتمي إلى المجموعة. حيث تُظهِر الصور من تلك الأيام آبا مع أصدقائه المراهقين عاري الصدر، والابتسامات ممتدة على وجوههم، ووقفت النساء أيضًا معهن، وأذرعهن المدبوغة باللون الأسمر قوية بسبب العمل في الحقول.

في دفتر الملاحظات صوَّر "أبا" زيارته لمنزل يونان في كلوج قبل وقت قصير من مغادرتهما إلى فلسطين، حيث كانت هناك أول مرة وضع عينيه على والدتي، فاردا ماجدالينا، أخت يونان البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا، كما أن أمي أخبرتني عن هذا الاجتماع الأول مع أبي أيضًا، قالت إنها وقعت في حب "أبا" هناك، لكن الأمر استغرق بضع سنوات ليأتي. ثم بعد ذلك، في أوائل عام 1938، ناشد يونان والده في كلوج أن يرسل فاردا إلى فلسطين، لأنه لا يرى مستقبلًا لليهود الشباب وسطهم في أوروبا. وافق والدهم بشرط أن يتبعها يونان، لم يكن والدها يريد أن تتجول فاردا لوحدها في فلسطين مثل المتشردين.

منذ أن أتت للدراسة، كانت هجرتها قانونية، وأحضرت صندوقًا خشبيًا كبيرًا يحتوي على مهرها: طقم شاي مصنوع يدويًا من الخزف الصيني ومفارش مائدة مطرزة وأواني فضية.. انتهى الأمر بفرده في مدرسة ثانوية زراعية في ضواحي القدس، يديرها راحيل ينايت بن تسفي، زوجة الرئيس "الإسرائيلي" المستقبلي يتسحاق بن تسفي.

أستذكر وأنا طفل كنت أسمع أمي، أو (إيما)، وهي تتحدث بشدة عن المدرسة، وخاصة حديثها عن راحيل بن تسفي وفكرها الهجين من الاشتراكية والقومية، والطريقة التي غرست في تلاميذها ما وصفته بـ "الشعور الرائع بالولادة من جديد في وطننا". مع افتتان فاردا بإسحاق في طفولتها بقوة من أي وقت مضى، وفي نفس اليوم الذي أنهت فيه المدرسة، انضمت بسعادة إلى يونان في الكيبوتس، كما أمر والدها بذلك.

رد والدي في النهاية على حبها، على الرغم من أن دفاتر ملاحظاته تكشف القليل من التفاصيل المثيرة، انتقل الاثنان إلى خيمة مزدوجة وتزوجا على أسلوب الكيبوتس: يتجمع الأصدقاء وبعض النبيذ مع عدم وجود حاخام.. كان منزل الزوجية عبارة عن غرفة ضيقة مضاءة بمصابيح الكيروسين.

على عكس أبا، الذي كان يستمتع بكل يوم من أيام حياته في الكيبوتس، لم تتكيف إيما بشكل كامل مع الحياة الحدودية في حتزر كينيرت.. على ارتفاع سبعمائة قدم من مستوى سطح البحر، كان الصيف جحيمًا جهنميًا.. وهذه المشاهد والمناظر الطبيعية المحروقة من العقارب والبعوض والملاريا، لم تكن أرضًا من الحليب والعسل. كما أنها لم تستمتع بالحوارات التي لا

تنتهي حول الاشتراكية الراديكالية. تخلى الأب عن كل ممتلكاته، بما في ذلك خاتم والدته، ولم ينظر إلى الوراء أبدًا – لا إلى أوروبا ولا إلى عائلته ولا إلى راحة الطبقة الوسطى.

من ناحية أخرى، أودعت الأم صندوق مهرها لدى أقاربها البرجوازيين في حيفا لحفظه، لأنه لولا ذلك لكان "أبا" باعه لشراء بذور أو مقصات تقليم للكيبوتس.

لقد ورثت اسمي من صبي يهودي يدعى عامي يسكن في كيبوتس قريب، قُتِل برصاص لصوص خيول عرب، أرادوا الحصول على المُهْر الذي كان يركبه، اسم عامي (Ami) هو اختصار لـ (Amichai)، وبالحرف الواحد: "شعبي على قيد الحياة"، فقد كان هذا الاسم شائعًا بعد الهولوكوست. وأنا كنت لا أزال في رحم فاردا ماجدالينا عندما توفيت والدتها (جدتي) في ثكنات أوشفيتز –بسبب مرض التيفوئيد–، في اليوم السابق لتحرير الجيش الأحمر لمعسكر الموت.

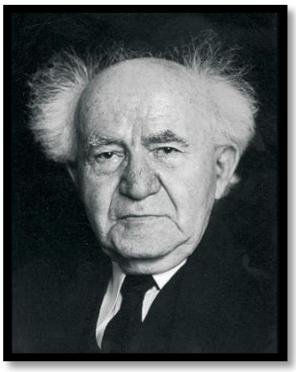
ديفيد بن غوريون

بعد ولادتي مباشرة، أرسل بن غوريون والدي في مهمة لمدة ثلاث سنوات إلى المجر لقيادة عملية تهريب جلبت مئات الآلاف من اللاجئين اليهود، وبعض الناجين من الهولوكوست، إلى فلسطين. لقد حلَّ والدي محل القائد "جوناه"، القائد الأصلي للعملية، ولكنه قد تم إلقاء القبض عليه ونقله إلى سجن روسي للاشتباه في أنه جاسوس إنجليزي. كان هذا عندما غير "أبا" اسمه من هيرش إلى أيالون، فقد كان عبرانيًا، ويتحدث العبرية، وله اسم عبراني.

لقد بدأت حياتي في الحضانة الشعبية، حيث كان ينام الأطفال على ألواح الخشب الرقائقي لأنه –في نظرية الكيبوتس– كانت هذه هي الطريقة التي نشأ بها جيل الطلائع الأقوياء، ولم نحصل على فراش ووسائد إلا بعد أن تجمد ابن عمي "روثي"، ابنة العم جوناه حتى الموت.

على الرغم من أنني كنت في الثالثة من عمري وكانت ذاكرتي غامضة، أتذكر اليوم الذي سار فيه رجل مبتسم إلى عنبر الأطفال المضاء بنور الشمس، وأخذني من يدي، وقادني إلى شاطئ بحيرة طبريا. قال وهو يمسك بكتفي: "أنا والدك". لم أكن أعرف أبدًا كيف كانت رحلة عودة "أبا" محفوفة بالمخاطر حتى قرأت دفتر ملاحظاته. وعند نزوله، قاد سيارته المصفحة من الميناء الساحلي عبر وادي يزرعيل لأن القناصة العرب كانوا يستهدفون اليهود.

عاد "أبا" إلى فلسطين فور مغادرة بريطانيا واندلاع الحرب، حيث احتل الجيش السوري المخفر البريطاني السابق في السماخ، وهي بلدة عربية يقطنها ثلاثة آلاف نسمة على شاطئ بحيرة طبريا، وهددوا جميع مستوطناتنا في غور الأردن. ثم أرسل لنا دافيد بن غوريون أطفالا إلى

حيفا، على امل أننا سنكون بعيدين عن طريق الأذى. حيث جاءت أمي معي، وطوال عدة أشهر لم أر أبي الذي اجتمعت معه للتو.

عندما غادر البريطانيون فلسطين في أبريل 1948، انضم أبا إلى المعارك التي اندلعت بين قواتنا والجيش الأردني على مركز شرطة جيشر على نهر الأردن. ثم وصلت الوحدات المدرعة السورية إلى كيبوتس دجانيا القريب، حيث أوقف أعضاء الكيبوتس زحفهم، والقصة التي سمعتها عندما كنت طفلاً جعلت سكان البلدة العرب يفرون من السماخ عندما خسر السوريون المعركة، لكن المؤرخين غير المتحيزين اليوم يخبرونني أن القوات "الإسرائيلية" طردت أي شخص لم يغادر بمفرده.

انتهى التقدم السوري بمعركة دجانيا، عندما انسحبت قواتهم إلى مرتفعات الجولان. وعندما خمد القتال حول السماخ، وهي مدينة أشباح سيطرت عليها هذه المرحلة، أقام الجيش "الإسرائيلي"، الاسم الجديد للهاغاناه، معسكرًا في القاعدة البريطانية القديمة.

بعد الحرب، ترك "أبا" ورفاقه منطقة "حتزر طبريا" وراءهم، واندفعوا لإنشاء كيبوتس على الأرض المحتلة حديثًا. ومع رحيل كل من البريطانيين والكثير من السكان العرب، كان هناك عقارات وافرة والعديد من الخيارات المتاحة. فاختاروا قاعدة بريطانية سابقة على بحيرة طبريا؛ لقربها من مورد ثمين –المياه–، ولكن في المقام الأول لتأمين الحدود المتنازع عليها بين دولة "إسرائيل" الجديدة وسوريا.

وأخيرًا تمكن والدي "يتسحاق"، وصديقه المقرب "يونان"، من تحقيق الأحلام التي تخيلوها لأول مرة في معسكر الهالوز في رومانيا لإعادة إرثنا القديم إلى السيطرة اليهودية. كان بناء دولة للشعب اليهودي يعني قيام مزارعين مسلحين بزرع الكيبوتس على خط المواجهة. لم يحلم أي منهم بقصر الاستيطان على خط ترسيم اعتبروه تعسفيا، فقد بحثوا عن أي فرصة لتوسيع حدود دولة "إسرائيل".

أطلقوا على الكيبوتس تسمية معجان أو "هاربور" "الإيواء". كانت قاعة الطعام الخاصة بنا مبنى عسكري سابق، وقبل أن يقوم الرواد ببناء أكواخًا خرسانية، قمنا بالإقامة في ثكنات الجنود بسبب خطورة المتسللين من سوريا والأردن، واحتل الرجال برج المراقبة وقاموا بدوريات في السياج الشائك المحيط بالكيبوتس الجديد على مدار الساعة.

ولا تَذْكُر مفكرة "آبا" الكثير عن السنوات التي أعقبت حرب الاستقلال، لقد كنت كبيرًا بما يكفي لأتذكر كيف كان أبا ورفاقه في كل مرة يحرثون الحقول في المنطقة العازلة بيننا وبين المواقع السورية، وكان الجيش السوري يطلق عليهم قذائف الهاون(1).

ثم قمنا بدفن موتانا وحولنا المدرسة إلى ملجأ لحمايتنا من القذائف، لكننا لم نتوقف أبدًا عن جهودنا "لتحرير" المزيد من الأراضي.

أثناء جلوسي في حجرة الدراسة المؤقتة تحت الأرض، لم يكن لديَّ أي فكرة أن السكان السابقين لسماخ كانوا يعيشون في مخيمات عبر خطوط العدو. بينما علمنا معلمينا التاريخ القديم فقط – يشوع والمكابيين وأبطال عبريين آخرين – درس الأطفال عبر الحدود حدثًا حديثًا: النكبة والكارثة وقصة منفاهم.

---

(1) وصف موشيه ديان لاحقًا لعبة القط والفأر القاتلة بهذه الطريقة: "كنا نرسل جرارًا لحرث بعض المناطق التي لم يكن فيها أي شيء، وفي منطقة منزوعة السلاح، وكنا نعرف مسبقًا أن السوريين سيبدأون في إطلاق النار، فإننا كنا نقول للجرار أن يتقدم لأقرب نقطة عندهم، حتى في النهاية ينزعج السوريون من الجرار ويطلقون النار، وبعد ذلك نقوم باستخدام المدفعية ولاحقًا القوة الجوية، وهكذا كان يكون الأمر".

الفصل الثاني:

مئير شاليف ورجل فانتا

لم يكن والدي شاعراً، ولا رجلاً يتمتع بقدر كبير من التأمل الذاتي عند تدوين قصص عائلته، عمومًا هو اختصرها في أحداث على شكل جدول زمني، ونادرًا ما يذكر شعور أي شخص، الآمال والأحلام والمخاوف، كلها غابت عن روايته، فهل شعر جدي بالخيانة عندما غادر والدي رومانيا؟ فقد كان اليهود يعيشون في ترانسيلفانيا منذ قرون، فكيف شعر جدي حيال الصهيونية، وبشأن مغامرات "أبا" كمهاجر غير شرعي؟ ما مدى توتر أبا الذي يسافر حول فلسطين على أوراق مزورة مثل الخارج عن القانون؟

أكثر المشاعر التي سعيت لفهمها، كانت حبه الشديد –والغريزي تقريبًا– لأرض "إسرائيل"، ونظرًا لأن دفتر الملاحظات كان يفتقر إلى تلك النظرة الثاقبة لهذا الشغف للقيادة المركزية، لذا فقد قررت اللجوء إلى الروائي مئير شاليف للحصول على المساعدة، كان شاليف يكتب عن الجليل وجيل الرواد/الطلائع الذين تخلوا عن كل شيء ليستقروا هناك: لغاتهم الأصلية، وعائلاتهم في أوروبا، وحتى أسمائهم. وغالبًا ما يقارن النقاد أعماله بتلك التي كتبها ويليام فولكنر، الذي كانت كتبه تهز مشاعر الناس –من مواطني منطقة الميسيسيبي الأصليين– أكثر من أي روائي "إسرائيلي" آخر، يروي شاليف قصة المستوطنات الرائدة التي بناها جيل آبائنا: عنادهم في مواجهة العقبات التي تبدو مستحيلة، ونزاعاتهم الأيديولوجية، وأحلامهم، وهوسهم.

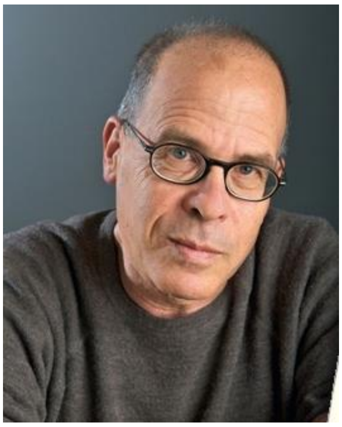

الأديب الإسرائيلي/ مئير شاليف

وفي وقت مبكر من صباح اليوم الذي كان من المقرر أن أقابل فيه شاليف، في يوليو 2017، كان لدي عمل لأول مرة مع زوجتي "بيبا". حيث كانت الدولة في منتصف موجة جديدة من الحر، وكنا بحاجة للتأكد من وصول المياه من نظام الري بالتنقيط إلى جذور أشجار الزيتون لدينا، والعمل على إزالة الأعشاب الضارة.

في السابعة بدأ الهاتف يرن، كان يجب أن يكون المتصل صحفيًا، يدعو الصحفيون "الإسرائيليون" "الخبراء" بشكل روتيني –كما هو الحال في معظم الديمقراطيات–؛ لقلب الرأي العام في أي أزمة تسيطر على الأخبار.. قبل عدة أيام من وقوع الهجوم في الحرم القدسي، وهو

أقدس بقعة على وجه الأرض لليهود والمرتبة الثالثة قداسةً للمسلمين، الذين يسمونها "الحرم الشريف"، وهي عبارة عن هضبة تبلغ مساحتها ثلاثين فدانًا، فقد وصلت المشاعر في القدس إلى نقطة الغليان، وكان الصحفيون يريدون التواصل معي منذ أيام للحصول على تعليقي.

حيث إنني درست وبشكل احترافي موضوع الحساسية الدينية والسياسية والثقافية لحرم الهيكل، وضريح قبة الصخرة الشهيرة، والعديد من الهياكل الأخرى ذات الأهمية.

في أواخر التسعينيات، حذرت حكومتي ومدير وكالة المخابرات المركزية وكبار الدبلوماسيين الأمريكيين، من أن الأعمال "الإسرائيلية" في الحرم القدسي قد تؤدي إلى انفجار انتفاضة جديدة.

ومنذ أن تحقق هذا التوقع بشكل قاتم كالكابوس، ظللت أراقب الموقع.. وقبل عامين تجمع الآلاف من أعضاء الجماعة الإسلامية "حزب التحرير" في باحات المسجد الأقصى في الحرم القدسي الشريف، للمشاركة في نداء موجه إلى "الأمة الإسلامية والجيوش الإسلامية من أجل إقامة الخلافة وتحرك الجيوش لتحرير المسجد الأقصى وبقية فلسطين من الاحتلال اليهودي".

الشيخ/ تقي الدين النبهاني

تقي الدين النبهاني –مؤسس حزب التحرير، ولد في كرم محارل عندما كانت لا تزال الجالية العربية في إجزم، ونزح مع عائلته في عام 1948.

على طريق حيفا–تل أبيب السريع المزدحم، ولمدة ساعتين، كنت دائماً أتنفس أبخرة عادم السيارات، وأنا في طريقي إلى الراديو أو استوديو التلفزيون لمناقشة جنون السياسات الحكومية التي لا تهمني، إلى جانب ذلك، لم يكن البرنامج الحواري هو المنتدى المناسب للكشف عن خطوط الصدع التي تهدد بقاء بلدنا للجمهور "الإسرائيلي"، لأن تحقيق العدالة في الموضوع يتطلب مناقشة معقدة ودقيقة، والبرامج الحوارية لا تتعامل مع التعقيد والفروق الدقيقة بشكل جيد، لذلك كنت أقول (لا) لجميع الطلبات المشابهة لذلك.

الشخص الذي اتصل بي للظهور في ذلك الصباح، كان من أحد أشهر مُقدمي البرامج الإذاعية في "إسرائيل". المضيفون –أحدهما يميني والآخر يساري– كانوا يقابلون مليون مستمع وهم في طريقهم إلى العمل بالجدال والضحك والصراخ ومقاطعة بعضهم البعض ومقاطعة ضيوفهم.

قلت: "سأعثر على شخص آخر"، لكن المنتِج كان مستمراً، وكأن مستقبل الشعب اليهودي في أرض "إسرائيل" يعتمد على نصيحتي الحكيمة، قال إنه بإمكاني إجراء المكالمة من المنزل، أو في أي مكان حتى لو كان من تحت ظل شجرة زيتون عمرها خمسمائة عام، بالنهاية استسلمت، وقلت: "بالتأكيد".. وبينما كنت أقوم بضرب الذباب، كنت استمع إلى المضيفين وهم يقدمون بعض كلمات التمهيد لمستمعيهم.

وفي 14 يوليو، قام ثلاثة عرب "إسرائيليين" من حركة حزب التحرير بتهريب مدافع رشاشة من طراز كارل غوستاف ومسدس إلى الحرم القدسي وقتلوا اثنين من رجال الشرطة الدروز، وهم أعضاء في مجموعة وثنية صغيرة من الناطقين باللغة العربية في مرتفعات الجولان، وهم من الذين انشقوا عن الدين الإسلامي منذ قرون، ويخدم معظمهم في القوات المسلحة "الإسرائيلية"، أحد الضحايا، الرقيب كميل شنعان، كان ابن صديق قديم لي.

ردت حكومتنا بوضع أجهزة الكشف عن المعادن عند منطقة مدخل المسجد، وكان الفلسطينيون –إلى جانب الكثير من العالم الإسلامي– في حالة استنفار، حيث اندلعت أعمال شغب بعد صلاة الجمعة، قتلت خلالها قواتنا ثلاثة فلسطينيين وجرح عددًا كبيراً.

في وقت لاحق من ذلك المساء، قام مقاوم فلسطيني من قرية بالضفة الغربية، للانتقام من استيلاء اليهود على الحرم الشريف، تسلل إلى مستوطنة حلميش اليهودية وطعن ثلاثة من أفراد الأسرة حتى الموت مساء يوم الجمعة بينما كانوا يحتفلون بولادة حفيد لهم.

مذيعو الراديو، وبعد بضع دقائق من التحدث مع بعضهم البعض، طلبوا تقييمي لقرار الحكومة إنشاء أجهزة الكشف عن المعادن، كان بإمكاني أن أقول أشياء كثيرة، فمنذ سنوات عملي كمدير للشاباك، كنت أعرف أكثر من معظم الناس أن المواقع المقدسة في مدينة القدس القديمة ستكون غير مستقرة ومتقلبة دوماً، وإذا كانت نهاية العالم ستجتاح منطقتنا، فستبدأ في مكان ما داخل الأسوار المقدسة لمدينة القدس القديمة.

قلت: "انظر، أجهزة الكشف عن المعادن ليست هي نقطة الخلاف الحقيقية، شعب الفاتيكان يستخدمها لحماية كنيسة سيستين، ويمر "الإسرائيليون" من خلالها في كل مرة نذهب فيها إلى السينما، "فلماذا قام العرب بأعمال شغب؟" سأل المضيف اليميني الذي يقول كلمة "العرب" باستهزاء.

"بدايةً، نحن لم نستشر أحداً قبل تركيب أجهزة الكشف عن المعادن، لا الأردنيين ولا الفلسطينيين، إن اتخاذ قراراتنا الأحادية الجانب يجعل من السهل على الإسلاميين أن يحوروا مخاوفهم الأمنية المشروعة إلى مخطط للسيطرة على موقعهم المقدس".

واصلت التعبير عن الرأي القائل بأن ما كان يحدث في القدس في ذلك اليوم كان الأكثر خطورة، أخطر حتى من اندلاع أعمال الشغب والإرهاب المختلفة التي شهدناها في التسعينيات. في ذلك الوقت، حيث كان نزاعنا يدور حول الحدود، وأين نرسم الحدود النهائية بين دولتي "إسرائيل" وفلسطين، ومع عدم وجود عملية سلام قابلة للحياة، أصبح الوضع أكثر خطورة.

هذا التقييم الكئيب أثار جدالًا ساخنًا بين المحاورين، اليمين كما لو كان يقرأ سيناريو يبشر بالخط القياسي في "إسرائيل" اليوم، وهو أن الصراع ديني وبالتالي لا يمكن حله، فكيف نتفاوض مع أناس يرفضون حقنا الذي وهبه الله لنا هذه الأرض؟ الفلسطينيون "إرهابيون" وبسبب ما يقومون به من "مخاطر أمنية" فإنهم يستحقون ما يحصلون عليه.

قلت، "أنت مخطئ"، حاولت التخفيف من حدة الضغينة في صوتي، "إن من الغوغائية إلقاء اللوم على جميع الفلسطينيين، الذين يعيشون تحت الاحتلال، بسبب أعمال القتل التي ارتكبتها أقلية"، "لدينا شركاء عرب". ذكّرته بأن حركة صوت الشعب التي أطلقتها قبل سنوات مع ساري جمعت ما يقرب من نصف مليون توقيع، حوالي 275 ألف "إسرائيلي" و200 ألف فلسطيني. فاستطلاعات الرأي تخبرنا أن معظم الفلسطينيين ما زالوا يؤمنون بحل الدولتين –وهو السبيل الوحيد لتأمين "إسرائيل" كديمقراطية يهودية–، "فمن الضروري أن نعمل مع الفلسطينيين، وإلا فإن الحرب ذات الطابع الديني يمكن أن تدمر كل شيء بنيناه"، أنا متأكد من أن مذيعي الراديو أُصيبوا بخيبة أمل لأنني لم أشاركهم في شجارهم اللفظي، خاصة بعد النظر إلى خلفيتي كرجل مؤثر، ومع ذلك فإنني لن ألوم المنتج إذا لم يدعني مرة أخرى.

أنهيت أعمالي الروتينية وتوجهت إلى المنزل، وفي استراحتي الصباحية تجاهلت المكالمات الهاتفية المستمرة من الصحفيين، وتجهزت لزيارة بعد الظهر مع "مئير شاليف"، و"بيبا" التي تنحدر من عائلة أدبية، التي تدفعني دائمًا لقراءة المزيد من الروايات، فعندما كنت طفلاً تابعت "جول فيرن" إلى مناطق غير معروفة تحت سطح البحر، وذهبت مع "إسحاق أسيموف" إلى الفضاء الخارجي، لكن بعد أن انضممت إلى القوات الخاصة البحرية في عام 1963، كانت نظرتي للأمور في الأغلب "احترافية"، وأن الأخطاء في الحكم على الأمور قد يُفسِّر سبب استغراقي وقتاً طويلاً لأفهم لماذا بلادي تعمها الفوضى.

في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، وبعد الغداء الصيفي المعتاد لدينا من الجازباتشو[1] والبيرة الباردة، قفزت في سيارتي التويوتا وانطلقت إلى قرية ألوني آبا بالجليل، وفي

---

(1) الجاثباتشو هو حساء خضروات أساسه الطماطم ويقدم بارداً، نشأت في جنوب أندلوسيا، وينتشر بشكل كبير في المطابخ الإسبانية وفي البرتغال، وتنتشر في أشهر الصيف بسبب برودتها وطبيعتها المنعشة.

الطريق سمعت عبر الراديو تقارير عن المزيد من الهجمات والهجمات المضادة في القدس، والتي أعادت ذكريات باصات إيغد المحترقة وجلسات التحقيق –سجناء مقيدون على الكراسي ومقنعون– والتي كنت أشاهدها في الشاباك.

بدلت المحطات واستمعت بدلاً من ذلك إلى الموسيقى الكلاسيكية بينما كنت أتجول في حركة المرور عبر وادي يزرعيل، ثم نظرت من خلال النافذة، وأعجبت "بإسرائيل" المزدهرة: محطة كهرباء جديدة تعمل بالغاز من جهة اليسار، والمصانع التي تغذي شركات التكنولوجيا الساحلية بمكونات على جهة اليمين.

عندما كنت صبيا، كانت "إسرائيل" تصدِّر برتقال يافا، وكان هذا كل شيء، أما اليوم فنحن أمة الشركات الناشئة، وقصة نجاح يجب أن نفخر بها نحن "الإسرائيليين"، هذا إذا لم يكن قادتنا السياسيون يحفرون قبرًا عميقًا بما يكفي لدفن إنجازاتنا الهائلة.

خرجت من الطريق السريع وسافرت لمدة نصف ساعة إلى التلال قبل أن أصل إلى ألوني آبا، عرفت عن القرية من رواية (Fontanelle)[1] للكاتب شاليف، أحد الكتب التي أصرت بيبا على قراءتها قبل تقييم مؤلفها. فهي تأسست خلال العهد العثماني من قبل فرسان المعبد الألمان –الذين أطلقوا عليها في الأصل اسم فالدهايم، موطن الغابة، قام البريطانيون بطرد الألمان خلال الحرب العالمية الثانية، وأعاد أعضاء حركة الشباب الصهيوني توطين المدينة وأطلقوا عليها اسمًا عبريًا.

اليوم، يُطلق العديد من الفنانين والكتاب اليهود المعروفين على القرية الريفية موطنًا.

عندما وصلت إلى منزله وخرجت من السيارة، كان شاليف ينتظرني، بنظاراته المستديرة وقميصه وقصاصاته، نظر إلى صورة الروائي البوهيمي، رجل القصص والخيال، مهندس جمالي للروايات المضادة، فهذا هو نوع الشخص الذي أحتاج إلى التحدث إليه فقط.

لقد رافقت شاليف عبر حديقة إلى بيت صغير بدا متواضعًا لمثل هذا المؤلف الشهير، وجدت منضدة خشبية بسيطة مكدسة بأوراق فضفاضة –افترضت أنها مطبوعات لأحدث رواياته– التي سيطرت على غرفة معيشته، وبعض الأرفف تعرض كتبه، بما في ذلك الطبعات المترجمة إلى مجموعة متنوعة من اللغات: الألمانية والهولندية والكورية والإنجليزية والفرنسية، تصطف على الجدران.. كان الديكور مناسبًا لرجل متقشف في كتاباته يتطابق بقوة مع حياة الموشاف.. جلسنا على أرائك صغيرة مقابل بعضنا البعض، وبيننا طاولة قهوة.

---

(1) القصة العائلية الغريبة لعشيرة Joffe، تُروى من وجهة نظر رجل لم يتم إغلاق اليافوخ بعد حتى في مرحلة البلوغ ، وبالتالي فهو يدرك أكثر مما يرغب في بعض الأحيان.

على الرغم من أنني التقيت مع مئير عدة مرات، إلا أننا لم نجري محادثة مناسبة، لقد شرحت عبر الهاتف سبب رغبتي في مقابلته.

"إذن أنت تكتب مذكرات لكن الأمر لا يتعلق بك؟" سأل وهو يخلع نظارته.. لاحظت لأول مرة أن عينيه كانتا بنية اللون، مثل لون التربة المحروثة.

شرحت أن الأمر يتعلق بي فقط، لدرجة أن حياتي تعكس الكثير مما حدث في "إسرائيل" على مدار السبعين عامًا الماضية أو نحو ذلك.

لم أتطرق إلى تفاصيل كيف تشكلت بعض جوانب تفكيري من كتابات حاييم غانس بشكل كبير، أو مع الكتاب الذي تخيلته كيف كنت رجل المهمة، لم أكن متخصصاً بالعلاج النفسي، لكي أشاركه العيب المأساوي الذي اكتشفته في قصتي الخاصة، كنت هناك لأستمع وأتعلم، شرحت له: "أريد إعادة تصوير "إسرائيل" بشكل مختلف".

لكنني كنت بحاجة إلى مساعدة أشخاص آخرين، يمكن لأفكارهم وخبراتهم مساعدتي في الوصول إلى غرضي.. "أريد أن أدرج قصتك في قصتي، إذا كان ذلك منطقيًا بالنسبة لك".

عالجني بنظرة من الريبة والشك، ثم ابتسم، وغيّر الموضوع: وقال بحرارة: "أنا مضيف فظيع".. "هل يمكنني أن أقدم لك شيئًا حادًا لتأكله؟"

"أكل حاد؟" ..

"سوف ترى".. اختفى في المطبخ وعاد للظهور بعد لحظات قليلة حاملاً صينية بها زجاجة عرق رفيعة العنق ووعاء من التين المقطوف من شجرة في حديقته. فتح زجاجة العرق، وغمر التين بها، وضع واحدة في فمه، ووضع عشر حبات من التين المغمورة بالكحول أمامي، التهمت التين واحدة تلو الأخرى مثل الفشار، حاولت أن أشرح له لماذا أنا بحاجة إلى إرساء كتابي من وجهة نظره، لأن الروائيون والشعراء يمتلكون المعرفة والمهارات التي أفتقدها، ويعلمون أن نفس القصة يمكن أن يكون لها إصدارات مختلفة، وباستخدام خيالهم، فإنهم يساعدوننا في رؤية تفسيرات بديلة للتاريخ.. أخبرته أنني أدركت أن التاريخ الذي نشأت فيه هو مجرد سرد واحد للعديد من القصص التي يمكن تجميعها من نفس مجموعة بانوراما قطع الصور المقطوعة.

والد مئير، واسمه يتسحاق مثل والدي، كان شاعرًا "إسرائيلياً" بارزاً. أخبرته أن عمه مردخاي كان أستاذي في المدرسة الثانوية، كان المدرس مردخاي قد قرأ في صفنا وبصوت عالٍ إحدى قصائد أخيه احتفالًا بانتصار اليهود الأخير على الصليبيين الأوروبيين.. في القصيدة، يلجأ الفرنسي الصليبي "ريموند دي سان جيل" إلى "تانكرد" أمير الجليل النورماندي، ويقول باستسلام:

يبدو أننا أحرقنا المجتمع بأكمله

في كنيس واحد

وكل من هرب

ذبحوا

والآن انظروا

هم العلم على القلعة

وقد تم إنزال علمنا

غالبًا ما أعود إلى القصيدة لأنه خلال الهولوكوست، كان أفراد عائلة والدة بيبا قد تم اقتيادهم إلى كنيس مع المجتمع اليهودي بأكمله، ثم تم حرقهم حتى الموت، وتقع وحدة الكوماندوز الخاصة بي، الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13)، في قلعة عتليت الصليبية القديمة.

قلت: "عمك مردخاي اعتبرني دائمًا إحدى قصص نجاحه".. ليس من أجل أدائي في الفصل الدراسي، حيث كنت بالكاد أتدرب، ولكن من أجل خدمتي كجندي كوماندوز في الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13). "تغير تقديره لي عندما بدأت في الترويج للسلام مع سري نسبية.. كيف يمكنك أن تفعل هذا يا عامي؟" لقد وجه لي أستاذي السابق انتقادات عبر الهاتف.. "أنت، الذي كنت تحارب العرب، تقوم الآن بالرقص معهم. إنه أسوأ من المخزي".

"لم يفاجئني"، قال شاليف. "كان عمي مثل والدي تمامًا.. قَوميٌ حتى العظم".

والده يتسحاق من القدس، كان عضواً في "ليحي" المجموعة شبه العسكرية، والمعروفة أيضاً باسم عصابة شتيرن، التي حاربت لطرد البريطانيين.. لقد كان مُنظِّراً، قاتل بقلمه، ولم يكن جندياً، وكانت والدته من قرية نهلال، مسقط رأس موشيه ديان، وكان أحد أقاربها مؤسس الموساد.

"وماذا عنك؟" أنا سألت. "متى وأين ولدت؟"

"لقد ولدت في 1948"

"لذلك أنا أكبر منك بثلاث سنوات"

"تعال هنا، أيها الرجل العجوز، خذ حبة من التين". أمسك مئير بالوعاء.

"ما تاريخ اليوم؟" أنا سألت.

"19 تموز (يوليو)"

"كان ذلك في منتصف الحرب، أليس كذلك؟"

"في الواقع خلال الهدنة الثانية، يمكنك القول إنني طفل سلام".

الكونت برنادوت

ضحك بشكل لاذع لأن كلانا يعرف للغاية ما حدث أثناء وقف إطلاق النار المؤقت. كان ذلك في نفس الوقت الذي توصل فيه الكونت برنادوت، الدبلوماسي السويدي الذي ميَّز نفسه بإنقاذ مئات اليهود من معسكر اعتقال "تيريزينشتات" خلال الهولوكوست، إلى فكرة التقسيم، مما يمنح الأردن ومصر النقب، "وإسرائيل" الجليل والساحل بالكامل، مع القدس كمدينة عالمية.

سيتم منح الأشخاص الذين أُجبروا على ترك منازلهم، من العرب واليهود، خيار العودة إلى مدنهم وقراهم، أو الحصول على تعويض، كلا الجانبين رفضا خطته، وأربعة أعضاء من جماعة ليحي، اسحق شاليف الإرهابية، قتلوا برنادوت في كمين.

عندما كان صبيا، عاش مئير في نهلال لمدة عامين قبل أن يقوم والده بأخذ العائلة إلى القدس. "لكننا حافظنا على الزيارة في كل فرصة نحصل عليها".

"ما هو سبب كتابتك الكثير عن نهلال؟"

"عندما كنت طفلاً أحببت شغف المكان. أتذكر عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، أراد أحدهم تنظيم أمسية حول الأغنية الأمريكية Kisses Sweeter than Wine. هل تتذكرها؟ "عندما كنت شابًا لم أقبِّل أبدًا ..." على أي حال، قام رجلان عجوزان غاضبان بتفريق الحفلة لأنه كان الغناء باللغة الإنجليزية يعتبر مثل القيام ضد الثورة العبرية".

لم تكن قدرات مائير كروائي هي السبب الوحيد وراء بحثي عنه، فقد كان والده وعمه من أتباع صهيونية "الاستيطان والأمن"، وهي النظرة العالمية التي اعتنقتها منذ فترة طويلة و "شفيت" منها بفضل الانتفاضة الثانية. شرحت كل هذا الآن لمئير، الذي انحنى على كرسيه ويداه متشابكتان خلف رأسه.. نظر من خلال الأبواب الزجاجية المنزلقة في المناظر الطبيعية في الجليل وأخبرني كيف حوّل والده الكتاب المقدس إلى نص قومي.

"عندما كنت في العاشرة من عمري، أخذني أبي إلى نقطة عالية في القدس الغربية حتى نتمكن من رؤية الجدار من الأسلاك الشائكة والخرسانة الذي يمر عبر المدينة. قادني لصعود

درج يؤدي إلى سطح المبنى المملوك للفاتيكان، حيث أشار إلى الحائط الغربي وقبة الصخرة. قال وهو يمسك بكتفي "يومًا ما، سيكون كل شيء لنا مرة أخرى". التفت إلي وقال بجدية تسببت في تكسر صوته، "سوف تكبر، وتصبح جنديًا، حرروا هذا لنا".. كره الأب خطوط وقف إطلاق النار لعام 1948 لأنها قطعتنا عن جذورنا التوراتية في يهودا والسامرة.. لقد خصونا".

"وأنت أيضا؟"

قال مئير: "هو علمني أن أحب أرض إسرائيل"

"مع وجود الكتاب المقدس في يده وخريطة في اليد الأخرى، أخذني إلى كل موقع توراتي في البلاد، وأنا فخور بذلك، أنا أملك هذه الدولة من تحت أظافري، فلن أغادر "إسرائيل" أبداً، حتى عندما أقوم برحلات لشراء كتبي، لا يمكنني البقاء بعيدًا لأكثر من بضعة أيام".

وعن تحقيق رغبة والده في أن يصبح جنديًا، قال مئير: "جُندت عام 1966 في دولة واحدة، وبعد عامين تم إطلاق سراحي في بلد مختلف".

خدم في وحدة الاستطلاع في جولاني، وفي وحدة النخبة في كتائب غولاني، وابتسمت لنفسي عندما صورته بالزي العسكري.

استمر قائلاً: "تتذكر ما كان عليه الحال قبل عام 1967".. "كانت "إسرائيل" بمكانة وضيعة، ثم جاءت حرب الأيام الستة. قاتلت كتائب الجولاني السوريين في هضبة الجولان حيث دارت بعض المعارك الأكثر دموية في الصراع.. وكان العرب الذين يعيشون هناك قد فروا بالفعل وتركوا قراهم.. وبعد ستة أسابيع أو نحو ذلك انتهى بي المطاف في يهودا والسامرة.. وكانت المرة الأولى التي أرى فيها فلسطينيين.. لم تكن هناك نقاط تفتيش.. وكانت الأمور هادئة.. لذلك تجولت بحرية في البلدات والمدن.. قلت لنفسي: "يا إلهي، هناك الكثير من العرب"، عشرات الآلاف من الناس في حالة ذهول مثلنا.. ماذا بحق الجحيم كنا سنفعل بهم؟ جعلهم مواطنين؟".

مضى يروي مشهدًا ظل يطارده منذ ذلك الحين. قال: "رأيت هذا الرجل العجوز يدفع عربة بها زجاجات فانتا ودلو من الثلج".. كان يحاول جني بعض المال عن طريق البيع للجنود.. لم أكن أهتم بأي شيء حتى رأيت –من زاوية عين واحدة– جندي احتياط، أو ضابطًا، ربما يبلغ الأربعين من العمر، يتقدم نحو رجل فانتا وكأنه يمثل تهديدًا أمنيًا كبيرًا. سأل: "ماذا تفعل هنا؟".. مئير يوضح: ولكن يبدو أن الرجل العربي العجوز نظر خلفه لأنه لا يفهم العبرية. "إذن ماذا فعل هذا الضابط؟ ركل العربة.. صدمني فجأة: هذا ما يمكن أن تفعله القوة بنا لقد تحولنا جميعًا إلى ذلك الضابط الذي ركل عربة الرجل العجوز، لأن الضابط يستطيع فعل ذلك فقط".

بركلة سريعة لأحد الضباط، مئير أغلق الفجوة، ولم يكن هناك مجال للعودة إلي الرجل العجوز.

لقد انتُزعت بهجة النصر، التي شعر بها كل شخص تقريبًا في "إسرائيل" بما في ذلك أنا وجميع أصدقائي اليساريين في الكيبوتس.. أدرك مئير أن جيشنا البطل قد سلم لنا كأسًا مسمومًا.

"عندما عدت إلى المنزل لبضعة أيام بعد عدة أسابيع من الإجازة، كان والدي مبتهجًا، لقد تحققت أحلامه، أصبحت أرض "إسرائيل" الآن موحدة، كانت أرضنا كلها. قلت: "أبي، سنختنق بهذا".

"هل سألته عما يعتقد أنه يجب علينا فعله تجاه العرب؟ كيف نتعامل مع الناس في المناطق المحتلة؟".

"كان حله بسيطًا.. سوف نكرر ما فعلناه في "48".

"اطردهم؟"

"هذا صحيح.. بدأ يتحدث عن "الترحيل".. وعطلة نهاية الأسبوع مع جنون والدي جعلني سعيدًا بالعودة إلى وحدتي.

أنا متأكد من أنني رأيت الكثير من الأشياء مثل ذلك الضابط والرجل بائع الفانتا"، اعترفت لشاليف: "فهم لم يسجلوا في وعيي، في عام 1967 ذهبت إلى حائط المبكى، ورأيت الجيش "الإسرائيلي" يهدم الحي العربي بالجرافات أمامي، لأن الجنرال ديان، مثلي ومثل أي شخص آخر تقريبًا، نعتبره أنه حي لنا، وفي المدرسة قرأنا عن ذلك في كتاب جوزيفوس.

"في يهودا والسامرة كل ما رأيته كانت صخورًا وأشجارًا وأرضًا فارغة لنستوطن فيها، وبطريقة ما لم ألحظ الناس الذين يعيشون هناك، والشيء الوحيد الذي منعني من أن أصبح مستوطناً هو أنني بقيت في الجيش، حيث كان على شخص ما الدفاع عن كل تلك الأرض المحررة.

مرة أخرى، وجدت نفسي أنظر حولي في الغرفة، ولاحظت تفاصيل جديدة: قبعة بيضاء الحواف معلقة من خطاف على الحائط، كانت يدا مئير على حِجرِهِ سميكة وقاسية، مثل الرجل الذي يقطع الخشب لممارسة الرياضة، وقرأت في مكان ما بغرفته أنه يصطاد الفئران والأفاعي التي تأتي من الوادي بيديه العاريتين.

مع غروب الشمس بالخارج، صُفعتُ على ركبتي، ليُلَمِّح إليَّ أنه قد حان وقت الذهاب، فشكرت مئير على وقته.

قال بحدة، "عامي"، كما لو كان بحاجة إلى إخراج فكرة كانت تدور في دماغه. وضع يديه على الطاولة بالطريقة التي يضع بها لاعب البوكر أوراق اللعب. "عندما أفكر في مستقبل بلدنا، أرى الأسود وشديد السواد.. بالتأكيد، ربما سنجد طريقة للخروج من هذه الفوضى، فنحن دائما نبدو كذلك، لكن هناك الكثير من المواد المتفجرة، مثل ما حدث في القدس قبل يومين.. فقط تخيل لو أن قنبلة يدوية ألقيت على المسجد الأقصى".

ارتفعت حواجب شاليف الداكنة النحيلة وسقطتا مرة أخرى عندما أوضح وجهة نظره.. "ما أخاف منه هو التفكير السحري – الإيمان بأن الله سينقذنا".. كان يحدق في وجهي مباشرة، وكانت لهجته ترتعش وبدا وكأنه يستسلم.. "هل لدى بيبي "نتنياهو" وأباطرة التكنولوجيا لدينا استراتيجية طويلة الأمد للسلام أو من أجل بقائنا هنا؟ .. أنا لا أرى ذلك.. الديانة المسيحية للمستوطنين، هذا ما سيهلكنا".

"عامي، لطالما آمنت بفكرة تسليم يهودا والسامرة للفلسطينيين. "*خذها وحسب!*" هو ما يجب أن نقوله لهم. لكنا متأخرة جداً؟ من فضلكم، أخبروا العرب"، يقولها كما لو كان لدي خط مباشر مع الجماهير، "قل لهم إنهم لا يستطيعون التخلص منا.. نحن هنا لنبقى".

بالعودة إلى سيارتي التويوتا، مع وجود معتقدات مئير المظلمة في ذهني، مررت بجوار الكنيسة اللوثرية المغلقة، فربما التحديق في الأمر يجعل مئير يفكر في مآسي الحياة.. ويجب على الألمان الذين بنوا المبنى الحجري أن يعتقدوا أنهم سيبقون هنا حتى نهاية الوقت.

الفصل الثالث:

العمة هافا والظل الطويل للهولوكوست

قبل شروق الشمس في صباح اليوم التالي، وعندما خرجت لشراء نسختي من صحيفة هآرتس اليومية، ألقيت نظرة خاطفة –كما أفعل في كثير من الأحيان– على أطلال الحقبة العثمانية الظاهرة عبر الشارع، حيث الخان المهجور وسقفه مثل القبة الذي كان يأوي المسافرين وجِمَالِهِم.. نظرت إلى الورقة التي في يدي، ولفت انتباهي مقال بعنوان "اللقيط".. تمتمت في نفسي: "اللقيط".. حيث كان أحد أعضاء البرلمان المسيحيين لدينا، يريد أن يستفيد من العنف الأخير في القدس، ويطالب بأن "نعيد تأسيس السيادة اليهودية" على الحرم القدسي الشريف (جبل الهيكل).

لم أستطع إخراج رجل مثير (العجوز بائع الفانتا) من رأسي، لقد تدربت على اكتشاف التهديدات وتحييدها.. لأنه في عام 1967 لم يكن الرجل بائع الفانتا يمثل تهديدًا، وكان من الممكن أن يُنسى على الفور، إن لم يكن غير مرئي بالنسبة لي.. حقيقةً أن مثير لم يلاحظ الحادث فحسب، بل إنه غير مجرى حياته، وأكد حِكْمَة قراري بإجراء حوار مع روائي في مستهل بحثي عن مذكراتي.

بقيت في المنزل طوال الأيام التي تلت ذلك، تجاهلت اتصالات الصحفيين، وجلست أكافح الأعشاب الضارة، وأراقب أحفادي وأصدقائهم بعد ظهر يوم سبت حار، وهم يتسابقون مع مناشف الشاطئ حول حوض السباحة مثل الأبطال الخارقين في الخليج.. طوال الوقت، استمرت الصورة التي أنشأتها في ذهني للرجل بائع الفانتا في العمل على نفسي.. وبينما كنت جالسًا على سطح حمام السباحة، احتسي بيرة باردة بينما يضحك الأطفال، تذكرت محادثة لم أفكر فيها منذ أكثر من خمسين عامًا، ففي عام 1963 انضممت إلى الكوماندوز البحري، الوحدة الأكثر سرية في جيش الدفاع "الإسرائيلي".. وقبل أن أغادر الكيبوتس مباشرة للذهاب إلى الخدمة، قالت "هافا" –زوجة عمي يونان– والتي كانت تعيش في الكوخ الخرساني المجاور، إنه كان عليها أن تخبرني بشيء.. تذكرت بوضوح تحديقي الشديد في هافا، وهي ترتدي مريلة ذو مربعات متعددة الألوان وتحمل كعكة أنيقة، وهي تعرض قصة جندي ألماني أنقذ حياتها خلال الهولوكوست.. رددت على عرضها باستهزاء: أنا لا أهتم كثيرًا لحياتك في أوروبا.

قائمة الأشخاص الذين أرغب في إجراء مقابلات معهم من أجل هذا الكتاب لا يمكن أن تتضمن "هافا"، ليس لأنها توفيت في عام 2006، ولكنني لم أفكر في البحث عن أي ناجٍ من

الهولوكوست على الإطلاق، وهو إغفال مؤكد.. أما الآن فلم أستطع التوقف عن التفكير، كيف أنني –كطفل– تجاهلت رواية "هافا" الشخصية، وقمت بمغادرة الكيبوتس للانضمام إلى الكوماندوز، حيث كنت أتدرب على القتال.. بعد ظهر ذلك اليوم، ولأنني كنت بحاجة إلى معرفة المزيد عن هافا وحياتها في أوروبا، قمت بتعقبت رقم هاتف ابنها من زواجها الأول "داني كيدار"، وهو يعمل مهندس معماري في موشاف على الجانب الشمالي من الجليل، ووافق على مقابلتي بعد أيام قليلة في مكتبه.

كانت الرحلة إلى طبريا تأخذني من كيرم مهرال عبر عمق "إسرائيل"، قلب أرضنا الزراعية، ونزولاً إلى بحيرة طبريا.. لقد كان يومًا شديد الحرارة أيضاً، حيث ازدادت درجة الحرارة بسبب الانخفاض الحاد في البحيرة؛ تقع طبريا على ارتفاع مئات الأقدام عن وادي الموت.

قدَّم النزول رؤية بانورامية للمناظر الطبيعية أيام شبابي، حيث كان هناك عدد قليل من الفنادق المتباعدة في الأسفل، لكن الحياة بطيئة وتتغير بشكل أبطأ في هذا الجزء من "إسرائيل"، وهي مختلفة تمامًا عن منطقة الازدهار التكنولوجي.

في هذه المنطقة من "إسرائيل"، حيث يمكن للمرء زيارة مقبرة طبريا، مكان دفن الموتى النبلاء في الكيبوتسات الصهيونية، وهي مليئة بمقابر مصنوعة من الحجر الجيري المنحوت، وشواهد تلك القبور تتجه نحو جميع الاتجاهات وليس –كما هو منصوص عليه في اليهودية– نحو القدس فقط، إنها مقبرة يهودية مجردة من الدين، حيث تفتقر من الرموز التقليدية لليهودية، حيث حلَّ الشعر والفلسفة والاشتراكية محل آلاف السنين من الحنين الفاشل.

هذه العلمانية الصارمة مناسبة لمعظم سكان المقبرة المشهورين، السابحون في خَيَالهم، مثل: موسى هيس، مؤلف كتاب "التاريخ المقدس للبشرية" بالتعاون مع كارل ماركس، حيث يقول البعض إن ماركس رفع من هيس السطر الأيقوني "الدين أفيون الجماهير".

ألهمت دعوة هيس للكومنولث هرتزل الاشتراكي اليهودي في فلسطين للكتابة عن: "الدولة اليهودية والأرض الجديدة القديمة"، حيث تُمنَح الدولة الديمقراطية المستقبلية لليهود، وجميع حقوق اليهود والمسلمين والمسيحيين متساوية.. بجوار هيس في مقبرة كينيرت كان الكاتب ناخمان سيركين، صاحب

الرؤية لـ "اليهودية الصهيونية" التي "تقتلع جذور اليهودية الدينية" من خلال "أيديولوجية يمكن الارتقاء بها إلى مرتبة الدين".

الشاعرة الإسرائيلية/ راشيل بلوشتاين
(وتخليداً لها ولأعمالها تم وضع صورتها على العملة الإسرائيلية فئة 20 شيكل)

كما أن شاعرتنا الوطنية راشيل بلوشتاين مدفونة أيضًا هناك.. وكتابٌ من شعرها مربوط على قبرها بسلسلة حديدية على لوح الحجر الجيري الضخم، وقد مُزِّقت صفحاتُه وتغير لونه من أيدي آلاف الحجاج الزائرين للأماكن المقدسة. وقد حفظت سطور من شعرها عندما كنتُ طفلاً:

لم أغني لك يا أرضي

ولم أمجد اسمك

من خلال أعمال البطولة

بغنائم الحرب:

فقط شجرة – زرعتها بيدي

على طول شواطئ الأردن الهادئة.

يقع مكتب داني في مبنى خرساني مصمم على الطراز القاسي في الستينيات، ولو لا أن التكييف كان يعمل بكامل طاقته، لكنا فتحنا النوافذ واستمعنا إلى تدفق الأمواج اللطيفة من بحيرة طبريا.

كان داني رجل يتمتع بلياقة بدنية ولاعب محترف في كرة القدم الأمريكية، أخبرته وهو جالس مقابل مكتبه عن الذاكرة التي عادت إليَّ بجوار المسبح، وعندما اتصلت لتحضير الاجتماع، قلت إنني آمل أن يتمكن من مشاركة المزيد عن تجارب هافا في زمن الحرب، أشار إلى ملف سميك على المكتب وأوضح أنه قدم تقريرًا مكتوبًا عن حياة والدته في أوروبا، دفع الملف نحوي وقال: "هذا كل ما لدي".

فتحت الملف لأجد أنه يحتوي على صور إلى جانب كتاباته، وعندما سحبت مجموعة من الصور.. أوضح داني قائلاً: "لقد أخذت هذه الأشياء خلال رحلة إلى المجر ورومانيا في عام 2010". تضمنت كومة الصور العديد من منازل العائلة ومصنع للأحذية في بودابست، ثم أشار إلى صورة رجل كبير السن يرتدي الزي العسكري وقال: "هذا هو والد هافا، الذي كان يملك مصنع الأحذية.. كان في الثالثة عشرة من عمره عندما تم تجنيده في الجيش المجري.. ثم مات

وهو يقاتل من أجل قوى المحور[1] أثناء حصارهم لستالينجراد".. في المجر، وبعد أن أصبح اليهود غير مرغوب فيهم، استمروا في القتال والموت من أجل بلدهم.

وتابع داني: "لم يكن هناك وقت للحداد على وفاته". وبعد عام، في مارس 1943، غزا النازيون المجر، وعلى الفور تقريبًا، بدأ أدولف أيخمان في تنظيم نقل اليهود إلى معسكرات الموت. وفي أبريل 1943، انتهى الأمر بهافا مع والدتها وشقيقتها ليلي وشقيقها آشر في حي يهودي، وبعد بضعة أشهر من ذلك، وتحديداً في يناير 1944، قام النازيون مع مساعديهم المجريين بإجبار هافا ووالدتها وأختها وشقيقها وابنة عمها جوديث على ركوب عربة ماشية (تحتوي على البقر والاغنام) كانت متجهة إلى أوشفيتز بيركيناو. أرسلهم يوسف منجيلي، الذي كان ينتظرهم بحافظة أوراقه، مع ابنة عمها جوديث إلى معسكر عمل، بينما قُتل كل فرد في العائلة في غرف الغاز، وقمت بدراسة الصور التي التقطتها داني في أوشفيتز عام 2014.

بعد ثلاثة أشهر أو نحو ذلك، وفي معسكر النساء في مخيم "لاجر C"، تم إرسال هافا وجوديث للعمل في مصنع للطائرات بالقرب من " Leipzig–لايبزيغ"[2]. حيث كانوا هناك في نفس الوقت مع آن فرانك. وفي يناير 1945، ومع تقدم الجيش الأحمر على الحدود الألمانية، أجبرت القوات الخاصة هافا والسجينات الأخريات، بما في ذلك جوديث، في مسير الموت الذي استمر ستة عشر يومًا إلى تيريزينشتات[3]. كانت النساء نصف الجائعات يرتدين الخرق العارية، ويجرجرن أنفسهن عبر الثلج. ثم تم إطلاق النار على السجناء الذين سقطوا وراءهم. وفي إحدى النقاط تعثرت هافا، فساعدتها جوديث بسرعة، لكن هافا كانت قد فقدت حذائها في الخريف ولم تستطع الاستمرار طويلاً بأقدام متجمدة. حيث قام جندي ألماني من الجيش النظامي بإنقاذها قبل إطلاق النار عليها من قبل قوات الأمن الخاصة، وبدلاً من وضع رصاصة في رأسها حسب تعليمات قائده، طلب منها أن تواصل المشي، وأعطاها زوجًا من الأحذية كان قد خلعه من امرأة ميتة، ولف معطفه الصوف على كتفيها الهزيلين.

وصلوا إلى تيريزينشتات، حيث حرر السوفييت المعسكر، وهافا وجوديث الآن أحرار، وكانا وحدهما في العالم، الشيء الوحيد المتبقي لهافا في بودابست هو مصنع الأحذية الخاص بعائلتها.

---

(1) دول المحور هي دول شكّلت تحالفًا عسكريًّا بقيادة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية (1939– 1945م) وهي: دولة ألمانيا، دولة إيطاليا، إمبراطورية اليابان، دولة فنلندا، دولة ألبانيا، دولة المجر، دولة سلوفاكيا.

(2) مدينة في ألمانيا.

(3) معسكر لاعتقال اليهود في ألمانيا أنشأه البوليس السري النازي خلال الحرب العالمية الثانية.

ماذا كان يفعل المراهق المصاب بصدمة نفسية؟ قامت بالانضمام في بودابست إلى الجهود التي كان يديرها العم يونان لتهريب اللاجئين اليهود إلى فلسطين، حيث انتهى بها المطاف هي وجوديث في كيبوتس معجان.

انطلاقا من لفائف المخططات على مكتبه، كان داني رجلًا مشغولًا، ولم أرغب في تأجيل يوم عمله، شكرته على وقته، وتركت المكتب مع مجموعة من النسخ المصورة من القصص عن حياة هافا.

من مكتبه، سافرت مسافة قصيرة إلى المقبرة حيث دفن والداي بجوار يونان وهافا وجوديث، حيث بدأ الخمسة حياتهم في الإمبراطورية النمساوية المجرية ودُفنوا الآن جنبًا إلى جنب تحت صف من شواهد القبور المتطابقة.

وبعد وضع حجر صغير على قبر هافا، توجهت عبر الشارع إلى الكيبوتس، حيث كانت البوابات المؤدية إلى السياج الصدئ المتصل بالسلسلة، والتي أقيمت قبل خمسين عامًا لمنع المتسللين من عبور خطوط وقف إطلاق النار، كانت مفتوحة على مصراعيها.

وعند دخولي، سمعت بعض الديوك تصيح، فلم يتغير شيء للأفضل في الكيبوتس منذ أن كنت صبياً.. نظرت ولكنني لم أرى أي نوع من الازدهار في الحياة "الإسرائيلية" المعاصرة، فلا توجد سيارات ألمانية عالية الجودة، ولا توجد الجدران الخاصة بتسلق الأطفال.

حتى يومنا هذا، فإن كيبوتس معجان هو بيتي الروحي، ورمزٌ لحرية الصبا في التجول والسباحة والحلم بعالم أفضل، فعلى الرغم من إطلاق النار المستمر من البنادق السورية، فقد كان مكانًا للتفاؤل، عبّرت عنه هافا على أفضل وجه، وهي امرأة لم تظهر عليها علامات الصدمة الخارجية، ولا المرارة بسبب تجاربها في الحرب، بل سعت خلف الجميع ووجدت الأفضل، بما في ذلك الجندي الألماني الذي أعطاها حذاء، بدلاً من إطلاق النار على رأسها، فهي أدارت مدرسة وعلمت أجيالاً من الأطفال في وادي الأردن أن يؤمنوا بأنفسهم، وفي المستقبل، وأن يؤمنوا أيضاً بالسلام.

بعد وفاة "آبا"، لم أزر كيبوتس معجان إلا نادرًا، ولم أكن أعرف الأشخاص الذين يعيشون في الكوخ الخرساني القديم غير المزخرف لوالدي، وعندما نشفت العرق النازل على عيني، تعجبت كيف أننا كنا نعيش بدون مكيف للهواء.

كما في الأسلوب الاشتراكي، كان والداي يستعملا أثاث مصنوع فقط من خشب الصنوبر البسيط، وعدد قليل من الكتب، لأن مكتبة الكيبوتس الواسعة أصبحت مكان للعبادة البرجوازية الخاصة في الشتات، حيث لا يوجد ديكور، ولا توجد لوحات زيتية للمناظر الطبيعية الأوروبية،

ولا توجد أريكة أمام التلفزيون، ولا يوجد مطبخ مثل مطبخنا أنا وبيبا، الذي يوجد به آلة إسبريسو وغسالة صحون.

هبت الريح كعادته من كل ظهيرة في الصيف، خلعت قميصي وسرت عبر رقعة من العشب الميت إلى الشاطئ للغطس، وفي طريقي إلى الشاطئ، نظرت عبر النوافذ المغطاة بالغبار في بيت الثقافة الحزين ذو النظر البائس، حيث يسكنها الآن العناكب وعائلة من القطط الضالة.

ابتسمت بحزن حينما تذكرت تجمعات ما بعد العشاء عندما كنت صغيراً، والمسرحيات والأفلام والحفلات الموسيقية والعروض المسرحية والرقصات الشعبية، وكل الأحاديث والنقاشات، نساءً ورجالاً ممتلئة بالضحك حتى أسنانها، ومؤمنون بأننا نحمل الراية من أجل تقدم الإنسانية إلى الأمام، ويناقش المثاليون أنواعًا بديلة من التحرر: للنساء، للطبقة العاملة، وللمضطهدين في العالم.

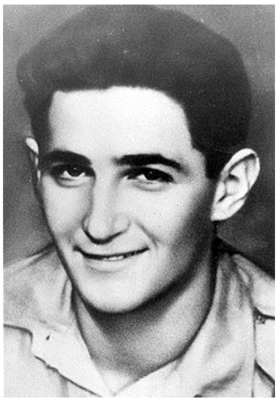
بيرتس غولدشتاين

قبل أن أخلع سروالي وأغوص عاريًا في الماء، توقفت مؤقتًا أمام نصب تذكاري لبيرتس غولدشتاين، كوماندوز البلماح الذي هبط بالمظلة مع يونان إلى يوغوسلافيا في عام 1944. على الرغم من أننا لم نعرف الله لنعبده، فقد كان لدينا أبطالنا، وكان "آبا" زعيم الكيبوتسات، مُصمماً على إقامة ضريح، لأنها كانت المحاولة الأكثر جرأة من قِبَل اليهود في فلسطين لإنقاذ الأرواح خلال الهولوكوست.

إذا لم نكن نعرف شيئًا عن الهولوكوست، فيمكننا كأطفال أن نروي كل تفاصيل شجاعة العم يونان المتهور، رجل العمل مثل الأب جونان، كان مفعماً بالحيوية متشوقاً للخطر والاندفاع وهرمون الأدرينالين لديه مرتفع للمغامرة.

أمضى المرحلة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية مع مدير العمليات الخاصة (SOE) الذي أنشأه البريطانيون لإجراء التجسس والتخريب والاستطلاع في أوروبا المحتلة، كما أن الشاعرة هانا سينش التي جندها يونان، انضمت إليه وإلى غولدشتاين.

هبطوا بالمظلات خلف خطوط العدو في يوغوسلافيا، حيث انضم إليهم الثوار، وفي المساء وقبل عبور الحدود إلى المجر، قرأت هانا بصوت عال قصيدة كتبتها للتو، حيث تم القبض على غولدشتاين وإرساله إلى معسكرات الموت، كما أنه تم إلقاء القبض على هانا وتعذيبها وإعدامها من قبل النازيين في السجن.. أدى هذا الاعتقال والتعذيب والقتل لغولدشتاين

ولهانا إلى تحويل القصيدة إلى واحدة من أشهر الأغاني خلال حرب الاستقلال عام 1948: "طوبى للكبريت الذي يُستهلك في إشعال النيران".

غصت في البحيرة، كانت فاترة وزيتية بسبب الطحالب، وعندما سبحت في مياه أعمق وأكثر برودة، عادت ذكريات أيام المدرسة إلى الوراء، البنادق السورية التي تحدق في وجهنا ونحن أطفال من الجولان أكدت لنا أننا نتعرف على الشخصيات البطولية في الكتاب المقدس أو الفيلسوف جوزيفوس.. في كل صباح وعلى الإفطار يقرأ معلمونا مقطعًا لنا، أما بالنسبة للألفي سنة الماضية من اليهودية الحاخامية، فإننا لم يكن لدينا اهتمام يُذكر بقصصه كما فعلنا في أصحاب مصانع الأحذية الأوروبيين أو رؤساء مطاحن الدقيق، أو في هذا الصدد موسى مينديلسون أو مارتن بوبر، وهي شخصيات ملتصقة تمثل الضعف وليس القوة.. فتعاملنا مع المقاتلين والمتمردين القدامى مثل مقاتلي حرب العصابات الذين تصدوا للرومان، وأُعجِبنا بالسلطة، وفضلنا شمشون البطل على يهوذا هاناسي، لقد أبقانا المعلمون في مقاعدنا من خلال تمجيدنا بقصص أبطال الجيش اليهودي، وأسلاف البلماخ، ونخبة الكوماندوز في جيش الدفاع "الإسرائيلي"، وكيف هزمنا الأعداء بسيوفنا.

نحن فقط –وليس الله– الأبطال الرئيسيين في ملحمتنا الثورية للتحرير، ففي عيد الفصح لدينا، قاد العبرانيون أنفسهم للخروج من السبي في مصر القديمة، لقد كنا "هالوزيم[1]" الذين ألقوا قيودنا ودخلوا أرض "إسرائيل" وركلوا مؤخراتنا، واستمرت حروب التحرير مع كل شجرة زيتون أو كثيب رمل استولينا عليه من العدو.

كان صديقي المقرب في الكيبوتس يسرائيل جوتمان، الذي نطلق عليه جميعًا اسم سروليك، وهو لقب مشترك "لإسرائيل".. كطفلين في السابعة أو الثامنة من العمر، كنا نحن الاثنين –اللذين وُلدنا على بُعد ثلاثة أيام– نتشارك أكثر من العمر في عنبر مشترك، كان سروليك مثلي تمامًا؛ لم نكن نحب شيئًا أكثر من المصارعة في الماء، أو لعب الحرب، وهنا يجب أن يكون أحدنا هو الرجل الطيب "الإسرائيلي" النبيل، والآخر العربي الشرير الذي يتسلل من موقعه في الجولان.

قام والدا سروليك –للأسف– بنقله إلى بلدة كريات طبعون في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي بسبب الخلافات الأيديولوجية في الكيبوتس، فآباؤنا الاشتراكيون الثرثارون

(1) هالوزيم: وهم اليهود الذين توافدوا على فلسطين للمساعدة في بناء الوطن القومي اليهودي، وهو توفير مكان للراحة لـ "قبيلة التائه والصدر المتعب" في أرض آبائهم القديمة. تتشكل جمعيات "هالوزيم" في جميع المراكز اليهودية الكبيرة في أوروبا الشرقية، وهم يستعدون لعملهم في فلسطين بتدريب شديد في كل نوع من العمل اليدوي.. "هالوزيم" كلمة جديدة أضيفت إلى مفردات اليهود في جميع أنحاء العالم.

والمتشاجرون لم يستطيعوا الاتفاق على الصيغة المناسبة للأخوة العالمية، ومع ذلك، كان آل جوتمان يزورون كيبوتسنا كل صيف، مثل: "هاك فين" و"توم سوير" على نهر المسيسيبي، حيث استأنفنا أنا وسروليك التجول في البرية الفارغة على بعد خطوات من الكيبوتس، وكل يوم كنا نقوم بتمشيط الشاطئ ونجد كنوزًا جديدة: عملة عثمانية، زجاجة بيرة قديمة من جندي إنجليزي، جمجمة أرنب مبيضة بالشمس، رصاصة صدئة من حرب الاستقلال.

كصبي، حافي القدمين تتناثر بهما الماء في مياه الجليل، حلمت بالفعل بالانضمام إلى قافلة الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13)، التي كانت قاعدتها بالقرب من حيفا في عتليت، وهي آخر بؤرة استيطانية في الأرض المقدسة أخلاها الصليبيون عام 1291، وكنت مشغوفاً بقصص الوحدة الأكثر سرية في جيش الدفاع "الإسرائيلي" بأكمله، ومصمماً على الانضمام إلى المجموعة، أما صديقي سروليك الذي كان أقل حبًا للبحر، قرر الانضمام إلى جيش النخبة، وهي وحدة قتالية تابعة للجيش.

لم أرَ سروليك مرة أخرى لمدة عامين لأنه في عام 1959، وهو العام الذي بلغتُ فيه الرابعة عشرة من عمري، اصحبني "آبا" أنا "وإيما" إلى الأرجنتين في مهمة ظاهريًا لحركة الكيبوتس، على الرغم من أنني كنت أظن أن هناك المزيد.

بعد ذلك بعامين، عندما تحدثت أخيرًا بما يكفي من الإسبانية لتكوين صداقات قليلة في الحي، انتهت المغامرة فجأة عندما أيقظني "آبا" ذات ليلة وقال إنه يتعين علينا حزم حقائبنا. علمت من دفاتر ملاحظاته في النهاية أنه متورط في سرقة عباءة وخنجر لأدولف أيشمان.

بمجرد أن تم إجلاس أيخمان بأمان في الجزء الخلفي من طائرة كانت متجهة إلى "إسرائيل"، حيث سيواجه أيخمان المحاكمة ويُشنق بسبب جرائم الحرب النازية، حيث اعتبرت الحكومة الأرجنتينية أننا أشخاص غير مرغوب فيهم بسبب ما قمنا به، وفي تلك الليلة المروعة تمكنا من الهرب عبر النهر بالقارب إلى أوروغواي.

استغلت "إيما" رحلة العودة إلى "إسرائيل" لتعرفني على بعض ثقافتها الأوروبية، فقد أصرت على القيام برحلة جانبية إلى فلورنسا لرؤية ديفيد لمايكل أنجلو، كما أنها اشترت لي نسخة مصغرة من التمثال، لذلك لن أنسى أبدًا كيف يمكن أن يبدو الجمال.

في "إسرائيل" استمرت صداقتي مع سروليك، حيث درس في حيفا بمدرسة داخلية عسكرية وقضى عطلات نهاية الأسبوع في الكيبوتس، وفي عامنا الأخير في المدرسة، قمنا نحن الاثنين بحمل حقائبنا على الظهر، وسرنا من معجان على طول الطريق إلى جبال الكرمل، وهي مغامرة شاقة جداً تهدف إلى إعدادنا للجيش.

في الدقيقة التي أتممت فيها الثامنة عشرة من عمري، اشتركت في الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13)، ولأنني كنت طفلاً وحيدًا، فقد تطلب الانضمام إلى أي من الوحدات التشغيلية –ولا سيما فلوتيلا 13– موافقة الوالدين، ولم يكن لدى "آبا" –الذي كان يتوقع الأقل من ابنه– أي اعتراض. ألم يخاطر بحياته بتهريب اللاجئين ومحاربة العراقيين أثناء حصار كيبوتس غيشر في حرب الاستقلال؟ بعد كل شيء، لم يكن إنشاء كيبوتس تحت مرمى زناد السوريين السعداء مسألة خنوع.

كانت المشكلة مع "إيما"، لقد قبلت بقدرية قاتمة أنني يجب أن أخدم بلدنا، حيث رسمت الخط مع كوماندوز البحر، ألم تضحى هي بما فيه الكفاية بالفعل؟ لقد غادرت جبال الكاربات(1) الخضراء إلى مستنقع ينتشر فيه البعوض، وتخلت عن مجوهراتها لتشتري جرارًا للكيبوتس الخاص بنا، والأسوأ من ذلك كله –على عكس طبيعتها– أنني كنت أنام في مسكن الأطفال في نظامنا الاشتراكي، كما لو كنت أنتمي إلى المجمَّع وليس لها.

أما الآن، في عام 1963، رفضت السماح لابنها الوحيد أن يخاطر بحياته في مهام شرسة، ليس لأنه مضطر لذلك، ولكن لأنه أراد ذلك.. قالت: "كيف يمكنك حتى أن تطلب مني التوقيع على هذا؟" ثم دفعت الصفحة للخلف في اتجاهي، حيث اهتمت إيما بالأسرة والأطفال والمسرح والموسيقى أكثر من اهتمامها بالاشتراكية، وضحت بكل شيء تقريبًا لأنها وقعت في حب أحد الأيديولوجيين، ولم تكن ستضحي بابنها الوحيد.

وقفنا في الكوخ الخرساني، والعرق يتصبب من جبينها المجعد بسبب الحرارة عديمة الرحمة، لم يسعدني رؤيتها تتأذى، لكنني نشأت على حكايات رائعة عن المكابيين والبلماخ، وشعرت بالإهانة من والدتي، هذه حياتي، وإذا كنت أرغب في الغوص تحت سفينة لوضع لغم، أو اختراق بطيء لأراضي العدو لتصوير برج اتصالات، فهذا كان شأني، وليس شأنها.

بعد أن فشلت في إقناعها، لجأت إلى إنذار أخير كنت أعرف أنه سينجح، بدأت أقسى جملة تخرج من شفتي، ""إيما" إذا كُنتُ في مهمة، نعم هناك احتمال أن أكون مقتولًا، ولكن إذا لم أتمكن من الانضمام إلى فرقة الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13) بسببك، فهناك يقين مئة بالمائة أنك لن تريني مرة أخرى"، بعدها قامت ووقَّعت على الاستمارة والدموع التي تنهمر من عينيها.

(1) سلسلة جبلية في أوروبا.

كانت العقبة الأخيرة بالنسبة لي هي الكيبوتس نفسه، حيث طالب الأعضاء أيضًا بالحق في الموافقة على خطتي، وفي الجمعية في دار الثقافة صوتوا بـ"لا"، ربما ضغطت "إيما" ضدي من وراء الكواليس، لا أعرف ما أقول.

رفض الكيبوتس منحي الإذن بالانضمام إلى ما اعتبروه مثالًا على الفردانية التي اعتبروها لعنة: لم يكن من المفترض أن يكون الرجل الجديد شخصًا متهورًا من أجل الإثارة، بل يجب أن أنضم إلى وحدة عسكرية نظامية مثل أي شخص آخر.

لقد أعطوني فرصة للتحدث، وقدّمت نفس الإنذار الذي وجهته إلى "إيما" تقريبًا، نظرتُ إلى والديّ ورفاقهم، هؤلاء الأشخاص الذين أُعجبت بهم لأنهم حولوا جحيم الخراب وبعوض الملاريا إلى جنة.. قلت لهم: "لا أريد مغادرة الكيبوتس، لكن قرارك يفضح كل ما علمني إياه الكيبوتس حول الدفاع عن أرضنا التي حاربناها بشق الأنفس من أعدائنا.. وماذا عن السوريين؟" قلت ذلك مشيراً إلى الاتجاه العام لموقفهم من الجولان.. "ألا تخاطر بحياتك في كل مرة تقود فيها جراراً عبر الحدود؟ لماذا تختلف معركتك لتوسيع أراضينا عما أنا مصمم على القيام به، وهو الدفاع عنها؟" الطريقة الوحيدة التي تتمكنوا من خلالها من زراعة وجني الموز كانت عبر حمايتهم من الآخرون، ولحسن الحظ، تتمكنوا من احتلال أرضاً جديدة للاستيطان.

شعر "جونا" أنني سأخرج حقًا من الكيبوتس ولن أعود أبدًا إذا ما تمسكوا ببنادقهم، واقتنع الناس لإبطال رأيهم.. فأصبحت حرا.

الفصل الرابع:

الصامتون

قبل أن أعود إلى كرم مهرال من الكيبوتس، توقفت عند سلسلة مطاعم همبرغر قد بنيت على أراضي سمخ، وبعد أن قضمت برجر الجبن الخاص بي، لاحظت شخصاً ما يتناول طعام العشاء يحدق بي، التفت هذا الشخص إلى زوجته التي كانت ترتدي الحجاب حسب التقليد الدرزي، وقال شيئًا ما قبل أن يقف ويذهب نحو نهاية المطعم، كان شعره غامق، شبه أسود، وكان على شكل قصّة عسكرية، وكان يسير بإيقاع جندي ثابت. قال الرجل بعد أن عرّف عن نفسه على أنه ضابط سابق: "السيد آيلون"، "هل يمكنني الحصول على لحظة من وقتك؟ أريد فقط أن أقول كم أتمنى أن تعود إلى السياسة، "إسرائيل" بحاجة إلى رئيس وزراء مثلك".

أشرت له للجلوس على المقعد الفارغ المجاور لي، لكنه قال إنه يفضل الوقوف.. أجبته: "شكرًا لك، لكنني حقًا لست منقطعًا عن السياسة"، شرحت قدر المستطاع أنني أفتقر إلى المرونة الأخلاقية اللازمة، فضحك مع تقديره لسخريتي، ثم انتهى بنا الأمر بالتقاط صورة جماعية مع زوجته وابنه.

في طريق عودتي إلى المنزل، أعطت ازدحامات المرور لأفكاري متسعًا من الوقت للتجول، ومزقتني الذكريات الحادة مثل الأسلاك الشائكة، بعيدًا عن التلال الجافة التي كنت أتحرك فيها، رقد صديقي حاييم ستورمان في مقبرة كيبوتس عين هارود، دُفن جسد حاييم بعيونه الداكنة المتلألئة، وابتسامته الجريئة، وفكه الزاوي العنيد، والروح الصهيونية التي نشأت معها، لقد فاتتني جنازته لأنني كنت في المستشفى حيث لا زلت أتعافى من نفس المعركة التي قُتِل بها.

كانت المراسم حدثًا وطنيًا لأنه كان من الجيل الثالث من ستورمان(1)، الموت من أجل "إسرائيل" واليهود في تقرير المصير، وهو إرث من البطولة، ومن النوع الذي ربما لم يكن موجودًا منذ مملكتي داود وسليمان.

انطلق جد حاييم، الأوكراني المولد، المسمى أيضًا حاييم، مع رفاقه لتجفيف المستنقعات بين جبل الكرمل وبحيرة طبريا، كما وساعد في تأسيس كيبوتس عين حرود، الذي يصفه آري شافيت في (أرضي الموعودة) بأنه "مطبوع على نفسية كل إسرائيلي"، لقد كتب أنه "نستشعر ما

---

(1) جيمي ستورمان، حامل لواء الجيل الثالث.

هو مصدرنا، ونقطة انطلاقنا"، لأن الكيبوتسات كانوا على دراية بأنه "ما كانوا على وشك القيام به قد يتطلب العنف، وكان عزمهم هو السيطرة على الوادي مهما حدث".

المثالية السلمية لحاييم الأب اصطدمت بالواقع على الأرض، فعندما بدأ العرب في مهاجمة التجمعات اليهودية أثناء الثورة العربية الكبرى في منتصف الثلاثينيات، كان من أوائل الذين انضموا إلى منظمة الدفاع عن الهاغاناه، ودافعوا عن مستوطنات "البرج والحظيرة"، وهي مزارع جماعية محاطة بأسوار وتحميها أبراج مراقبة تدافع عنها ضد الغارات.

وفي عام 1938، بينما كان في سيارة جيب يستكشف أرض كيبوتس جديدة في وادي بيت شيعان، مات جرَّاء اصطدامه بلغم أرضي، زرعه أتباع عز الدين القسام، الداعية الإسلامي السوري، الذي نشر العمل الجهادي أولاً ضد الفرنسيين في لبنان، ثم ضد اليهود في فلسطين، وورث موشيه نجل حاييم الأب مسدس والده، وعندما قام العرب بقتل موشيه في معركة بالقرب من بيت شيعان عام 1948، تم تسليم البندقية لابنه حاييم البالغ من العمر ثلاث سنوات.

كُنتُ قائدًا ومدربًا لحاييم في الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13)، وأصبحنا أصدقاء مقربين، الوحدات العسكرية البحرية لديها أسبوع الجحيم؛ ولكننا مررنا بشهر الجحيم، ثلاثون يومًا من العذاب الجسدي والنفسي المصمم للتخلص من كل شيء عدا الأكثر عزيمة.. فإذا نجوت من هذا الاختبار القاسي، تنتقل بعدها لثلاثة أشهر من تدريب المشاة والأسلحة المتقدم، والهبوط بالمظلات، والحرب البحرية، وعمليات القوارب، والتعامل مع المتفجرات، وعمليات الهدم.

أخيرًا، تحملنا شهورًا طويلة من الغوص في عرض البحر، ليلًا ونهارًا، لممارسة الغارات على السفن والأهداف البرية.

ولاختبار قوتنا، كنا ننتظر العواصف القوية، تلك الجبهات الباردة التي تولول من أقصى الشمال جالبة العواصف الثلجية إلى الجولان وتقود الأمطار إلى الساحل، ففي جوف الليل كنا نجتاز القوارب عبر موجات يبلغ ارتفاعها عشرة أقدام ونغرق في المياه قبالة ساحل عتليت مع حَزْم ستين رطلاً على ظهورنا.. ومع ذلك، لم يكن البرد أو ثِقَل حقائبنا هو السبب في كسر معظم المجندين؛ لقد كانت العزلة النهائية للسباحة لساعات عبر المياه العميقة للخليج المظلم للغاية، لدرجة أنك بالكاد تستطيع رؤية البوصلة أو مقياس العمق للتنقل في طريقك.. شعرنا وكأننا رجال معصوبي الأعين نزلوا في دوامة.. لقد أطلقوا علينا اسم الصامتين لأن الغواصين في أعماق البحار لا يمكنهم سماع أي شيء.. وكان هذا هو البقاء للأصلح، وبعض الشامشون (نسبة إلى شمشون الجبار) في العصر الحديث استمروا لمدة نصف ساعة فقط.

أولئك الذين نجحوا في مواجهة المزيد من التدريب، حيث كنا نتدرب على القيام باستطلاع دفاعات العدو الساحلية، أو نناور غواصات صغيرة غير عملية ومليئة بالمياه من خلال الأمواج التي تصطدم بالساحل الصخري، وأيضاً كنا قد ضربنا الشاطئ بعد محاربة التيارات التي كانت تحاول إعادتنا إلى البحر، وكنا نتدافع صعودًا ونزولًا عبر شباك الشحن وعبر جسور الحبال، ونتسابق صعودًا وهبوطًا على الجبال، وننزلق مثل الأفاعي عبر حقول الألغام، ونتدرب على وضع الفخاخ المتفجرة والعبوات الناسفة أو تسلق جوانب السفن باستخدام كاتمات الصوت في متناول اليد.

بصراحة، لم نكن مدفوعين بأيديولوجية الصهيونية الاشتراكية للرجل الجديد ولا روح ما بعد الهولوكوست المتمثلة في عدم تكرار ذلك أبدًا، كل ذلك يعود إلى إثارة المغامرة والخطر، الأدرينالين المسكر للقتال، والرغبة في تخطي حدودنا، والسباحة بشكل أسرع، والغطس بشكل أعمق، والجري لمسافة أبعد، وإطلاق النار بشكل أقل من المداولات الدقيقة من الغريزة والحدس شكلت معادلة البقاء.. حيث في مجال عملنا، إذا ترددت فإن هدفك سيسقطك.

إحساسي بالمهمة اتخذ أبعادًا جديدة بعد حرب 1967، وحتى ذلك الحين، كان أعداء "إسرائيل" الرئيسيون، السوريون في الجولان والأردنيون في الضفة الغربية والمصريون في غزة وسيناء، جميعهم عبر الحدود البرية. وبعد عام 1967، أصبح البحر الأحمر المواجه لمصر أهم حدودنا، حيث حرّضت مصر على حرب الاستنزاف، ونحن الكوماندوز البحريين كنا بحاجة إلى عمليات خاصة.

كانت الغارات المصرية تتزايد من حيث العدد وقوة القتل، مما أثار حالة من الذعر في "إسرائيل"، وعلى الرغم من أنني اشتركت في الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13) من أجل التحدي وإثارة الخطر، إلا أن الاستعدادات لحرب الأيام الستة جعلني أدرك لأول مرة أن تعهداتنا كانت استمرارًا للحروب التي شنها آباؤنا ضد الحصار البريطاني، وضد المتمردين العرب المسلحين، وضد الدول العربية التي تجمعت ضدنا في أعقاب خطة التقسيم للأمم المتحدة عام 1947 وإعلان استقلالنا عام 1948.

فما زال أعداؤنا يرفضون حقنا في الوجود، واعتقدنا أنا ورفاقي أنه لا خيار لنا سوى مواصلة القتال حتى تُجبرهم قوتنا على قبول "إسرائيل" كأمر واقع، وبعد انتصارنا في حرب الأيام الستة، أصبح بإمكاننا الآن تحقيق مصيرنا بتحرير أرض "إسرائيل"، واستيطان يهودا والسامرة والجولان وغزة وسيناء، كان الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13) يلعب الآن دورًا رئيسيًا في هذا الصراع العنصري.

في 10 يوليو 1969، شق كوماندوز العدو طريقهم عبر قناة السويس في زوارق، وبالقرب من كاسر الأمواج عند المدخل الجنوبي للقناة، تسللوا إلى خطوطنا وهاجموا فيلقنا المدرع، حيث اشتعلت النيران، ولقي ثمانية من جنودنا حتفهم في دباباتهم، وأصيب تسعة، وأُسِر واحداً حيًا، والاسطول البحري الثالث عشر سيقدم رد "إسرائيل".

بعد الغسق في 19 يوليو، وفي اليوم السابق على هبوط نيل أرمسترونج على سطح القمر لاتخاذ "خطوة صغيرة للإنسان وقفزة عملاقة للبشرية"، تجمعنا نحن الكوماندوز في (فلوتيلا 13) في رأس سدر، وهي منطقة بدوية بها متاهة ووديان صحراوية في سيناء جنوب قناة السويس.

في تلك الأيام قمنا بواحدة من أكثر الامتدادات استراتيجية للمياه على وجه الأرض، إذ تمكنت أنا وأصدقائي من التسلل عبر الدفاعات المصرية والقضاء على الجنود في مصر في الأرض الخضراء أو الجزيرة الخضراء، وهي قلعة لا يمكن اختراقها مثل شيء من فيلم (بناطق نافارون The Guns of Navarone) للممثلين (جريجوري بيك وأنتوني كوين)، فسنقدم كارثة جديدة على الوطن المصري، فقد أقام المهندسون العسكريون البريطانيون القلعة خلال الحرب العالمية الثانية لحماية قناة السويس، والتي تعتبر شريان الحياة الاستراتيجي للغاية بالنسبة للإمبراطورية البريطانية. والرسالة المدوية هي أنه بغض النظر عن مدى قوة التحصين، فلا يوجد موقف مصري بعيد المنال، ولا يمكن لأي جندي عدو، ولا حتى نخبة الكوماندوز المختبئين في أهرامات الجيزة، أن يناموا أو يتبولوا دون الخوف الشديد من أن نظهر، والبنادق ملتهبة.

كان من المقرر أن تكون الغارة أول هجوم بهذا الحجم من نوعه في تاريخ الحروب البحرية، حيث كان هدفنا هو: تدمير محطة رادار، وتدمير مدافع من عيار 37 ملم، وأربع قطع مدفعية مضادة للطائرات من عيار 85 ملم ثقيلة وخفيفة على حد سواء، وقتل معظم المقاتلين في الجزيرة.

خطة المعركة البرمائية الخاصة بنا، أجبرتنا على السباحة ثم الغوص نحو هدفنا عبر المياه التي تشتهر بقسوة التيارات قبل التحول إلى وضع الهجوم في اللحظة التي يُخرِج فيها الغواصون رؤوسهم من الماء أسفل جدران ثكنات العدو، لم تكن الوحدات العسكرية الأمريكية أو الإيطالية في الاسطول العاشر، ولا نظرائهم البريطانيين أو الألمان أو السوفييت، قد ذهبوا من أي وقت مضى، مثل كاتربيلر الذي خرج من الشرنقة، والغوص من مسافة قريبة مثل الكوماندوز.

تدربنا في مركز شرطة "غيشر"، والذي تم تحويله إلى نسخة طبق الأصل من الجزيرة الخضراء، كان مركز غيشر في المكان الذي كان يتمركز فيه والدي في عام 1948، ووفقًا

لتقارير استخباراتنا، فإن الجزيرة الخضراء –التي تشبه ساق كلب وليست أكبر من ملعب كرة قدم– كانت محمية من القوى المعادية بثلاث لفات من الأسلاك الشائكة، وتحيطها – جدران عالية بارزة من الماء بارتفاع ثمانية أقدام، وبرزت على الجدران نوافذ ظهرت كقلعة من القرون الوسطى ذات أبراج، حيث يمكن للجنود من خلالها إطلاق النار على القوة الغازية، وكان أكثر من اثني عشر أعشاشًا للرشاشات يغطوا سقفًا واسعًا فوق الجدران.. أما في الأسفل، وفي مواجهة المناطق الداخلية للجزيرة، كان الموقع العسكري قوامه لا يقل عن ثمانين جنديًا، وأربعين من نخبة عناصر قوات الصاعقة، ومأهولة بالغرف المحصنة الخرسانية تحت الأرض، أدركت فقط من خلال البحث في هذا الكتاب أن اسم "الصاعقة" كان اسماً لوحدة عسكرية أنشأها الفرعون رمسيس الثاني، ويبدو أن الجميع في هذه الأرض مهووس بالتاريخ القديم.

قبل مداهمتنا بتسعة أيام، كان المصريون مصممين على إحباط محاولاتنا للانتقام، فمجموعتنا من الكوماندوز البحري، وجنبًا إلى جنب على حدٍ سواء مع النخبة سييرت متكال، أو الوحدة 269 فريق القوات الخاصة المكلف عادةً بتنفيذ عمليات استخباراتية داخل أراضي العدو إلى جانب عمليات إنقاذ الرهائن، سوف تسير في منتصف الطريق إلى الجزيرة في اثني عشر زورقًا مطاطيًا من نوع زودياك.

في تلك المرحلة، كانت هناك أربع فرق مكونة من خمسة أفراد، كان رجال الأسطول يحملون بنادق، وقنابل يدوية، ومئات من الذخيرة، وأجهزة اتصال لاسلكية، كانوا يبحرون في الماء ويغوصون تحته بقية الطريق، حيث لا يمكن لأحد اكتشافنا تحت الماء ونحن نرتدي بدلاتنا الرطبة السوداء.

كان من المقرر أن نصل بحلول الساعة 12:30 صباحًا تقريبًا وفي موعد أقصاه 1:30 صباحًا، وإذا لم نصل إلى الجزيرة بحلول ذلك الوقت، فسنقوم لإلغاء المهمة لأنه لن يكون لدينا وقت لإنهائها قبل الفجر الأول.

كانت الصلاة هي السبيل الوحيد لأولئك العشرين من الكوماندوز، وأن ينجح عنصر المفاجأة ضد هذه المجموعة الكبيرة من الأعداء المدربين، حيث كان علينا تحقيق شعارنا: "كما ينبثق الخفاش من الظلام".

تحصينات الجزيرة كان بها نقطة ضعف واحدة، كنا نهدف إلى استغلالها، وبعد الهبوط كنا نطلق النار في طريقنا إلى السطح ونطهر الجزء الشمالي من القلعة حتى نؤمِّن الوحدة 269 التي ستصل إلى الجزيرة بعدنا بدقائق قليلة، قمنا بالمرور عبر رأس جسرنا الموجود على السطح والسباق إلى أقصى نهاية الرصيف، من أجل عبور الجسر الخرساني، لنقضي على المصريين

في ثكناتهم، ونستمر في المهمة التخريبية، وبمجرد انتهاء القتال فجرنا مواقع المدفعية في الجزيرة حيث كان فريق الإنقاذ ينقل الجرحى أو القتلى إلى الأبراج.

الجنرال/ حاييم بارليف

لا يزال بإمكاني سماع كلمات الفراق من رئيس الأركان الجنرال حاييم بارليف، وهو الثاني في القيادة بعد وزير دفاعنا موشيه ديان، حيث تمنى لنا التوفيق في مهمتنا، كان جالسًا على كرسي قابل للطي، وكان الوهج الأحمر للسيجار مثبتًا بين إصبع السبابة والوسطى في يده اليسرى.

بدأ: "يا رفاق"، والدخان يتصاعد من شفته، "إذا رأيتم أن هناك مقاومة شرسة، و بدأ الناس في الإصابة، انسحبوا فقط"، ثم التقط التبغ من لسانه، وقبل أن يُنهي جلسته فجأة متوجهاً نحو الخروج ختم بالقول: "هذا ليس وقت الانتصار بأي ثمن".

الجنرال/ موشيه ديان

"بحق الجحيم!" تمتمت في نفسي.. هل قال حقًا "ليس بأي ثمن"؟ هل الجنرال الذي كان يرسلنا في هذه العملية إما نحن أو هم، لم يدرك حقًا أنه بمجرد فتحنا النار لن يكون هناك عودة للوراء؟ إذا كان لا يزال هناك مصريون على قيد الحياة عندما حاولنا مغادرة الجزيرة، لكان من السهل اصطحابنا من السطح، هل كان يفهم المهمة التي أرسلنا لها؟

عندما سحق الجيش "الإسرائيلي"، العرب على كل الجبهات، وحرر يهودا والسامرة وسيناء التي غطتها الخرافات في حرب الأيام الستة عام 1967، لم نحقق شيئًا في القوات الخاصة البحرية، حيث تم القبض على ستة من مجموعتنا من قِبَل المصريين، وانتهى بهم المطاف كأسرى حرب، وفشل بقيتنا في تنفيذ مهمتنا ببساطة، هذا الإحساس بالفشل يُعلَّق عليَّ عندما اتصلت بحاييم، الذي كان من المفترض أن يكون آدمي سِلْمِي، والذي مكنني من الصعود إلى أعلى قمة القلعة، وكذلك "زالي" زلمان روت، صديق آخر من كيبوتس أفيكيم في وادي الأردن، والذي كان يقاتل بجانبي، قلت: "اسمع، انسى أمر الملازم جنرال بارليف، لا يوجد مكان نذهب إليه نحن، ولا هُمَّ".

ابتسم حاييم بابتسامة ساخرة كما لو كان يقول: دعونا نفعلها.

اخترنا وجبتنا الأخيرة قبل الصعود إلى الشاحنات، وقبل قيادة نصف ساعة في مسار من الرمال والصخر الزيتي إلى رأس مسلة نقطة الانطلاق.. أتذكر أنني كنت أحدق في مؤخرة الشاحنة في السماء العابسة، مع اثنين من النجوم وبعض الأقمار الصناعية تعبر خلالها، اعتقدت أن نيل أرمسترونج كان هناك في مكان ما.

كان الصمت في الشاحنة هو المسيطر، فقط دوي المحرك هو الصوت الوحيد الذي كان يصدر، ربما أتذكر ذلك، لكنني أتذكر داني ليفي، مع علامته التجارية المرموقة، وهو يتحدث لديلان عن بعض الحانات الساخرة من "The Times They Are A-Changin الأوقات التي يكون فيها التبديل": من الأفضل أن تبدأ بالسباحة، أو ستغرق كحجر...

أحدهم قطع الحديث بقوله: "اخرس، داني!".. ثم عاد الصمت وتركنا وحدنا مع مخاوفنا.

في الساعة 8:30 مساءً، وصلنا إلى نقطة الانطلاق. قفزنا إلى القوارب وحملنا أحزمتنا القتالية التي يبلغ وزنها تسعين رطلاً بالبنادق، وعشرات من مخزن الطلقات المصنوعة من الصلب المختوم (كل واحدة تحمل ثلاثين طلقة)، والقنابل اليدوية، ومعدات الغوص والزعانف.. تم أخذنا لمدة ساعتين على متن القوارب المطاطية إلى مسافة ميل واحد من الجزيرة الخضراء.

شاهدتنا الوحدة 269 ونحن نربط الأشرطة إلى عبواتنا الثقيلة حول أكتافنا حتى انزلقنا بصمت، ثم غاصت الدبابات القتالية في مياه البحر الأحمر الدافئة والمظلمة.

كانت التيارات أقوى مما توقعنا، وحتى نتجنبها نزلنا إلى عمق غير مخطط له يبلغ خمسة وستين قدمًا، وهو أمر محفوف بالمخاطر بالنسبة للغواصين الذين يستخدمون أجهزة إعادة دفق الهواء المغلقة، وهي ثقيلة مثل مراسي المركبة.

مع بوصلة صغيرة مضيئة فقط وإشارات من يد الملازم دوف بار تقودنا عبر المياه شديدة السواد، اقتربنا من الجزيرة، وبضربة واحدة مؤلمة في كل مرة، اقتربنا من هدفنا وسبحنا مرة أخرى إلى سطح الماء، حيث يمكننا فقط رؤية التمثال الأسود العملاق الذي يلوح في الأفق مائة ياردة إلى الأمام، وكنا متأخرين بشكل خطير عن الجدول الزمني.

كان من الواضح أن فرص الوصول إلى الجزيرة بحلول الساعة 1:30 صباحًا، وهي النقطة التي كان من المفترض أن تتخلى عن أوامر العملية كانت معدومة.. أتذكر كيف أن ضوء نصف القمر أظهر الإرهاق على وجوه الآخرين. حواجب دوف مقوسة مثل هرم مهدد، وخياشيم مقروصة ومصممة. وقال: "أعلم أن بعضكم يعتقد أننا سنعود إذا لم نصل إلى الجزيرة في الوقت المناسب.. التأخير سوف يمنعنا من القتال الليلة.. لدينا اتجاه واحد فقط أمامنا"، مشيرًا إلى المياه ذات الحبر الأسود، "كديما –إلى الأمام– حتى لو وصلنا إلى الجزيرة في الصباح".

عدنا إلى الأسفل لنقترب من الطريق ووصلنا تحت البرج الشمالي، حيث تجردنا من معدات الغوص والزعانف بصمت، ووصلنا في الساعة 1:38 صباحًا، متأخرين عن الموعد بساعة وثماني دقائق، لكن التأخير في الوصول إلى الجزيرة كان بمثابة هِبَة من السماء، المد المرتفع الذي تم شراؤه بالوقت الإضافي، سَمَح لنا بالغوص إلى الصخور التي نَصَب عليها المهندسون العسكريون البريطانيون الجدران الخرسانية العالية.. علقت حول كتفي وصدري بندقية من طراز AK-47 وحزامًا ثقيلًا مع عشرات المخازن، وعلى الرغم من التعب من الغوص، إلا أنني شعرت بالارتياح لأن القتال ضد التيار كان وراءنا على الأقل، لقد استنشقت الهواء المالح، وكان وقت الاستعراض.

ملازم أول/ إيلان أيجوزي

قامت المجموعة الأولى بقيادة الملازم أول إيلان إيجوزي، الذي كان أحد أسرى الحرب في أيدي المصريين بعد حرب الأيام الستة، قاموا بقطع الخطوط الخارجية للأسلاك الشائكة، ولابد أن أحد الحراس الموجودين على السطح قد سمعهم وهم يقطعون الملف الداخلي السميك، لأننا لاحظنا ضوءً أحمر يسير في غرفة الحراسة ونحن نتقدم بسرعة عبر الفجوة في السلك.. رأيت الحارس يغادر الغرفة ويزحف نحونا بمصباح يدوي.. ولخوفه من أن يتم رصدنا، رفع إيجوزي سلاحه وأطلق النار على الحارس، وهو ما جعلنا نرى شخصية بلا ملامح في الليل.. بدت فرقعة إطلاق النار الأول أعلى من صوت دوي الانفجار.. فعندما رأى جثة رفيقه ترتطم بالأرض، ألقى حارس آخر قنبلة يدوية باتجاهنا، أصيب إيجوزي بشظية بحجم الدولار الفضي، وكافح من أجل الوقوف على قدميه، وقام بالرد بإطلاق النار.

سمعنا وقع خطوات وعبارات مكتومة من اللغة العربية على السطح الذي تعلو المياه بثمانية أقدام، وبغضون ثوان، سقط وابل من رصاصات العدو في الماء مرتدا من الصخور، الشيء الوحيد الذي خطر في ذهني –وتلك غريزة أكثر منها فكرة– هو تسلق الجدار والصعود إلى السطح، لأن أي تأخير ولو لبضع ثوان، فسنكون محاصرين بين البحر والجدار وبلا حماية أمام مغاوير الصاعقة.

حاييم وزالي كانا يتبعانني، كنت أطلق النار من خلال سياج الأسلاك الشائكة عند الجدار الشمالي، بينما كنت أصعد منحدرًا خرسانيًا للوصول إلى الجدار المحيط بالحصن والذي يبلغ ارتفاعه ثمانية أقدام، استدرت وأشرت إلى حاييم، الذي تولى منصبه كسلم بشري، عندها فقط أدركت أنني فقدت حذائي أثناء التسلق على المنحدر الخرساني، خلعت الآخر وتسلقت حافي

القدمين على أكتاف حاييم القوية، سمح لي الارتفاع الإضافي برفع رقبتي فوق الحافة ومسح السقف الذي كان يضيء في أوقات محددة بومضات خاطفة.. هَرَع بعض الجنود المصريين من ثكناتهم إلى أعشاش الرشاشات، والبعض الآخر –تقريباً نصف الحامية– اتجهت نحونا مباشرة وأطلقت كل ما لديها من المدافع الرشاشة الثقيلة والقذائف الصاروخية، حيث تحول ضجيج الانفجارات إلى هدير.

انحنى رأسي جانباً، وفجأة رأيت نجومًا، لقد أصابت الشظايا أسفل خط شعري مباشرة، وعلى الرغم من أنني بالكاد كنت بوعيي، فقد لاحظت أنني أدخلت يدي في حقيبتي للحصول على قنبلة يدوية، وعندما استعدت توازني سحبت الدبوس وألقيت القنبلة في قوس مثالي، سقطت القنبلة داخل عش مدفع رشاش لكنها لم تنفجر، ثم جربت واحدة ثانية وكانت عديمة الفائدة أيضًا، وكذلك كانت قنبلة الدخان، وأثناء الإمساك بقنبلة أخرى لاحظت أنها رطبة، لابد أن مياه البحر جعلت القنابل الملعونة عديمة الفائدة.

صرخت عبر هذا الضجيج لزالي، "اتبعني!".. كان أمامنا مباشرة نصب حراسة به جنديان، تتأرجح رؤوسهم من جانب إلى آخر، كان المكان يسوده الهرج والمرج، قلت لنفسي إذا تمكنا من الاستيلاء على الموقع، سيكون لدينا خط مباشر من إطلاق النار على الكوماندوز المندفعين، قفزت من على كتفي حاييم وجلست على المنصة ثم انضم إليّ زالي.

دون تمهيد ركضت مع زالي نحو المصريين، كان الزناد على بندقية AK-47 حارًا عند لمسه، ضغطة واحدة وأصبح هدفي الأول يترنح للخلف قبل أن يلتوي ويسقط جانبيًا، بينما زالي قام بتفجير الحارس الثاني في صدره.

هرعنا إلى نقطة الحراسة وجلسنا القرفصاء بجانب الجثتين، حيث سقطت قذائف صاروخية من حولنا على الجدران الخرسانية، وتطايرت أجزاء حادة من الصخور مثل الخناجر، فقد قدَّم الموقع الذي قمنا باحتلاله حماية كافية لإطلاق المزيد من الرصاص على المصريين؛ أولئك الذين سقطوا وهم يتدافعون بحثًا عن غطاء، فهذا مكَّن الكوماندوز لدينا المزيد من الصعود إلى الحائط والانضمام إلى المعركة، وفي خطتنا التي تم التدرب عليها بدقة، كان من المفترض أن يصل فريق الوحدة 269 في أي لحظة.

كان أمامنا برج به مدفع رشاش، صرخت في أذن زالي عندما انفجرت قنبلة أخرى قريبة منا حتى شعرنا بالاهتزازات: "علينا أن نأخذها".. "اللعنة!" تأوه زالي، ألقى سلاحه ورفع يده، كان أحد أصابعه مقطوعاً ونظيفًا، حيث سقط إبهامه المقطوع خلف رأس جندي مصري ميت.

"هل لا يزال بإمكانك إطلاق النار؟"

كان العرق يتصبب على وجهه، وابتلع ريقه بقوة ثم أومأ قائلاً: "يمكن أن يكون أسوأ"... "لا يزال لدينا ثلاثة".

من زاوية عيني رأيت حاييم ومجموعته، حتى تلك النقطة ينتظرون أسفل الجدار، يزحفون إلى السطح، استدار حاييم لإبطال مفعول برج المدفع الرشاش الثاني في الزاوية الشمالية الغربية للسقف، يجب أن يكون قد أدرك أنه إذا تمكنت مجموعته من اجتياز مركز إشعال النار، فيمكنهم أخذ هذه الممتلكات بمفردهم.

لتغطية تقدمهم، ألقيت بإحدى قنابل الدخان الجافة القليلة.. الآن المصريون الذين يديرون أعشاش المدافع الرشاشة لم يتمكنوا من رؤية أصدقائي يركضون بجانبهم، ولا يمكنهم رؤيتي، ولا يزالون يتسابقون حفاة القدمين فوق النافذة البابية الساخنة ويرشون أوكارهم بالرصاص، أسفل قدمي تمزق بسبب لكن الأدرينالين خدر الألم.

بالنهاية كان معظمنا نحن الضفادع البشرية على السطح نحارب المصريين في تبادل لإطلاق النار وجهاً لوجه، وكان الوضع شرسًا كما هو الحال في حانة كبيرة في الغرب القديم. أرسل دوف ضوءً متوهجًا أخضرًا آخر، وذلك للإشارة إلى فرقة كوماندوز 269 ولمحركاتهم الخارجية أن تحملهم للوصول إلى الجزيرة وبأسرع ما يمكن.. قلت لنفسي: أين هم بحق الجحيم؟ لقد نفدت ذخيرتنا، وإذا لم تظهر فرقة 269 قريبًا سيعيد العدو تجميع صفوفه قبل أن نتمكن من الهروب.

قلت لزالي: "لنتحرك"، مشيرًا بمسدسي إلى موقع الرشاش التالي.. وبرفقة زالي الذي كان يتبعني بسلاحه الملطخ بالدماء، تسابقنا على المدافع الرشاشة، مراوغين وكأننا أمواج، أطلقت ما تبقى في مخزني الأخير، انطلقت بعيدا ورأسي مكشوف فوق أكياس الرمل، تقدمنا إلى وضعية 85 ملم المضادة للطائرات، وفي ذلك الوقت لاحظت أن تعزيزات الوحدة 269 وصلت أخيرًا على السطح. مع بندقيتي التي من طراز AK-47، طلبت منهم الانضمام إلينا.

وفجأة بدا الأمر كما لو كان ضباب يحيط بي، اختفى ضجيج المعركة، وساد هدوء غريب فوقي، كما هو الحال مع الجُرح في جبهتي والجروح في قدمي، فلم أشعر بأي ألم، لأن شظية مرت عبر الشريان الرئيسي في رقبتي، وفي حالة صدمة دماغية، أغمي علي وسقطت فاقدًا للوعي على الأرض.

ما زلت على قيد الحياة، وبعد دقيقة أو دقيقتين، نفضت الغبار بعيدًا وفتحت عينيّ، فرأيت نفسي أنني مغطى بالدم الذي يسيل من رقبتي، سمعت صوت هائج، وصوت أعلى، وبعد كل هذه السنوات، لا أنسى كثيرًا من هدير نيران المدافع.

كنت على ظهري وعلى حافة فقدان الوعي مرة أخرى، لاحظت أن زالي يُطلق النار على العدو بأصابعه الثلاثة المتبقية، نظرت حولي، لكنني لم أتمكن من معرفة من كان يتقيأ، واجهت نيرانًا مصرية أثناء اختراق لفائف الأسلاك الشائكة، وأطلقت النار من مسافة قريبة وأصبت رجلان؛ قمت بالقضاء على الأهداف البعيدة والمجهولة الهوية، وهكذا صدقت حتى بدأ أحد الرجال يتقيأ كما لو كان يختنق بالدم، ثم أطلقت النار مرة أخرى، ليس مرة أو مرتين فقط؛ فقد أفرغت مخزني حتى توقف الأنين الرهيب.

أدركت أخيرًا أنني كنت من يحتضر، ثم سألت نفسي: هل هذا ما يبدو عليه الأمر؟ لا وداع ولا كلمات أخيرة، لقد انتهت حياتي قبل أن أصل إلى سن الخامسة والعشرين.

كنت عاقداً العزم على جعل الدقائق الأخيرة من حياتي مهمة، حيث أفرغت ما تبقى من مخزني في الاتجاه العام غير المرئي في الليل الأسود القاتم لأعدائنا، وبمجرد أن رأيت عمود المدفع المصري في أيدينا، مستخدمًا بندقيتي AK-47 الخاصة بي كعكاز، رفعت نفسي للأعلى وعلى أقدام ممزقة عبرت السقف، وتحت وابل من الرصاص يتطاير من خلال الدخان والنار، عدت إلى حيث وقفت على أكتاف رجل حاييم القوي، زملائي الجنود ساعدوني على النزول من السطح إلى دائرة الأبراج، وهناك حيث وصلت الى حقيبتي، سحبت جرعة من المورفين، وأطلقت النار على نفسي.

أظن أنني فعلت خدعة، لأنني لا أتذكر الشعور بأي ألم، وذكرياتي من العودة مبهمة.

ما أذكره من حالتي غير الواعية هو الطريقة التي قام بها طبيب وحدتنا، الدكتور سلافين، حيث أدخل إبرة في ذراعي، بينما حمل الجنود أصدقائي إلى دائرة الأبراج، الأصدقاء الذين بدوا في حالة أسوأ مما كنت عليه، سقط أحد الجنود وارتطم بجانبي، فلم يكن يتحرك، هل فقد وعيه؟ كان حاييم مغمى عليه أيضًا، ورغم أنني شعرت بدفء جسده. تمسكت بالطبيب وقلت له: "انتظر".

لم أفهم سبب وضع قطع الشاش الطبي عليَّ، فقد كان من الواضح أن الآخرين بحاجة إلى مساعدة الطبيب أكثر مني، أومأ سلافين برأسه، ووجه انتباهه إلى رقبتي، وهو يتمتم في نفسه قائلاً: "الأوغاد"، في إشارة إلى الضباط العسكريين الذين أرسلونا، "يا لهم من قمامة ملاعين".

الفصل الخامس:

كتلة المخلصين

ربما من حديثي مع مئير شاليف، عدت إلى رحلة برية أخرى بواسطة السيارة، هذه المرة إلى مرتفعات الجولان، حيث أخذتني المحطة الأولى من الرحلة عبر بحيرة طبريا وكيبوتس معجان، وعندما اقتربت من الجولان، كانت الغيوم في الأفق تلوح بها ثمار الدراق (الخوخ)، ربما من الحقول المشتعلة في مكان ما، حيث تجاوزت درجة الحرارة في الخارج مائة درجة فهرنهايت. وعندما كنا أطفالًا، اعتدت أنا وسروليك النظر إلى سلسلة التلال المتعرجة في الجولان التي تشبه لون الصدأ، وعلى العشب والأشجار التي تنمو فوق التربة الصخرية الخاضعة للسيطرة السورية، متخيلًا تفجير جنود العدو بعيدًا.. ففي تلك الأيام، ما الذي كنت أعرفه أو أهتم به في المنطقة بشأن مائتي فلاح عربي، وبلدات، ومزارع؟ كنت طفلاً عندما ذهبت إلى الفصل في ملجأ من القنابل؛ حيث ارتبطت القذائف السورية بالجولان.

قادتني رحلتي إلى حديقة مائية شُيدت على أنقاض قرية الحمَّة العربية، حمات جادر، لقد كانت بالفعل مكانًا مشهوراً بأحواض الاستحمام في العصر الروماني.

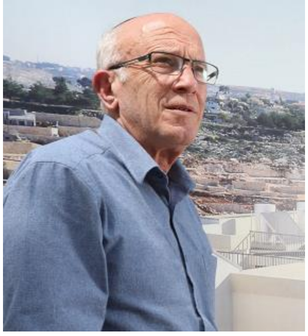

بينشاس والرشتاين

بعد ذلك، قدت سيارتي عبر كيبوتس تل كاتسير، موقع معركة عام 1967، وهو المكان الذي كان من المقرر أن ألتقي بالسيد بينشاس والرشتاين في الأسبوع التالي، فالعقل التنظيمي وراء حركة الاستيطان قاتل.

تعرض لواء بنشاس لنيران المدفعية والرشاشات، وقد أصيب بجروح بالغة. جاء والدي من معجان للمساعدة في إخلاء الجنود الجرحى.. فقد انتصرت "إسرائيل"، ونتيجة لذلك لم نعد مضطرين لدفع الجرارات المصفحة إلى الأرض القاحلة، لأن كان الجولان لنا.

في الأسبوع التالي، ومع ظهور هذه الصور لميدان معركة الجولان في ذهني، شرعت في لقاء بينشاس في منزله في مستوطنة بالضفة الغربية، فمعظم أصدقائي اليساريين، بمن فيهم زوجتي "بيبا"، لم يفهموا أبدًا سبب جلوسي مع مستوطنين من الضفة الغربية، فبالنسبة لليساريين، هم أعشاب ضارة وأمراض سرطانية، كما قال رابين ذات مرة، وكررها آرييل شارون بعد عشر سنوات تقريبًا، خنق ديمقراطية الدولة ببطء حتى نصبح دولة فصل عنصري، ولكن حكايتي تشملهم أيضًا، لأنني على دراية بما قاله ذات مرة الناشط اليميني المستوطن أوري إليتزور، وذلك

ردًا على الكراهية التي أطلقها اليسار "الإسرائيلي" تجاه جنسه: "أنت طردت الفلسطينيين في عام 1948، ولم تسمح لهم بالعودة؛ وأسست مجتمعات فوق كل قراهم .. وبعد ذلك قمت ببناء جدار فاصل، ثم أتيت تشتكي إلينا، رغم أننا لم نهدم حتى قرية واحدة في الضفة من أجل بناء مستوطنة".

بينما الحقيقة أكثر تعقيدًا من ذلك، فيعتقد كلٌ من سكان الكيبوتسات والمستوطنين أن لليهود الحق في أرض "إسرائيل"، وينسى الناس أن حركة الكيبوتس العلمانية التي يدعمها حزب العمل، هي التي بنت المستوطنات لأول مرة بعد عام 1967، وهو جهد دعمته أيضًا لسنوات عديدة بكل ذرة من كياني.

الطريق إلى بلدة بنشاس في عوفرا، جوهرة تاج مستوطناتنا في يهودا والسامرة والقلب النابض لغوش إيمونيم –كتلة المخلصين– استرجعتني إلى ما وراء مجيدو، المعروفة باسمها اليوناني (هرمجدون)، والآن أُقيم سجن عسكري عبر الطريق من محطة الوقود وماكدونالدز.

من بلدتَيْ أم الفحم والطيرة العربيتين ورائي، عبرت إلى الضفة الغربية، ولو واصلت القيادة شرقاً، لكنت وصلت إلى المستوطنات في وادي الأردن التي بناها أصدقائي بعد حرب الأيام الستة.

بمجرد وصولي إلى بلد التل، أصبح الهواء أكثر جفافاً، لذا قمت أخيرًا بإغلاق النوافذ. سلاسل الجبال الطويلة على جانبي الطريق تعتبر قلب أرض الميعاد التوراتية، وعلى قمم أحد التلال العديدة، رأيت "بيت إيل"، وهي مستوطنة مترامية الأطراف من المنازل ذات القرميد الأحمر تشير إلى الموقع الذي كان يحلم فيه يعقوب: "هو ذا مقام السُلَّم على الأرض، ويصل قمته إلى الفردوس.."، فكل بيتٍ من القرميد الأحمر يقطع سفوح ومنحدرات التلال تمثل بالنسبة لي استمرارًا للمثالية التي ترعرعت عليها في بيارة الموز الصغيرة.. وكما كان والديّ، فالمستوطنون المسيانيون اليوم مقتنعون بأنهم يحررون أرض "إسرائيل".

أثناء قيادتي أمام مبنى الحراسة في عوفرا، واصلت السير في شارع من منازل متطابقة مقصورة بعناية من الجص (قصارة الرش المزخرفة)، والأشجار مُقلَّمة ومهذبة بعناية، ورشاشات الري لتسقي العشب، وكان لكل منزل علم "إسرائيل" موجود على المبنى، ولكن نسيم الهواء العنيف كسَّر جميع الأعلام "الإسرائيلية" الموجودة على المنازل.

الكيباه

قرعت جرس الباب، استقبلني بينشاس ورحب بي بحرارة، لكن الكيباه[1] قصَّت ما تبقى من شعره الرمادي، استقبلني بقوله: "سررت برؤيتك مرة أخرى يا عامي. ماذا حدث، عشر سنوات؟" كان يرتدي قميص أزرق ذي أكمام قصيرة وسراويل قصيرة، لقد كان من الممكن أن يكون مدير تنفيذي مصرفي سابق في مجتمع التقاعد.

تبعته في الداخل، حيث جلسنا على طاولة المطبخ، رأيت مرطبان نسكافيه مفتوحة على المنضدة بجوار الميكروويف، وصور بإطار للأطفال والأحفاد، وخارج الأبواب الزجاجية المنزلقة كانت تقف مجموعة من أشجار الصنوبر الهشة، المستوطنون الطيبون يغرسون أنفسهم بسرعة، بالمعنى الحرفي أو المجازي، وذلك لجعل المكان الجديد يبدو كما لو كان موجودًا قديماً.

كان بينشاس مثل داني، مستعدًا بشكل جيد لمحادثتنا، ومع كوب من النسكافيه، فتح كتابًا سميكًا بغلافٍ مُقوًى مليء بالصور القديمة (الأبيض والأسود) لأجيال من واليرشتاين، حيث هاجر والده بشكل غير قانوني من بولندا في عام 1936، ومثل والدة بيبا، راشيل، فقد تم إلقاء القبض عليه من قبل الساسة البريطانيين، الذين احتجزوه في مخيم للاجئين في أتليت: والذي يقع مقر الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13) اليوم في نفس المنطقة.

ثم في النهاية خرج من الحجز، وانتهى به المطاف في بلدة كفر عطا بالقرب من حيفا، وعلى مقربة من ساحل البحر الأبيض المتوسط، حيث قام بطريقة ما بجمع الأموال لشراء حصان لكسب عيشه في توصيل الخبز إلى القرى المجاورة.

على عكس والديّ، اللذين تركا دينهما اليهودي في أوروبا، استمر "بنشاس" في ممارسة اليهودية الأرثوذكسية، وخلال خدمته العسكرية قبل حرب الأيام الستة، عمل في الحقول الزراعية في الكيبوتس، وهي تجربة ظلت عالقة معه بسبب الكيبوتسات المُجهِدة لحد الجنون، أو المناهضة للفكر البرجوازي على حدٍ سواء.

بعد إصابته في الجولان، أمضى بنشاس عامًا مع ضمادة من الجبس في جسده، كان يحلم باستخدام ساقيه المصابة مرة أخرى، وعندما خرج من المستشفى أخيرًا، توجه مباشرة إلى كيبوتس معاليه جلبوع الديني، المُقام على أنقاض قرية "خربة الجوف" العربية.

---

(1) الكيباه هي: غطاء رأس صغير ومستدير الشكل (طاقية)، يرتديه الرجال اليهود الأرثوذكسيون طيلة الوقت توقيرًا لله حسب ما تأمر به أحكام شريعة الهالاخاه، كما يرتديه أيضاً الرجال في المجتمعات اليهودية المحافِظَة والإصلاحية أثناء الصلاة.

وعلى غرار كيبوتس معجان، كانت معاليه جلبوع مُشبَّعة بالثقافة الصهيونية التي تميزت بالعمل البدني الشاق، والاستماع لأغاني نعومي شمر، وبستان الكينيا، والتمرد ضد السيطرة الفردانية للطبقة الوسطى، لأن الإلزام الصهيوني بالبناء، واستيطان الأرض، والدفاع عن المجتمع قد دلَّت عن كل شيء.

أخبرت بينشاس أنني رأيت منذ فترة طويلة أوجه تشابه بين حركة الكيبوتس والحركة الاستيطانية الدينية اليمينية في غوش إيمونيم، "فهل هذه مجرد صدفة، أم أن هناك ما هو أكثر من ذلك؟".

قال بينشاس والابتسامة تعلو وجهه: "هل أخبرتك من قبل أن لدينا أبطالنا، بار كوخبا والمكابيين، من حركة الكيبوتس؟" بالطبع، الجزء العلماني من الثورة الصهيونية –الطريقة التي قضى بها والداي على الألفي سنة الماضية من اليهودية الحاخامية–، حيث انحاز بينشاس وأصدقاؤه إلى جانب واحد، وما حصلوا عليه منا هو كيفية البحث في كتب التاريخ للعثور على "جذورها". أصبح قادة الحشمونئيم[1] من العصور القديمة مثل: جون هيركانوس، وألكسندر جانيوس، وهم شخصيات غامضة مألوفة فقط لهواة التاريخ وعلماء الآثار، ونحن الصهاينة العلمانيين قدوة لهم.

بسبب إصابات الحرب التي أصيب بها، لم يستطع بنشاس الانخراط في العمل البدني الذي تتطلبه حياة الكيبوتس، لذلك بدلاً من الاستقرار في معاليه جلبوع، سافر من كيبوتس إلى كيبوتس للعمل باليومية، يتشرب روح الكيبوتسات التي كانت في فلسطين أيام الانتداب، والتي كانت تعمل بوظيفة إلزامية في قلاع الغرب المتوحش، وكنا نطلق عليه البرج وحظائر المستوطنات.

في عام 1969 قرر الحصول على شهادة جامعية في الزراعة، ثمَّ قلَّب بضع صفحات في ألبوم العائلة الذي كان مفتوحًا على المنضدة أمامنا حتى وصل إلى صورة لشابة ملفتة للنظر، أصبحت فيما بعد زوجته.. حيث التقيا في الجامعة، ووافقت –مثل بيبا– على أن تتماشى مع الأحلام المجنونة لرجل –كما وصف بينشاس نفسه في ذلك العمر– كان "صغيرًا جدًا على أن يبدو كشخص مشهور ومعروف في المدينة، كنت أرغب في المغامرة، وأردت أن أكون جزءًا من بناء الدولة".

---

(1) السلالة الحشمونية: هي سلالة حاكمة في يهودا والمناطق المحيطة بها خلال العصور القديمة الكلاسيكية، ما بين نحو 140 و116 قبل الميلاد.

لم يكن يعرف كيف فعل ذلك، فعندما تم تأسيس كل الكيبوتسات في الأراضي المحتلة حديثًا من قبل أصدقائي من حركة الكيبوتس، قام العلمانيون اللادينيون بتدنيس وانتهاك يوم السبت، وخلال السنوات الثلاث الأولى من زواجهما، شكى بينشاس لزوجته كونه عضو في كيبوتس ولكن بدون كيبوتس.

"بدأ كل شيء بعد حرب يوم الغفران"، وتابع شرحه: و"بسبب خسائرنا، شعرت بالإحباط أكثر من المعتاد.. وعندما كنت جالسًا في المنزل سمعت طرقًا على بابي، فقد كانت حنان بورات".

أومأت برأسي عن علم لأنني درّست بورات –العبقرية ذات الشخصية الكاريزمية– خلال فترة عملي في الشين بيت، وذلك بعد اغتيال رابين، حيث كنت أتوق لفهم أيديولوجية حركة الاستيطان التي كان هو زعيمها، وكجندي قاتل في القدس خلال حرب الأيام الستة، وساعد في الاستيلاء على جبل الهيكل، حيث أصيب بجروح بالغة في حرب يوم الغفران، وبعد فترة وجيزة من الشفاء، أطلق حركة غوش إيمونيم المسيانية، وذلك بناءً على الوعد الذي قطعه الله، كما جاء في تكوين 15:18: "لِنَسْلِكَ أُعطِي هذه الأرض..".

قال بنشاس: "لم أكن أعرف حنان في ذلك الوقت"، ثم أكمل القصة: "لكن بطريقة ما أحدهم عرفني وعرف ماذا أريد.. في ذلك المساء سمعت لأول مرة عن مجموعة أساسية من المؤمنين بالتوراة حقيقةً، والمتحمسين لفعل شيء ما، فعلى الرغم من التردد في الوثوق بهذا الدخيل المثالي، كيف يمكنني أن أقول "لا" بعد كل الآلام التي شعرت بها في مرارتي بسبب عدم وجود منفذ لأحلامي؟".

قام بورات بإخبار بينشاس عن فكرته لبناء مستوطنة دينية في مدينة سبسطية العربية في الضفة الغربية، فتاريخ سبسطية ملتوٍ وشائك مثل إحدى أشجار الزيتون الخاصة بي، فهي تشمل القائمة المختصرة لمؤسسيها وفاتحيها، كما وتشتمل على مدمروها من الكنعانيين، "والإسرائيليين"، والإسكندر الأكبر، وجون هيركانوس، وبومبي، وأغسطس قيصر (الذي قدمها كهدية إلى هيرودس الكبير)، وأسقفًا في مملكة الصليبيين في بيت المقدس.

في عام 1975، وعلى الرغم من أن شخصيات علمانية مثل: ديان وشمعون بيريز، كانوا لا يزالون على رأس حكومة حزب العمل، فلم يكن من الصعب على مجموعة من المتدينين "الإسرائيليين" البدء في مطالبهم، وعندما احتاج الجيش "الإسرائيلي" إلى بناء سياج حول أنقاض محطة قطار تعود إلى العهد العثماني لمنع الفلسطينيين من نهب الموقع، قام بنشاس ومجموعته وبقيادة حنان بورات، التطوع للمساعدة في ذلك البناء، كانوا في كل صباح وعلى مدى شهور

يحفرون الخنادق وينصبوا قطاعات من الأسلاك قبل العودة إلى منازلهم في القدس، وذات مرة استولوا على مركز سابق للشرطة الأردنية، وأقاموا معسكرًا هناك، فربما ألهمهم والدي وأصدقائه الذين استولوا على معسكر مهجور للجيش البريطاني لبناء كيبوتس معجان.

وأوضح بينشاس: "ليس الأمر كما لو كنا واضعي اليد"، فقد "قلنا للناس داخل الجيش والحكومة: إذا كنتم ضد ما نقوم به نحن، فسوف نغادر.. ولكنهم لم يقولوا شيئا".

أضفت: "غمزة لك لكي تمضي قدمًا"، فأنا اليوم مقتنع بأن حكومة حزب العمل أوجدت وبهدوء مساحة لبناء المستوطنات، وذلك في انتهاك مباشر للقانون الدولي الذي يحظر صراحة على قوة الاحتلال من البناء على الأراضي المحتلة، فلو كنت في الحكومة لفعلت الشيء نفسه، وكلما زادت المستوطنات، قلَّ احتمال أن يقوم أي رئيس أمريكي مستقبلي بإجبارنا على تسليم أرض أجدادنا إلى أعدائنا، مثلما فعل أيزنهاور في عام 1956 مع شبه جزيرة سيناء.

كما يروي بنشاس القصة، لم يعتقد ديان وبيريز أن العرب سيهتمون إذا بنينا على قمم التلال القاحلة، خاصة أن الطرق التي بنيناها لربط "إسرائيل" بالمستوطنات الجديدة سهّلت أيضاً نقل العمال الفلسطينيين إلى وظائف في المصانع "الإسرائيلية"، فقد كانت سبسطية مجرد بداية لحملة الاستيطان، وبعد أن تولى مناحيم بيغن وحزب الليكود السلطة في عام 1977، دافعت الحكومة الجديدة عن المستوطنين الأوائل للحركة الصهيونية.

لكن بنشاس حذرني من كسب الليكود أكثر مما ينبغي، "فلم يستطع بيغن أن يقول ما يكفي عن منطقة يهودا والسامرة التي ينتمي إلينا، لكنه لم يكن يعرف أول شيء عن الاستيطان والدفاع عن الأرض، حيث يمكن لساسة الليكود، سكان المدينة في الغالب، الاستمرار في الحديث عن المستوطنات في خطاباتهم، لكن لم يكن ذلك في دمائهم، فهل تعتقد أن حاخاماتنا كانوا أفضل؟ فكر مرة أخرى. في البداية، دعمنا حفنة منهم فقط. لذلك سألنا بعض أصدقائك في كيبوتس ميروم غولان عن الأشخاص ذوي الخبرة في القيادة والقدرة التنظيمية للمساعدة.

جاؤوا إلى عوفرا وعلمونا كيف تتم تسوية الأرض، فدانًا بفدان، وخندقًا تلو الآخر، بيتًا بيتًا، وكيف يتم إنشاء وترتيب الحقائق على الأرض، وعندما نجحنا مرة واحدة فقط جاءنا الحاخامات والسياسيون".

استمر دعم حزب العمل خلال العقود الماضية، "رابين، قام بإمدادنا بالأعشاب، وبنى الطرق الالتفافية والأنفاق والجسور التي سمحت لنا بالازدهار، أما بعد مقتل رابين، الذي بمقتله صدمني وصدم معظم الناس، قمت بالإضراب عن الطعام لمدة ثلاثة أيام عندما قام الجيش

ليمنعنا من تمهيد الطريق، ثم دعاني شمعون بيريس –رئيس الوزراء في ذلك الوقت– إلى مكتبه، وأنت تعرف لماذا؟ لقد وصلنا إلى طريقنا".

لذلك، وبمساعدة الحكومات –اليسار واليمين على حد سواء– كان بينشاس ومجموعته التي تتوسع باستمرار في معظم حياته، يستصلحون العقارات والأراضي التي اعتبروها حقًا لنا، ولم يتم منحها لنا سوى كلمة الله القوية، الكتاب المقدس نفسه: "وأنتم تقسمون الأرض بالقرعة للميراث بين عشائركم".

كنت متشوقًا للعودة إلى الطريق قبل أن تصل ساعة الذروة إلى الطريق رقم 6، ولكن قبل أن أضغط على يده وأقول وداعًا، سألت بينشاس عما سيفعله، إذا كان هناك استفتاء وطني وعملية كبرى للتصويت في دولة "إسرائيل" لصالح حل الدولتين: دولتان يهودية وفلسطينية على أساس حدود عام 1967 القديمة، مع بعض التعديلات الطفيفة، فهل سيقاوم الإخلاء؟

وقف بنشاس رسميًا، كما لو كان يُحَيِّي علمًا، "إذا أيَّد الشعب اليهودي مثل هذا القرار في استفتاء، فسأعتبر القرار صوت الله وسأمتثل، لأن سيادتنا الوطنية أهم من أراضي إسرائيل".

"أهم من سبسطية وعوفرا؟"

"عامي، أنا طالب في التاريخ اليهودي، وفي قراءتي لثلاثة آلاف سنة منذ مملكة داود، نعاقب بفقد سيادتنا عندما نتقاتل فيما بيننا، لذلك: نعم، سأستجيب لإرادة الأغلبية".

عندما قال هذا، ذكّرت نفسي بأنه لم يكن يؤمن بالكومنولث الديموقراطي غير الإثنيين الذي يطرحه هرتزل في *الأرض الجديدة القديمة*، فالاستفتاء الذي كان يدور في خُلدِهِ سيَشمَل اليهود فقط، ولن يتم استفتاء المواطنون العرب في "إسرائيل"، ولكن على الأقل، عند الضغط عليه سيعتبر وحدة يهود "إسرائيل" أكثر أهمية من حلم إعادة تأسيس مملكة داود.

لا يشعر كل المستوطنين بهذه الطريقة بالطبع، في مقر الشاباك، التقيت بأشد الحاخامات تطرفاً، وأخبرتهم –من وجهة نظري– أن الإرهاب اليهودي والإرهاب العربي هما نفس الشيء، لأن قتل مدني عربي على يد إرهابي يهودي أو قتل مدني يهودي على يد إرهابي عربي هما نفس الجريمة: القتل.

رأيت نوعًا من الرعب في عيونهم عندما كنت أقول هذا في وجوههم، وكانوا دائمًا يحاولون تثقيفي حول الشعب المختار وفداء صهيون، حيث وصف لي يهودا عتصيون وهو أحد زعماء المستوطنين وزعيم جماعة إرهابية سرية ذات مرة، وشرح بشكل مفصل كيف سيتم تجهيز المذبح وقوانين الذبح والتشريعات للهيكل الثالث الذي سيتم بناؤه على أنقاض قبة الصخرة والمسجد الأقصى، فهؤلاء هم الأشخاص الذين يجب أن نخاف منهم حقًا.

الفصل السادس:

إذا صح التعبير

في طريقي إلى المنزل توقفت عند مكان لبيع لحمص أسفل التل من عوفرا، كنت أتردد عليه خلال أيام عملي في الشاباك، فعلى الرغم من أنه كان يديره فلسطينيون، إلا أنه كان مكان الطعام المفضل للمستوطنين، في قبعاتهم المتماسكة ومسدساتهم المحملة في جراباتهم، وعندما قضمت قرص فلافل، التي كانت مقرمشة تمامًا من الخارج، مع تصميم داخلي كريمي بالطريقة التي أحبها تمامًا، فكرت في مقدار القواسم المشتركة بيني وبين بينشاس. الحقيقة أنني ولدت في كيبوتس اشتراكي، بينما نشأ بينشاس على أساس ديني، وها الأمر غير مبني للمفارقة في جوهره، لقد تربينا على الاستيطان والدفاع عن الأرض التي اعتقدنا أنها حقاً أرضنا التاريخية.

لقد قمنا أنا وبينشاس على حدٍ سواء بالدفاع عن مُثلنا العليا، وبسبب حالته الصحية فقد رقد شهوراً في المستشفى، حيث كان في رحلة ملحمية لاكتشاف نفسه داخل حركة الكيبوتس الدينية.. أما بالنسبة لي، فإن الخسائر في الجزيرة الخضراء، بالإضافة إلى الصدمة الوطنية لحرب يوم الغفران جعلتني أخدم في الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13) لما يقرب من عشرين عامًا وبطريقة مكافئة من خلال المشاركة في مهام كوماندوز لا حصر لها ضد ياسر عرفات والمقاومين في منظمة التحرير الفلسطينية، فلو لم أكن أحارب، لربما انضممت إلى أصدقائي في إقامة مستوطنات جديدة.

أتذكر فقط مقتطفات من المحادثة بعد إخلائي من الجزيرة الخضراء في دائرة الأبراج، فعندما فتحت جفوني، رأيت وجوه الممرضات في مركز عساف هاروفة الطبي خارج تل أبيب تحدق في وجهي. "عامي هل تسمعني؟" شخصٌ ما سأل. لقد قامت بقطع أصابعها، فتراجعت أنا.

شعرت وكأنني في "ريب فان وينكل"(1) وهو يستيقظ من نومه بعد ربع قرن، حيث تم تعليق المحاليل الوريدية على خطافات وأنابيب لتغذي عروقي، وفوق الجرح ضمادة ضخمة مثل دعامة الرقبة.

(1) ريب فان وينكل: هي قصة قصيرة للكاتب الامريكي واشنطن إيرفينج، نُشرت في عام 1819م.

وبشكل مثير للدهشة، كان بإمكاني التحدث، فعلى الرغم من أن القيام بذلك يعني وجود معركة من خلال ارتداد الألم من رقبتي إلى تجويف عيني، وعلى طول الطريق إلى قاعدة جمجمتي وصولاً إلى ساقي.

سألت مستفسراً: "أين البقية؟" وكنت أقصد حاييم وزملائي الآخرين من فرقة الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13)، قامت الممرضة بتغيير الموضوع قائلة: "لماذا مزقت قدميك؟"

"قاتلت حافي القدمين"، تمكنت من البصق، والحديث جعلني أشعر كما لو كان في حلقي شفرات حلاقة.

كانت الجروح والتمزقات ضئيلة مقارنة بمعرفة أخبار أصدقائي العشرين من الضفادع البشرية الذين سبحوا معي إلى الجزيرة، حيث أصيب معظمهم بجروح، وقُتِل ثلاثة منهم.

لقد قمت شخصيًا بتجنيد وتدريب حاييم وداني، وهما اثنان من القتلى، حيث كانت الشظية ستقتلني أيضًا من مسافة شبر واحد وفي أي اتجاه كُنت.

وبعد ظهر ذلك اليوم، رافق العم يونا والديّ وهافا إلى المستشفى، وهو صاحب سيارة فورد خاصة به، وكانت السيارة الوحيدة في الكيبوتس، إذا حكمنا من خلال الطريقة التي حدق بها الأربعة في وجهي بعدما دخلوا الغرفة، فلا بد أنني كنت أبدو كما لو خرجت من مفرمة لحم.

على الرغم من أن وجه "إيما" كان لا يخفي رعبها، إلا أن "آبا" كان رزينا كالمعتاد، أمسك بذراعي، متشابكاً في الخط الرابع، وهمس بصوت مخنوق: "فخور بك". نظر العم يونان إليّ بنظرة رضا واستحسان.

ازداد بكاء إيما، ودموعها تساقطت على ضماداتي، هزت هافا رأسها، ما الذي يجب أن تفكر فيه عمتي –التي نجت من معسكر الإبادة أوشفيتس– حول قيام الشباب لقتل بعضهم البعض بكل ما في وسعهم؟

عندما غادرت عائلتي، هرعت مجموعة من الممرضات إلى غرفتي وازدحموا على السرير؛ حيث كان جهاز التلفزيون الوحيد في المستشفى داخل غرفتي، وعندما سألت عما يفعلونه، نظرت إليَّ رئيسة الممرضات كما لو كنت أبله، وردت قائلة: "لماذا، هل نحن نتمشى على القمر".

بينما كنا نشاهد نيل أرمسترونغ يأخذ "خطوة صغيرة واحدة بالنسبة لرجل، إلا أنها قفزة عملاقة للبشرية"، قبضت بيد واحدة على سكة السرير، حيث أي حركة على الفراش تسبب لي

المزيد من الألم، وبإمكانك أن تسميه بأحد أصعب الأحداث في تاريخ البشرية، وبالكاد استذكره لأن أصدقائي ماتوا.

بعد يومين، سمعت الجنرال موشيه ديان يتحدث في جنازتهم عبر الراديو.

بدأ الاحتفال بذكرى "الجنود الذين سقطوا ثمناً للنصر" كانوا محملين على الأكتاف، وفي نقاش حول شعار تيودور هرتزل "إذا صح التعبير، فهذه ليست قصة خيالية"، أراح الشعب "الإسرائيلي".

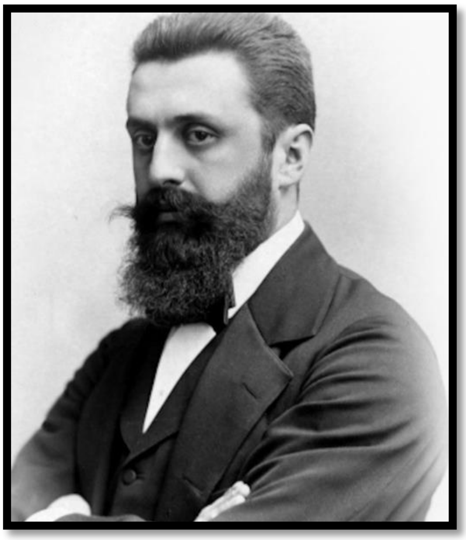

ثيودور هرتزل

"لقد أصبحت الأحلام حقائق: الاستقلال والوطن والقدس والمستوطنات في الجبال والصحاري وغرس الأشجار والزهور، ولكن أيضًا هناك حقيقة الدم والتضحية". أنا أتفق مع كل كلمة، لقد عزز موت أصدقائي من عزمي على أن أُظهِر للعرب أنهم لا يستطيعون إخراجنا من وطننا.

كانت محطتي التالية كاي هاوس، مركز إعادة التأهيل العسكري. ذات صباح في أوائل شهر آب (أغسطس) 1969، جاء قائدي، زئيف آلموج؛ للاطمئنان على تحسن صحتي، ولكي يطلعني على ما كان يحدث مع فرقة الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13)، فقد كان زئيف رجلًا وسيمًا بعيون زرقاء وصوت هادئ، فلم يبرز كفاءته كقائد فقط، ولكنه جاء أيضًا من خلفية مختلفة عن خلفية معظمنا نحن سكان الكيبوتسات، حيث نشأ في أسرة متدينة، وتوجه إلى مدرسة دينية، والتحق بالجيش من خلال منظمة بني عكيفا، وهي أكبر حركة شبابية صهيونية دينية في العالم.

تسلل ضوء برتقالي خافت من خلال الستائر، قبل أن تتحول الغرفة إلى حمام بخار في منتصف النهار بفضل أشعة الشمس.

لم أنم كثيرًا في تلك الليلة، واستيقظت عدة مرات لأنني كنت متلهفًا جدًا للوقوف على قدمي والتدريب مع رفاقي في قاعدتنا في أتليت.

طلب زئيف من الممرضات الخروج وإغلاق الباب خلفهن، وفي إيقاعه العسكري المتقلب، انحنى وقال لي، "لدينا مشكلة.. مشكلة كبيرة".

جمال عبد الناصر

يبدو أن جمال عبد الناصر رجل مصر القوي، قد رد على الجزيرة الخضراء بمضاعفة استراتيجيته في حرب الاستنزاف، أعلن في القاهرة أن غارتنا "عدوان إجرامي" وعرض الزعانف وخزانات الأكسجين التي تركناها وراءنا في الجزيرة الخضراء للصحافة الدولية، ثم لجأ إلى السوفييت للحصول على أسلحة، بما في ذلك أنظمة حديثة مضادة للطائرات، كما وطلب الحصول على طائرات من طراز MiG-23، وهي طائرات حربية نفاثة ذات أجنحة متحركة.

من خلال الخطب التي ألقاها بلغته العربية الرنانة، قام الفرعون ذو الشارب، الذي أطلق عليه مرؤوسوه بـ "الرئيس" أو "الزعيم" بإيقاع الجماهير المصرية والعالم العربي بمهمة تخليص المنطقة من البلاء الصهيوني، حيث رفض العالم العربي بقيادة مصر القبول بوجود "إسرائيل"، وتعهدوا بتدميرها.

أوضح زئيف، وعيناه مثبتتان عليّ، أن الجنرال ديان قرر الرد، من خلال ضرب جمال عبد الناصر بقوة أكبر، حيث بدأ بارليف ويشعياهو غافيش، قائد القيادة الجنوبية، في التجهيز لعملية (الرذاذ)، وهي حيلة معقدة دعت جنودنا إلى التنكر في زي مصريين في ست دبابات قتال سوفيتية الصنع وناقلات جنود برمائية، حيث تم الاستيلاء عليها جميعًا من القوات العربية أثناء حرب الأيام الستة.

في يوم النصر المصغر، وأول عملية من نوعها في التاريخ القصير لدولة "إسرائيل"، ستعبر قواتنا خليج السويس، وتُحدث دمارًا في المنشآت العسكرية المصرية، وبفضل الجزيرة الخضراء كان المصريون قد وضعوا زورقين طوربيد من طراز P-183 صيني الصنع في حالة تأهب قصوى في مواجهة "رأس سدر" على الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء، عبر خليج السويس من البر الرئيسي لمصر.

ولكي يقوم الجيش "الإسرائيلي" بنقل الدبابات والقوات إلى الجانب الآخر من الخليج على متن سفينة إنزال، ستحتاج وحدتنا من الكوماندوز البحري إلى إغراق طائرات P-183s، وإخراجها من المشهد، وإحداث تشتيت للانتباه شمال نقطة الإنزال، لأن مهمتنا ستكون بمثابة مغامرة بشكل بالغ.

المخابرات السرية عقدت العزم بأن تكون السفن مسلحة بمدافع رشاشة ثقيلة وطوربيدات قياس 17 بوصة، ومزودة بأحدث إلكترونيات الكشف عن المتطفلين والدخلاء من تحت الماء، ولكي يتم زرع متفجرات على الهيكل المدرع للطائرة P-183 فإن هذا يتطلب فريقًا من الغواصين المقاتلين باستخدام غواصات صغيرة جداً ليتمكنوا من الاقتراب بما يكفي للغوص، ويتمكنوا من وحمل الألغام إلى الهدف.. ولكن من كان سيقوم بمثل هذه المهمة بعد مقتل الكثير من أفراد مجموعة الكوماندوز لدينا أو من هم مثلي، الذين يتواجدون في المستشفيات أو مراكز إعادة التأهيل الآن؟

لكن باريليف أكد لزئيف: "هذا يجب أن يكون نزهة لكم يا رفاق".

وأضاف ليتأكد من أن زئيف يفهم خطورة الموقف: لم نقم قط بمثل هذه العملية المعقدة والصعبة، فقط تذكر شيئًا واحدًا، كان من المقرر إجراء عملية "الرذاذ" في 9 سبتمبر، وبحلول ذلك الوقت، كان من الأفضل لفريقنا البدء بإغراق السفن؛ وإلا فلن يكون هناك عملية "رذاذ"، ولاحتواء وردع جمال عبد الناصر فإن هذا يتوقف على نجاح فرقة الاسطول الثالث عشر (فلوتيلا 13). فقد كنا "رأس حربة الجيش الإسرائيلي".

المهمة، كما أوضح زئيف، ستتطلب سيارتين غاطسة تحت الماء، حيث تم استخدام مركبات مائية من طراز P-183s، ولكل مركبة أربعة رجال: اثنان لقيادة السيارة، وغواصان لزراعة الألغام (حيث تم تسمية الألغام على اسم حلزون البحر الذي يلتصق بالصخور أو الأسطح الصلبة الأخرى)، وتم تكليف رافي ميلو –قائد الوحدة الفرعية– لقيادة هذه الجهود.

"من غيرك سيكون في الفريق؟" تسارعت نبضات قلبي، فمنذ ما يقرب من شهر كنت محبوسًا في مستشفى ومركز لإعادة التأهيل، مع تلفزيون بالأبيض والأسود، وجولات من أحجار النرد في لعبة البوكر كوسيلة للترفيه.. فما كان عليَّ إلا أن أعود إلى البدلة المبللة.

قيَّد زئيف خمسة أسماء.

قلت: "عِدْني".

ظهرت نظرة فارغة على وجه زئيف، وكأنه لم يفهمني.

"أن أنضم إلى العملية".

"لقد فقدت عقلك اللعين يا عامي".

كان رده معقولاً، لأنني ما زلت أضع ضمادات حول رقبتي، وعندما أستدير كنت أشعر برأسي وكأنني أقطع حلقي.

"لا يمكنك أن تسحب هذا بدوني".. فقد كان لديه فقط ستة من الرجال الثمانية الذين يحتاجهم، وخبيران تخريب مؤهلان للغوص من الغواصات.

ضاقت التجاعيد حول عينيه وهو يركز عليَّ باهتمام.. قال "لا يمكنك المشي".

ولإثبات أنه مخطئ قفزت على قدمي، وحاولت بشدة إخفاء الألم. وأضفت: "على أي حال، العملية لا تتطلب مني خوض ماراثون، أليس كذلك؟"

بعد ذلك بيوم خرجت من فترة النقاهة وعدت إلى عتليت.

وعلى الرغم من أنني ورفاقي نجحنا في إغراق كلتا السفينتين، فإن لا أحد استطاع تخمين عدد البحارة الأعداء الذين لقوا حتفهم في ذلك المساء، لقد فقدنا ثلاثة من رجالنا عندما انفجرت السيارة البرمائية متعددة الاستخدامات، التي لم تكن تقلني بشكل غير متوقع في طريق العودة إلى القاعدة.

كان رافي –قائد دورة تدريب الكوماندوز– قد عاد إلى الخدمة قبل أيام قليلة فقط لتوجيه العملية التي شملت شلومو وعوديد، وأصدقاء وزملائه المقاتلين، فقد كنت حاضرا في الجنازة العسكرية وسمعت موشيه ديان يلقي كلمة تأبين بريكليس.

قال أمام الآباء والأصدقاء وهو في حالة حداد: "الجنود يبنون المنازل ولا يعودون إليها في بعض الحالات".

الفصل السابع:

المستقبل في أيدينا

آخر مرة رأيت فيها رفيق طفولتي سروليك على قيد الحياة، كانت مباشرة بعد حرب الأيام الستة، في حقل مفتوح بالقرب من رام الله في يهودا والسامرة المحتلة حديثًا، في حين أن قوتنا الجوية، وفرقنا المدرعة، والمشاة، والكوماندوز شنت هجومًا خاطفًا على أعدائنا على كل الجبهات، فإن سروليك وفرقته قاتلت في الغالب في سيناء، وذات مرة وصل للقتال في رام الله ومنطقة القدس، وبعد انتهاء الحرب، سارت فرقته منتصرة في مدينة القدس الشرقية الفلسطينية المذهلة.

بعد ذلك بعامين، في عام 1969، ترك الجيش ليقضي بعض الوقت مع زوجته وطفله حديث الولادة، ليعود بعد بضعة أسابيع عندما طلبه الجنرال ديان شخصيًا، الذي كان بحاجة إلى أفضل مقاتليه خلال حرب الاستنزاف، لينضم له مرة أخرى كضابط في قسم المدرعات.

في مايو 1970، وقبل شهرين من وقف إطلاق النار الذي كان سيُنهي حرب الاستنزاف، كنتُ في سيناء، وبعد أن عُدت لتوي من عملية استخباراتية داخل الأراضي المصرية، وردت أنباء عن مقتل سروليك بنيران مصرية، فعلى الرغم من أننا رأينا القليل من بعضنا البعض في سنوات المراهقة، لكنني شعرت كما لو أنني فقدت أخًا، حصلت على إذن لمغادرة الموقع وحضور الجنازة العسكرية المليئة بالخطب.. وكالعادة، احتفظت بدموعي لنفسي.

كان مما يثير غضبي عندما أرى جنودًا بالزي العسكري يبكون في الجنازات العسكرية، حيث كان الجنود يرتدون الزي العسكري هناك لتهدئة الوالدين والزوجات والأطفال، وليس للشعور بالأسى على أنفسهم، ولاحقاً سيكون لديهم متسع من الوقت للبكاء على انفراد.

في اليوم الثلاثين، تجمعنا للاحتفال بنهاية الحداد بعد ثلاثين يومًا، الذي عقدناه في كيبوتسنا، حيث قام مدرس الابتدائي، بملاحظة زيي المدرسي، فجذبني إلى أحد الجوانب، وبنبرة هادئة سألني عما إذا كان بإمكاننا التحدث.. قالت المعلمة إن الأطفال في صف مدرستها الابتدائية كانوا يرسلون الرسائل والهدايا للجنود على الجبهة المصرية، حيث أشاد أحد الأطفال بسروليك بطريقة وطنية نموذجية: "إنك تحميني وتحمينا جميعًا من الأعداء.. يجب أن تقتل كل العرب".

على عكس معظم الجنود، بمن فيهم أنا، الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء الرد على الرسائل والهدايا، أرسل سروليك ردًا وصل بعد أسبوعين، أخرجت المعلمة الرسالة من جيبها وسلمتها إليَّ، وكانت قد وضعت علامة على البريد في اليوم التالي لوفاة صديقي، بالرسالة كانت هناك ملاحظة مرفقة من الجيش "الإسرائيلي" توضح أن الكاتب هو النقيب جوتمان، الذي توفي في نفس اليوم من كتابته الرسالة، وقالت أنها انفجرت بالبكاء أمام فصلها عندما قرأت لهم ما كتبه.

سروليك – يسرائيل جوتمان

فتحت الرسالة ببطء وبدأت في القراءة، كان يشكر الطفل على مذكراته وهداياه، ولكنه اتجه بعد ذلك إلى منطقة غير متوقعة، حيث كتب بخطه الأنيق: "دعني أخبرك بشيء مهم للغاية".. "لا يجب أن تصدق أن كل العرب أشرار.. فهم أيضًا لديهم عائلات.. إنهم مثلنا تمامًا.. لا نريد قتلهم، نحن نريد السلام".

قرأت الرسالة مرارًا وتكرارًا، وكنت أرغب في البكاء، فلم أستطع أن أفهم كيف كان بإمكان سروليك كتابة هذه الكلمات في ذلك الوقت، فقد أراد العرب القضاء علينا، اليوم وبسهولة أعترف أن استعدادنا وشجاعتنا وسرعتنا وذكائنا فقط هي ما منعهم من دفعنا إلى البحر، فهل غيّرت حقيقة كونه أبًا من موقفه تجاه أعدائنا وسمحت له برؤيتهم كبشر؟

بعد مرور عام، قابلت زوجتي "بيبا" التي كانت بملامحها الداكنة، وإرادتها العنيدة، ظهرت بالنسبة لي اليوم كما كانت في اليوم الذي قابلتها فيه في جامعة حيفا، كنت قد فكرت في الانضمام إلى أصدقائي في بناء كيبوتسات جديدة على الأراضي التي اغتنمناها في حرب عام 1967، ومع ذلك، كنت أعلم أن "إسرائيل" بحاجة إلى قوة كوماندوز بحرية فعالة، إذا كنا سنواصل في محاربة الأعداء الذين يسعون إلى تدميرنا، لذلك اخترت البقاء في الجيش.

إلى جانب ذلك، كان طموحي السري أن أقود الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13)، وهو شيء احتفظت به لنفسي، بعد أن أنشأته على يد الاشتراكيين الذين اعتقدوا أن الحديث كان فارغاً، والأشخاص الأقوياء هم من يتصرفون.

لمواصلة هذا في المستقبل، كنت بحاجة إلى الحصول على التعليم، ولكن –في تلك الأيام– رفض الكيبوتس التقدم لامتحان البجروت[1] المطلوبة للقبول في الجامعة، لأن مثل هذه الاختبارات المؤهِّلَة صدمت نُخَب المجتمع الطبقي الذين سعوا إلى تحرير البشرية من خلاله، لقد تعلمنا إتقان المهارات اللازمة، ولكننا لسنا مؤهلين للاختبار.. مع ذلك، عرضت جامعة حيفا برنامجًا صُمِّمَ للسماح لأبناء الكيبوتس الذين أنهوا اثني عشر عامًا من التعليم التسلل من الباب الخلفي، وحينها قمت بالتسجيل.

في أحد الأيام، وفي اليوم الأول من الفصل، جلست بجواري في حصة اللغة الإنجليزية المتوسطة بعيناها البنيتان الغامقتان، كانت المرة الأولى التي جلسنا فيها معًا لتناول طعام الغداء في الكافيتريا، فقد كان قلبي يدق مثل تلميذ مفتون، علمت أننا جئنا من عوالم متشابهة، فقد نشأت "بيبا" في كيبوتس ميرهافيا، الذي أسسه مفكرون وأكاديميون وكُتَّاب من أوروبا الشرقية عام 1929، وكانوا يؤمنون بأن الاهتمام بالثقافة والفكر لا تقل أهمية عن الاهتمام بزراعة أشجار الفاكهة، والاهتمام بالبنادق.

في تلك الأيام كانت تعمل في حظيرة للأبقار في الكيبوتس الخاص بها، وتحب الحيوانات، حيث أرادت دراسة العمل الاجتماعي منذ سن مبكرة، ولكن العمل في حظيرة الأبقار ألهمها فكرة متابعة الدراسات البيطرية، ولكن في النهاية اختارت أن تصبح عاملة اجتماعية وأن تنشئ أسرة في الكيبوتس.

على الرغم من خلفياتنا المتشابهة، كان الحصول على اهتمامها أكثر صعوبة من معظم العمليات العسكرية التي خضتها، فقد خَدَمَت كضابط في سيناء وأَقسَمَت أنها لن تخرج مع رجل عسكري.

بعد عدة مواعيد، وضعت شكوكها جانباً، واستأجرنا شقة ضيقة على بعد ميلين من الميناء في حيفا، وعند الانتهاء من البرنامج في حيفا، قَرَّرْتُ مواصلة خدمتي في البحرية والتحقت إلى دورة ضباط البحرية لمدة ثمانية عشر شهرًا، وبمجرد أن أنهيت تلك الدورة، أقمت أنا وبيبا حفل زفاف مرتجل في كيبوتس مرحافيا على العشب، انتهى الحفل عند الفجر، عندما طُردت رفاقي، لأن معظمهم كانوا في حالة سكر، ثم قضيت أنا وبيبا الليلة في كوخ.

في اليوم التالي، وبمجرد أن انتهينا من تنظيف وإزالة القمامة الذي خلفه أصدقائي، ذهبت إلى حيفا لإجراء اختبار لقيادة زورق حربي سريع، وفي أقل من شهر كنت أقود زورقًا حربيًا يبلغ طوله 60 قدمًا في حيفا، ثم تلاه "شهر عسل" لمدة ثمانية عشر ساعة على الشاطئ قبل أن أنزل

---

(1) امتحان شهادة الثانوية العامة.

إلى شرم الشيخ على البحر الأحمر لتولي أمر قيادة زورق حربي متسلحاً بسكين كوماندوز وبندقية كلاشنكوف من طراز AK-47.

مع مئات الأميال بين مرهافيا في شمال "إسرائيل" وسيناء، كان اتصالي الوحيد ببيبا من خلال مكالمة هاتفية متباعدة أو عبر الرسائل، لقد كنت أكتب الرسائل بشكل غير متكرر لدرجة أنني قد أكون في مثل هذا النشاط لو كنت في مهمة لأبولو(1).

بالمقارنة مع خدمتي خلال حرب الاستنزاف، كانت مهمتي الثانية في شمال سيناء أن أقضي عطلة على الشاطئ، وبدلاً من القتال، أمضيت ليالٍ طويلة على جسر القائد أستمتع بالبحر وبالمناظر الطبيعية المملة: غبار الشياطين والحشائش المتدحرجة تعبر الرمال التي لا نهاية لها، وجبال الصحراء الحمراء المتآكلة، وخيام البدو السوداء المنتشرة في تلال الصحراء الخشنة، والماعز الهزيلة التي تقضم الشجيرات.

بينما كنت أنا ورجالي ندخن علب السجائر ونشرب علب البيرة، كنا نكتشف البحر مرة أخرى، بجماله وقسوته، في البحر الأحمر –عند ارتفاع المد أو أثناء العواصف– لا يمكنك رؤية الجزر المرجانية التي يمكن أن تُبهرك وتُغرق سفينتك.

لقد خرجت من الملل لبضعة أيام عندما سافرت إلى القدس في يوم الاستقلال "الإسرائيلي" في ربيع عام 1972، في ذلك اليوم لاحظت صورة لي في زي أبيض مغسول حديثًا، وياقة مفكوكة على الطراز "الإسرائيلي"، واقفًا منتبهًا في القصر الرئاسي في شارع جابوتنسكي في القدس، وفي خلفية الصورة، يمكنك رؤية نافذة من الزجاج الملون للنبي إيليا (إلياس) وهو يصعد إلى الجنة، أذكر يومها أنني كنت أرتدي بنطلون به رسومات متكلفة، ومجعَّد للغاية، وثنية ساق البنطلون كانت مثالية بطول بوصة واحدة، تسقط مثل الستارة فوق حذائي البحري.

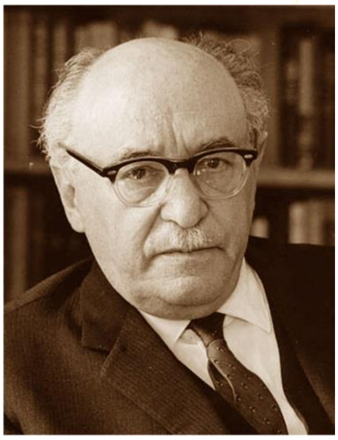

زلمان شازار
تم وضع صورته على العملة فئة 200 شيكل في الإصدار السابق

قابلت رئيس الدولة زلمان شازار، ورئيسة الوزراء غولدا مئير، وصاحب العين المرقعة وزير الدفاع موشيه ديان، حيث قاموا بوضع ميدالية الشجاعة ذات الشريط الأصفر على صدري تكريماً لأفعالي البطولية في الجزيرة الخضراء.

---

(1) أبولو: هو برنامج طيران للفضاء قامت به وكالة ناسا بالولايات المتحدة، بهدف وصول البشر على سطح القمر.

كان والداي يجلسان في الصف الأول، كان أبي مبتهجًا، لكن والدتي إيما بلا تعابير، وهذه الميدالية هي أعلى وسام "إسرائيلي" يُمنح للذين يُظهرون "البطولة النهائية ضد نيران العدو"، وكنت أول من يحصل عليها منذ حرب الأيام الستة.

في ذلك الصيف، وبجانب قناة السويس أقصى غرب سيناء، شاهدت أداء مسرحية مناهضة للحرب بعنوان: "ملكات أمباتيا – ملكة حوض الاستحمام"، من تأليف: هانوك ليفين، وبرتولت بريخت "الإسرائيلي"، وهي أكثر المسرحيات كان بها هجوم مُضلل ومنافية للأخلاق، حيث شعرتُ أنا ورجالي بالملل منها.

غولدامئير

أما في "إسرائيل"، قام اليمينيون بتشويش أداء المسرحية، حيث قاموا بإلقاء قنابل ذات رائحة كريهة، ودعا البعض إلى حبس ليفين في ملجأ على الطراز السوفيتي.

وفي سيناء صرخنا من أحد المشاهد، حيث يعرض أحد المشاهد أن "الإسرائيليون" يحاولون إعادة الوصايا العشر إلى الله، بحجة "أمن الدولة"، وفي فيلم آخر تظهر غولدا مئير، وكأنها ملكة حوض الاستحمام التي تحمل اسمها، وتمسك بوزير خارجيتها "آبا إيبان" لمنعه من تقديم اقتراح للسلام.

اشتُهِر وزير دفاع مئير دايان بالمزاح، حيث قال ساخراً: "شرم الشيخ أفضل بدون سلام، ولا سلام بدون شرم الشيخ"، فقد كانت سيناء تحت سيطرتنا، وبدا في تلك اللحظة أننا لن نتخلى عنها أبدًا.

في نقاش ساخن مع الطاقم على متن السفينة، دافعت عن هانوك ليفين وغيره من الكُتَّاب اليساريين، حيث قلتُ للرجال الموجودين على القارب إنه بسببنا فقط تمكَّن الكُتَّاب من السخرية منا ومن القيادة السياسية، لأن هذا ما تدور حوله الديمقراطية.

بحلول أواخر صيف عام 1973، سئمت من الروتين الممل في سيناء، خاصة وأن زملائي السابقين من الأسطول البحري الثالث عشر (قافلة 13) كانوا يُوجِّهُون زوارقهم وأسلحتهم نحو عرفات وعصابته المختبئين في مخيمات اللاجئين اللبنانية، كنت أبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، كنت صغيرًا جدًا، وجائعًا جدًا، وطموحًا للبحث عن الفِتَن، حيث إنني لم أتمكن من الإبحار لأيامٍ وليالٍ طويلة لإخافة مهربي المخدرات، والمتسللين، وفِرَق المخابرات المصرية التي تعبر خليج السويس لجمع المعلومات الاستخبارية لحرب لم أكن أعرف بعد هل هي على وشك الانفجار وتغيير حياتنا إلى الأبد؟

قررت حضور دورة أُخرى لقيادة الأركان في تل أبيب، حيث يُمكنني أن أعيش معًا أنا و"بيبا" لأنني أصبحت مؤهل لتولي قيادة سفينة حربية مزودة بالصواريخ، وماهرٌ في مطاردة إرهابيي منظمة التحرير الفلسطينية.

بعد ثلاثة أسابيع من انتقالي إلى تل أبيب، وتحديداً يوم الخميس قبل يوم الغفران، أقدس يوم في اليهودية، تم الكشف عن تقارير استخباراتية تكشف تحركات للقوات المصرية، ولكن في ذلك المساء، وفي خطاب ألقاه رئيس قسم أبحاث المخابرات العسكرية العميد شاليف (لا علاقة له بمئير)، وهو الرجل المسؤول عن تقييم أداء المخابرات العسكرية، قال في خطابه: أنه لا يوجد خطر من تجدد القتال، يمكننا فقط أن نصوم ونتوب عن ذنوبنا بسلام.

كالعادة، الدولة بأكملها أُغلِقَت في عيد الغفران.. وقرابة الظهر رن جرس الهاتف، قمت بالتقاط جهاز الاستقبال بلهفة.

"عامي هنا".

"سيدي، لديك أوامر بالعودة إلى شرم الشيخ".

"لماذا كل هذا؟" اعتقدت أنها قد تكون مزحة.

"سيدي المحترم." ثم سكت المتصل وقت طويل .. وأكمل قائلاً: "الحرب على وشك أن تندلع".

حرب؟ خليفة عبد الناصر، أنور السادات، الذي يقرأ الكتب، وصاحب علامة الصلاة السوداء على جبهته، كان يهاجمنا؟ ... لقد ذُهلتُ في صمت.

محمد أنور السادات

"ستصلك سيارة في غضون ثلاثين دقيقة".

وقفت بلا حراك، ممسكًا بجهاز الاستقبال أمامي وكأنه سينفجر.. صرخت أخيرًا: "حرب حقيقية!" في رأيي فإن العملية العسكرية في الجزيرة الخضراء كانت رائعة ولكنها لم تكن حربًا كاملة، الشيء الحقيقي بالطبع كان حرب 1967، لكن العمل الوحيد الذي رأيناه نحن كوماندوز الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13) للأسف باء بالفشل، أما الآن فقد أُتيحت لي الفرصة للقتال في الحرب الصادقة التي تقودنا إلى الخير، فالأساطير اللطيفة مصنوعة منها.

تجولت في أنحاء الشقة، مرتدياً ملابس فضفاضة محشوة من الصوف الغليظ، وودعت زوجتي بيبا المذهولة قبلة الوداع، ثم اندفعت إلى الرصيف لمقابلة السائق، ثم بعد أن أخذني أخذ ضابطًا آخراً من كيبوتس بالقرب من مدينة العفولة. وخلال الوقت الذي وصلنا فيه إلى تل أبيب، كانت الحرب قد بدأت بالفعل، فقد أفادت الإذاعة العسكرية عن معارك جوية بين قواتنا، وبطائرات مصرية من طراز ميغ 21 تهاجم مطارنا في شرم الشيخ.

في الواقع، كان حجم الحرب الجوية كبيرًا لدرجة أن أسطولنا بأكمله كان مطلوبًا للاشتباك مع المصريين، وكان علينا التوجه إلى سيناء، فقد كانت قيادتي الأولى في الحرب، وهي قيادة ثلاث حافلات مليئة بجنود الاحتياط العنيدين، وهم يزحفون براً إلى شرم الشيخ، وأثناء القيادة خلال الليل، لم أستطع النوم، خائفًا أن يتكرر ما حدث عام 1967 مرة أخرى، حيث فَرَض السوفييت والأمريكيون وقف سريع لإطلاق النار، فإذا لم تُسرع هذه الحافلات اللعينة البالية، سنخسر الحرب! فهذه المرة كان المصريون هم المعتدون، فأُخِذْنَا على حين غِرة بهجوم تسلل، وكنت مصممًا على أن أجعلهم يدفعون الثمن غاليًا.

في تمام الساعة السابعة صباحًا، وصلنا إلى قاعدتنا للعثور على الدخان الذي كان يتصاعد من حظائرنا وثكناتنا السابقة، لقد تجمد رجالي من الخوف، وهم الذين كانوا مغرورون في الحافلة، فخط بارليف الذي يُفترض أنه غير قابل للاختراق –والذي هو عبارة عن سلسلة من التحصينات المصنوعة من الخرسانة والحجر والرمل التي بُنِيت على طول الضفة الشرقية لقناة السويس بعد حرب الأيام الستة، وسُمِّيت على اسم نائب رئيس الأركان الذي كان يُدخِّن السيجار، والذي أشرف على بنائه–، قد تم اختراقه، وكانت القوات المصرية تدخل بأعداد كبيرة على سيناء، لقد أثبتت فعاليتها مثل خط ماجينو، الذي بناه الفرنسيون بعد الحرب العالمية الأولى لردع الغزو الألماني، حيث كان واضحًا أنه من الخطر أن يتم محاصرته والقضاء عليه.

لم تكن خسارة سيناء مصدر خوفنا الوحيد في ذلك اليوم من عام 1973، وفي ظل هجوم السوريين على الشمال، بدا بقاء "إسرائيل" في خطر، وكانت الأوامر الصادرة عن وزارة الدفاع مُربِكَة ومتناقضة، فقد اكتشفنا مدى ذعر ديان بعد الحرب فقط، وفي الأيام القليلة الأولى لم يكن لدي أي فكرة حقيقية عن حجم الكارثة، كل ما كنت أعرفه هو أن جيش الدفاع "الإسرائيلي" قد هُزم على طول القناة.

طوال مدة القتال، أجبرتني الفوضى التي في وزارة الدفاع على العمل خارج التسلسل القيادي المعتاد، وبناءً على طلبي، كلفني زيف ألموغ –قائد المنطقة– بمنع الكوماندوز المصريين من مهاجمة القواعد "الإسرائيلية" على طول 180 ميلاً من ساحل سيناء.

مع أسطول صغير مكون من خمس سفن، وسفينة إضافية ستصل قريبًا من الشمال، تحركت أنا وطاقمي الذي تم اختياره بعناية، حيث كان معظمهم من خريجي المدرسة البحرية.

فخلال الأسبوع الأول من الحرب كانت مهمتنا الأساسية تدمير الزورق الحربي المصري (دي كاسترو)، لأنه كان يسيطر على شمال خليج السويس ويُهدد السفن "الإسرائيلية" المتمركزة في منطقة رأس سدر، فقد كانت السفينة المصرية أكبر بكثير وأسرع من سفينتنا، ولديها قوة نيران أكبر بكثير، حيث كانت تتكون من: مدفعان متعدد الفوهات عيار 23 ملم، أحدهما في مقدمة السفينة والآخر في المؤخرة، بالإضافة إلى رشاشات خفيفة على جانبي الجسر.

تجاهلت الأوامر، وواصلت الهجوم بقاربين من طراز "دابور"؛ كان أبسط شكل من أشكال القتال وجهاً لوجه تبادلاً لإطلاق النار.

الطريقة التي حركنا بها سفينتنا جعلت سفينة العدو هدفًا مثاليًا، أطلقنا النار أولاً، وضربنا مواقع المدفعية، وبعد هذه الضربة المباشِرَة أطلقنا وابل من النيران بما يكفي لإغراق دي كاسترو.

خلال الأسابيع الثلاثة التالية من القتال، عُدنا إلى القاعدة البحرية في شرم الشيخ في خليج السويس مرتين فقط، وذلك لإعادة التسلح بشكل أساسي، وفي غضون ذلك، أغرقنا عشرات السفن المصرية، حيث كان معظمها يُحاول نقل الأسلحة والمقاتلين إلى الجانب "الإسرائيلي" عبر الخليج.

رجالي، الذين قاتلوا ببسالة وشجاعة في هذه المعارك المباشرة، لم يكونوا مدفوعين بمفاهيم مجردة عن الوطنية الصهيونية أو الحب لأرض "إسرائيل"، أو أنهم يثقوا في قادتنا العسكريين، لا ليس كذلك، لقد قاتلوا بهذه الضراوة لأنهم بعد سنوات من التدريب آمنوا بأنفسهم ورفاقهم وقادة السفن الذين قادوهم في المعركة.

بعد تسعة عشر يومًا من بدء الأعمال العدائية، أجبَرَ الرئيس الأمريكي نيكسون والديكتاتور السوفيتي بريجنيف، في إحدى اتفاقيات الوفاق، أجبروا "الإسرائيليين" والمصريين الاتفاق على وقف إطلاق النار، لقد لقي أحد رجالي حتفه أثناء القتال وأصيب كثيرون، حيث كانت الخسائر جسدية ونفسية، لقد فقدت خمسة وعشرين جنيهاً خلال الاشتباك، بينما الآخرين سيواجهون اضطراب ما بعد الصدمة، انها المرة الأولى التي أرى فيها كيف يمكن للصدمة أن تُعثِّر العقل.

في نهاية الحرب تسلمت قيادة العمليات البحرية في قاعدة رأس سدر شمال السويس، وفي المنصب الجديد كنت مسؤولاً عن إنزال السفن البحرية ومئات الرجال.. ذات يوم، عندما كنت أتابع مهامي ومسئولياتي الجديدة، تلقيت مفاجأة ترحيبية.

قال أحد رجالي: "عامي، لديك زائر!"... "تقول إنها زوجتك".

هرعت إلى الميناء، حيث كانت بيبا تنزل من طائرة من نوع هرقل.

كان من المذهل رؤيتها، لكن نشوة البهجة كانت مشوبة بالقلق، فمنذ ليلة زفافنا تحملت زيارات غير نظامية، وأجور سيئة، وحياة متقشفة، فلم أكتب لبيبا مرة واحدة خلال الحرب، وأعتقد أنني كنت خائفًا من أنني إذا كتبت فإن العين الشريرة ستهزمني تمامًا كما فعلت مع سروليك.

عندما سألت بيبا عن سبب وجودها، قالت لي مباشرة: "قد تموت في هذه الحرب، وإذا لم أتمكن من فعل شيء حيال ذلك، فهناك شيء يمكنني القيام به".

"ما هو؟"

"أن أنجب طفلك".

لقد اتبعت ما يفعله طاقمي المشاغب وخرقت البروتوكول، وسمحت لها بالبقاء.

وبعد ثلاثة أشهر، في أوائل عام 1974، عدت إلى بيبا وإلى الأسطول البحري الثالث عشر، لقد كانت لنجاحات أعدائنا العرب خلال حرب يوم الغفران قد حفزت بينشاس وأصدقاؤه المتدينون بإطلاق حركتهم الاستيطانية التوسعية بقوة، وكان لهم تأثير معاكس على الحرس القديم لأهل الكيبوتسات والاشتراكيين، وكانت الرسالة التي أخذناها من الكارثة هي أن هناك حدودًا لقوة "إسرائيل"، وأن الغطرسة يمكن أن تؤدي إلى نتائج كارثية ومهينة.

وبعد سنوات، عندما سألني شاب على وشك التجنيد عن حرب يوم الغفران، لم أذكر تفاصيل الحرب نفسها، وبدلاً من ذلك، أخبرتهم كيف فقدت خلال هذا الصراع الإيمان الساذج الذي كان لديَّ منذ الصبا في دولة "إسرائيل"، كما تجسد في رئيس الوزراء، الذي كان طوال طفولتي، منذ أن كنت في العاشرة من عمري، ديفيد بن غوريون، فعندما كنت صبيا، أخبرني "آبا" كيف كان "الرجل العجوز" –كما يسميه بن غوريون– يعيش في مبنى أبيض كبير في القدس، حيث كان يجلس خلف باب غرفة في نهاية ممر طويل في الطابق الثاني، ويفكر بعناية في القرارات التي كان يعلم أنها ستؤثر على كل واحد منا، والآن لم أكن متأكدًا من وجود أي شخص مسؤول.

في الأشهر التي أعقبت الحرب، عانيت من الموت أكثر من أي وقت مضى، حيث سقط الآلاف بين قتيل وجريح، وامتلأت البلاد بالزوجات والأطفال والآباء والأمهات، بمن فيهم العديد من أصدقائي، حينها أدركت أنه إذا توفيت فسيكون هناك شخص واحد سيتدمر عالمه بالكامل، إنها زوجتي بيبا.

ما جعل هذه المواجهة مع الموت مريرة للغاية هو غطرسة قيادتنا، لقد قامت غولدامئير، وموشيه دايان، وشاليف، وبارليف، ومجموعة من الآخرين، بالتعامل مع الحرب على أنها نوع من ألعاب الاستقبال، لم أن غولدائير ودايان لم يرفعوا خيار التفاوض مع المصريين إلى مجلس الوزراء، فقد كان ديان يرفض وبشكل قاطع أي حلول دبلوماسية تتضمن تسليم الأراضي بقوله: "سأرفض أي تنازلات من أي نوع وإذا طلب العرب الحرب، فسيحصلون عليها".

في وقت لاحق، عندما قرأت كتاب "مسيرة الحماقة" للكاتب باربرا توكمان حول حرب فيتنام، سألت نفسي لماذا أنا أيضًا كنت أسير في موكب أدى إلى كارثة.

الفصل الثامن:

أرض فتح

لقد كان متأخرًا، وكان الدكتور يهودا ميلاميد ينتظرني في قرية "عين حوض"، قرية الفنانين، وتقع على الجانب الآخر من التلال المنخفضة المتدلية من كيرم ماهارال، لذلك أخرجت سيارتي التويوتا من طراز بريوس من ممر الحصى، وقمت بالقيادة لمدة عشرين دقيقة، حيث كانت تغرب الشمس على طول الطريق السريع للساحل.

كان لا يزال هناك ما يكفي من ضوء الشمس الطبيعي بالنسبة لي للقيادة بدون إضاءة المصابيح الأمامية، مررت عبر تمثال نحاسي قريب من الحجم الطبيعي لراقصة عارية عند مدخل القرية إلى عين حوض، في مكان ما بالقرب من المسجد القديم، والذي تحول الآن إلى مطعم "بار مارتيني" على غرار كباريه "فولتير" في مدينة زيورخ، ثم انعطفت في ممر يهودا الضيق.

الطبيب/ د. يهودا ميلاميد

توقفت أمام منزله، وأعجبت بالمنظر عند نزولي من السيارة، فقد قام الكوماندوز البلماخ في عام 1948 باحتلال عين حوض (تعرف بالعبرية بـ "ربيع العظمة")، حيث نزح السكان العرب إلى أرض على ارتفاع نصف ميل أعلى التل وأسسوا بلدة "عين جود"، وهي قرية حصلت قبل سنوات قليلة فقط على اعتراف الدولة، وتمكنت من الحصول على إمدادات منتظمة من الكهرباء، أما في عين حوض فقد استقبلت الدولة لاجئين يهود قدموا من الجزائر، وفي الخمسينيات انتقلت مجموعة من الفنانين "الإسرائيليين" إلى البيوت العربية ولم تغادرها.

يهودا، ذو الصدر الكبير، طبع على ظهر قميصه (I♥NY) "أنا أحب نيويورك"، اتجه إلى مجموعة من السلالم الحجرية، والذراعان ممدودتان على نطاق واسع لعناق الدب، ويشغل في هذه الأيام منصب مدير معهد الطب للضغط العالي في مستشفى إليشا في حيفا، كما إنه أيضًا أحد هُواة الموسيقى الكلاسيكية الذي قاد سيمفونية الجيش في ليوهان شتراوس مقطوعة: (تحت الرعد والبرق)، كما وألقى محاضرات عامة عن أحد كُتُب طفولتي المفضلة، وهو كتاب (جول فيرن عشرون ألف فرسخ تحت البحر)؛ ومن هواياته الأخرى البستنة وصناعة النبيذ، وكان على وشك القيام برواية القصص.

جلسنا على أرائك جلدية راقية، أبواب فرنسية مفتوحة على مصراعيها في الهواء الطلق، ورائحة خشب السرو –التي زرعها الصندوق القومي اليهودي– تنطلق من أدنى الوادي، فقد كان من الصعب التوفيق بين ذكرياتي عن يهودا كطبيب يرتدي بدلة مبللة ويحمل بندقية من طراز AK-47 مع الرجل الذي كان أمامي، كان يجلس في منزل كان من الممكن أن يكون من نعم الله، فقد كان مزخرفاً بصفحات الهندسة المعمارية، ربما كان سيقول الشيء نفسه إذا رآني في حمام السباحة مع أحفادي.

على طاولة طويلة من خشب الماهوجني، والتي من الواضح أنها مصنوعة يدويًا، وضع أمامي زجاجة من "كابيرنت فرانك" مصنوعة من مزرعة العنب التي يملكها، ووعاء من الزيتون المقطوع من بستانه القريب.

هناك شيء يكاد يكون من الفترة الزمنية الجيولوجية عن صديقي، هو رجل في السبعينيات من عمره يركض مثل رياضي، ويزأر من الضحك، ويضرب بقبضته على ركبته لإثبات وجهة نظره.

لقد أعطيته لغتي القياسية حول كونه جزءًا من قصة حياتي وقصة "إسرائيل"، وعلى وجه الخصوص، فإن سنوات القتال التي قضيناها معًا في لبنان مع الاسطول البحري الثالث عشر، جعلته أفضل مرشح لمساعدتي في سرد جوانب من قصة حياتي ربما أكون قد نسيتها، لقد قمنا بتلميع زجاجة نبيذ عندما قدَّم لي الخلفية الدرامية التي سبقت انضمامه إلى القوات الخاصة في صيف عام 1974.

قبل دراسته في كلية الطب، عمل كضابط في وحدة كوماندوز في الجنوب وتلقى اقتباسًا لعملية استخبارات شارك فيها، وبحلول الوقت الذي اندلعت فيه حرب يوم الغفران كان قد أنهى للتو إقامته، وذهب للعمل كطبيب مع وحدة أرييل شارون في سيناء، قاعدتهم تحملت العبء الأكبر من إطلاق الصواريخ المصرية، لأن المصريين كانوا يعرفون أن هزيمة الجيش "الإسرائيلي" تتوقف في القضاء على وحدته، لقد كانت ساحة المعركة مسلخًا، وكان عليه أن يُعالج مئات الجرحى، فقد هطلت الصواريخ ليلاً ونهاراً.. وصفها بقوله: "لقد كان مثل هذا المشهد في الفيلم الأمريكي: (القيامة الآن)، عندما تعرضت القرية الفيتنامية للقصف بواسطة طائرات الهليكوبتر الحربية بمرافقة موسيقى الفيلم الأمريكي القيامة الآن، لقد كانت نجاة أي شخص منها بمثابة معجزة.

بعد الحرب عاد إلى الحياة المدنية، وقضى ستة أشهر في مستشفى عادي، لكنه لم يستطع الاندماج معهم، "أخبرت رئيس القسم الذي أعمل به .. هذا لا يعمل من أجلي .. لا أريد

العمل في مستشفى"، اقتنع بأنني مصاب باضطراب ما بعد الصدمة، فقام بمنحني إجازة مرضية طويلة، ماذا أفعل؟ .. عُدت إلى سيناء وإلى نفس القاعدة التي خدمت فيها أثناء الحرب، حيث هناك في الصحراء كان لديَّ الكثير من الوقت لأفكر، فقد قررت العودة إلى الجيش كطبيب في وحدة قتالية نشطة، وسألت عن ذلك، عندها أخبرني الناس أن الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13) هو أخطر مكان للخدمة، عندها علمت أن هذا المكان هو ما أحتاجه".

وكان هذا هو المكان الذي جمعنا سوياً، فبعد حرب الاستنزاف وحرب يوم الغفران، كان من الواضح أن التغييرات ضرورية في هيكل الكوماندوز البحري؛ وللمساعدة في تنفيذ هذه التغييرات، فقد عُدت إلى الوحدة من موقعي في شرم الشيخ، ومع اشتداد القتال ضد منظمة التحرير الفلسطينية، أدركت بسرعة أننا بحاجة إلى نَهج جديد للتجنيد والتدريب والمعدات والتسليح، فعلى الرغم من أن الحرب أوشكت على إفلاس البلاد، إلا أنه تم توفير الأموال لأن المخاطر كانت عالية.

ياسر عرفات

سبب إحساسنا بمطالبنا المُلحة هو ياسر عرفات، زعيم حرب العصابات بشاربه الأسود الكثيف وكوفية المربعة. كان عرفات وعصابة فتح داخل منظمة التحرير الفلسطينية يضعان شوائب جديدة على ما كان حتى تلك اللحظة يُعتبر صراعًا تقليديًا بين الدول، حيث استغلت مجموعته من الإرهابيين دولة لبنان الفاشلة لتحويل مخيمات اللاجئين التي تديرها الأمم المتحدة إلى إقطاعية مسلحة.

رجال عرفات، الذين يطلقون على أنفسهم مقاتلين من أجل الحرية، كانوا يُهرِّبون الأسلحة إلى مخيمات اللاجئين من أي مكان يمكنهم الحصول عليه، والتي كانت غالبًا تأتيهم عن طريق البحر من قبرص، بدأت فتح بزعامة عرفات –إلى جانب الفصائل المسلحة– المنافسة بتنفيذ هجمات على "إسرائيل" عن طريق البحر.

كانت أجندة عرفات معلنة وواضحة ومباشرة، فقد كانت على غرار الحملة الجزائرية الناجحة لطرد الفرنسيين من بلادهم: "المهمة الأساسية للثورة الفلسطينية هو اقتلاع الكيان الصهيوني من أرضنا وتحرير مقدساتنا".

بعد شهر من اتفاق وقف إطلاق النار مع مصر، اختطف إرهابيو منظمة التحرير الفلسطينية طائرتي "تي دبليو إيه" و"بان آم"، وبعد ذلك بوقت قصير، قام نشطاء من منظمة التحرير الفلسطينية في غزة بقتل مستوطنين "إسرائيليين" بقنبلة يدوية، ووقع حمام دم أكثر بشاعة عندما تسللت عصابة إرهابية منافسة من الجبهة الشعبية الماركسية اللينينية لتحرير فلسطين، عبر الحدود على الطريق إلى موشاف أفيفيم بالقرب من حدودنا مع لبنان وأطلقت قذائف بازوكا على حافلة مدرسية، مما أسفر عن مقتل 12 شخصًا بينهم ثمانية أطفال.

كانت إحدى مهماتنا قطع طرق التهريب الى قواعد عرفات، الى جانب وظيفة أخرى وهي تدمير مخازن الأسلحة داخل المعسكرات الفلسطينية، على عكس الحرب الكلاسيكية حيث تقاتل الجيوش في ساحات القتال، كان أعداؤنا محصورين في مناطق مكتظة بالسكان، كنا نحارب أشخاصًا بدون زي موحد وسط مجموعة من السكان، حيث لم نتمكن من التمييز بسهولة بين المقاتلين وغير المقاتلين، يمكن للرجل أن يكون صيدليًا في النهار وفي الليل يتحول إلى إرهابي يتحصن في قبو مدرسة تديرها الأمم المتحدة، ونظرًا لأن قوافل الطائرات وفرق الدبابات كانت أدوات بدائية لهذا النوع من القتال، فقد بدأ كبار الضباط العسكريين في رؤية مجموعات الكوماندوز على أنها رجالهم الذين يقومون بأعمال مليئة بالمغامرات، فقد قاتل المظليين الذين هبطوا من مروحية في المنطقة الجبلية في لبنان، من الاسطول البحري الثالث عشر في إحدى الليالي غير المقمرة، والعمل ضد القواعد الإرهابية على طول الساحل.

في عالم الحرب القديم، تقاتل وأنت تعلم جيدًا أنك قد تموت، وكان هذا هو الثمن الذي يخاطر الجندي بدفعه مقابل نصر حاسم، لكن في لبنان لم يكن هناك استسلام ولا عمليات عسكرية حاسمة ولا نصر نهائي، وبعد عملية واحدة سيكون هناك أخرى، وأخرى، وأخرى.. حيث لم تكن مهمتنا القضاء على جميع التهديدات، لأن الإمداد المحتمل لمقاتلي العدو كان لا ينضب، وكانت الفكرة هي منع الهجمات الإرهابية الموجهة ضد المدنيين "الإسرائيليين"، وذلك بضرب هدف والاختفاء بسرعة قبل أن يبدأ جميع من في مخيم اللاجئين بإطلاق النار علينا.

أثناء تكوين فريقي، لم أكن أريد أحد من المعتوهين من أبناء سام، فقد كنت أرغب في رجال متحمسين وعقلانيين قادرين على ضبط النفس –لمعرفة من يجب قتله ومن عليه أن يتركه– عندما يخرجون من البحر، بوجوه ملطخة بطلاء مموه، اقتحموا ساحات الإرهابيين الخلفية، في أعلى السلالم، وفي الحمامات إذا لزم الأمر. كَمَا قَالَ الملكُ سُلَيْمَانُ: "بالخدع يجب أن تشنوا حرباً" (سفر الأمثال 24:6).

عندما جاء يهودا وطلب الانضمام، كان يحمل حقيبة طبية في يد وفي الأخرى يحمل بندقية من طراز AK-47، كان بالضبط من النوع الذي كنت أبحث عنه.

لقد قمنا بالعديد من العمليات معًا، وكانت أخطر المهمات هي السباحة في البحار المتماوجة، ذات مرة وبعد معلومات استخبارية من الموساد والشين بيت، ضربنا قاعدة حرب العصابات، وقتلنا خمسة عشر إرهابياً قبل ساعات فقط من تخطيطهم للتسلل عبر الحدود وقتل مدنيين "إسرائيليين".

"هل تتذكر الصبي؟" سأل يهودا، ثم فجأة غيَر الموضوع.

"أي صبي؟".

"ذاك الطفل من مخيم الراشدية. ألا تتذكر؟ بعد العملية مباشرة وقبل أن نعود سباحةً إلى الأبراج، سألتني إذا كنت قد فعلت الشيء الصحيح".

كان يشير إلى حادثة من عام 1975، لم أفكر فيها منذ سنوات، حيث صدرت أوامر لتدمير مبنى يستخدمه قائد في منظمة التحرير الفلسطينية في مخيم الرشيدية للاجئين جنوب مدينة صُور، وهي مدينة تأسست خلال العصر الحديدي، وأصبحت مَوطِنًا لما يقرب من عشرين ألف لاجئ فلسطيني، ومعقِل للمسلحين.

نقلتنا سفن الصواريخ إلى المياه الإقليمية اللبنانية، ومن هناك أبحرنا في قوارب مطاطية حتى اقترنا بما يكفي لنسبح بقية الطريق، ثم وصلنا إلى الأرض في وقت متأخر من الليل، قام يهودا بالانضمام إلى المجموعة الأكبر من المجموعتين، حيث كان هناك المزيد من الرجال، والمزيد من الرجال تعني الذين يُحتَمل إصابتهم بجروح ليقوم بمعالجتهم لاحقًا، أسرعتُ مع مقاتليَّ في ممرات متهدمة، مرورًا بأكواخ إسمنتية وسيارات محطمة ومتاجر مغلقة، وضعنا العبوات الناسفة خارج المبنى الذي –بحسب المعلومات الاستخبارية– كان مقر الإرهابيين، وأسرعنا بالعودة نحو الشاطئ للاحتماء قبل الانفجار.

الانفجار أيقظ المخيم بأكمله، انطلقت أصوات عالية من المباني المجاورة، ولا شك أن رجال حرب العصابات والمدافع الرشاشة كانوا يتحركون في اتجاهنا.

عندها سمعت ما بدا وكأنه صوت صبي صغير يولول، ربما تسبب الانفجار في رميه من النافذة، لقد شلتني رؤيته على الأرض أمامنا فتوقفنا، ذاك التوقف عرّضنا جميعًا للخطر، لكن لم أتمكن من ترك الصبي ينزف حتى الموت.

بدت أصوات إطلاق النار تقترب أكثر فأكثر، وكأن نصف الرجال المسلحين في المخيم يقفون على أقدامهم.

في الليل الأسود لم يصدر أي منا صوتًا، ثم أمرت أحد المقاتلين الذين دربوا المسعفين بالعمل على معالجة الصبي وبسرعة، ومع اقتراب الأصوات، كان علينا الخروج من هناك.

وعندما وصلنا إلى الشاطئ وجدنا مجموعة يهودا تنتظرنا.

يتذكر يهودا عندما جلسنا على أريكته الجلدية المريحة: "لقد بدأنا نخشى أن نتعرض لكمين". "ثم، قبل القفز في الماء مباشرة، أمسكت بكتفي هكذا..".

تمدد يهودا فوق الطاولة وضغط على كتفي بيديه الكبيرتين، وتابع: "كان الظلام شديدًا، لم أستطع رؤية وجهك، لكنني سمعت المشاعر في صوتك.. أتذكرها جيدًا لأنها كانت المرة الوحيدة التي سمعت فيها أنك تتحدث بهذه الطريقة.. لقد قلتُ كيف أمرت مسعفك الطبي بمعالجة الصبي، وأردت معرفة ما إذا كنت قد فعلت الشيء الصحيح للمجازفة.. فتلك الدقائق الإضافية عرَّضت حياة الجميع للخطر".

سألته: "هل تتذكر ما قلته؟".

"أعتقد أنني أجبتك للتو".

رفعت كوبي الفارغ من أجل إعادة تعبئته، وأومأت إليه بمواصلة سرد قصته.

سأل يهودا: "هل تتذكر الاحتياطات التي أجريناها مع إيتان قبل العملية في مدينة صُور؟" .. "الوقت الذي أخبرته فيه أن يضحي بنفسه، فما زلت أفكر في الأمر طوال الوقت."

كان رئيس الأركان الجنرال "رافائيل" إيتان مُزارعًا ونجارًا ومخضرمًا في البلماح ومقاتلاً شرسًا، وكان عقله ينفجر مثل قنبلة يدوية بأفكار تشغيلية، وكان أيضًا متعصبًا قويًا، ففي إحدى المرات، وعلى متن قارب صاروخي قبل عملية في مخيم للاجئين، سأله أحدهم كيف كان من المفترض أن نحدد الهدف؟ أجاب رافول بابتسامة متكلفة: "إذا لم يكونوا يحملون بالونات أعياد الميلاد، فهم إرهابيون". أطلق النار!

خلال الاحتياطات التي سبقت عملية 1980 مباشرة في صُور، أمرنا رافول بالتخلص من أحد كبار قادة العمليات لدى عرفات، حيث قبل ذلك بعامين قام هذا القائد بإرسال مجموعة من الإرهابيين في زورق زودياك لقتل مدنيين "إسرائيليين"، بمن فيهم أطفال، فقد كان لدينا كل الحق في ملاحقته لأنه كان يواصل إرسال الإرهابيين عبر الحدود "الإسرائيلية".

كان تخطيطنا للعملية رائع: كنا نعرف بالضبط كيف كان شكله ومكان جلوسه كل مساء في نفس المقهى على رصيف في الميناء.

كانت الخطة –المقررة في 5 أغسطس– هي أن نأخذ زوارق إلى مسافة نصف ميل من الشاطئ ونستخدم المناظير لنحدد الهدف بإيجابية.. ومن هناك نسبح إلى الشاطئ، ونصعد إلى حاجز الأمواج، ويُجهِز عليه قناصان.

أضاف رافول تعديلاً للخطة، بعد التأكد من أننا قد أصبنا الهدف، أراد منا أن نقتل كل شخص في المقهى بالبنادق والأسلحة الرشاشة، ونضع عبوات ناسفة على كاسر الأمواج.

قلت له: "سيدي، هذا لا يمكن أن يحدث".

"ماذا من المفترض أن يعني ذلك؟ إنه أمر|؟

"سيدي، هذه العملية هي لقتل إرهابي وليس عائلات في مقهى أو أطفال يركضون عند حاجز الأمواج".

فعلى عكس الإرهابيين الذين تعقبناهم، فقد نَفَّذَت فِرَق الاغتيال التي كنت أقود مهامها بدون أي تجاوز للقيود الأخلاقية الشخصية، وكما كنتُ في تلك الأيام، فإن نموذجي كان هو الساموراي الياباني، وهو مقاتل نبيل لديه مدونة سلوك داخلية، ولكن قام الساموريون العبريون بقتلنا بطريقة هادفة ودقيقة وذكية.

دحرج الجنرال عينيه.. حيث كان علينا "تأمين الانسحاب".

"سيدي، إذا فتحنا النار بكمية هائلة، سيعرف جميع من في المنطقة بأننا هناك".. فقد كان من الأفضل قتل الرجل ببضع رصاصات من بندقية قنص مزودة بكاتم للصوت.

واصل رافول الإصرار على المذبحة العشوائية، واشتد الجدل، وقبل أن يسخن العشرات من مقاتلينا. ارتخى فكي، ونظرت إليه، مع خط شعره الذابل ووجنتيه الحمراء من كثرة الشمس، ونبرة كلماته الساخرة، كما لو كنا مبيدات ونتحدث عن الحشرات، فهذا أمرًا تنفيذه مستحيلًا، وهو بصراحة لا يَرى أي فرق بين قنص إرهابي وإصابته جراحيًا، وارتكاب مجزرة دم ضد المدنيين.

"سيدي، إذا كنت تريد أن يموت الجميع، فأنت لست بحاجة إلينا، أرسل القوات الجوية، سوف يسقطون قنبلة تزن طنًا واحدًا على الرصيف وستنتهي كلها".

حذرت من القيمة المتدنية التي يوليها لحياة العرب، فقد عرضتُ الحجج المضادة بعناية، وقلت أن الأكثر فعالية هو استهداف قائد منظمة التحرير الفلسطينية فقط، ولا أحد غيره، طلقتين من قِبَل قناص، يتم إطلاقهما من حاجز الأمواج ليلاً، يكاد يكون من المستحيل تعقبهما، العملية النظيفة ستُنتِج الخوف، وسيعتقد أعداؤنا أننا نعلمهم جميعًا، وإذا رُفِعَت يدك علينا سيجدك شخص ما ويجعلك تدفع الثمن.

في النهاية قمنا بالمهمة بطريقتي، وأوقفنا الرجل مؤقتًا عن العمل، حيث تمت إصابته ولم يقتل.

قمت بمغادرة يهودا قرب منتصف الليل تقريباً، وخلال اليومين التاليين من العمل في الحقول مع بيبا، فكرت كثيرًا في هذا النقاش مع رافول، فيهودا جعل الأمر يبدو كما لو كنت إنسانيًا عظيمًا أنظر في قاتل بدم بارد، لكنني كنت أعرف أفضل، وفي أحد الأمور الأساسية لم أكن مختلفًا عن رافول في تلك الأيام، كان كلانا مقتنعًا بأننا وقفنا إلى جانب العدالة، وأن قتالنا كان نبيلًا، وأن أعداءنا يستحقون الرصاص لأنهم وقفوا في طريق سيطرتنا الشرعية على أرض "إسرائيل". لقد استغرق الأمر تجربة بعيدة عن ساحة المعركة لتزعزعني عن هذا الاعتقاد.

الفصل التاسع:

لحظاتي مع رجل الفانتا

في عام 1981، أنهيت ولايتي كقائد للاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13) بعد أكثر من عامين ونصف، ثم عُدت إلى البحرية، وسرعان ما تم إرسالي مع بيبا والأطفال، إلى الكلية الحربية البحرية الأمريكية في مدينة نيوبورت بجزيرة رود.. كانت هذه هي المرة الأولى منذ سنوات التي لم تضطر فيها بيبا لتربية ابنينا نير وجي بمفردها إلى حد ما أثناء عملها بدوام كامل كأخصائية اجتماعية في حيفا، بينما كنت أحصل في نفس الوقت على الماجستير في جامعة حيفا، وكانت خطوة مهنية جيدة بالنسبة لي، فقد حصلنا على منزل قريب من القاعدة، واستقرينا في الحياة الأمريكية.

فتحت لي الدورات الدراسية في الكلية الحربية عالماً جديداً من الاستراتيجية والجغرافيا السياسية، كان رونالد ريغان في البيت الأبيض، وكان الاتحاد السوفيتي –الذي أطلق عليه ريغان اسم "إمبراطورية الشر"– غارقًا في أفغانستان، ولا يزال جدار برلين قائماً، وهو تذكير فعلي بالستار الحديدي المجازي الذي يفصل الدول الشيوعية عن العالم الحر، وكان خطر الحرب النووية ملموسًا.

لقد علمتني ندوة حول حرب الغواصات مدى أهمية امتلاك أجهزة الاستشعار المناسبة لاكتشاف التهديدات، فيمكن لغواصة كامنة تحت سطح امتداد هادئ من الماء أن تحرز قوة تفجيرية كافية لتدمير مانهاتن عشرات المرات، رأيت الغواصات كنُسَخ ذات رؤوس نووية من كوماندوز بحرية: صامتة وخفية وقاتلة، ولا يمكنك فعل أي شيء لمنعهم إذا لم ترهم قادمين.

أفضل ما أتذكره من الندوة هو الاستراتيجية العسكرية، بما في ذلك المؤسسات المكلفة بمراقبة أخلاقيات الحرب، مثل المحكمة العالمية واتفاقية جنيف والصليب الأحمر الدولي.. حتى هذه النقطة كنت قد أخذت "أخلاقيات الحرب" من القصص الكلاسيكية عن المحاربين الشجعان المكابيين وأساتذة الساموراي، وليس من التدريب في القانون الدولي، حيث كان رفضي لاستهداف المدنيين عمدًا قائمًا على تعليمي في الكيبوتس وبوصلة أخلاقية شخصية، وليس نظريات حول حقوق الإنسان.

كان من بين زملائي في الصف ضباط بحريون كبار من دِوَلٍ إسلامية، وكانت دول معادية في الغالب، حيث قابلت قائد غواصة مصرية، وقائد زوارق دورية سودانية، وضابطًا بحريًا أردنيًا أصبح فيما بعد قائدًا للبحرية الأردنية.

في أحد الأيام جاء إلي كولونيل باكستاني وأصدر تحذيراً من دون تمهيد قائلاً: "لا تسمحوا للصراع "الإسرائيلي" الفلسطيني أن يتحول إلى صراع بين اليهودية والإسلام".. كان صوته قعقعة منخفضة، مثل صوت الطوربيد قبل أن يضرب. "لا ترفع الغطاء عن صندوق باندورا هذا.. يمكننا العيش مع "إسرائيل"، ومعركتك مع الفلسطينيين لا تهم باكستان.. فقط لا تتلاعب بالأماكن الإسلامية المقدسة أو تستخدم الدين لتبرير مزاعمك.. لأن ذلك من شأنه أن يمزق العالم بأسره".

أكدت له بتربيت على كتفه: "الدين ليس له علاقة بصراعنا" .. "الدين في "إسرائيل" هو شأن خاصي ولن يستخدمه السياسيون أبدا".

كم كنت مخطئاً.

ربما كنت متأثراً كثيراً في الكلية الحربية بنظريات المفكر البروسي في القرن التاسع عشر كارل فون كلاوزفيتز، صاحب الدراسات العسكرية الاستراتيجية، وعلى وجه الخصوص مقولته القائلة: بأن "الوسيلة الأصلية للاستراتيجية هي النصر.. أي النجاح التكتيكي؛ ونهاياتها.. هي تلك الأشياء التي ستؤدي مباشرة إلى السلام"، فمن المؤكد أن معاهدة "إسرائيل" مع مصر أكدت صحة هذا القول، ومع ذلك لم أفكر مرة واحدة في أنه قد يكون من واجبي صنع السلام مع الإرهابيين الذين كان تكتيكهم هو استهداف النساء والأطفال، وبقيت مهمتي في القضاء عليهم.

في 3 حزيران (يونيو) 1982، وقبل وقت قصير من التخطيط –أنا وبيبا ومع الأولاد وتجمعنا في سيارة الفورد Ford LTD لقضاء عطلة صيفية عبر البلاد–، كان هناك إرهابي أرسله أبو نضال –رئيس جماعة إرهابية فلسطينية ومنافس مكروه لعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية التي يرأسها–، اقتربا من السفير "الإسرائيلي" في فندق دورشيستر بلندن وأطلقوا رصاصة في رأسه. لم أكن مطلعاً على النقاشات داخل مجلس الوزراء "الإسرائيلي" حول كيفية الرد على محاولة الاغتيال. كل ما سمعته هو النتائج: ضربات "إسرائيلية" مكثفة على أهداف لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، مما أسفر عن مقتل مائتين، وقامت منظمة التحرير الفلسطينية بالرد بإطلاق صواريخ فوق الحدود في الجليل.

في اليوم التالي، 4 يونيو، أصدر رئيس الوزراء مناحيم بيغن أمرًا بتدمير البنية التحتية للإرهاب في لبنان بقيادة وزير الدفاع أرييل شارون، حيث أعلن بيغن أن الغرض من الغزو هو "تجنب تريبلينكا[1] أخرى". فعرفات –على حد تعبير بيغن– هو "هتلر بيروت".

(1) معسكر تريبلينكا: هو معسكر إبادة تم بناؤه وتشغيله من قبل المانيا النازية في بولندا المحتلة خلال الحرب العالمية الثانية.

شارون، التكتيكي العدواني، حشد البلاد لغزو لبنان والإطاحة بعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، وحسب علمي في ذلك الوقت، فلم يكن لعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية علاقة بلندن، لقد تم استخدام الاغتيال كذريعة لعملية ضخمة طالما كان قادة مثل شارون حريصين على شنها.

مناحم بيغن

تلقيت أوامر بالعودة إلى "إسرائيل" على الفور.. وقبل مغادرتي، حاصرني زميلي في السكن، سام هانز –قائد أسطول الغواصات النرويجي ونائب قائد البحرية المستقبلي–: "لماذا يريد الشيطان احتلال لبنان بسبب محاولة اغتيال فاشلة لرجل واحد؟"

أجبته دون تفكير: "هانز"، "نحن "الإسرائيليون" نُعدّ بشكل مختلف عن الأوروبيين: إنك تحسب قتلى من يد واحدة –واحد اثنان ثلاثة– بينما نحسب أمواتنا بدءًا من ستة ملايين.. تخيل لو أن ستة ملايين واثنين من النرويجيين قُتلوا، ستكون مثل القرصان الاسكندنافي، وبالطبع تريد خوض الحرب".

من نظراته المحيرة، أدركت أن لدينا تصورات مختلفة للواقع.

"عامي، سفيرك لم يمت، والفلسطينيون ليسوا نازيين".

وفي رحلة العودة إلى "إسرائيل" فقط، سألت نفسي: لماذا أَدخَلتُ الهولوكوست بشكل انعكاسي في محادثتي مع هانز، بالتأكيد لا يمكن أن يكون ذلك لأنني نشأت وأنا أسمع عنها؛ لم أفعل، هل خَلَقتُ –بلا وعي– تكافؤًا بين النازيين العازمين على تصفية اليهود ومقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية الذين رفضوا الاعتراف بحق "إسرائيل" في الوجود؟ ربما، ولكن ماذا في ذلك؟ طلبت مشروبًا وحاولت النوم قليلاً.

خلال القتال، كُنتُ أَقُود القاعدة البحرية في أشدود، وكنت مسؤولًا عن عمليات الإنزال في بيروت وأماكن أخرى، لقد ساعدت في حصار الموانئ الفينيقية القديمة في لبنان، فقد اتبعت الأوامر –كما يفعل أي ضابط– بقصف أهدافنا، حيث كان من المستحيل حساب مقدار الأضرار الجانبية –الوفيات والإصابات لغير المقاتلين– التي تسببت فيها هذه القذائف، وعلى أي حال كنت هناك للقتال، وليس للتفلسف، ألم أكن قد تعلمت للتو من مقرري الدراسي حول كلاوزفيتز

أنني كضابط يسعى لتحقيق انتصارات تكتيكية، وأنني كنت أساهم في الهدف الاستراتيجي للسلام؟ إلى جانب ذلك –على عكس الإرهابيين– لم نستهدف المدنيين عمداً.

أول نظرة لي على حقيقة وطبيعة صراعنا مع الفلسطينيين –يمكنك القول بأن تجربتي الأولى كانت مع الرجل العجوز بائع الفانتا–، حدثت قبالة ساحل "إسرائيل" شمال الخط الأخضر الذي يفصلها عن غزة، وعندما هدأت الجبهة اللبنانية، تم نقلي إلى امتداد المياه من مدينة الخضيرة الواقعة بين حيفا وتل أبيب، إلى الحدود المصرية في الجنوب، فمن عام 1982 حتى عام 1985 كان الأمر المهم هو منع المهربين والإرهابيين من اختراق حدود "إسرائيل".

من قاعدتي في أشدود، قمت بمنع مثل هذه الهجمات من خلال مراقبة المنطقة العسكرية المُغلقة قبالة قطاع غزة، حيث ساحل غزة المسطح الأملس الذي لا يوفر أي ملاذ طبيعي عميق ولا حماية من الرياح، وهذا يعني أن الصيادين –غالبًا– ما يضطروا إلى إلقاء شباكهم بعيدًا عن الشاطئ لتجنب الأمواج والتيارات.

ذات يوم أثناء قيامنا بدورية، صادفنا رجلاً عجوزًا في قارب متهالك يطفو باتجاه مدينة عسقلان "الإسرائيلية"، وجهت قاربي نحوه لسد طريقه وأطلق رجالي الرصاص التحذيري في الهواء، لكنه لم يغير مساره، أطلقنا النار مرة أخرى، لكنه واصل تجاهلنا.

انحرفت جنوباً بحيث كان قاربنا على جانبه الأيمن، وكان قريبًا بما يكفي لأرى ذراعيه المتورمتين، وجلده مسودًا بسبب الشمس مثل سانتياغو في الرجل العجوز والبحر في همنغواي. وبما أنه –للأسف– لم يكن أيٌّ منا يتحدث العربية فيمكننا فقط الإيماء لنطلب منه أن يستدير.

قال: "لا".

لم أكن بحاجة إلى مترجم لأفهم أنه لن يتزحزح.

حمل أحد رجالي مسدسًا لإيصال رسالة مفادها أننا سنفتح النار إذا لم تعد إلى غزة.

مدد الرجل العجوز عاري الصدر ذراعيه على نطاق واسع، وعيناه حازمتان.

"كن ضيفي".. كانت الرسالة التي نقلتها إيماءته، كما لو لم يكن لديه ما يخسره.

الموت غالبًا ما يكون النتيجة بالنسبة لفلسطيني يرفض الأوامر في منطقة عسكرية، لكن ما الذي سيفعله إطلاق النار على رجل عجوز أراد فقط إطعام أسرته، لأمن "إسرائيل"؟

مشيت إلى مقدمة السفينة لأفكر، وعندما عدت، كان رجالي ينتظرون ما سأفعله.

لعنة الله على ذلك.. أتذكر الغمغمة لنفسي، فقط حرك قاربك! رمى شبكته وكأننا لم نكن هناك.

لطالما قال رافول إيتان إن الجنود "الإسرائيليين" اقتحموا مواقع العدو لأنهم يخشون من رفاقهم أكثر من خصومهم، ولحظتها كنت أخشى إظهار الضعف أمام رجالي من خسارة معركة ذكاء مع صياد بلا أسنان، لكن هل أقتل رجلاً فقط ليظهر من هو الرئيس؟ هل هذا يجعلني أقوى أم أضعف من الرجل العجوز؟

التفت إلى رجالي وقلت: "لنخرج من هذا الجحيم".

وبعد فترة وجيزة، في عام 1987، اندلعت الانتفاضة الأولى.

جندي من جيش الدفاع "الإسرائيلي" في غزة فَقَدَ السيطرة على شاحنته، وانحرف عن الطريق في مخيم جباليا للاجئين، واقتحم حشدًا من الناس، وقتل أربعة فلسطينيين.

الجنرال/ دان شومرون

لقد صدمتني الانتفاضة التي اندلعت ردًا على الحادث المأساوي إلى حد ما مثل حرب يوم الغفران، حيث بدا أنها جاءت من فراغ، وبعد فترة وجيزة –كقائد لسرب سفن الصواريخ– كنت في ذلك الوقت عميدًا وقائدًا بحريًا في الشمال، وأثناء الإبحار في سفينة عمليات القيادة الشمالية، صُدمت عندما سمعت الجنرال دان شومرون، رئيس أركان الجيش "الإسرائيلي" الجديد، يقول إن الانتفاضة كانت انتفاضة جماهيرية وليس شيئًا يمكن للجيش القضاء عليه بالرصاص، كل ما يمكن أن يفعله الجيش هو محاولة احتواء النيران، مثل رجال الإطفاء الذين تجاوزتهم عدداً من حرائق الغابات، حيث كان على السياسيين التعامل مع السبب الجذري.

لم أكن معتادًا على سماع مثل هذه الانهزامية، فلم أتفاجأ كثيرًا بسماع وزير الدفاع رابين يأمر الجنود بضرب الفلسطينيين لإجبارهم على الخضوع، ووصف الجنرال رحبعام "غاندي" زئيفي الفلسطينيين بـ"القمل"، فقد قرأت عن تكسير العظام وغيرها من الأعمال القاسية التي أغرقتنا أكثر في الصراع، وفي صحيفة "هآرتس" وصف الصحفي آري شافيت "معسكر معتقل شاطئ غزة" المحاط بالعشرات من أبراج المراقبة و"الصرخات المروعة" التي سمعها ليلاً، لأن عملاء الشاباك كانوا يحاولون "سحق بعض الشبان في جناح التحقيق".

قبل سنوات، عندما كنت قائدا لقاعدة أشدود، أمضيت وقتا على الشاطئ في غزة للتعرف على الصيادين، حيث شربنا القهوة في مقهى بالقرب من المرفأ، وحاولت –بالعبرية التي يتحدثها الكثير منهم– أن أشرح أوامرنا للرجال الذين كان أسلافهم يصطادون في تلك المياه منذ العصر الحديدي.

بابتساماتهم، اعتقدت أن الفلسطينيين قد تصالحوا معنا، اعتقدت أنهم يعرفون أننا نبذل قصارى جهدنا في هذا الجوار الصعب، فنحن –على عكس الفرنسيين في الجزائر– لم نكن مستعمرين، فقد حررنا الأرض التي كانت لنا منذ القدم.. أما بالنسبة للفلسطينيين، فقد كنا "فاتحين مستنيرين"، بنينا لهم الجامعات والطرق وأدخلنا الزراعة الحديثة.

في مثال رئيسي على الفكر الاستعماري، افترضت أن الفقر –وليس الوطنية– هو الذي يقود الفلسطينيين إلى العنف، فإذا تمكنا فقط من دعم اقتصادهم، فسيخضعون لحكمنا وسيسعون في النهاية إلى السلام على شروطنا.

ذات يوم في أوائل عام 1988، وعندما كنت نائب رئيس البحرية، شرعت في مقابلة مجموعة من الصيادين، انطلقنا في الظهيرة من القاعدة البحرية في معبر إيريز، ثم سلكنا طريقًا يمتد على الخط الأخضر بين غزة "وإسرائيل" من شأنه أن يأخذنا إلى الميناء.. خرجنا من الطريق الاستيطاني الرئيسي، الذي يفصلنا عن الفلسطينيين بالأسلاك الشائكة وأكوام عالية من أكياس الرمل، واتجهنا إلى طريق ذي مسارين باتجاه مخيم للاجئين.

دخلنا المخيم، وأعطيت السائق التوجيهات إلى مكان الاجتماع في الميناء، شاهدنا في الهواء الدخان الناتج عن حرق القمامة، وشاهدنا كيف تم ربط خطوط الكهرباء المسروقة من بيت إلى آخر، وكيف أن مياه الصرف الصحي تتناثر أمام مدرسة تابعة للأونروا، فجأة حاصر حشدٌ من الناس سيارتنا من جميع الجهات، وكان بعضهم رجالًا مسنين في عربات تجرها الحمير، ولكن معظم المتجمهرين كانوا من النساء والأطفال.

كان هذا الحاجز البشري (تجمهر الناس) أول إشارة إلى ضرورة تأجيل لقائي مع الصيادين، ثم جاءت علامة أقوى بكثير، وهي وابل من الحجارة الخرسانية من المباني، حيث نزلت الحجارة المتساقطة على سقف السيارة الجيب، وهنا كنت على وشك أن أُرجم حتى الموت من قبل الأولاد والجدات، يتبعها زجاجة مولوتوف واحدة وستكون السيارة الجيب في محرقة جنائزية.

لن أنسى أبدًا عيون صبي لا يزيد عمره عن خمسة عشر عامًا تحدق في وجهي بالكراهية، صدمتني نظرته التي بدت وكأنها إعلان حرب، كانت أشد من الشظية التي تلقيتها

على الجزيرة الخضراء، ونظرًا لأننا لم نتمكن من العودة إلى الزقاق الضيق، فقد طلبت من السائق أن ينسحب من مؤخرة السيارة عبر تلك العاصفة من الحجارة الملقاة علينا.

وفي وقت لاحق من تلك الليلة، كان لدي الوقت للتفكير فقط فيما حدث، فبعد عشرين عامًا من قيام مئير شاليف بالتعامل مع الرجل العجوز بائع الفانتا في الضفة الغربية، رأيت نفسي من خلال عيني هذا الطفل.

لقد نشأتُ في الكيبوتس لأكره الظالم، وقبل كل شيء أُقدِّر كرامة الإنسان والحرية، ووفقًا لتلك القيم كان عليَّ أن أتفهم الصبي في المخيم: لأنني كنتُ مُحتلاً مكروهًا ومضطهِدًا لملايين الفلسطينيين الذين يطمحون إلى الحرية والاستقلال السياسي.

من أنا؟ بدأت أسأل.

كان المكابيون ينخرطون في دمي، كم كانت تجلب السعادة تلك الكلمات في إعلان الاستقلال: "أرض "إسرائيل" كانت مهد الشعب اليهودي، وهنا تشكلت هويتهم الروحية والدينية والسياسية".

لكن كيف لي أن أربط هذا مع نظرة الكراهية تلك في عيني الصبي؟

ما زلت لا أعرف.

الفصل العاشر:

توراة الملك

اعتقدت زوجتي "بيبا" أنني قد تراجعت أخيرًا عندما أخبرتها عن خططي للذهاب إلى القدس والتحدث مع الحاخام يتسحاق شابيرا.

الحاخام/ يتسحاق شابيرا

حينها سألتني: "ماذا تأمل في الحصول من هذه المقابلة؟".

بصفته قارئًا مخلصًا لملحق "هآرتس" الأدبي، كانت بيبا مدركةً بشكل جيد ما يحتوي كتاب الحاخام سيئ السمعة، تورات هاملش "توراة الملك"، حيث لا يُقِر شابيرا القتل العرقي فحسب، بل ويشجعه.

يَدَّعي أن حجته تقوم على الأساس الأخلاقي لقرون من التفسير الحاخامي: "إذا قتلنا أمميًا أخطأ أو خالف إحدى الوصايا السبع –لأننا نهتم بالوصايا– فلا حرج في القتل".

كما أن شابيرا يذهب إلى أبعد من ذلك من خلال إعطاء الضوء الأخضر لقتل الأطفال غير اليهود الذين لا يزالون يرضعون من ثدي أمهاتهم، لأنه يؤمن أن الأطفال العرب من المحتمل أن يكبروا لارتكاب نفس خطايا والديهم.

بدأت تعاملاتي مع شابيرا وطائفته داخل مجتمع لوبافيتشر(1) خلال أيام الشاباك، عندما كان جزءا من مذكرتي هو منع الهجمات الإرهابية اليهودية، مثل جريمة اغتيال يتسحاق رابين.

في سبتمبر 1996، قمت بزيارته في قبر يوسف في نابلس، حيث كان رئيسًا لمدرسة أود يوسف تشاي (جوزيف ليفز). وكان من أسباب الزيارة مناقشة الهجمات التي نفذها المستوطنون في يتسهار –وهي قرية جنوبي نابلس– ضد الفلسطينيين المجاورين، وما تبعه من أعمال انتقامية، حيث أدى العنف إلى تولد العنف.

---

(1) وهو عضو في مجتمع حسيدي تأسس في القرن الثامن عشر على يد الحاخام شنور زلمان.

والحسيدية هي: حركة يهودية صوفية تأسست في بولندا في القرن الثامن عشر كرد فعل على الأكاديمية الصارمة لليهودية الحاخامية.

على مر السنين ظللت مهتمًا بالحاخام ودائرته، لأنني أدرك أنهما جزء لا يتجزأ من مصير "إسرائيل"، وأريد تجنب المستقبل الذي يخشى عليه عاموس عوز: "إقطاعيات يديشكيت ستضم منطقة بعد منطقة، وسنقف صم وبكم".

إذا كنت سأقوم بإنجاز مهمتي مع هذا الكتاب، فمن الضروري أن أفهم كيف يمكن لشبيرا أن يجد مبررًا عندما يفعل الجريمة.

في نهاية اليوم، أنا وشابيرا، وكلانا يهوديان "إسرائيليان"، إذا لم نتمكن من الجلوس والتحدث بصراحة، فلن نفكر أبدًا في كيفية إخراج أنفسنا من الفخ الذي نحن فيه.

يعيش الحاخام في مبنى متهدم على بُعد عشرين دقيقة سيرًا على الأقدام من سوق "بن يهودا"، حيث كان المقاومون من حماس يفجِّرون أنفسهم، ويقتلون وقتل عشرات الأشخاص خلال الفترة التي قضيتها في الشاباك.

توقفت عند الرصيف وحاولت أن أُجمِّعَ أفكاري بقدر ما استطعت، وأردت أن أدخل مكتب الحاخام بعقل متفتح.

صعدت الدرج، فوجدت الحاخام ينتظرني أمام بابه، كان متواضعاً وضعيف البُنية، حيث تُشير لحيته الرمادية الناعمة والخطوط الداكنة حول عينيه وكأنه ينتظر أن يأتيه زائر عالمي، رافقني إلى مكتبه الفارغ، ولاحظت أنه ينتعل حذاءً من ماركة بيركنستوكس ألمانية الصنع.

تجاهل فوضى الغرفة، قائلاً بشكل مرح: "لديّ اثنا عشر طفلاً، سيد أيالون، ولا تجعلني أبدأ في الحديث عن أحفاد أحفادي!"

هذا الحاخام، الذي يعتبره الكثيرون من أرقى تلاميذ سانت لويس –المعلم المولود في سانت لويس يتسحاق جينسبيرغ– تحدث بصوت خافت وهادئ.

"اتَّصِل بي يا عامي".

رأيت صورة للحاخام جينسبيرغ، الذي أمرت باستجوابه بعد اغتيال رابين، لأن تعاليمه –في رأيي– تحرض على العنف، كانت الصورة الوحيدة على جدران الغرفة الخالية.

الحاخام/ جينسبيرغ

سأل جينسبيرغ بشكل خطابي: "إذا كان اليهودي بحاجة إلى كبد، هل يمكنك أن تأخذ كبد

شخص بريء غير يهودي لإنقاذه؟ من المحتمل أن تسمح التوراة بذلك.. لأن الحياة اليهودية لها قيمة غير محدودة.. هناك شيء غير محدود وأكثر قدسية وفريدة من نوعها في الحياة اليهودية من الحياة غير اليهودية".

قام بعض طلاب جينسبيرغ المتهورون بتفسير تعاليمه حول المفهوم التوراتي على أنها "للانتقام" وأنها رخصة لأخذ القانون بأيديهم، وقتل الفلسطينيين الذين اعتبروهم إرهابيين.

قال شابيرا: "قبل أن نبدأ، متى كانت آخر مرة ارتديت فيها تيفيلين[1]؟

أحد المستوطنين يرتدي التيفيلين

لقد تمتمت بشيء عن بار متسفا[2]، ولكن الحقيقة هي أنني كنت أرتدي التيفيلين، وهي عبارة عن صناديق سوداء جلدية صغيرة تحتوي على لفائف من الورق مكتوبة عليها مقاطع من التوراة يربطها الرجال اليهود الأرثوذكس برؤوسهم، فوق جباههم، قبل الصلاة– وتلك مرات قليلة في حياتي.

الأول كان قبل بار متسفا، وفي زيارة مع والدي إلى صديق ملتزم يعيش في موشاف، حيث أراد أبي أن يُوضح لي كيف تعيش عائلة متدينة في "إسرائيل"؛ ليعلمني تقديس العادات الدينية اليهودية حتى لو لم نكن نمارسها في الكيبوتس.

"هل تمانع إذا وضعنا التيفيلين؟ أجد دائمًا أنه أفضل طريقة لتصفية العقل والروح".

شعرت بالارتياح بشكل غريب، لأن الحاخام لم يعتبرني دخيلاً في عالم التوراة.. وبإيماءة موافقتي، لف ذراعي بأحزمة جلدية، ووضع صندوق الصلاة على جبهتي، قائلاً: "باروخ أتاه أدوني ..."، ومثل طفل صغير في كنيس يهودي، أبقيت عيني مفتوحتين وأتعجب من شابيرا وهو يُصلِّي.. كيف بحق السماء لهذا الرجل الذي يعيش مثل الزاهد في شقته البسيطة أن يحوّل اليهودية –أساس الإنسانية– إلى مسار مثل توراة الملك؟

---

(1) التيفيلن: صندوق مصنوع من جلد الكوشير يوضع على الجبهة ويلف الخيط على اليد اليسرى لأنها أقرب للقلب.

(2) بار متسفا: هو حفل يهودي ديني يقام عند بلوغ الشاب اليهودي 13 من عمره، أي عندما يُعتبر مكلفا بأداء جميع الفرائض المفروضة عليه حسب الشريعة اليهودية. هذا الحفل يتم الالتزام به في جميع الطوائف اليهودية وهو شائع حتى لدى اليهود العلمانيين.

وبمجرد أن انتهى الحاخام من الصلاة، قمت بفك الحزام الجلدي من ساعدي، وشرحت أسباب طلبي للقاء، أومأ برأسه بينما كنت أتحدث، وعندما سألته عن سيرته الذاتية، تألقت عيناه.

وُلِد شابيرا في (Kfar Pines) كفر بينس، وكان من أوائل المستوطنين الذين انتقلوا إلى الخليل في الضفة الغربية بعد حرب 1967.

بعد ذلك بوقت قصير، تقدم للمساعدة في بناء مستوطنة عوفرا، ثم انتقل لاحقًا إلى ياميت، وهي المستوطنة التي أقامها أصدقائي في سيناء. وعندما أعادت اتفاقية السلام مع السادات سيناء إلى مصر، عاد إلى يهودا والسامرة.

اعتبرت حركة المستوطنين اتفاق السلام مع مصر بمثابة تحذير، وتعهدت بفعل كل ما يلزم لمنع إخلاء مماثل من الضفة الغربية، حيث شكَّل الراديكاليون حركة يهودية سرية وارتكبوا أعمال إرهابية ضد العرب، حتى أن قلة منهم أعدوا مؤامرة مروعة لتفجير قبة الصخرة.

في النهاية، وجد الحاخام طريقه إلى مستوطنة جديدة مبنية حسب شخصية الحاخام جينسبيرغ، كان المتمرد قد طلب من جينسبيرغ أن يحمل بركاته وأن يصلي لأجل أرييل شارون المحاصر في قاعدته العسكرية خلال حرب يوم الغفران.

مرة أخرى، وبمباركة الحاخام، وضع جينسبيرغ عينيه على قبر يوسف، –القنبلة التي في وسط مدينة نابلس بالضفة الغربية بسكانها البالغ عددهم 120,000 نسمة–، ثم تجول في مخيم للاجئين الذي كان في السنوات الأخيرة معقِل لدعم حماس، وفي أوائل الثمانينيات بنى أتباعه مدرسة "أودي يوسف تشاي"، بالقرب من قبر يوسف.

قضى شابيرا عشر سنوات مع جينسبيرغ، حيث عاش في مستوطنة يتسهار القريبة، وكان هناك عندما نشر كتاب توراة الملك في عام 2010.

احتفل جينسبيرغ وغيره من كبار الحاخامات في المعسكر الصهيوني الديني بالكتاب باعتباره تُحفَة من التفاسير التلمودية، بينما أدان هذا الكتاب التيار الرئيسي في "إسرائيل"، ووصفته صحيفة معاريف "الإسرائيلية" بأنه "الدليل الكامل لقتل من هم غير اليهود".

قبل استكشاف توهانه في علم اللاهوت (علم التوحيد)، أردت التحدث إلى شابيرا عن الفلسطينيين، لم أُخفِ شيئًا، وأبلغته بإيماني بحل الدولتين لحربنا التي استمرت مائة عام مع العرب الذين يشاركوننا أرض "إسرائيل".. لقد دُهشت، فلم يكن ذكر الفلسطينيين يجعله يتشدد فجأة أو يصبح عدوانيًا..

قال شابيرا: "دعونا نعقد صفقة".. لم يتغير تعبيره الغامض.

"إذا أخبرتني بما تؤمن به، فسأخبرك أين يمكن تلتقي وجهة نظرنا.. ربما ستجد أنني يساري فقط مثلك".

"يبدو ذلك عادلاً.. لكن للعلم، أنا لست يساريًا أو يمينيًا.. إذا كنت تريد أن تصنفني، فدعوني إنسانيًا براغماتيًا".

قال بمتعة كبيرة لدرجة أنني كنت أتوقع منه أن يبدأ في التصفيق: "كل خير .. لأنني أعتبر نفسي إنسانيًا أيضًا.. الآن، إذا كان بإمكانك تحديد ما يعني بالنسبة لك أن تكون إنسانيًا، فقد نكتشف أننا حبَّتَان من البازلاء في نفس قرن البازلاء".

ألقيت نظرة سريعة على الصورة المؤطرة لجينسبيرغ، ثم أعطيته وجهة نظري للإنسانية، والتي أعتبر أنها: هي الإيمان اليهودي الراسخ بأن الأفراد وكرامتهم وحريتهم هم في قلب المجتمع البشري.. وأن الرجل سيد نفسه.

واصلت القول: "والديّ وآخرون مثلهم من سكان الكيبوتس، لم يعتبروا الصهيونية أبدًا – ولو للحظة– شيئًا غير إنساني، لقد كان إنقاذ الشعب اليهودي يعني بالنسبة لهم بناء دولة "إسرائيل" كمكان متجذر في المساواة والحماية، مجتمعٌ عائدٌ إلى رؤية أنبيائنا، ومُكرِّس لقيم إعلان استقلالنا، كان لديهم فقط نقطة عمياء واحدة: هي العرب.. ولكن الأمر ليس كما لو كانوا يحتقرونهم.. بل هي الطريقة التي نشأوا بها، فقد كان الأمر كما لو أنهم ببساطة لم يفكروا بها على الإطلاق".

هدفي النهائي والمُطلق هو الحفاظ على القيم الإنسانية لوالدي، وقد خَلُصتُ إلى أن الطريقة الوحيدة للقيام بذلك هي الحفاظ على الأغلبية اليهودية في دولة "إسرائيل"، فقد تشاركت مع شابيرا –في اعتقادي– بأن عملية السلام التي بدأت في أوسلو قد توفر فرصة للحفاظ على هوية "إسرائيل" كدولة يهودية وديمقراطية.

في منتصف حديثي مع نفسي، اختفت ابتسامته وعيناه تتجه نحو وجهي وأسفل صدري، كما لو كنت في صف الشرطة، فقد توقفت عضلات ظهري، لكنه ظل هادئًا، مثل ملاكم واثق من أنه سيقضي على خصمه، مهما استغرق العديد من الجولات.

"قل لي يا عامي" .. قال دون أي تلميح من الحقد، وكأنه مُعالِج وأنا بحاجة إلى مشورة: "في رأيك، هل اليهودية الأرثوذكسية إنسانية أم معادية للإنسانية؟".

"هذا يعتمد على معرفتي بالكثير من اليهود الأرثوذكس، مثل الحاخام جوناثان ساكس في إنجلترا –الذي قرأت كتبه– وكذلك أساتذة الجامعة العبرية مثل موشيه هالبيرتال والحاخام بنيامين لاو، الذين أفترض أنهم سيعرفون الإنسانية بنفس الطريقة التي أعرف بها".

"شكرا لك يا عامي.. الآن فهمت".

وضع الحاخام راحتيه على المنضدة ثم سحبهما ومسحهما عبر جوانب شعره القصير. توقف وعيناه مغمضتان، وأعاد فتحهما، وبعد ذلك انحني رأسه كما لو كان يصلي، أمسك بكوب الماء بجانب المسجل بكلتا يديه وشربه في جرعة واحدة طويلة.

ثم قال أخيرًا: "يجب أن أخبرك، أنه من وجهة نظرنا للأمور، فإن ما قلته للتو ليس إنسانيًا على الإطلاق.. إنه عكس ذلك تمامًا".

"كيف ذلك؟".

قال: "أولاً من ناحية الموضوعية التاريخية.. لم تُسلِّم أوسلو جزءًا من أرض "إسرائيل" لعرفات لأننا كنا مُحتلين، لأنه من المستحيل أن تحتل ما هو حق لك، نحن بالفعل تنازلنا عن أرضنا بحثًا عن السلام والأمن، ولكن رد الفلسطينيون بالقتل والموت والدمار والمذابح".

على الرغم من أنني كنت أعرف أن الحاخام كان يسرد نسخة مشوهة من التاريخ، إلا إنني لم أرد، لأنني لم أرغب في الشجار والانحراف عن حديثي، فقد كنت هناك للاستماع، ومن المؤكد أن النضال الفلسطيني كان السبب الرئيسي وراء فُقدَان الثقة في اتفاقيات أوسلو للعديد من "الإسرائيليين"، وكذلك الأمر بالنسبة للفلسطينيين الراغبين في إنهاء احتلالنا وإقامة دولتهم الخاصة بهم إلى جانب "إسرائيل"، فلم تجلب السنوات العشرين الماضية سوى المزيد من المستوطنات والمزيد من التوغلات "الإسرائيلية"، واحتلالًا عميقًا، ففي نظرهم نحن الخونة، والشريك التفاوضي غير الموثوق به، لقد جعل الألم والمعاناة –على كلا الجانبين– إدراك ما نفعله تجاه بعضنا البعض مستحيلاً.

بدأ الحاخام في العبث بجهاز التسجيل الذي وضعته أمامه، وكأنه يريد التأكد من أنه يلتقط ويُسجل كل كلمة له.. قال: "هناك سببٌ آخر لما قلته .. ليس النزعة الإنسانية.. فالإنسانية تعني العدالة.. أليس كذلك؟"

أومأتُ له بالمتابعة على الرغم من أن عقلي كان لا يزال عالقًا في عدم قدرتنا على فهم ما يحفز الفلسطينيين.

وتابع: "نعلم جميعًا أنه لا يوجد تناقض بين العدالة والتوراة.. فكيف إذن يمكن للعدالة أن تطالب الشعب اليهودي بالانقلاب على التوراة بخيانة أرض "إسرائيل"؟"

لم يقل هذا بلهجة متعصب يُطالب بإيمان أعمى، ومع ذلك قدَّم موقفه كنوع من الحقيقة المطلقة التي لا يمكن تعويضها.. لم أكن متأكدًا من أنني كنت أتبع كل كلماته الخطابية، لكن لم

يكن هناك شك في أن صهيونيته كانت مختلفة تمامًا عن تلك التي مارسها جيل والدي من الإنسانيين، الذين اعتقدوا أنه من واجبنا تشكيل مصيرنا بدلاً من الانتظار لأمر الله أو وصول المسيح.

ثم حان الوقت لتغيير الموضوع.. في وقت ما بعد مغادرتي الشاباك، اعتقلت المنظمة شابيرا.. سألته: لماذا؟.

قال بابتسامة هادئة: "بسبب توراة الملك.. لقد اعتقلني الشاباك في منتصف الليل واستجوبوني، لكن لم يتم اتهامي بارتكاب أي جريمة"، وهذه الحقيقة كان يفتخر بها على ما يبدو.

"هل يمكننا التحدث عن الكتاب؟"

كتاب: "بزرة هاشم".

أكرر لنفسي إجابته التقية الورعة: "بعون الله".

بدأت: "جيد .. لأن هناك بعض الأشياء التي لا أفهمها.. هناك قسم تسمح فيه بقتل الأطفال العرب لأننا نعلم أنهم سيكبرون ليصبحوا إرهابيين.." وكنت أفكر في المقطع .. "وهناك أسبابٌ لقتل الأطفال رغم أنهم لم ينتهكوا الخطايا السبع، بسبب الخطر الذي سيحدث إذا سُمِح لهم بالعيش والنمو ليكونوا أشرارا مثل آبائهم".

يكتب الحاخام بصيغة الزمن المضارع، وكأنه يقدم نصائح دينية لطلاب المدرسة الدينية قبل تجنيدهم في الجيش.. فالمعنى الحقيقي لكلماته كان واضحًا، ومع ذلك أردت أن أتماشى معه رغم شكي في كلامه، لقد حددت احتمالية وجود مستوى معين من المعنى قد يَفشَل شخصًا غير مؤمن مثلي في فهمه.

مد يده من ورائه، وسحب من رف الكتب نسخة من كتابه ذو اللون العنابي المكون من 230 صفحة، والذي يحمل العنوان الفرعي "قوانين الحياة والموت بين "إسرائيل" والأمم"، ثم وضعه على المكتب بيننا.

"الآن، ما هو الشيء الذي لا تفهمه؟".

"كما قلت، الشيء الذي يتعلق بقتل الأطفال. كيف أمكنك أن توازن هذا مع أنك لا تقتل".

"لا يوجد شيء لتوازنه".

"يبدو لي أن هناك".

"لا يوجد، لأنه –بحسب التوراة وإجماع حكمائنا– الحظر المطلق على القتل ينطبق على اليهود فقط.. وهذا القانون لا يمتد إلى الأغيار[1]".

"انتظر! ما تقوله هو أن قتل غير اليهود ليس مشكلة؟"

"بحسب التوراة، لا.. لأن الوصية بعدم القتل تشير إلى إخوانهم الإسرائيليين".

قبل إجراء محادثة، عادةً ما أقوم بإجراءات لأجل بعض المتطلبات: أدرس خلفية الشخص، وأسعى إلى فهم عقليته.. لكنني لم أفكر مطلقًا في مخيلتي الشديدة في أن اليهودية هي حجر الزاوية الأصلي للإنسانية، لأنها قدمت مفهوم أن كل إنسان مخلوق على صورة الله، قد يعاقب على القتل البارد على أسس عرقية.

بالتأكيد، فأنا أعلم بقصص يسوع وبني "إسرائيل" في القضاء على الكنعانيين.. ولكن بالنسبة لي، فإن مثل هذه الحكايات التوراتية لها علاقة كبيرة بالتاريخ الفعلي مثل ملحمة جلجامش، أو قصة الذئب الكبير السيئ.

بالنسبة لي، يتم تعريف اليهود كشعب في أعمال أمثال مارتن بوبر والحاخام جوناثان ساكس، الذي يتحدث عن "قصة نزوح جماعي لشعوب مختلفة تركت الاضطهاد وعبور البرية وانضموا معًا للمساعدة في إنشاء أرض الميعاد".

لسنوات عدة كنت أخبر الناس أن اليهودية هي مصدر الإنسانية، وفي الكلية الحربية البحرية، صرحت لصديقي هانز –من البحرية النرويجية– أنه بينما كنا نجلب الإنسانية إلى العالم، كان قد عاش أسلافه من الفايكنج الذين يرتدون قرونًا في الكهوف وأبحروا في البحر.. والآن هذا الحاخام الغارق في المصادر اليهودية كما كنت في العقيدة البحرية، كان يخبرني أن الوصية السادسة التي تحظر القتل هي قانون قبلي داخلي.

كنت مندهشاً جداً للرد.

"الآن اسمحوا لي أن أشرح لماذا هذا أمر إنساني"، قالها كما لو أن أي شخص عاقل –بعد أن تعرَّض لقراءته للتوراة– سيوافق على ذلك.

هذا منطقه، إذا كان بإمكانك أن تسميته كذلك، ثم سار على التالي: إذا كان اليهود يقاتلون ضد اليهود، فإن التحريم التوراتي للقتل يظل قائماً.. أما إذا كان القتل لدى غير اليهود

---

(1) الأغيار: مصطلح ديني يهودي يُطلقه اليهود على غير اليهود، وهو المقابل العربي للكلمة العبرية «جوييم»، وهذه هي صيغة الجمع للكلمة العبرية «جوي» التي تعني "شعب" أو "قوم".

الذين يفتقرون إلى نور التوراة، فإن هناك مجموعة مختلفة من القواعد التي تضع المصلحة العليا فوق كل اعتبار وبتجرد.

يبدو الأمر وكأننا نحن اليهود مستثنون من النضال الدارويني من أجل البقاء، بينما الجميع محاصر في معركة لا تَرحم، قبيلة ضد قبيلة، أو أمة ضد أمة.

فالقانون الدولي، وقواعد الحرب، واتفاقية جنيف، وكل تاريخ حقوق الإنسان: هي مدخل لتزيين هذه الأنانية العنصرية.. فإذا كان اليهود يقاتلون الأغيار (الغوييم)، فيجب علينا التأقلم مع قانونهم.. وهذا يعني أنه إذا كان الأغيار (الغوييم) يهددوننا، فمن العدل والأخلاق –وفقًا لقوانينهم الخاصة– قتلهم أولاً، وليس فقط الإرهابيين أو الجنود، ولكن النساء والأطفال، وكبار السن والشباب، وحتى الأطفال حديثي الولادة.. أما بالنسبة له، فلا يهم إذا كان الهدف مسلحًا، لأن الحرب بين اليهود وغير اليهود، وفي هذه المعركة خلعت القفازات.

فكرت مندهشا، وقلت: "يا له من عالِم حاخامي مجنون مقلوب رأسًا على عقب"، لكنني قلت ببساطة: "نعم، أرى" لكي أواصل حديثه.

لبس نظارات القراءة، وقلَّب صفحات كتابه، وبدأ يثرثر اقتباسًا بعد اقتباس، بسرعة وبدقة قناصٍ خبير.. ما استخلصته من موعظته كان مرة أخرى إنكارًا قاطعًا لأي معيار محايد للسلوك البشري واختزالًا لقواعد الغابة القاسية بالكامل للواقع غير اليهودي.. فاليهود وحدهم الذين اختارهم الله لإقامة وطن في أرض "إسرائيل"، وقد أقاموا منطقة من الأخلاق الحقيقية، ولحماية حياتنا وأرضنا يجب أن نلعب وفقًا لقواعد الأغيار (الغوييم).

كنت أتأرجح في كرسيي الرخيص القابل للطي ذهابًا وإيابًا، وقررت أن أخبره بقصة الصبي الجريح في المخيم اللبناني الذي حاولت إنقاذ حياته لدرجة أنني عرضت حياتي وحياة رجالي للخطر.

في التوراة الخاصة بي، أشرت ضمنيًا من خلال سرد الحكاية، أن هناك فرقًا جوهريًا بين المقاتلين الذين يحملون السلاح والمدنيين، وبين أولئك الذين يريدون قتلنا، والذين يريدون فقط العيش.

وبدلاً من الرد، أعاد بصره إلى كتابه، وما زالت شفتيه تتحرك.

أصبحت مدركًا تمامًا لما يحيط بي، بصناديق التيفيلين على الرف، والتحديق الغامض لجينسبيرغ من الصورة المؤطرة على الحائط، ورائحة طعام أوروبا الشرقية تتدفق من النافذة المفتوحة، والعرق من إبطي.. كان صدى الغرفة هادئًا بإحساس تقديس، ونادرًا ما يوجد مثله في "إسرائيل" المليئة بالضوضاء.

قبل أن أعود إلى منزلي على منحدرات جبل الكرمل، كان هناك سؤال أخير أود طرحه، وربما كان السؤال الأكثر أهمية.. هل أستطيع أن ألتزم برجل دين محتال، أو حاخام واحد قد لا يهدد دولة "إسرائيل" وله الحق في التعبير عن رأيه. ومع ذلك، يمكن أن تصبح أفكاره قاتلة، إذا وجدت طريقها إلى قوانين قابلة للتنفيذ من قبل المحاكم "الإسرائيلية".

قلت له: "لقد سمعت أنك وأعضاء الكنيست تكتبون دستورًا لدولة إسرائيل".

بتعبيره الهادئ بثبات، قال: بما إنه لم يستطع الخوض في التفاصيل السرية للخطة، فقد كان يبحث مع الحاخام جينسبيرغ وأعضاء حزب البيت اليهودي عن طرق لإدخال نظام قانوني قائم على التوراة لفترة طويلة، وإفساح المجال لممارسة حقوق اليهود على أرض "إسرائيل".

بعبارة أخرى، أراد الحاخام اللطيف وأصدقاؤه إقامة نظام ديني، أما بالنسبة لعرب "إسرائيل" والفلسطينيين تحت الاحتلال، فإن هذا من شأنه أن يُكمِل ما أسميه عملية الفصل العنصري، ويحول "إسرائيل" إلى دولة منبوذة يحتقرها بقية العالم بحق، فلم يسبق لي في حياتي، ولا في الأسطول البحري الثالث عشر، ولا خلال المعارك والعمليات، ولا كقائد للبحرية، ولا كرئيس للشاباك بعد مقتل إسحاق رابين، أن قابلت عدوًا أكثر خطورة لديمقراطيتنا وتجربته في تقرير المصير من هذا "رجل الله" وأب لاثني عشر.

أثناء قيادتي السيارة مغادراً القدس، فكرت في حديثي مع الحاخام شابيرا، وتعجبت من سلوكه الودي وتواضعه، فعلى الرغم من شهرته، عاش شابيرا حياة بسيطة، وكأنه نذر راهبًا بالفقر، تفاجأت عندما اكتشفت أنني وجدت أشياء تستحق الإعجاب عن الحاخام، وعلى وجه الخصوص استعداده للتحدث بصراحة مع رجل كان قد جر معلمه للاستجواب ذات مرة.

لقد بذلت قصارى جهدي لرؤية الأشياء من وجهة نظره، يقول –هو وأمثاله– إنهم يقاتلون من أجل روح "إسرائيل"، لأنهم يعتقدون أن الشعب اليهودي يمثل أكثر من سدوم وعمورة تل أبيب وحيفا. أليس هذا هدرًا خاطئًا؟ الأشخاص المختارون يسمرون على الشاطئ بدلاً من مدح رب الجنود، فلولا طاعتنا للرب، لكان الشعب اليهودي قد اختفى منذ زمن بعيد، فهل من المبالغة أن نطلب أن تكون الدولة اليهودية يهودية؟ وهل من غير المعقول العمل ليل نهار للتبشير بمجيء المسيح وترميم هيكل الملك سليمان؟

لكن على الرغم من أجوائه المقدسة، فإن الحاخام شابيرا يُرعبني.. نحن نعيش في نفس البلد، ونتحدث نفس اللغة، ونشارِك في نفس النظام السياسي الديمقراطي، ونغني نفس النشيد الوطني.. لكن الفجوة الآخذة في الاتساع تفصلنا فكرياً وروحياً، فالحاخام يؤسس تفكيره على القوانين الدينية التي ربما كانت منطقية في العصر الحديدي، لكن تلك القوانين التي كُتبت في

وقت مختلف، يجب تحديثها، لكي تأخذ في عين الاعتبار المفاهيم الحديثة للقانون والحقوق، وهذا شيء يرفض فعله.

على الطريق السريع عائداً إلى المنزل، رأيت لافتة كبيرة لشعار شركة الأدوية العملاقة تيفا، ذكّرتني تلك اللافتة بقدرات "إسرائيل" الهائلة في مجال البرمجيات والتكنولوجيا الحيوية وتكنولوجيا الطاقة الشمسية، وفي أوائل العقد الأول من القرن الحالي، وأثناء الشراكة مع الأستاذ سري نُسيبة لإطلاق "صوت الشعب"، كنت رئيس مجلس إدارة شركة نتافيم، وهي شركة لتصنيع معدات الري بالتنقيط، أطلقها كيبوتس في النقب والتي تساعد في إطعام مئات الملايين من الناس في جميع أنحاء العالم،. واليوم يُعالِج المهوسون والتقنيون "الإسرائيليون" –الذين استلهم الكثير منهم رؤية حركة الكيبوتس لبناء إنسانية أفضل– بعضًا من أكثر مشاكل العالم إلحاحًا.

اليهودية التي أؤيدها ليست أقل تقدمية.. في منطقة موشافي يحترم الأعضاء العلمانيون والدينيون بعضهم البعض.. وفي أيام العطل، أقوم بالانضمام إلى المؤمنين والمساعدة في خدمات للكنيس القريب من منزلي.

قرأ أبنائي التوراة خلال حفلهم في بار متسفا، حيث احتفلنا بحفيدي عند الحائط الغربي، لكن مخطط الحاخام شابيرا الثيوقراطية لتغيير قوانين "إسرائيل"، ستُقوّض نظامنا القانوني، وتُحوِّل العربي الذي يعيش في أرض "إسرائيل" إلى أجنبي، أو أجنبي مقيم.

فإذا كان هو وأصدقاؤه في الكنيست على طريقهم، فإن دولتنا الناشئة التي نالت استحسانا كبيرا ستخون قيم إعلان استقلالنا، وتضعنا على الجانب الخطأ من التاريخ مع الدول الأخرى المحتالة.

الفصل الحادي عشر:

د. خليل الشقاقي

في اليوم التالي عدت إلى القدس مع بيبا، وصديقتها تشين، وزوجها، وصديقي المقرب أورني بتروشكا.

أورني، هو ابن شقيق الروائي إبراهيم جبريل يشوع[1]، كان طيار مقاتل سابق في سلاح الجو "الإسرائيلي"، خريج معهد "إسرائيل" التكنولوجي (التخنيون) في حيفا، كما وتخرج من جامعة كورنيل في نيويورك، وكان رائد أعمال ناجح في مجال التكنولوجيا العالية، وشريكي مع "صوت الشعب".

كان أورني هو الذي سهل المقابلة الصحفية التي أعطت الإلهام لصنع الفيلم الوثائقي المرشح لجائزة الأوسكار من عام 2012، "حراس البوابة". الفيلم من إخراج درور موريه، ويظهر فيه خمسة من رؤساء الشاباك السابقين، وكنا نناقش بصراحة وجهات نظرنا المتضاربة حول نجاحات المنظمة "وإسرائيل" وإخفاقاتها منذ حرب الأيام الستة.

تم تكليف سائق فلسطيني بمقابلتنا في فندق أمريكان كولوني في القدس الشرقية، ونقلنا عبر حاجز قلنديا إلى مكتب الدكتور خليل الشقاقي لاستطلاعات الرأي الفلسطيني في وسط مدينة رام الله.

في كل مرة أعبر فيها إلى الأراضي الفلسطينية، أحتاج إلى تقديم طلب للحصول على تصريح من الجيش "الإسرائيلي".. أحيانًا أحصل على واحد، وأحيانًا لا أحصل عليها، فلا شك أن قادة الأمن قلقون من أن ينتهي بي المطاف في زنزانة تابعة لحماس في مكان ما في مخيم للاجئين، ويدي وكاحلي متصلان ببعضهما البعض.

توقف خط سير المركبات عند الحاجز، مما أتاح لي فرصة التعرف على سائقنا، إحسان، والاستماع إلى تقييمه للوضع السياسي في القدس، لقد أخبرني بلغة عبرية لا تشوبها شائبة، مدى ضآلة إيمانه بأن الحياة ستتحسن للفلسطينيين، أطفاله يدرسون في الجامعات الألمانية، سألني: "أي نوع من المستقبل لديهم في هذا البلد؟" وعندها لم يكن لدي رد جاهز له.

---

(1) إبراهيم جبريل يشوع: أديب وكاتب مسرحي إسرائيلي من مواليد القدس وشهرته "בולי – بولي". درس الأدب والفلسفة في الجامعة العبرية. واشتغل بالتدريس في المدارس الثانوية وفي الجامعة وهو حاليا محاضر للأدب في جامعة "حيفا" حيث يقيم حالياً في مدينة حيفا.

على الرغم من أنني قابلت خليل للمرة الأولى في نفس الاجتماع في لندن حيث قابلت ساري، إلا أنني درسته ودرست عمله منذ وقت مبكر من فترة عملي في الشاباك.

لقد وجدت أن أدوات التجسس لدينا –التنصت على المكالمات الهاتفية والمراقبة الإلكترونية والمخبرين وغرف الاستجواب– غير موجودة، لأنه لا يوجد قدر من الذكاء في جمع المعلومات الاستخبارية يمكنه أن يتنبأ بالانتشار الشعبي وغير المخطط له مثل الانتفاضة.

فتحي الشقاقي

بدأت في الاستماع إلى ما يقوله الكُتَّاب والشعراء وعلماء الاجتماع الفلسطينيون عن شعبهم، فقد كانت استطلاعات الرأي التي أجراها خليل وفريقه في المركز الفلسطيني للبحوث السياسية والمسحية احترافية وعلمية وكاشفة.. كما أنني وجدت خليل شخصا رائعًا، استجاب هو وشقيقه فتحي، طبيب الأطفال، للنزاع "الإسرائيلي" العربي بطرق مختلفة جذريًا.

د. خليل الشقاقي

في عام 1948، نزح آباؤهم من منازلهم في زرنوقة، وهي قرية تقع بالقرب من مدينة رحوفوت، حيث درس خليل العلوم السياسية في الجامعة الأمريكية في بيروت قبل أن يحصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا، وفي غضون ذلك، شارك فتحي في تأسيس حركة الجهاد الإسلامي بدعم من إيران، وبعد وقت قصير من تنفيذ مجموعة فتحي الشقاقي لهجوم انتحاري ضد جنود "إسرائيليين" عند مفرق بيت ليد في كانون الثاني (يناير) 1995، انتهى الأمر بإدراج اسمه في قائمة المستهدفين لدينا.

وفي وقت لاحق من ذلك العام، في أكتوبر 1995، قبل شهرين من أن أتولى قيادة الشاباك، تعقب الموساد فتحي إلى مالطا، أطلق رجلان يركبان سيارة ياماها لونها زرقاء النار على رأسه بعد أن اشترى هدية لزوجته من محل "ماركس آند سبنسر Marks & Spencer".

أثناء مروري في قلنديا، لاحظت آثار حدوث أعمال عنف في الآونة الأخيرة: عبوات غاز مسيل للدموع، وحجارة متناثرة حولها، وما يشبه أغلفة الرصاص، وكانت صور لياسر عرفات والأسير مروان البرغوثي تزين جدار الفصل الذي يمر عبر الحاجز، والذي يفصل الضفة الغربية عن "إسرائيل".

بالكاد نظر إلينا رجال شرطة الحدود الذين يحرسون الحاجز.. قالوا: "حسنًا".. وهم يلوحون لنا.

فتحتُ النافذة فتحة ضيقة، فغمرت السيارة رائحة القمامة المحترقة، رأيت لافتة حمراء زاهية باللغات: العبرية والعربية والإنجليزية، حذرتنا وكأننا سياح في رحلة سفاري من أننا "نجازف بحياتنا" بدخول منطقة يسيطر عليها الفلسطينيون.

سافرنا لمدة عشرين دقيقة أخرى –أو نحو ذلك– قبل أن نصل إلى مبنى المكتب في وسط مدينة رام الله، حيث يقع مكتب خليل في الطابق الثاني.. بعد دخولنا إلى الداخل، اعتذر خليل عن الاضطرار إلى الاجتماع في مثل هذا المكان الرسمي.. وأوضح "ليس لدينا كهرباء في المنزل".

إن انقطاع التيار الكهربائي، وجفاف صنابير المياه، حدثٌ يوميٌ في الضفة الغربية الفلسطينية، رأيت الضفة الغربية كأنها عبارة عن مجموعة جُزر منفصلة على غرار الفصل العنصري، وتحيط بها الأراضي التي تسيطر عليها "إسرائيل".. و"بمجرد استعادة السلطة" –كما يأمل وبالإنجليزية الأمريكية العامية–، يمكننا "نقل الحفلة" إلى منزله في قرية عطارة، حيث كانت زوجته تُعِد وليمة.

يمتلك خليل جسم ممتلئ ذو أكتاف عريضة، وشعر لونه رمادي غامق، وذقن مربعة مصممة بشكل جيد لامتصاص أي ضربات تأتي في طريقه.. ومع ذلك، فهو لا يُظهر أي علامات على وجود رجل يعيش في ظل احتلال قمعي، لا دكتاتوريتنا، ولا دكتاتورية السلطة الفلسطينية الفاسدة.. وبعد أن استقبل أورني وتشين وبيبا للمرة الأولى، استرخى على كرسي وأمرنا نحن الثلاثة بالجلوس أيضًا.

أومأ برأسه بينما اعترفت بالتفصيل بمدى تأثير عمله كمستشار استطلاعي خلال السنوات التي أمضيتها في مجال مكافحة الإرهاب.. المحللون الذين عملوا معي خلال فترة عملي في الشاباك كانوا محترفين، فقد أتقنوا اللغة العربية جيدًا وتمكنوا من فهم اللغة العامية التي يتحدثون بها عبر خطوط الهاتف التي يتم التنصت عليها، وعلى الرغم من ذلك فهم لم يقدموا أبدًا نفس المستوى من الذكاء مثل فريق خليل، ذو عدد الأشخاص القليل، والذين يتنقلون من باب إلى باب في مخيمات اللاجئين، ومجهزون بألواح الكتابة والاستبيانات، حيث أخبرني خليل ذات مرة –وأعتقد أنه كان على حق– أن استطلاعات الرأي التي أجراها كان من الممكن أن تنبهنا إلى أن الانتفاضة الأولى كانت على وشك الاندلاع إذا كان أسلافي في المنصب قد أعاروها انتباههم فقط.

أردت أيضًا استكشاف ما كان –بالنسبة لي– لغزًا دائمًا، فعلى الرغم من أنني كنت أعرف خليل منذ سنوات، إلا أننا لم نناقش الظروف التي أدت إلى استشهاد شقيقه، جلست حول طاولة

اجتماعات طويلة مزينة بأنابيب من المصابيح المضيئة، وسألت نفسي لماذا اختار الأخ خليل الوسائل السلمية لمقاومة الاستبداد، بينما قام شقيقه طبيب الأطفال برفع سيفه؟

قررت أن أسأل خليل عن تربيته.. وما الذي جعله شخصًا وباحثًا وإنسانًا؟

ذكر في إجابته كيف أن السنوات التي قضاها خلال الدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت، قبل الحرب الأهلية، أدخلته على ثقافة عالمية منفتحة وحرة.. فقد كان يعيش في نيويورك ويدرس في كولومبيا للحصول على درجة الدكتوراه –حيث درس زميله الفلسطيني إدوارد سعيد هناك في ذلك الوقت–، ثم أكمل الرحلة التي بدأها في بيروت، ثم برز كباحث ملتزم باستخدام الأفكار والعقل لتحرير بلاده من الاحتلال والتخلف الإقطاعي.

لقد سعيت إلى إقامة علاقات من خلال الكشف عن تقديم اعترافات ذات صلة من الماضي. فخلال الأيام الأولى لي في الشاباك، نفَّذت حماس سلسلة من العمليات الجهادية وقتلت عشرات "الإسرائيليين" بمن فيهم ابنة صديق، وكنت أعلم أن التحدي الأكبر الذي أواجهه هو فهم مصدر الكراهية والإحباط الذي أدى إلى هذه الهجمات البربرية.

ولكن كيف؟ كان واضحاً لي أن "إسرائيل" لا تستطيع هزيمة الإرهاب دون فهم نفسية وثقافة الإرهابيين، ما الذي يُولِّد ويُغذي الكراهية والعنف؟ فقد كان من الواضح لي بنفس القدر أنه كان من الصعب الحصول على معلومات موثوقة، ومن ثم عرض صورة دقيقة لعالم لا أعرف عنه شيئًا.

قلت: "كانت هذه هي النقطة التي اكتشفت فيها استطلاعات الرأي الخاصة بك".

"وماذا قالوا لك؟"

"أن الفلسطينيين يريدون السلام معنا، إذا كنا نرفع أحذيتنا من أعناقكم فقط".

قال: "وهذا ما شعر به الناس، عندما كانت هناك عملية سياسية قابلة للحياة يثق بها الناس".. لأنه عندما تصافح رابين وعرفات في حديقة الورود أمام الرئيس كلينتون، وافق معظم الفلسطينيين على فكرة وجود دولتين لشعبين.

أورني -–الطيار المقاتل السابق– كان يستمع باهتمام دون تعليق. "وماذا عن اليوم؟" سأله الآن.

انحنى خليل على كرسيه ورفع حاجبيه، ربما لمدة عشر ثوانٍ بدا أنه ضائع في التفكير.. ثم أخيرًا ابتسم نصف ابتسامة وأجاب: "انظر، يتصرف الناس وفقًا لما يتوقعونه.. في استطلاعنا الأخير وجدنا أن معظم الفلسطينيين لم يعودوا يؤيدون حل الدولتين؛ يريدون دولة واحدة بين

البحر الأبيض المتوسط ونهر الأردن.. ويريدون العودة إلى عام 1948.. كما أننا أجرينا استطلاعًا للرأي بين "الإسرائيليين"، ولأول مرة منذ أن بدأت في استطلاع آراء اليهود "الإسرائيليين" قبل سبعة عشر عامًا لم يعد لدى معظم اليهود إيمان بأن السياسيين سيتوصلون إلى حل الدولتين.. ولأول مرة يتفق اليهود والفلسطينيون على شيء ما".

طلب خليل من سكرتيرته أن تُحضِر لنا نسخة من التقرير، بعنوان: "إسرائيل والفلسطينيون: الانزلاق نحو واقع الدولة الواحدة"، الذي تم إنتاجه لصالح مركز كراون لدراسات الشرق الأوسط بجامعة برانديز.

أشار خليل إلى التقرير وقال: "كما ستقرأ هنا .. لم يعد الفلسطينيون يعتقدون أن عباس ورفاقه يخدمون مصالحهم.. قبل عشر سنوات فقط كانت أقلية تعتبر قادتنا متعاونين مع الاحتلال "الإسرائيلي"؛ الآن 60 بالمائة يعتقدون ذلك.. فالتنسيق الأمني –على وجه الخصوص– يُنظر إليه على نطاق واسع على أنه مؤامرة "إسرائيلية" فلسطينية مشتركة لمنع استقلالنا".

في صوت خليل كان هناك مقدار من الكآبة.. سأل بيبا، مشيرًا إلى التغيير في اللهجة، عن سبب اعتقاده بأن الناس فقدوا الأمل.

"في التسعينيات، كان الجميع يعرفون مدى فساد نظام عرفات.. فلم يكن الفساد مجرد نتاج ثانوي لعدم كفاءة عرفات؛ لقد استخدم الفساد كوسيلة لبناء الولاء.. وكان يعرف كل بائع خضار في هذا السوق.. لقد قمت بنظرة خاطفة على الفساد لأن مجلس العلاقات الخارجية طلب مني كتابة تقرير ليُقيِّم قوة المؤسسات العامة الفلسطينية.. دعني أخبرك أنه كان عَرْضًا مُرعبًا.. النقطة المهمة أنه على الرغم من كل الفساد، فقد وَثِق معظم الناس بعرفات لأنه لم يأخذ دولار لنفسه".

سألت بيبا: "واليوم؟".

"اليوم؟ ما عليك سوى إلقاء نظرة حول رام الله، وعلى عدد سيارات المرسيدس السوداء اللامعة الموجودة هناك، والتي يملكها المتنفذين الحكوميين.. سأخبرك قصة.. منذ وقت ليس ببعيد، اعتقلت حكومتنا بعض نشطاء حماس لحملهم أسلحة غير قانونية، ثم أفرجت عنهم بسبب ضغط أسرهم.. وفي اللحظة التي خرجوا فيها من السجن قتلتهم "إسرائيل".. يمكنك تخمين ما فعلته الشائعات بهذا".

قلت: "لا بد أنهم قالوا إن قوات الأمن الخاصة بكم، حاصرتهم في صف في مواجهة الحائط، ونسقوا معنا لكي يتم إطلاق النار وقتلهم".

"هذا صحيح.. فالأمر يزداد سوءًا.. وفي خطوة مباشرة للخروج من كافكا، فلا تزال حكومتنا توجه اتهامات ضد الرجال في المحاكم رغم أنهم لقوا حتفهم. ففي يوم الاثنين الماضي فقط، كانت هناك مظاهرة كبيرة مناهِضَة للحكومة في رام الله بسبب هذا".

تناول خليل كوبًا من القهوة العربية القوية وقلّب بها بعض السكر.. وقال: "استطلاعات الرأي التي نُجريها سياسية، نحن نريد إيقاظ قادتنا".. أنا أعرفهم جميعًا شخصيًا.. كيف تعتقد أن عباس حصل على وظيفته؟ كان ذلك لأن الأوروبيين، الذين صُدِموا من تقريري عن الفساد، وضعوا عرفات تحت النار لتوظيف رئيس وزراء كفؤا.. في هذه الأيام أقول لعباس ورجاله: حافِظ على دعم الناس، عليك أن تُظهِر المزيد من العزيمة.. والوقوف في وجه المستوطنين، ومحاصرة المستوطنات، ولكن بدون استخدام العنف، واجه الاستعمار الإسرائيلي".. ترك خليل القهوة وضرب شفتيه: "وعليهم أيضًا أن يفعلوا شيئًا حيال أولئك السارقين".

كما في أوسلو، فإن المنطقة ج –التي تقع في معظم أنحاء الضفة الغربية– تخضع للسيطرة "الإسرائيلية" الكاملة، ولا تستطيع الشرطة الفلسطينية أن تكتب مخالفة مرور، وبما أن رجال الشرطة "الإسرائيليين" لا يُغامرون بدخول تلك المناطق، فقد أصبح الكثير من المنطقة ج مكان آمن "جنة" لمنظمي الجرائم.

قال خليل: "كيف تستجيب حكومتنا؟ .. بالكلمات والشعارات؟ وربما عباس يلقي كلمة أخرى أمام الأمم المتحدة.. وتسألني لماذا يتخلى الناس عن حل الدولتين.. حسنًا.. الآن كما تعلم إنهم يُفضلون إقامة دولة واحدة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الأردن لأن "إسرائيل" لديها سيادة القانون على مواطنيها".

"ماذا يعني نهاية دولة "إسرائيل" كدولة يهودية؟".

سكب خليل لنفسه فنجان قهوة آخر.. وقال: "عامي، صديقي العزيز، لا يفكر معظم الفلسطينيين حتى في ذلك بعيدًا.. إنهم يريدون فقط الخروج من تحت أحذية الجيش الإسرائيلي".

اتصلت زوجة خليل هاتفيا لتخبره أن الكهرباء عادت إلى عطارة وأن الغداء سيكون جاهزاً قريباً.. قام سائقنا بالسير خلف خليل شمالًا من رام الله إلى بلد التل الذي بها المحامي المشهور رجا شحادة، الذي قام بتأليف كتاب "مناحي فلسطينية".

الجرائم المرتكبة ضد هذه التلال القديمة، والتي كما يقول شحادة في عام 1967 كان من الممكن التعرف عليها من قبل يسوع المسيح والحاخام هيليل قبل ألفي عام، فإن: كثرة المستوطنات، والطرق الالتفافية "الإسرائيلية"، وقواعد الجيش "الإسرائيلي"، والامتداد غير المنظم للبناء الفلسطيني قد أضرت بالمناظر الطبيعية.

تقع عطارة على قمة سلسلة جبلية عالية، على بُعد نصف ميل فوق السهل الساحلي شديد الحرارة، وشعرت بأول نسيم بارد خلال شهر.

القرية –مثل العديد من قرى العالم– تقع على طبقات من تاريخ العصر الحديدي عبر مملكة يهودا والفرس والإغريق والرومان والبيزنطيين والمماليك.

المستكشف الأمريكي في القرن التاسع عشر وعالم الكتاب المقدس (إدوارد روبنسون) ربط القرية مع أتاروث من كتاب جوشوا.. فالمسلمون المحليون يُصلون في ضريح لدرويش صوفي، ويتدفق المسيحيون في المنطقة على كومة من الصخور المخصصة لسانت كاترين، وشهيد القرن الرابع الذي قُتل على يد إمبراطور روماني.

لم تُغري عظام القديسين خليل وزوجته بشراء قطعة أرضهم، بإطلالة جبلية على البحر الأبيض المتوسط البعيد، وأوضح خليل أنهم جاؤوا إلى هنا لأن عائلة زوجته وصلت من البوسنة قبل مائة عام، وأنشأت قرية على ميناء قيسارية، لينتهي بهم الأمر كلاجئين في مدينة طولكرم بالضفة الغربية.

القصص التي أخبرها والداها عن الأمواج اللطيفة للبحر غير المرئية عبر مدينة الصفيح (الزينجو) التي يقيمون فيها، حولتها إلى مُحِبة للمياه مثلي.. عندما تزوجت هي وخليل أصرت على أن يبنيا منزلاً على تلة عالية بحيث يمكنهما رؤية الساحل.

من الشرفة العلوية لمنزلهم، أشار خليل وزوجته –حيث كانت ترتدي حجابًا حريريًا وبنطلون جينز– إلى السماء الغربية الضبابية، وأكدوا لنا أنه في يوم صافٍ يمكنهم رؤية الفنادق "الإسرائيلية" الفخمة على شاطئ البحر.. بعد جولتنا في المنزل جلسنا لتناول طعام الغداء التي تقدمه على الطريقة الفلسطينية: طبق رئيسي من الدجاج والأرز مع العديد من السلطات والحمص والفلافل والكوسا المحشي والفلفل.

لقد أجَّلتُ مرةً أُخرى سؤال خليل عن شقيقه المقتول، لأنه لم يكن من المناسب الحديث في هذا الموضوع وقت الغداء، لكنني تعجبت بصمت من حقيقة أن هذا الصديق الذي كان يكدس الطعام على طبقي قد نشأ مع صبي (شقيقه فتحي) الذي قام بإرسال شاب في مارس 1996 ليكون انتحاريا ليفجر نفسه، مما أدى لقتل ابنة صديق لي.

الفصل الثاني عشر:

المفسدون

معظم الكتب التي نضعها على أرففنا في المنزل هي كتب بيبا، حيث تتعارض كتبها من علم النفس والعمل الاجتماعي، مع أعمال والدها ديفيد المهتم في العلم والنقد الأدبي.

تَشغَل الأعمال الروائية المكتوبة باللغة العبرية وبشكل رئيسي الجزء الأكبر من مساحة الرف، وكتبي التي تتحدث عن التاريخ العسكري والاستراتيجي موجودة في غرفة الطعام، حيث يسهل الوصول إليها من مكان عملي على الطاولة الخشبية الطويلة.

في الصباح التالي من زيارتي للسيد خليل، قمت بسحب كتابين كنت قد أحضرتهما منذ فترة من مدرسة جون كينيدي للإدارة الحكومية بجامعة هارفارد في أوائل التسعينيات، ومن ضمنها أحد الكتب التي تسبب –أكثر مما ينبغي– بارتباك ضغط الدم هو كتاب بعنوان: (مسيرة الحماقة: من طروادة إلى فيتنام)، للكاتب: باربرا توكمان، حيث قمت في تسعينيات القرن الماضي، بتسليط الضوء على عبارة "رئيس القوى المؤثرة في الحماقة السياسية هو الرغبة في السلطة، وهي أكثر العواطف وضوحًا".

كتاب آخر قمت بسحبه من الرف في ذلك الصباح، وكان أيضًا في المنهج الدراسي في مدرسة كينيدي، كانت دراسة للصحفي "نيل شيهان" الكلاسيكية لحرب فيتنام، بعنوان: (كذبة ساطعة)، قرأت الملاحظات المكتوبة في الهوامش، والنصوص التي أبرزتها باللونين الأصفر والأزرق، فوجدت أنها تُعبِّر عن حالتي الذهنية خلال العام الدراسي 1992–1993، حيث كتبت في الجزء الداخلي للغطاء الخلفي: "الحقيقة، غالبًا ما تكون مرئية فقط لـ"الغرباء" .. "أعتقد أن قراءة كتاب شيهان كانت المرة الأولى التي أدركت فيها أن الغرباء في التسلسل الهرمي العسكري، مثل: الصحفيين والأكاديميين، مُجهزون "بأجهزة استشعار" مختلفة عن الضباط العسكريين أو السياسيين التي تمكنهم من رؤية الأكاذيب والقصص الأخرى.. هذا ما نقوله لأنفسنا عندما نتورط في الحرب.

لم أذكر الفلسطينيين مرة واحدة في ملاحظاتي، على الرغم من أنني أدرك الآن أنه يمكن للمرء أن يُطلق على موقف "إسرائيل" تجاههم "كذبة ساطعة مشرقة" أيضًا.

جاءت فترة عملي في كامبريدج –مع بيبا وأبنائنا الثلاثة– في هذه المغامرة، في وقتٍ مثير للبقاء على قيد الحياة، في زمن سقوط الستار الحديدي، وانتهاء الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، وظهور استطلاعات الرأي التي شملت بيل كلينتون، الشاب الليبرالي، فهو شاب سياسي ذو رؤية، وكان يستعد للفوز في الانتخابات الرئاسية الأمريكية المقبلة، فقد كان الجو مسمماً.

في حرم جامعة هارفارد حينها، كان بعض أذكى علماء السياسة على وجه الأرض، يحيرون العالم بعد حرب الأيام الباردة.. فقد كان صموئيل هنتنغتون يضع اللمسات الأخيرة على مقاله الضخم: "صراع الحضارات"، والذي سيتم نشره في مجلة الشؤون الخارجية عام 1993، وقد كُتب المقال –إلى حد كبير– ردًا على نشر كتاب: "نهاية التاريخ والرجل الأخير"، لنجم هنتنغتون الطالب فرانسيس فوكوياما، الذي كان مصدر إلهام لنقاشات حماسية حول القهوة التركية في مقهى الجزائر في شارع براتل.

بيل كلينتون

قلت للناس عندما اقتبسوا من الكتاب: "فقط لا تحبسوا أنفاسكم .. إن تعميم الديمقراطية الليبرالية الغربية هو الشكل الأخير للحكومة البشرية".

إسحق شامير

عندما كنت أُنهي درجة الماجستير، استدعاني زميلي إيهود باراك –الذي كان يَشغَل منصب رئيس هيئة الأركان العامة– في منتصف الليل، ليعرض عليَّ قيادة البحرية "الإسرائيلية".

كان يريد مني أن أُصبح أميرالًا في البحرية، تتويجًا لثلاثين عامًا من الخدمة، حيث شعرت بإحساس الشرف والمسؤولية التي ناضلت لالتقاطها بالكلمات.

أتاح حفل أداء اليمين في "إسرائيل" فرصة أخرى لوالدي لالتقاط بعض الصور معي، وهذه المرة إيما أظهرت فخرها وأظن أنها كانت مرتاحة، فقد كانت الوظيفة العسكرية في مقر قيادة البحرية بجوار مستوطنة تمبلر القديمة في تل أبيب تجعلني بعيدًا عن طريق الأذى.

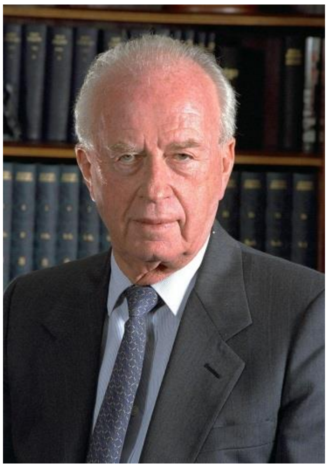
إسحق رابين

إسحق رابين، الذي حل محل شامير كرئيسٍ للوزراء، كان قد وعد الناخبين "الإسرائيليين" خلال حملته الانتخابية بأنه لن يتحدث أبدًا مع من وصفهم بـ "الكاذبين والأوغاد" في منظمة التحرير الفلسطينية، وبعد عام من عمله، فاجأنا جميعًا بالدعوة لعقد اجتماع لأعضاء هيئة الأركان العامة للجيش "الإسرائيلي" ليخبرنا أن العدو اللدود السابق أصبح شريكًا له، وأنه سيصنع السلام مع عرفات، حيث تعترف دولة "إسرائيل" ومنظمة التحرير الفلسطينية ببعضهما البعض كممثلين شرعيين لشعبيهما، وسيسمح لعرفات ورجال فتح بالعودة إلى ما يسمونه بالتأكيد "فلسطين المحررة".

ستدير حكومتهم، المسماة بـ "السلطة الفلسطينية"، جزءًا من غزة ومدينة أريحا، وبمرور الوقت سيوسعون سيطرتهم على المزيد من الأراضي، وسنقوم في النهاية بإخلاء كل مكان باستثناء المنشآت العسكرية والمستوطنات.

لكن ماذا تعني "المنطقة الأمنية"؟ كما يقولون، فإن الرب والشيطان يكمنان دائمًا في مثل هذه التفاصيل.. فقد قيل لنا إن محادثات الوضع النهائي وفي غضون خمس سنوات ستقوم بحل القضايا الشائكة مثل: القدس والأمن والحدود واللاجئين الفلسطينيين والمستوطنات اليهودية.

نظرنا نحن أعضاء هيئة الأركان إلى بعضنا البعض، مذهولين للغاية من الرد، كيف كان من المفترض أن يعمل هذا؟ هل توقع رئيس الوزراء منا حقًا تنفيذ وفرض شروط اتفاقية السلام عبر القنوات الخلفية التي تم إعدادها في غابة نرويجية دون أي مساهمة من خبراء الأمن؟

في صميم قلوبنا شعرنا بالقلق، فحتى لو لم يجرؤ أحد على قول أي شيء بصوت عالٍ، كانت الصعوبة الإنسانية الأساسية أن تتخيل أن يكون العدو شريكًا.

كيف نمد البساط الأحمر لعرفات، ذلك الرجل الذي حول الأردن ولبنان إلى بؤر إرهابية؟

الصحفية الإيطالية أوريانا فالاتشي قالت ذات مرة عن عرفات إنه: "يلعب دائمًا بالبيضة والحجر بالمزدوج، ويختلق الأكاذيب، حتى لو سألته عن الوقت".. والآن يفترض بنا أن نثق به كشريك؟

كانت اتفاقيات أوسلو محيرة للعقل بالنسبة لي، مثلي مثل الآلاف في الجيش، لأنني خضت في مستنقعات الإرهاب الفدائية لمحاربة فتح عن قرب.

نعم، فخلال الانتفاضة، أدركت عدم جدوى محاولة السيطرة على السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، وكنت أعلم أن السياسيين سيضطرون إلى التوفيق بين دائرة عودة الشعب اليهودي إلى أرضهم القديمة مع قسوة حكمنا، والشيء الذي لم أفكر فيه قط هو أن عرفات وعصابته الإرهابية سيُعتبرون جزءًا من الحل.. لعدة سنوات، كنت أُبحِر في جميع أنحاء المنطقة تقريبًا –البحر الأدرياتيكي، وغرب البحر الأبيض المتوسط، وتونس، وليبيا، وكل دولة عربية أخرى تقريبًا–، لقتل هؤلاء الرجال بالذات، وقبل خمس سنوات فقط، وبناءً على أمر رابين، انضممت إلى فرقة الاغتيال التي قامت بتصفية أبو جهاد، نائب عرفات وأحد مؤسسي فتح.

عندما أجلسنا رابين وشرح لنا الصفقة، تحدث حول الكثير من المخاوف التي في خاطري، فقد ظللت متشككًا، ولكنني أثق في رابين، الصقر، ألا يفعل أي شيء من شأنه أن يُعرِّض أمن "إسرائيل" للخطر.. ما كنت قلقا بشأنه هو كيف سنتعامل مع المنظمات الفلسطينية

التي عارضت الاتفاقية، بما في ذلك حماس، وهي قوة إرهابية كبيرة ومسيطرة ولها قاعدة جماهيرية في الأراضي المحتلة.

كان السؤال البعيد عن الموضوع، هو: كيف سنتعامل مع المستوطنين اليهود الذين سيشعرون بالخيانة –وذلك من حقهم– وكيف أن قادتهم السياسيين وكل حكومة "إسرائيلية" منذ عام 1967 قد كذبوا عليهم.

شمعون بيريز

في مؤتمر لوزير الخارجية آنذاك، شمعون بيريز، سألته: كيف ينوي التعامل مع الاحتجاجات المحتومة.. أشرت في سؤالي إلى التنظيم اليهودي السري، وهو منظمة إرهابية نشأت كردة فعل على اتفاقية السلام مع مصر والانسحاب من سيناء.

قال: "انظر، أنا مثل سائق حافلة، ويجب أن أستقل الحافلة وجميع ركابها إلى مكان آمن.. فبالتأكيد قد يكون هناك بعض الركاب في مؤخرة الحافلة الذين أثاروا ضجة.. ولكن لا أستطيع أن أسأل كل مسافر عما يفكر فيه.. وظيفتي هي إبقاء عيني على الطريق".

"لكنك غيرت وجهتك أثناء القيادة بعد أن اشتروا تذكرة.. واختاروك كسائق لأنك وعدت بأخذهم إلى مكان ما.. إنهم يستحقون على الأقل التعبير عن آرائهم.. وبقدر ما هم قلقون، لقد اختطفتهم الآن ويشعرون وكأنهم رهائن يتم تسليمهم إلى وجهة لم يختاروها".

هز بيريز كتفيه وغيّر الموضوع.

أصبحت أوسلو الآن مشكلتي بشكل جزئي، لأن البحرية "الإسرائيلية" كانت تقوم بدوريات في المياه قُبَالة غزة، سألت نفسي: هل سيستفيد عرفات من البحر على ساحل غزة؟ كيف نمنع شعبه من تهريب السلاح؟ ماذا سيحدث لو أوقفنا سفينة داخل المياه التي يسيطر عليها عرفات؟ وبعد فترة وجيزة، سيتعين علينا الجلوس مع رجال منظمة التحرير الفلسطينية وخبراء في تهريب الأسلحة، والتخطيط لنظام أمني مشترك.

كما كان يخشى الكثير منا، فقد تصاعَدَ الإرهاب بمجرد جفاف الحبر الذي وقعناه في أوسلو. ففي الثمانينيات، وأثناء الانتفاضة، كانت هناك هجمات إرهابية، بما في ذلك التفجير الانتحاري الذي نفذته حركة الجهاد الإسلامي، إلى جانب عمليات متفرقة أخرى، حيث كانت حماس حتى أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، قد بدت وكأنها جمعية خيرية إسلامية، وشرعت في إخراج أوسلو عن مسارها بقتل المدنيين "الإسرائيليين"، حيث وقع هجوم عام 1993

بالقرب من بيت إيل، فقد قام صانع القنابل التابع لحماس، المهندس يحيى عياش، بوضع متفجرات في شاحنة فولكسفاغن، مما أدى إلى إصابة ثمانية من جنودنا.

مهما كانت الإجراءات غير القوية التي اتخذها عرفات لإخفاء الإرهاب الإسلامي، فقد اختفت تمامًا في فبراير 1994، عندما انتقم المستوطن الأمريكي المولد، المجرم باروخ غولدشتاين، خريج كلية ألبرت أينشتاين للطب، من الهجمات الإرهابية الفلسطينية حول الخليل بإفراغ خزنة سلاحه الرشاش، وقام بإطلاق الرصاص في أجساد المسلمين الراكعين أثناء صلاة الجمعة في الحرم الإبراهيمي في الخليل، حيث قتل تسعة وعشرون وجرح 125، حدثت تلك المذبحة في عيد البوريم، عيد الهالوين اليهودي، الذي يحتفل بهلاك هامان الشرير، حيث كانت نية غولدشتاين انتقاماً لإرهاب حماس بشكل جزئي، ولكنه في الأساس كان يريد إنهاء أوسلو بإشعال حرب دينية.

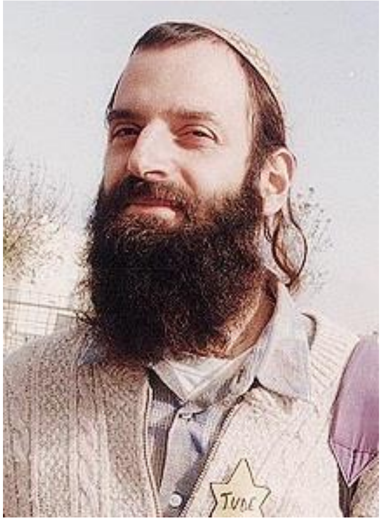

باروخ غولدشتاين

هاجمت حماس عرفات على الفور، وفضحته في العديد من مخيمات اللاجئين التي كانت معاقل لها، ثم تلا ذلك عدد كبير من الهجمات الانتحارية الانتقامية لحركة حماس في أواخر الصيف وأوائل الخريف، وبلغت ذروتها في مذبحة في شارع ديزنغوف في تل أبيب، حيث استقل رجل عاطل عن العمل من غزة حافلة، وفجَّر حزام ناسف كان يضعه حول خصره، مما أسفر عن مقتل 22 "إسرائيليًا" وإصابة خمسين آخرين، وهو أول هجوم انتحاري ناجح في تل أبيب،

في المجموع: قُتل ما يقرب من أربعين "إسرائيليًا" على يد حماس في عام 1994، وهذا العدد من القتلى من المدنيين "الإسرائيليين" لم يصل لذلك في كل الهجمات الإرهابية منذ حرب الاستقلال.

ومثل أي "إسرائيلي" آخر، ففي كل مرة كان يرن فيها الهاتف كنت أشعر بالرعب، لأنني كنت أخشى أن أحد أطفالي أو زوجتي بيبا قد يكونون إحدى الضحايا.

في أواخر عام 1994، كنت مع إيهود باراك في مكتب رابين في الطابق العلوي في وزارة الدفاع في تل أبيب، حيث أنهيت معه مناقشة حول أمن "إسرائيل" على المدى الطويل.. وعرضت عليه قوة الردع البحرية، وهو أسطول غواصات حديث قادر على إبراز القوة "الإسرائيلية" والردع إقليمياً، ولكن باراك لم يوافق، كان يعتقد أننا بحاجة إلى الدفاعات الأرضية

بشكل أكبر، حينها قلت له إن أعداءنا الرئيسيين لن ينهزموا من دباباتنا التي على حدودنا.. وفي النهاية وقف رابين إلى جانب البحرية.

بعد المناقشة طلب رئيس الوزراء رؤيتي لوحدي.. أومأ باراك برأسه قبل أن يغلق الباب خلفه.. فقد كنت واقفًا منتبهًا ويدي خلف ظهري، طلب مني رابين أن أجلس، وكان ذلك قبل أقل من عام من مقتله.

"قهوة؟".

أومأت بصمت.

حينها سكب رابين كوبين، وأشعل سيجارة، وانطلق في حديثه.

"عامي، أود منك تَوَلِّي الشين بيت".

"المعذرة يا سيدي؟" .. كنت مذهولاً وتجنبت لفظ قهوتي.

"اسمع، لقد أكملت مهمتك كقائد للبحرية، ومسألة الغواصات قد تمت تسويتها.. أحتاجك في الشاباك".. ثم وضع رماد السيجارة في فنجان قهوته الفارغ منتظراً ردي.

جلست مذهولًا جدًا من الكلام، فلم يكن هذا سهلاً مثل اتصال باراك بي في منتصف الليل ليعرض لي منصبًا كنت أعمل عليه طوال مسيرتي المهنية، ولم يكن من المنطقي أن يكون شخص مثلي يأمر الشاباك، فهذا لم يكن له أي تفسير، لدرجة أنني لم أعرف ماذا أقول.

قال رابين: "فقط فكر في الأمر يا عامي".

لم يكن رابين بحاجة لشرح سبب احتياج الشاباك لدماء جديدة، لأنه بعد عام ونصف من قيامه بخض يد عرفات في حديقة الورود بالبيت الأبيض، نزل فيلق من الشياطين على أرض "إسرائيل" في شكل حماس والجهاد الإسلامي، وفي الجانب الفلسطيني نزل باروخ غولدشتاين من جانبنا.

لم يلوم رابين عرفات على تفجير الحافلة، وكان مصمما على السعي لتحقيق السلام "وكأنه لا يوجد إرهاب" و "محاربة الإرهاب وكأنه لا توجد عملية سلام"، لكن أسلوبه ثبت أنه يحمل خطأً مزدوجاً: لقد فشل في توجيه إنذار لعرفات بأنه إذا لم يخوض معركة جادة ضد الإرهاب، فلن تكون هناك عملية سلام.. وفي نفس الوقت، أدت استراتيجية رابين إلى ازدياد في صفوف جناحنا اليميني، وخاصة المستوطنين، الذين يبلغ عددهم الآن ربع مليون، حيث أظهر مونتاج للصور في تجمع مناهض لأوسلو كوفية عرفات ملفوفة حول جبين رابين، وعلى لافتة أخرى كان رابين يرتدي الزي النازي وشارة الصليب المعقوفة.

هتف الشباب المتشددون: "بالدم والنار سنطرد رابين"، ورفعوا قبضاتهم في تحدٍ، وقامت الصحف الاستيطانية بتشبيه شراكة رابين مع عرفات بتعاون المشير بيتان مع هتلر.

في إحدى التجمعات، نظر السياسي الشاب بنيامين نتنياهو، برفقة أرييل شارون، دون تعليق بينما حملت الجماهير نعشًا على أكتافها وهتفت لمدة ساعتين "الموت لرابين".

مع فشل الشاباك في وقف أسوأ انتشار للإرهاب في تاريخ "إسرائيل"، احتاج رابين إلى شخص جديد ليتولى قيادة الدفة بكاملها، دخيل جديد يمكنه أن يهز الوكالة.

جلست بوجه ناشف، متململاً على الكرسي الجالس عليه، وراحة يدي ندية.. "لماذا أنا؟".

بقينا صامتين والله أعلم إلى متى – ربما دقيقة.

"لا توجد طريقة".. كنت أفكر بداخلي.

كنت أعرف ما يكفي عن الشاباك لأعي أنه بصفتك مديرًا، فأنت لا تذهب للعمل في البحر، ولكن في المجاري.. فما زلت أعمل إلى حد كبير في مجتمعٍ بسيطٍ من الأصدقاء أو الأعداء.. كان إطلاق رصاصة على خصم معاد بالزي العسكري شيئًا مختلفًا تمامًا عن سحب صاحب متجر معصوب العينين، أو طفل إلى زنزانة لاستخراج المعلومات، إما عن طريق البراعة في الاستجواب أو تحت الإكراه والتعذيب.

في تلك الأيام من الاحتجاجات الجماهيرية ضد أوسلو، كانت الوظيفة تتطلب التجسس على اليهود، ولأنني كنت قد قرأت أورويل عندما كنت طفلاً فلم تكن لدي شهية للعب دور الأخ الأكبر.

قلت أخيرًا: "السيد رئيس الوزراء".. وأنا أنظر إليه مباشرة في عينيه.. "شكرا لك على ثقتك.. ولكنني أعتقد أنني لستُ الرجل المناسب للوظيفة".

أومأ رابين برأسه، وأطفأ سيجارته.

بعد عامٍ واحد وسلسلة من الهجمات الإرهابية.. وبعد ذلك في الكلية الحربية البحرية الأمريكية في نيوبورت، بولاية "رود آيلاند" الأمريكية، كنت ضائعًا في التفكير، أُحدِق في الأبواب الفرنسية في خليج ناراغانسيت(1)، لدرجة أنني لم ألاحظ حتى اقتراب الملحق البحري في السفارة "الإسرائيلية"، بخطواته التي كانت تقرع الأرض كالقصف العسكري.

---

(1) بلدة في رود آيلاند.

كنت في مزاج مرح في عصر ذلك الصيف الهندي يوم 4 نوفمبر 1995، كان ذلك اليوم السابق لافتتاح الندوة الدولية لقوة البحار، والتي تعتبر أكبر تجمع لقادة البحرية في العالم.

كنت فخورًا بتمثيل "إسرائيل" في هذه الأخوة الحصرية للأميرالات، حيث دعاني رئيس العمليات البحرية الأمريكية، الأدميرال مايك بوردا، وهو أول يهودي يصل إلى مثل هذه المناصب الرفيعة داخل البحرية الأمريكية، حضر المنتدى بزيه المزدوج الصدر مع خطوط ذهبية على الأكمام.

قبل بضع سنوات، عندما كان مايك قائدًا للبحرية الأمريكية، زار "إسرائيل"، وكنت مُضيفًا له، لقد توصلنا إلى صداقة، يتشارك فيها البحارة، الخياليون والحقيقيون، من أوديسيوس والكابتن أهاب، إلى الأدميرال نيلسون، والمستكشف الفلورنسي جيوفاني دا فيرازانو، الذي أبحر لأول مرة إلى خليج ناراغانسيت في عام 1524، في حصة من الرزانة تأتي من مواجهة العناصر الأساسية للطبيعة السجية.

كان الملحق البحري على وشك أن يُذكرني، بأن كوني "إسرائيليًا"، فهذا يشبه الجلوس على سفينة، مع العلم أن قذيفة نسف السفن على وشك الضرب، وليس من أي اتجاه.

"الأميرال"، قال الملحق البحري عن إجراءات شكلية غير معهودة لأي "إسرائيلي"، أمسك بكتفي وتمايلت حوله لرؤيته، فقد كان طويل القامة يرتدي ببدلة زرقاء ناعمة، ووجهه شاحب وصوته مرتعش، كان هناك هواء قاتم يحيط به، وذات مرة كان قبطان سفينة صواريخ تحت إمرتي، شعرت بعدها بعقدة في معدتي.

"نعم، ما هذا؟"

"رئيس الوزراء أصيب بهجوم ارهابي".

"رابين؟" ثم سألت في نفسي .. هل وصل مخرب فلسطيني إلى رابين؟.

"وردت أنباء للتو أنه أصيب برصاصة".

"ماذا تقول بحق الجحيم؟"

"في مسيرة السلام في تل ابيب".

"رابين .. طلقة رصاص؟"

"سيدي، أُعلِن عن وفاته قبل بضع دقائق".

تجمدت، وفكي ارتخى.

في الجيش، تعتاد على جو الحرب الكئيب، بحيث يمكنك الوقوف بلا دموع بجوار قبر صديق، أو تقوم بإشعال سيجارة بعد تخطي جسد عدو.. لكن الموت الصارخ لرئيس الوزراء مزقني في مكاني، ولحتى اليوم ما زلت أشعر بالشكل التي اتسعت بها عيني، شعرت بوخز وارتعاش في جلدي، وانتقلت يدي بشكل لا إرادي إلى صدري.

"إطلاق النار!" تلعثمت، وتعثرت للخلف.

ثم استعدت توازني.. وسألته: "حماس"؟ .. "الجهاد الإسلامي؟" لا بد أنه إسلامي مجنون، مموه في هيئة رجل سلام، قد تسلل بطريقة ما عبر حراسة رابين الأمنية. حيث كان اختراق إرهابي للأمن "الإسرائيلي"، وسيكون بمثابة فشل ذريع لجهاز الأمن العام الشاباك، والتي تعتبر الوكالة المسؤولة عن حماية رئيس الوزراء، وأمور أخرى.

قال وهو يهز رأسه: "سيدي".. "القاتل لم يكن فلسطينياً بل كان يهودياً".

"يهودي؟".

"يهودي إسرائيلي؟".

تمتمت في نفسي: "اللعنة، ما هذا؟".

بصراحة لم يخطر ببالي فكرة أن مواطنًا يمكنه إطلاق الرصاص على رئيس وزرائنا.. بالطبع، كنت أعلم أن اليهود قادرون على الإرهاب: ففي أوائل الثمانينيات، حاول أعضاء الحركة السرية اليهودية اغتيال رؤساء بلديات المدن الفلسطينية، وقتلوا طلابًا فلسطينيين في جامعة الخليل، وكان لديهم خطط لزرع عبوات ناسفة في حافلات عربية، وكان من مخططاتهم الأخرى تفجير مساجد في الحرم القدسي، لكن هؤلاء الإرهابيين في ذهني ينتمون إلى طرف مجنون، وهم يستهدفون العرب وليس اليهود.

ألغيت الاجتماع الذي كنت قد حددته مع الأدميرال بوردا في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، وهرعت بسيارة السفارة إلى مطار جون كنيدي للحاق بالرحلة التالية من نيويورك إلى تل أبيب. وخلال الليلة على متن الطائرة التي قضيتها بلا نوم أخذت متسعًا من الوقت للتفكير فيما لا يمكن تصوره.

الفصل الثالث عشر:

خط الحافلات 18

في زنزانته، قاتل رابين إيجال عامير، ابن "إسرائيل" الوفي ذو العظم الرقيق، ابن الجزار اليمني، والذي خدم كجندي مقاتل في كتائب غولاني، ودرس القانون في كلية الحقوق بجامعة بار إيلان.. طلب من حراس الشرطة كأس من المسكر كنخب لعمله.. كان قتل رابين، الذي وصفت صحيفة نيويوركر الحدث بأنه أحد "أكثر جرائم القتل السياسية فعالية في التاريخ"، سببًا للاحتفال من وجهة نظره.

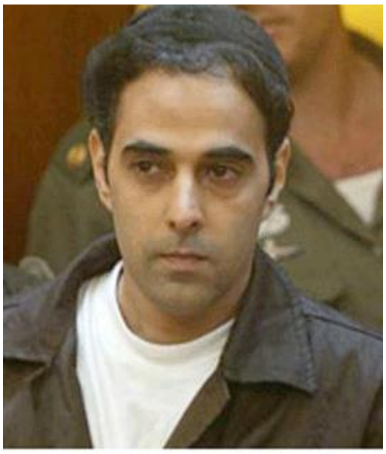

إيجال عامير – قاتل رابين

كان عامير حاضراً في جنازة باروخ غولدشتاين، الطبيب الذي أطلق النار على المسلمين في الخليل، والذي تعهد بإجراء الجراحة الجذرية اللازمة لمنع فقدان السيطرة "الإسرائيلية" على الضفة الغربية.. والذي استند في قراره إلى المبدأ الديني القديم "دين روديف"، "قانون المطارد"، الذي يحكم بالإعدام على أي شخص يُصنف على أنه "مطارد".

في عقل عامير المنحرف وعقل الحاخامات المتطرفين، تقدم دين روديف بطلب إلى رابين لأن اتفاقية أوسلو تضمنت تسليم أجزاء من أرض "إسرائيل" إلى إرهابيين يقتلون اليهود بعد ذلك.

كان الشاباك يحمل كل هذا في الملف، لكنه فشل في إيقاف الرجل الذي وصفه العملاء بأنه: "يمني صغير قال في دورة المياه إنه سيقتل رابين".

لم أكن أعرف بعد أية تفاصيل من هذا القبيل، لكن عناوين الصحف كتبت عن مستوطنين قدموا صلاة الشكر لمقتل رابين، بينما أضاء ملايين "الإسرائيليين" –بمن فيهم المستوطنون– الشموع في ذكرى زعيمهم الشهيد، الأمر الذي أوضح مدى الانقسام في البلاد.

لطالما افترضت أن "إسرائيل"، مثل دولة "إسرائيل" القديمة، أو دولة اسبرطة، كانت مجتمعاً موحداً وراء طبقة من المستوطنين المحاربين، لا يحركها الجشع أو المصلحة الذاتية، ولكنها تتحرك بدافع المُثُل العُليَا لأمتنا.

على الرغم من الانقسامات التي تعمقت –فقط– منذ 1967، وكانت تتعمق عاماً بعد عام، لم يخطر ببالي قط أن يهودياً يمكن أن يقتل رئيس الوزراء.. الآن فقط، ولأول مرة أدركتُ أن بلادنا تتكون من قبائل متنافسة، ولم نكن نحن سكان الكيبوتسات، أو المكابيين الجدد الذين خدموا في وحدات النخبة واستقروا في الأراضي الأكثر عرضة وخطورة، وأيضاً لم نعد الطليعة، لقد تغيرت "إسرائيل" وأصبحت الآن مكانًا مروعًا مقسمًا إلى فصائل متحاربة.

جنازة رابين في القدس، جلبت رؤساء دول العالم إلى "إسرائيل"، بمن فيهم الرئيس كلينتون والرئيس السابق للاتحاد السوفيتي ميخائيل جورباتشوف.

وبصفتي قائد للبحرية، قُدتُ سيارتي إلى منزل "ليا" أرملة رابين، في تل أبيب لتقديم التعازي خلال فترة "شيفا"، وهي فترة الحداد التقليدية لمدة أسبوع.

بينما كنت هناك، ظهر عرفات بزيه العسكري الأخضر.. واحتراماً منه، ترك "سلاح المناضل" في رام الله وأزال كوفيته.. وبرأسه الأصلع بدا الإرهابي السابق صغيرًا وغير خطر، يشبه عامل بريد متقاعد.. وقال بدمعة العينين لـ "ليا" عن زوجها الميت: "كان بطل السلام، وكان صديقي".. على ما يبدو أن تحت أقنعة عرفات المتعددة: الثوري، التنظيم المسلح، صانع الوطن.. كان رجلاً عاطفيًا.

أجابت: "إن زوجي اعتبرك شريكه في السلام".

في غضون ذلك، سيكون تقاعدي من البحرية في أقل من شهرين، ولم يكن لدي أي فكرة عما سأفعله بعد ذلك.. ما لم أرغب في فعله هو أن أصبح تاجر أسلحة أو مستشارًا عسكريًا لبعض قادة المجلس العسكري في إفريقيا أو أمريكا اللاتينية مثل العديد من الضباط المتقاعدين الآخرين؛ ولكنني في الواقع أردت الابتعاد عن الجيش تمامًا.

بحكم طبعي، فلم أكن أبدًا مناسبًا للتسلسل الهرمي وتوافق الحياة العسكرية بشكل مريح، ولست من النوع الذي أعيش فيه أيام مجدي مرة أخرى من خلال ارتداء الزي القديم للمسيرات ولم الشمل.. لقد قضيت في مجال الأعمال الحربية لفترة كافية لأُفضِّلَ عائلتي، أو خنازير البحر والدلافين وغيرها من الكائنات البحرية، أفضِّلَهُم على الرجال المسلحين.. لذا في الأول من كانون الثاني (يناير) 1996، حزمت الزي الرسمي، ووضعت اقتباساتي في صندوق أحذية، واستبدلت الكاكي بطقمٍ من الجينز وقميص تي شيرت.. الآن وأخيرًا يمكنني أن أكون زوجًا وأبًا صالحين، وأنضم إلى بيبا في تمشية الكلاب وتقليم أشجار الزيتون وقراءة كتب عن الغوص تحت الماء في سيشيل.

استمرت هذه الحرية السامية أسبوعًا واحدًا على وجه التحديد.

وفي حوالي الساعة العاشرة مساءً، تلقيت مكالمة هاتفية من آفي جيل، وهو صديق التقيت به لأول مرة عندما درسنا معاً في مدرسة كينيدي، وكان أحد المفاوضين على اتفاقيات أوسلو، في تلك الأيام كان آفي المدير العام لـ مكتب رئيس الوزراء، مما يعني أنه عمل مع شمعون بيريز، فقد كان الرجل المسؤول الذي تولى المنصب من رابين المقتول وشغل منصب رئيس الوزراء المؤقت حتى الانتخابات الجديدة المقرر إجراؤها في نهاية مايو، مثل ترومان بعد وفاة روزفلت، أو ليندون بينز جونسون بعد وفاة كينيدي.

كان بيريس قد أمر الجيش "الإسرائيلي" بالانسحاب من نابلس، تماشياً مع شروط اتفاق أوسلو، بينما كان الفلسطينيون يسيطرون بالفعل على أريحا وأجزاء من غزة، وكان تسليم نابلس محفوفًا بالمخاطر: كان قبر يوسف –وهو موقع يهودي مقدس– يقع في وسط المدينة، ومخيمات اللاجئين المحيطة بنابلس كانت بؤر لحماس ومنصات إطلاق مفجرين انتحاريين.

من نبرة صوت آفي، أعددت نفسي لشيء غير سار.

سألته: "ماذا تفعل؟".

"عامي، بيريز يريد التحدث معك".

"بيريز؟".

"هذا صحيح.. رئيس الوزراء".

"يتحدث معي حول ماذا؟".

"سوف تكتشف ذلك بمجرد وصولك إلى هنا".

"أول شيء في الصباح"

"تعال الآن".

" الآن؟؟؟".

" الآن".

لم أعد يخدمني سائقًا حكوميًا، قفزت في السيارة وأسرعت، وفي الطريق المنحدر إلى القدس، حاولت عدم التكهن بأسباب الاستدعاء، فمهما كان الأمر، شعرت أنه لن يتماشى مع حريتي التي شعرت بها حديثًا.

كان آفي ينتظر مع رئيس الوزراء المكلف، في مقر الإقامة الرسمية لوزير الخارجية، حيث كان بيريز لا يزال يعيش هناك، وأرفف الكتب قد امتلأت بالكتب من مختلف اللغات التي يتحدث بها بيريس متعدد اللغات.

كان بيريس –الذي ينتمي إلى جيل والدي أكثر من جيلي– يتقلد مسار مهني ووظيفي متعدد وفترة طويلة، وقبل أن يصبح قوة دافعة وراء أوسلو، كان داعمًا رئيسيًا لحركة الاستيطان داخل حزب العمل، مهندس ما أطلق عليه اسم "الشرق الأوسط الجديد" أصبح خائفاً الآن، وبصفته محاربًا مخضرمًا في السياسة "الإسرائيلية" حيث يبلغ من العمر خمسين عامًا، كان يعلم أن التفجيرات الانتحارية التي استمرت على قدم وساق من شأنها أن تصب في مصلحة أولئك المعارضين للسلام، وهذا كان سبب الاستدعاء.

بدأ بإخبارنا أن رئيس الشاباك قد استقال من منطلق إحساسه بالمسؤولية عن التراخي الأمني الذي مكّن ييجال عامير من قتل رابين، ثم كرر –تقريباً– كل كلمة وكلمة سألني عنها رابين قبل عام من توليه قيادة الشاباك، حيث كان بيريس مدركًا جيدًا للاعتراض الرئيسي الذي أثرته عندما عرض علىَّ رابين الوظيفة – لماذا أنا؟ – له جواب أعده مسبقاً.. وقال: إن الخدمة بحاجة إلى عقلية مختلفة، شخص يمكنه رؤية الفلسطينيين ليسوا مجرد إرهابيين ولكن أيضًا شركاء في العملية السياسية، فالوظيفة كانت بحاجة إلى شخص غريب مثلي.

مع ترنح الشاباك بسبب فشلها في حماية رئيس الوزراء والمدنيين "الإسرائيليين" من الإرهاب، شعرت هذه المرة أنه من واجبي أن أقبل.

قلت وبأعلى صوت في حياتي: "السيد رئيس الوزراء .. سأحتاج إلى سؤال عائلتي .. هل يمكنك أن تمنحني أربع وعشرين ساعة لاتخاذ القرار؟".

"بالطبع .. خذ يوماً".

كانت العتمة لا تزال عندما عدت إلى كريم مهرال، كانت بيبا بانتظاري، وكان أبناؤنا الثلاثة نائمين، أيقظتهم واحداً تلو الآخر وطلبت منهم مقابلتي في المطبخ، وبينما كنت أحضر إبريق الشاي استمعت إلى خطى أبنائي على الدرج، تألم قلبي.. فقد أردت أكثر من أي وقت مضى أن أصبح رجل عائلة لأول مرة في حياتي، ولكنني عرفت أنني لا أستطيع.

بمجرد أن تناول الجميع مشروبًا ساخنًا في أيديهم، أخبرتهم عن طلب بيريس.

قالت بيبا –بنفس الروح الرزينة التي أظهرتها عندما كنت أخرج لمهام طويلة في البحر–: إنها ستدعم أي قرار أتخذه.. كان ابني الأصغر روي، الذي لم يكن في المدرسة الثانوية بعد،

يغفو برأسه لأنه أراد فقط العودة إلى الفراش، والشيء الوحيد الذي أزعجه بشأن عرض العمل هو أننا قد نضطر إلى إلغاء رحلة تزلج كنا قد خططنا لها.

تحول انتباهي إلى ابننا الأكبر نير، الذي أنهى للتو سنواته الأربع في شالداغ، وهي وحدة كوماندوز سرية للغاية تابعة لسلاح الجو.. قال: "انس الأمر يا أبي"، وفي صوته إشارة مرارة. "يبدو الأمر كما لو كنت قد زحفت للتو إلى خيمتك بعد الانتهاء من مسيرة 40 ميلًا مع كل المعدات على ظهرك، والآن يطلبون منك النهوض والانطلاق في مهمة أخرى.. اطلب من بيريس العثور على مصاصة مختلفة".

ابننا الثاني، جاي، الذي بدأ خدمته العسكرية منذ عدة أشهر، يمتلك حجة مضادة مؤكدة لكلام أخيه.. قال بصوت يبدو وكأنه يأتي من أعماق أحشائه: "هم، لقد قتلوا رابين".. لم يقل من يقصد بكلمة "هم"، لكن كان من الواضح لي أنهم "هم" الإرهابيون اليهود والفلسطينيون المصممون على تدمير مستقبل أفضل لكلا الشعبين. "آبا، لا يمكنك السماح لهم بالإفلات من العقاب.. آبا، ليس لديك خيار" .. وكذلك شعرت بنفس المسار.

على الرغم من أنني تقاعدت بالفعل من البحرية، إلا أنني كنت بحاجة إلى شهر لضبط الأمور المهلهلة والسائبة هناك، وكهدية فِرَاق من رئيس الأركان، تلقيت مسدس براوننج عيار 9 ملم الذي وجهه إرهابي من فتح إلى رأسي أثناء الاستيلاء على سفينته في عرض البحر، والذي لسببٍ ما لم يضغط على الزناد.

كان التحضير للمنصب الجديد عملية محفوفة بالإحساس المضطرب، بأنني لم أعد أفهم بلدي، فكيف يمكن لشخص تربى على الاعتقاد بأننا –وليس الله– قدنا أنفسنا للخروج من الأسر في مصر، وأن نفهم تفسير اليهود المتدينين وهم يفسرون مقتل رابين على أنه تدخل إلهي؟

وفقًا لتقليد يعود إلى الأربعينيات من القرن الماضي داخل الشاباك –يُشار إليه أحيانًا باسم الخدمة–، كان من المفترض أن يكون اسمي الرمزي هو أول حرف من اسمي، في حالتي الحرف العبري ألف، السبب الوحيد الذي جعلني لم أصبح ألفًا، وبالتالي الحفاظ على خصوصيتي وخصوصية عائلتي، هو أن عدة صحف "إسرائيلية" تجاوزت الرقابة ونشرت اسمي في إعلان عن ترشيحي للمنصب، وفي غضون ساعة، وقف سيل من المصورين في الشارع خارج منزلنا في انتظار أن أُظهِر وجهي، فنادت بيبا من غرفة المعيشة أن هناك شخصًا ما على الهاتف.

"من هذا؟"

"كيف يجدر بي أن أعلم؟" ثم تنهدت.. فقد كانت لا تزال غاضبة من إزعاج المصورين في الشارع.

"عامي هنا".

قدَّم الرجل على الطرف الآخر نفسه على أنه نوعام ليفنات، شقيقته ليمور ليفنات، كانت زعيمة سياسية معروفة في الليكود. ليفنات التي عاشت في مستوطنة يتسهار، أعلنت نفسها "مسيانية يمينية راديكالية" ومن أتباع الحاخام جينسبيرج، الذي كان إيغال عامير من أشد المعجبين به، سأل إذا كان بإمكاننا التحدث "قبل أن يغسل الشاباك دماغك عنا".. اعتقدت أنه ليس لدي ما أخسره، وربما شيء أكسبه، من خلال الجلوس مع أحد أعضاء المجتمع الذي سأكلف قريبًا بالوصول إليه.

بعد إنهاء المكالمة مباشرة، تلقيت مكالمة ثانية، شخص من الشاباك طلب مني عدم مغادرة المنزل أو التحدث إلى الغرباء عبر الهاتف.. قلت: "بالتأكيد".. علمت على الفور أنه تم التنصت على حديثي مع ليفنات.

لسنوات، كنت زوجًا وأبًا غائباً ومن الذين بين الحين والآخر يسير مع كلبه عند الفجر، مع إعلان اسمي على الملأ، نظر الناس في محل البقالة عبر الشارع المجاور لي، الآن كنت كرجل واقف بينهم وبين الرعب، ثم أصابتني نظرات مختلفة تمامًا في كشك الخضار في بلدة الفريديس العربية المجاورة، كما أن استطلاعات الرأي بين عرب "إسرائيل" أظهرت أن الشاباك بالنسبة لهم كان مثل جهاز أمن الدولة (شتازي) في ألمانيا الشرقية – أداة لإرهاب الدولة.

كنت واضحًا جدًا، لدرجة أنه بعد أن رفضت بيبا وجود حارس شخصي أمام منزلنا، أصرت الحكومة على بناء سياج أبيض مرتفع حول الفناء لإنشاء مُجمَّع مغلق.

حضر أحد الوكلاء ذات يوم لإعطائنا تعليمات حول كيفية فتح وإغلاق البوابة، لم يكن من المفترض أن نحصل على بريدنا الخاص من صندوق البريد أو أن نتجول في الخارج لشراء الطبعة الصباحية من صحيفة "هآرتس"، وأرشدني فنانو المكياج إلى كيفية استخدام وضع التخفي؛ حتى يومنا هذا، أحتفظ بصندوق الشعر المستعار والنظارات والمكياج واللحية المزيفة والقبعات السخيفة التي استخدمتها أثناء عملي.

قابلت ليفنات في أحد المقاهي على جانب الطريق على طول الطريق السريع تل أبيب – حيفا، كان الرجل طويل القامة، وعيناه سوداء حبرية ولحية كثيفة بلون بني–أحمر، كان يرتدي الزي الأرثوذكسي القياسي من الكيباه المحبوكة بالزراير، والسراويل الداكنة، والقميص الأبيض مع زر لأسفل الشرابات المعقودة مع سلاسل الصلاة، تصل تحت حاشية ثوبه، وكان جالسًا على كرسي متحرك، جاء بنفسه إلى طاولتي في مؤخرة المطعم، ومن الواضح أنه لا يوجد معه مسدس، والذي يحمله العديد من المستوطنين.

عندما تحدث ليفنات اتضح على الفور أنه طلب الدردشة غير الرسمية خشية أن يُطلق الشاباك العنان للانتقام من المستوطنين، لقد حرصت على عدم النظر والتحقيق به، والاستماع باحترام لما أعتبره هراءً خطيرًا.

أخبرني أن هناك اثنين من الشاباك، أحدهما الطيب الذي حارب العرب، والآخر السيئ الذي اضطهده هو ورفاقه المؤمنين الذين يقومون بعمل الله.. بدا وكأنه يعتقد أنني على وشك البدء في إلقاء أغطية سوداء (غمامات) على رؤوس الآلاف من رفاقه اليهود وسحبهم إلى غرف الاستجواب.

أخبرني ليفنات أنه يتوجب عليَّ احتلال الأبراج المحصنة للعرب.. "بصفتك يهوديًا، وظيفتك هي الدفاع عنا".

كانت القراءة عن المستوطنين وعن عقليتهم تعتبر شيئًا واحدًا، وكان الجلوس على الطاولة مقابل شخص يعتقد جازماً أن الله قد منحه سلطة على العرب أمرًا مختلفًا تمامًا، حيث كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها شخصاً يدافع عما لا يمكن وصفه إلا بالفصل العنصري: مجموعتان من القوانين والقواعد والمعايير، واثنين من البنى التحتية.. فإذا تصرف العرب وأذعنوا لسلطتنا، فسنسمح لهم بالحصول على الماء وقليل من الكهرباء.. ويعتبر حقيقة عدم قيامنا بطردهم عبر الحدود الأردنية –حسب رأيه– علامة على كرمنا.

أخبرت ليفنات: "انتظر لحظة".

فعلى الرغم من أنني لم أكن متأكدا من أن الأمر يستحق محاولة التحدث إليه بطريقة منطقية، "فوظيفتي هي منع الناس، اليهود والعرب، من ارتكاب العنف"، كما أنني قدمت بعض التعليقات حول القانون الدولي والأخلاق الأساسية، ولكنه لم يكن سعيدًا على الإطلاق بسبب رفضي الموافقة على فكرة أن الإبهام ينتمي إلى المقياس الكوني ويقلب الميزان لصالح اليهود لأن أرض "إسرائيل" –بحسب وعد الرب والتاريخ– هي ملك لنا.

قبل أيام من لقائي الليلي مع رئيس الوزراء بيريز حول تولي أمور الشاباك، راهن عملاؤنا بتفخيخ هاتف محمول يستخدمه يحيى عياش بثلاث أوقيات من المتفجرات، وكان ما يسمى "بالمهندس" أحد مؤسسي كتائب عز الدين القسام السرية التابعة لحركة حماس، ومسؤولاً عن مقتل حوالي مائة "إسرائيلي" في هجمات إرهابية، حيث كان صوت انفجار رأسه وكأنها أُغنية البجعة المفضلة لدى سلفي.

خلال مراسم أداء اليمين، كل ما كنت أفكر فيه هو خطط حماس الحتمية للانتقام من الهجوم، فقد كنت متوتراً للغاية لدرجة أنه عندما قام الرئيس عيزر وايزمان، مازحاً معي بقوله أنها

كانت المرة الأولى التي يراني فيها مرتديًا بدلة وربطة عنق، بالكاد تمكنت من إطلاق ضحكة مكتومة.

المحامي/ أفيغدور فيلدمان

كان من الحماقة أيضًا قلة فهمي للشاباك.. ونقلاً عن أفيغدور فيلدمان، محامي حقوق الإنسان الذي قدَّم الشاباك إلى المحكمة عام 1999 بتهمة تعذيب السجناء: "في التحقيق، الشاباك هو الملك، ولا يُسمح بدخول أي شخص، لا مصلحة السجون ولا الشرطة "الإسرائيلية" دون إذن من الشاباك المسؤول"، ما كان صحيحًا بالنسبة لمنشأة الاستجواب كان أكثر من ذلك بالنسبة للمنظمة ككل، كل مدير آخر كان يترقى في المناصب، ولحتى الآن، كانت لا تزال شبكة مغلقة، وأسرارها محمية، كنت غريباً، وتم تعيين شخص خارجي ليكون الوكيل.

في اليوم الأول من خدمتي، يوم جمعة، جمعت كل رؤساء الفرق في مقر الشاباك شمال تل أبيب، قابلت فقط اثنين من أعضاء القيادة العليا –وجميعهم رجال– خلال عمليات عسكرية مشتركة مع البحرية.

عند هذه النقطة كنت قد سئمت من تاريخ الخدمة، فعلى الرغم من أنني فهمت أن المحققين والمعالجين لدينا لم يكونوا من كاسري العظام الساديين بشكل افتراضي، ولكن في الواقع كانوا محترفين مدربين تدريباً عالياً، فقد تم تدريبهم أيضًا على العمل فيما أسميه المجاري –عالم الظل للجماعات الإرهابية– حيث يذهب أي شيء.

"في الحرب ضد الإرهاب"، قال أفراهام شالوم –المدير السابق للشاباك، في فلم *حراس البوابة* "انسوا الأخلاق".

إن القراءة عن بعض أفعالنا السيئة الماضية جعلت جسمي يقشعر، حتى لو ارتدينا قفازات الأطفال مقارنة بالمنظمات المماثلة في الولايات المتحدة وفرنسا وإنجلترا.

افتتحت اجتماع الموظفين بإخبار الحاضرين بالحقيقة كما رأيتها.. قلت: "أيها السادة، لا أعرف هذه المنظمة.. ولا أعرف كيف أجند عملاء، وليس لدي أدنى فكرة عن كيفية جمع المعلومات الاستخبارية.. ولكن بالمقابل: أنا مسؤول عن كل ما يحدث هنا، وسيتعين علينا جميعًا العمل معًا لسد الفجوة بين نقص المعرفة والخبرة لدي، ودرجة المسؤولية التي أحملها، إذا كنتم تعتقدون أنني مخطئ بشأن شيء ما، فأنا أريدكم أن تخبروني.

وتابعت: "لكن الاستراتيجيات القديمة فشلت".. فقد ذكّرتهم بأننا لم نعد نقاتل منظمة التحرير الفلسطينية، وأن عدونا الآن هم الإرهابيون الإسلاميون.

وبشكل أكثر تحديدًا، لمنع حماس من قتل المدنيين "الإسرائيليين"، احتجنا للتسلل إلى جناحها العسكري، كتائب القسام.

كنت مقتنعا بأن فشلنا حتى ذلك الحين في اختراق حماس وجناحها العسكري، كان نتيجة عدم وجود أجهزة الاستشعار الصحيحة، "لذلك سنقوم بفحص كل شيء: طرق جمع المعلومات الاستخبارية، وأساليب التجنيد، وأساليب الوقاية.. سنبحث عن كل الأعراف والتقاليد والحقائق البديهية.. الذي سينجح سنحتفظ به، وما لا ينجح الى نتخلص منه.. الشيء الوحيد الذي لا أرغب في سماعه هي عبارة: "هذه هي الطريقة التي كنا نفعل بها الأشياء دائمًا".. سنقلب كل حجر في هذه المنظمة.. فقد نكتشف في نهاية العملية أن تكون معظم الحجارة حيث يجب أن تكون، لكن المنزل سيبدو مختلفًا".

اختتمت ملاحظاتي بتذكير الرجال الجالسين منتصبين في مقاعدهم متيقظين، بأن حياة "الإسرائيليين" ومصير عملية السلام، يعتمدان على قيامنا بعملنا.

بعد ثلاثة أيام، وبعد السادسة صباحًا بقليل، انتظرت خلف السياج الأبيض المحيط بمنزلنا –حيث كان ممنوعًا عليَّ الانتظار في الشارع–، حتى يصل السائق ويأخذني إلى تل أبيب.

استمعت بأذن واحدة إلى محطة إذاعة الجيش، بينما تحولت أفكاري إلى العمل الذي سأقوم به، ولكن حقيقة أن يهوديًا أطلق النار على رابين كانت إشارة لي بأنه يجب عليّ أن أعير اهتمامًا أكبر للإرهاب اليهودي أكثر من مدراء الشاباك السابقين، وهو مشهد غير سار، نظرًا لأن حماس شكلت تهديدًا أكبر من أي وقت مضى.. فطوال سنواتي التي قضيتها في الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13) في مطاردة مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية، لم أكن أتخيل يومًا ما أنني سأقوم بالتنصت على هواتف المستوطنين، لأنني –ولسنوات– قد رأيت في المستوطنين استمرارًا لصهيونية والديّ، والآن أقوم بزرع المخبرين بين مجموعاتهم.

في حوالي الساعة 6:45 أثناء طريقي إلى تل أبيب، كنت على وشك إجراء مكالمة هاتفية عندما جاء خبر عاجل عبر الراديو بوجود هجوم انتحاري. قلت للسائق: "انتظر ثانية"، توقف السائق إلى جانب الطريق.. كان الاستهداف هو لحافلة "ايغد 18" على طريق يافا في القدس.. فمنذ نهاية القرن التاسع عشر، كان طريق يافا من أكثر شوارع القدس ازدحامًا، حيث

توجد المحلات التجارية وأكشاك الفلافل والمقاهي ومحطة الحافلات وسوق محانيه يهودا للخضار.

"القدس"، قلت للسائق، الذي انقلب على صفارات الإنذار والأضواء الوامضة، وأسرع على الطريق الجبلي السريع شديد الانحدار.. حتى مع دوي صفارات الإنذار، أحرزنا تقدمًا بطيئًا خلال حركة المرور الكثيفة.. فقد كانت نصف المسارات البنية الصدئة من حرب الاستقلال عام 1948 على طول جانب الطريق وأبعد من ذلك، وفوق التلال الحرجية كانت تل جيزر، الموقع المفترض لمعركة يشوع الحاسمة ضد الملك الكنعاني حورام من جازر.

بمجرد وصولنا إلى المدينة، سرنا في طريق يافا مرورا بخطوط السيارات التي أغلقتها الشرطة وحشود من "الإسرائيليين"، نزلت من السيارة إلى مسرح المذبحة، حيث يتصاعد دخان من سقف الحافلة التي احترقت بسبب الانفجار، وقد تم بالفعل إخراج القتلى والجرحى من مكان الحادث الذي لا يزال مبللاً بالدماء.. فيما بعد قال أحد الرجال المارة في الشارع حيث كان في حالة ذهول، قال لأحد الصحفيين: "كان الأمر أشبه بالدخول لأبواب الجحيم".

تم تكليف فريقي الآن بمهمة تحديد هوية القتلة لأربعة وعشرين شخصًا، ثم مات اثنان آخران متأثرين بجراحهما في غضون أيام.

بعد فحص الرأس المحترق وبطاقة الهوية التي تم جمعها في مكان الحادث، حدد خبراء الطب الشرعي بالشرطة الذين يعملون معنا أن منفذ التفجير هو إبراهيم فراحنة، البالغ من العمر تسعة عشر عامًا من مخيم الفوار للاجئين بالقرب من الخليل، وهو طفل أرسلته حماس، حيث أعلنت في ميثاقها خلال تلك الفترة: "إسرائيل موجودة وستبقى قائمة حتى يمحوها الإسلام".

وأشار الناجون من الانفجار إلى أن فراحنة، كان مرتديًا الجينز والقميص وقبعة بيسبول –وهو زي تم شراؤه في السوق في شارع صلاح الدين في القدس الشرقية لجعله يبدو كطالب–، حيث جلس بهدوء في مؤخرة الحافلة، وكان يحمل حقيبة سوداء من القماش الخشن على حجره، وبمجرد اقتراب حافلة الخط 18 من المحطة المركزية، وقف على قدميه وصرخ "الله أكبر – الله أكبر"، وضغط على الزر المرفق بحزام حقيبته لتفجير عشرين رطلاً من المتفجرات.

لقد كانت مهمتنا اختراق شبكة حماس الإرهابية واجتثاث جذورها، وهو تحدٍ مروعٍ لأن حماس مثل الجماعات المتمردة من "الفيت كونغ" الفيتنامية، إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية، فقد كانت منظمة في خلايا.. ونظرًا لأن معظم أفراد الخلية لا يعرفون هوية الأشخاص الذين يتحكمون بالخيوط، لم تكن هناك طريقة لتعقب أي شخص فردي، ميتًا أو حيًا، وذلك لكيلا نتمكن من الوصول إلى العقل المدبر.

ما أضاف إلى التحدي هو أنه حتى بداية أوسلو، كان معظم الإرهابيين ينتمون إلى فتح أو الجهاد الإسلامي أو الجبهة الشعبية. ولكن حماس –وهي جمعية خيرية هامشية– لم تكن على رادارنا، ولم يكن لدينا أي عملاء تقريبًا داخل تلك المنظمة.

لقد افتقرنا إلى المستشعرات اللازمة لاكتشاف أنشطتهم تحت الأرض، في الأقبية والكراجات والمساجد، ويجب علينا تطوير مهمتنا والعمل عليهم، وهي عملية أعرف أنها ستستغرق شهورًا إن لم يكن سنوات.

بعد يومين تلقينا معلومات تشير إلى أنه تم تجنيد مجموعة طلابية من حماس في كلية المعلمين في رام الله، تم تجنيدهم في مسجدٍ من مخيم الفوار للاجئين جنوب الخليل، وأخبرتنا معلوماتنا أيضًا أنها نفس الخلية التي كانت وراء تفجير سوق محانيه يهودا، حيث كانت تخطط لمزيد من الهجمات قريبًا.

كانت الخطة العملية التي انتهى بها الأمر على مكتبي هي أسر الطلاب يوم الجمعة، عندما عودتهم إلى منازلهم في قرية الفوار بالقرب من القدس.

لكن الطلبة الإرهابيين لم يعودوا إلى ديارهم يوم الجمعة.

يوم الأحد، بعد أسبوع من الهجوم الأول، كنتُ أيضاً جالساً في المقعد الخلفي للسيارة الحكومية، في طريقي إلى مقر الشاباك، عندما سمعت تقريرًا إذاعيًا عن هجوم جديد على حافلة أخرى على الخط 18 في القدس.. ولكن هذه المرة الانتحاري الشاب بقتل تسعة عشر مدنياً بالقرب من بناية جينيرالي على طريق يافا.

في الطريق إلى القدس، وخلال الاتصالات الهاتفية، شعرت في داخلي أن أحد الطلاب من كلية المعلمين هو من نفَّذ التفجير.. فقد كانت لدينا كل المعلومات الاستخباراتية التي احتجناها لاعتقالهم من غرفة الصف في رام الله، لكننا لم نتصرف بالسرعة الكافية.. وهذا أعتبره أول فشل كبير لي كمدير في خدمتي، فشعرت بالدوار من الإحباط، وعلى الرغم من أنني كنت قد خسرت أصدقاء في القتال، وخسرت مقاتلين يعملون تحت إمرتي، ولكنني لم أشعر بهذا الشعور العميق بالفشل من قبل.

بالعودة إلى مقر الشاباك، سألت فريقي عن سبب فشلنا في جمع الطلاب قبل أن يتمكنوا من إحداث التفجير.. الجواب الذي قدموه لي هو أنه لم يكن هناك وقت كافٍ للتخطيط لعملية، والقبض عليهم داخل الكلية قبل يوم الجمعة.. وقالوا إن تنفيذ العملية يتطلب عادة عدة أيام من التخطيط، من الاتفاق بين الفريق واستشارة خبراء مختلفين، وما شابه ذلك.

"قف!" وقمت بصفع يدي على طاولة قريبة، وقلت وأنا استشيط غضباً.... "لا أعرف كيف يتم تجنيد العملاء وجمع المعلومات الاستخبارية، لكنني أعرف العمليات.. هذا ما فعلته لمدة ثلاثين سنة! .. لإخباري أن 24 ساعة ليس وقتًا كافيًا للتخطيط لهذا النوع من العمليات هراء!!".

في الكوماندوز، كنا قد تلقينا معلومات عن خلية إرهابية يوم الثلاثاء، وبحلول يوم الأربعاء أطلقنا رصاصة في رأس شخص ما في معسكر إرهابي في شمال لبنان، فلماذا لم يتمكن الشاباك –وهي منظمة لديها موارد مضاعفة بمائة مرة– من اعتقال طفلين في نفس الوقت؟

جاءت الاتهامات المضادة لي بمثابة صدمة لأناس اعتادوا على رؤية أنفسهم على أنهم هم النبلاء وذو النسب الأصيل للأمن "الإسرائيلي"، لكن الكثير كانوا في كفة أخرى بالنسبة لي حتى أهتم بمشاعرهم.

بدا الأمر كما لو أن أعين البلد بأكملها كانت عليَّ.

في اليوم التالي، وهو عيد المساخر، تم استدعائي للمثول أمام لجنة الشؤون الخارجية والدفاع في الكنيست لتقديم تقرير.

كيف لي أن أضمن إنهاء مثل هذه الفظائع؟ لماذا لم أعتقل أو أقتل الإرهابيين بالفعل؟

في اجتماع لمجلس الوزراء لوزراء الحكومة سُئلت مرة أخرى متى ستنتهي الهجمات.. كان ردي الصريح بناءً على تقارير استخباراتية كنت أقرأها في عمق الليل وعلى حدسي، أنني لا أستطيع أن أضمن عدم وجود العشرات من المفجرين الانتحاريين في طريقهم للانفجار في شوارع "إسرائيل".

كان حدسي على حق.. فأثناء عودتي من القدس، تلقيت أنباء عن هجوم جديد على ممر مشاة خارج مركز ديزنغوف في تل أبيب.. حيث كان هناك عملية لانتحاري أرسلته جماعة فتحي الشقاقي الإرهابية، وكان يرتدي حزاما ناسفا زنة عشرين كيلوغراما مليئا بالمسامير، قتل فيها 13 مدنياً وجرح 125، بعضهم إصابات خطيرة، وكان العديد من القتلى فتيات يرتدين أزياء عيد المساخر، علمت لاحقًا أن "بات تشن شاحاك"، ابنة صديقي "زفيكا"، الجندي المزيَّن الذي أنهى دورة الضباط معي، والذي قاتل تحت إمرتي خلال حرب يوم الغفران، كانت من بين القتلى، فقد كان عيد ميلادها الخامس عشر، وكما هو الحال مع هجمات القدس، هرعتُ إلى مركز ديزنغوف لمقابلة الناجين شخصيًا.

في شهر يوليو من ذلك العام، على طريق بيت شيمش – بيت جبرين، بالقرب من خط وقف إطلاق النار القديم بين الأردن "وإسرائيل"، بدأ الإرهابيون بإطلاق النار على السيارات

المارة، مما أسفر عن مقتل 13 "إسرائيليًا" في سلسلة من هجمات القناصة، وتتبع عملاؤنا الهجمات إلى أن وصلوا إلى خلية تابعة للجهاد الإسلامي من قرية بيت صوريف، فقد كان شعبنا محقًا بشأن القرية، لقد كنا نراقب الإرهابيين الخطأ، حماس -وليس الجهاد الإسلامي- هي من نفذت عمليات القتل، كنا وما زلنا غير أذكياء بما فيه الكفاية.

عندما سألتُ رؤساء الأقسام عن هذا الفشل الاستخباراتي، وكيف يمكننا تصحيحه في المستقبل، أحالني أحد الزملاء إلى "الملفات"، قائلا: "كل شيء كان في "الملفات".

تنهدت وقلت: "أين هذه الملفات؟" .. "أحضرهم لأراهم".

ساد صمت محرج في الغرفة كما هو الحال في قصة كافكا، نزلنا الممرات، ونزلنا عدة درجات من السلالم، ودخلنا أخيرًا غرفة كهفية ممتلئة حتى السقف بخزائن كبيرة مليئة بالمجلدات.

لم أصدق عيني، في كل مرة يلتقي فيها الوكيل بمخبِر، يتم طباعة المعلومات على النحو المطلوب وحفظها، حتى لو احتوت تلك المجلدات على تلال من المعلومات الاستخباراتية فيحتمل أن تكون مفيدة عن إرهابيين سريعين وقادرين على التكيف ومنضبطين، فربما نجدها في الوقت المناسب لمنع تفجير الحافلة في الغد.

بدا أن الشاباك لا زال عالق في العصور الوسطى، على حد تعبير يوفال ديسكين، الرجل الذي عينته لمكافحة التجسس في الضفة الغربية، فقد كان الشاباك يمتلك الكثير من "العضلات" ولكن بـ "عقل متخلف".

جزء من المشكلة هو: أن معظم الملفات كانت مليئة بمواد عن مؤيدي عرفات العلمانيين لمنظمة التحرير الفلسطينية، وليس عن مئات المراهقين المنتظرين في طابور لربط حزام ناسف من أجل الإسلام، حتى لو احتوت تلالنا من الملفات المليئة بالتراب على معلومات استخباراتية قد تكون مفيدة عن المسلحين، فلن نجدها في الوقت المناسب لمنع تفجير الحافلة التالية.

قررت، أن هذا هو الوقت المناسب لوضع قدراتنا العملياتية على أساس جديد وبشكل جذري، وهي مهمة مُلحة بشكل خاص، لأن الهجمات الجديدة استمرت في الظهور.

إذا نظرنا إلى الوراء، يمكنني القول إن هذا القرار أدى إلى تحول جذري في نهج الشاباك للمعلومات، حيث أصبحت المعلومات -التي غالبًا ما تُفقد في غرف الملفات- جزءًا حيويًا من عملية صنع القرار التشغيلي، انتقلنا من كوننا منظمة "عضلية" إلى منظمة "تفكير"، بل ومنظمة ذكية.

الفصل الرابع عشر:

الدخول إلى "المجاري" والبحث عن شريك

كنت جالسًا في مكتبي في وقت متأخر من الليل، كنت في كثير من الأحيان ألتقط شظية من مخلفات التفجير الانتحاري، لتذكير نفسي لماذا أقضي الكثير من الوقت بعيدًا عن بيبا وأولادنا.

في قضية الهجوم الأول على الخط 18 في شارع يافا، بدت المتفجرات كذخيرة مدفونة في صحراء سيناء، وهي قذيفة غير منفجرة من أيام حرب يوم الغفران، حيث قام شخص ما، يعرف ما يجب فعله، قام بتفكيكها واستخراج مفجراتها وأعطاها للمهربين لنقلها إلى مخيم للاجئين في الضفة الغربية.

وهناك، في غرفة خلفية، طالب من كلية الهندسة كان يجب أن يبتكر تقنيات لتحسين الكرات المتفجرة السليمة، ويُعِيد وضعها في سترة ناسفة.. فمن هم العقل المدبر وراء هذه الخلايا؟ وماذا كانوا يسعون إلى جانب الانتقام لمقتل المهندس؟ بالتأكيد أدركوا أن انفجار الحافلات لن يخرجنا من أرض "إسرائيل".

في الكوماندوز ثم في البحرية لاحقًا، لم أكن أعرف شيئًا عن الأشخاص الذين قتلتهم، ولم أضطر إلى ذلك، فقد كانوا مجرد أهداف. أما في الشاباك، لم تعد لدي هذه الرفاهية.

لهزيمة العدو، كان عليَّ أن أعرف كل شيء عنه، بما في ذلك مصدر الألم وراء كراهيته، ولفهم عقلية الإرهابيين، كان عليّ دراسة وضعهم وقصص عائلاتهم، ومن هم جيرانهم، والأشخاص الذين يصلون معهم في المسجد، وهل كان أخاه أو عمه، أو أخته أو أمه، في أحد سجوننا؟ هل قُتل صديق له من قِبَلِنا؟ بالطبع نحن لا يعنينا أيٌّ من هذا، ولكنني اضطررت إلى التعرف على معتقداتهم، وأن أتعلم وأفهم لتصميم استراتيجية فعالة لمكافحة الإرهاب.

العديد من هؤلاء المفجرون الانتحاريون –كما اكتشفت–، قد جاءوا من عائلات أصبحت لاجئة في عام 1948، فعائلة إبراهيم فراحنة، الذي فجر نفسه في خط الحافلات رقم 18، أتت في الأصل من عجور، وهي قرية هدمناها؛ لإفساح المجال للمهاجرين اليهود من العراق بعد حرب الاستقلال للإقامة فيها.

في الأسبوعين الأولين من عملي كرئيس للشاباك، لقي 59 مدنياً "إسرائيلياً" مصرعهم، وأصيب أكثر من مائتين في هجمات انتحارية وإطلاق نار، معظمها على يد حماس، ودخلت البلد في حصار.

استدعاني رئيس الوزراء بيريز إلى مكتبه في شارع بلفور، وعلى الجانب الآخر من مكتبه في القدس القبور المقدسة والحجارة المقدسة في البلدة القديمة، فقد كنت أعلم أن بيريز يريد معرفة ما سأقوم بفعله حيال ذلك.

عندما دخلت مكتبه في مكتب رئيس الوزراء، توترت أعصابي، ربما بسبب الإفراط في تناول الكافيين، نهض بيريس ليحييني، وذكرني بوالدي وعمي يونان، اللذين كان يعرفهما جيدًا منذ أن كان عضوًا في كيبوتس "ألوموت" المطل على بحيرة طبريا.

كان بيريس رجل دولة ومتحدثًا سلسًا، وأوروبيًا حتى العظم، في ذلك اليوم كان أيضًا مدركًا تمامًا للهاوية التي يتدلى عليها، فقد كانت أوسلو مبادرته، رابين –الذي أيد أوسلو– قُتل، والآن يُذبح "الإسرائيليون" على أيدي العشرات، واستطلاعات الرأي أظهرت أن حزب الليكود وبيبي نتنياهو والأحزاب القومية الدينية من اليمين تكتسب شعبية، وإذا لم يتمكن بيريز من وقف الهجمات، فإن الناخبين الخائفين سيعطون منصبه "لليمين" الذي وعد بأنه قادر على ذلك.

بعد بضع مجاملات حول مدى سعادته لضمي إلى فريقه، شرع رئيس الوزراء في العمل.. مَنْ مِنْ جَانبنا كان مسؤولاً عن الفشل في منع الهجمات؟

"أنا، سيدي رئيس الوزراء".

بهذا، أنا قصدت أنه بصفتي مدير المنظمة المسؤولة عن منع الهجمات الإرهابية، فأنا شخصياً ألام على فشلنا في القيام بذلك.

تساءل: "كيف يمكننا وقف هذه الهجمات؟".

"كيف؟ .. علينا أن نبدأ بوضع الشاباك على أُسس جديدة".

لقد دخلنا حقبة جديدة –من حيث السياسة والتكنولوجيا والأمن–، لكن الشاباك كان عالقًا في الماضي، فاتفاقيات أوسلو جعلت فتح –العدو القديم– شريكاً، وكان أعداؤنا الجدد هم الجماعات الإسلامية، وفي مقدمتها حماس، التي كانت حتى ذلك الحين حركة اجتماعية دينية بدون تطلعات سياسية وطنية، والتي –رداً على احتلالنا– صاغت قومية دينية أصولية، وكانت الآن تقود موجة الهجمات الإرهابية.. وكذلك الجهاد الإسلامي الفلسطيني، التي –على الرغم من تعرضها لضربة قاصمة بوفاة زعيمها الشقاقي في مالطا– ظلت تشكل تهديدًا.

لهزيمة هؤلاء الأعداء، كان علينا النهوض بالشاباك وإعادة بنائه من الألف إلى الياء، وبما أنه لم يكن هناك وقت لتوظيف وتدريب فريق عمل جديد بالكامل، كان علينا القيام بذلك مع نفس الطاقم القديم، فقد كان الأمر أشبه بهدم مبنى واستخدام الحجارة القديمة لبناء مبنى آخر، ولكن ولحسن الحظ كان لدينا محترفين ملتزمين بعمق، ومدربين تدريباً جيداً، ومستعدون للمخاطر.

وعدنا بيريز بشيك على بياض من الحكومة، كانت الرسالة منه أن المال ليس شيئاً.. افعل ما يلزم.

شَكَرْتُهُ على دعمه قبل أن أوضح أن المال لن يكون كافياً.. "في نهاية المطاف، يعتمد إنهاء الإرهاب على السياسة".. حيث نقلتُ عن رئيس الأركان دان شومرون، الذي أخبر سياسيينا في بداية الانتفاضة الأولى أن الإرهاب الفلسطيني ليس ظاهرة عسكرية، وبالتالي لا يستطيع الجيش هزيمتها، وكل ما يمكن أن يفعله الجيش هو مقاومة النيران لإيجاد فسحة تنفس للسياسيين لبدء عملية سياسية.

أضفت بتوجس: "لملاحقة الإرهابيين، سنحتاج أيضًا إلى عرفات".. فإن مثل هذه الفكرة قد تنتهك عقودًا من العقيدة العسكرية "الإسرائيلية" المقدسة القائمة على عدم الاعتماد على أحد، ويجب الاعتماد على أنفسنا فقط.

كان هذا بالطبع منطق أوسلو، وصريحاً مثل مصافحة رابين لعرفات، لكن عرفات لم يفعل ما يكفي تقريبا، لأنه كان يفتقر إلى الحافز جزئياً، كما إن سياسة رابين في ملاحقة الإرهابيين كانت وكأنه لا توجد عملية سلام، ويسير بعملية السلام كما لو لم يكن هناك إرهاب، بمعنى أن عرفات لم يدفع ثمنًا سياسيًا للهجمات الإرهابية المستمرة، ونصيحتنا لرئيس الوزراء في الشاباك هي التخلي عن هذا النهج والضغط على عرفات مرة أخرى وحشره في الزاوية.

عرفات ورابين يتصافحان بعد التوقيع على اتفاق أوسلو

في غضون أسابيع قليلة، وحسب اتفاقية أوسلو، كان من المفترض أن نُسلِّم السيطرة على حي أبو سنينة العربي في الخليل إلى السلطة الفلسطينية، وبذلك سيصبح عرفات مسؤولاً عن أمن هذه المنطقة المحررة.

نصحت رئيس الوزراء أن يقول لعرفات إنه لن يحصل على ذلك الجزء من الخليل، أو أي شيء آخر، ما لم يعمل معنا.. ولتوضيح وجهة نظري ذكَّرتُه بقصة "ألتالينا"، وهي سفينة مملوكة لمجموعة إرغون اليهودية شبه العسكرية خلال حرب الاستقلال. في حزيران/يونيو 1948، حيث أمر بن غوريون الجيش "الإسرائيلي" بإغراق السفينة، من أجل تطبيق سياسته في أن يكون هناك سفينة واحدة فقط للجيش اليهودي.

قلت: "عرفات يجب أن يفعل مثل ألتالينا".

كان على عرفات، والذي تقاسم جائزة نوبل للسلام مع رابين، أن يعمل على قمع الإرهاب، حتى لو كان ذلك يعني مطاردة التنظيمات الفلسطينية.

حينها أومأ بيريس برأسه.

فعلى الرغم من أنني كنت جديدًا في عملي، إلا أن رحلة الجيب المشؤومة إلى مخيم غزة للاجئين قبل سنوات علمتني أنه لا يمكننا هزيمة أولئك الذين يعارضوننا بالدبابات أو غرف الاستجواب، وعلى الرغم من قوتنا العسكرية، فإننا لن نسحق حماس بمفردنا.

في النهاية، كان بإمكان عرفات فقط هزيمة حماس، لأن معظم الفلسطينيين ما زالوا يدعمون رؤيته للاستقلال الوطني، لذا إذا عملت السلطة الفلسطينية معنا في محاربة حماس، فلا يمكننا التوقف عند أبو سنينة، سيتعين علينا متابعة شروط أوسلو والانسحاب من أكثر من 90٪ من الأراضي المحتلة.

مع عدم وجود نهاية للتفجيرات تَلُوح في الأفق، أخذ رئيس الوزراء بنصيحة الشاباك في أول لقاء له مع عرفات وأعطاه إنذارًا: "لا يمكننا الاستمرار على هذا النحو.. إذا كنت تريد عملية سياسية عليك أن توفر الأمن".. تأجل الانسحاب من أبو سنينة حتى يُثبت عرفات جديته في محاربة الإرهاب.

في هذا الوقت تقريبًا، وفي وقتٍ متأخرٍ من الليل، تلقيت مكالمة هاتفية من يوسي جينوسار، أحد كبار الضباط السابقين في الشاباك، والذي أصبح رجل أعمال، وعلى علاقة جيدة مع عرفات، لدرجة أنه شغل منصب مبعوثه السري لبيريس.

من الواضح أن رسالة رئيس الوزراء إلى عرفات قد وصلت، لأن يوسي أخبرني أن الرئيس يريد أن ينقل إلي بعض المعلومات الاستخباراتية شديدة الحساسية، وأنه لا يمكنه الانتظار حتى الصباح، اضطررت للقدوم إلى غزة على الفور لأن عرفات –الخارج عن القانون الهارب معظم حياته– فضل العمل في الظلام.

عند وصولي إلى حاجز إيريز، المدخل "الإسرائيلي" لغزة، الساعة 3:00 فجراً، نقلني الحرس الرئاسي لعرفات –وهم مسلحون سابقون كنت قد طاردتهم من طرابلس إلى تونس– إلى القصر الرئاسي.. في الطابق العلوي، كان عرفات يجلس خلف ما يشبه طاولة البوكر.. بحيث يجب أن يكون المصباح المعلق من سلك يعمل بقدرة 10 وات، لأن المكتب كان محاطاً بالظلال.. كان بالمكتب جاكيت احتياطي معلق مع خطاف، وبعض الكتب مكدسة على الرف، وكومة من الأوراق عليها مسدساً، وكان على الحائط شعار منظمة التحرير الفلسطينية باللونين الأحمر والأسود مع عبور سيفين فوق المسجد الأقصى في القدس، وهو النصب التذكاري الذي كان عرفات يَعِد شعبه ونفسه بأن ينتزعه منا، إما بالبندقية أو بغصن الزيتون.

الرئيس، وهو يحرك العسل في فنجان من الشاي، رفع لي عينيه المنتفختين البنيتين، ثم وقف وصافحني وهو يعرج بشكل مفاجئ، حيث كنت أتوقع أنه أكثر قوة من كاسترو الفلسطيني.

قال بلغته الإنجليزية ذات اللهجة الكثيفة: "اجلس، اجلس، اجلس".

بفرقعة من أصابعه، استدعى عرفات أطباق الطعام، ثم قدمها أمامي في طبق بلدي، فهذا النوع من المودة والحميمية التي أظهرها، جعلني أشعر بالارتباك وأنا في مقعدي، قمت بتقوية نفسي ضد السحر المنوم الذي يشتهر به.

محمد دحلان

كان يقف في نهاية الغرفة محمد دحلان، الرجل القوي لعرفات في غزة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أضع فيها عيني عليه.

أكلنا وشربنا لمدة ساعة قبل أن يتحدث عرفات، ثم بتأثير مسرحي مُبالغٌ فيه، وبشكل غامض تحدث عن بعض هجمات حماس دون تقديم أي تفاصيل.

كان الأداء خُدعة، لقد كان –في الواقع– يُحجِّمُني، لقد غادرت غزة في تلك الليلة دون وجود معلومات استخبارية بالغة السرية كان من المفترض أنني استُدعيتُ للحصول عليها، لكنني فهمت رسالته، التي افترضت أنها موجهة لبيريز: أنه يتصرف بحزم ضد منظمتي حماس والجهاد الإسلامي السريتين.

جبريل الرجوب

بعد هذا اللقاء الغامض مع عرفات، اضطررت إلى إقامة تعاون فعال مع قوات الأمن الفلسطينية، بقيادة محمد

دحلان في غزة، والعقيد جبريل الرجوب في الضفة الغربية، والتي كانت في ذلك الوقت قيد الإنشاء، وبسبب الدم النازف من معظم أفراد شعبنا، كان علي أن أتأكد من أن علاقتي بدحلان وجبريل تعمل على المستوى الشخصي وليس المؤسسي فقط.

في أول لقاء مباشر مع جبريل، الملقب بأبو رامي، توجهت إلى "المقاطعة"، وهو صرح إسمنتي قبيح في رام الله يبدو وكأنه مرآب قديم للسيارات، شيده البريطانيون كسجن في الثلاثينيات، كان من الغريب أن أدخل إلى مكتب جبريل عبر قاعات عقيمة ومضاءة بالفلوريسنت، فقد أصبح وجهي أسود اللون، فلو كنت قد التقيت به في السنوات السابقة لكانت هذه هي المرة الأولى والوحيدة، وسحبت بندقيتي AK-47 لإعدامه.

جبريل، الذي بدا قويًا مثل اللاعب الدفاعي –الذي يتم وضعه عادة خلف خط المشاجرة، ولكن أمام مناطق الأمان–، رأيته قد تخلى منذ فترة طويلة عن زيه العسكري، ومن أجل لقائنا كان يرتدي ملابسه، مع ربطة عنق معقودة فوق تفاحة آدم.

وخلافا لعرفات، فلم يبذل جبريل جهداً في سحري. قال "تفضل"، وهو يشير إلى أطباق المعجنات والفستق على الطاولة.. "خذ جزأ أو خذ بعضاً منه".

بدأت بعد كسر الفستق، وقلت له: "عقيد .. نحن لسنا هنا لتحقيق السلام.. هذه مهمة قادتنا.. ولكن إذا لم نقم بعملنا، فلن يكون هناك سلام أبدًا.. سنواصل القتال.. أنا أقول لكم، لن أتوقف عند أي شيء من شأنه أن يحبط الإرهاب".

ظل وجه جبريل خاليًا من التعبيرات طوال حديثي، قرأت من همهماته المقتضبة أنه يثق بي بقدر ما لم أفعله على الإطلاق، فبالتأكيد لم يكن من السهل عليه الجلوس حول طاولة القهوة مع رجل قضى حياته المهنية في الإبحار حول البحر الأبيض المتوسط، وفي بعض الحالات قام بقتل أصدقائهم ورفاقهم.

وأخيراً قال مختصراً آرائه: "السيد أيالون، لم أُسجن في السجن لمدة سبعة عشر عاماً لكي تبني حماس دولة أصولية".

كانت رسالته واضحة: كان يعمل معي لأنه وطني، وهو ما أعجبني به، كان الانطباع الذي أعطاني إياه أنه سيفعل ما يتطلبه الأمر لتضييق الخناق على الإرهاب، بما في ذلك الذهاب إلى ما هو أبعد من أساليب استجواب الشاباك المروعة نسبيًا.

قامت قوات دحلان وجبريل، وبناء على أوامر عرفات، بملء السجون الفلسطينية بالمتشددين الإسلاميين، ولكن بيريس كان يُوجِد سبباً تلو الآخر لعدم الانسحاب من أبو سنينة.

إذا كان تركيزنا بالليزر في محاربة حماس يهدف إلى إنقاذ حياة "الإسرائيليين"، بالنسبة لعرفات وجبريل ودحلان ورجالهم، فإن الانقلاب على حماس جاء من حرب ضروس بين أولئك الذين يستخدمون التفاوض كوسيلة لكسب الأراضي التي احتللناها عام 1967، واستخدام الأصوليون الإسلاميون القنابل لتحقيق حلمهم في إخراج الصليبيين المعاصرين من كل فلسطين قبل عام 1948، من نهر الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط.

د. إبراهيم المقادمة

"دحلان"، على سبيل المثال، قام بدق المسامير على طبيب أسنان من غزة يدعى إبراهيم المقادمة، بعد أن اكتشف أنه عضو في الجناح العسكري لحركة حماس، وقد تم اتهامه أنه يعمل على التسلل إلى السلطة الفلسطينية وتقويضها من الداخل. الجدير بالذكر أن الدكتور المقادمة نزح والداه من قرية يبنا عام 1948، وقضى في أحد سجوننا خلال الانتفاضة مدة ثماني سنوات.

التعاون بين الشاباك والسلطة الفلسطينية لا يعني أننا جعلنا حُرَّاسنا يتركوننا. عَرِفَ جبريل أننا ما زلنا نراقبه هو ورجاله، كما علمنا أنهم يحاولون مراقبتنا، وسعى كل جانب إلى تحديد مكان العملاء السريين للطرف الآخر.

زرع جبريل أكثر من مرة معلومات كاذبة أثناء المحادثات الهاتفية، مع العلم أننا كنا نستمع على خط التنصت. لقد كنا نتوقع هذا، ولم نتفاجأ.. حتى أن الحلفاء القدامى، مثل المخابرات البريطانية والأمريكية، يفعلون الشيء نفسه مع بعضهم البعض.

بعد قولي هذا، نمت ثقتي بجبريل بعد أن وضعته في اختبار، حيث بعد وقت قصير من لقائنا لأول مرة، ضغطت عليه لاعتقال شقيقه الأصغر الشيخ نايف، إمام ورئيس نقابة مربيي النحل في الخليل الذي ينتمي أيضًا إلى حماس، فقد أظهرت الصور التي لدينا في الملف أنه يتمتع بجبهة عالية وعينين صغيرتين داكنتين كثيفتين مثل جبريل، بالإضافة إلى اللحية السوداء السميكة التي يتباهى بها الإسلاميون.

اعتبر العديد من مؤيديه أن الشيخ نايف متواضع وغير فاسد، ولكن بمجرد حصوله على ميكروفون في يده، تحدث بإسهاب عن مؤامرات معادية للسامية، حيث قال ذات مرة عن اليهود، أنهم: "أبناء الخنازير والقردة"، يخططون لتدمير المسجد الأقصى وبناء الهيكل الثالث على أنقاضه، فاليهود في نظره هم الجُنَاة الرئيسيون وراء الثورة الجنسية والاشتراكية والتحليل النفسي

وغيرها من أمراض الحضارة الغربية الكافرة، كما يُحرِّض أتباعه على العنف من خلال الحث على الانتقام من جرائم النكبة والإذلال والخسائر اليومية التي يتعرضوا لها منذ ذلك الحين.

حذرت جبريل: "إما أن تعتقل أخيك، أو نعتقله نحن".

لقد كان طلبًا كبيرًا وثقيلاً على عضو في مجتمع تتفوق فيه الروابط الأسرية على الأيديولوجية.. في الشارع الفلسطيني بالفعل كان يُطلق على جبريل الرجوب بأنه :عميل "إسرائيلي"، ونائب الشاباك، وخائن.

استمر جبريل في التعاون معنا حتى بعد أن أدخلنا أخيه إلى السجن، وبعد شهر، خرج شقيقه الأصغر من السجن، وقد أصبح أكثر شعبية من أي وقت مضى.

لم أكن أتوقع من جبريل أكثر من ذلك. لكن الحدث علمني أن جبريل مستعد لكسر المحرمات الوطنية من أجل السلام.. منذ تلك اللحظة، فهمنا بعضنا البعض، لن يُصبح صهيونيًا، ولن أرفع العلم الفلسطيني.. لكن كان علينا أن نحارب الإرهاب معًا.

الفصل الخامس عشر:

أجهزة الاستشعار

انتهى المطاف بجبريل باعتقال إرهابيين أكثر مما فعلنا، فمنذ تلك الأيام، ظللت أنا وجبريل أصدقاء لأننا -كما يمكنك القول- ننتمي إلى نفس المنزلة (مقاتلين)، نحن أيضًا ناجون من زمن ظهر أن حل نزاع شعوبنا في متناول اليد.

فقط لأذكر نفسي أنه في يوم من الأيام كانت هناك ثقة بين الجانبين، كلما اندلعت أعمال عنف جديدة، كنت أتصل به أو نرتب لقاء، فأنا لا أبحث أبدًا عن استخبارات سرية، ولا أحد منا لديه شيء للمشاركة.

بعد أسبوع من حديثي المرعب مع الحاخام شابيرا، قررت زيارته في مكتبه في الاتحاد الفلسطيني لكرة القدم في بلدة الرام بالضفة الغربية، على بعد نصف ساعة من مكان مشهور في القدس، له جذور تعود إلى العصر الحديدي، حيث قام الملك جودفري بإهدائها كإقطاعية لكنيسة القيامة خلال الحروب الصليبية.

أخذني سائق فلسطيني في سيارة رينج روفر عبر الحاجز، وعندما اقتربنا من الرام، حدقت عيناي لأكتشف شيئًا رسمه النشطاء الفلسطينيون على الجدار الأمني، كان نصًا لكاتب من جنوب أفريقيا والناشط المناهض للفصل العنصري، فريد إسحاق، مكتوب: إخوتي وأخواتي الفلسطينيون الأعزاء، لقد أتيت إلى أرضكم وقد شاهدت ظلالاً خاصة بي.

يبدو مقر الاتحاد الفلسطيني لكرة القدم وكأنه مجمع طبي راقي، أمام المدخل كان هناك ثلاثة رجال مشغولين بغسيل سيارة مرسيدس سيدان سوداء اللون، رافقني حراس جبريل غير المسلحين إلى مكتبه، وعندما دخلت قام من مكتبه في الطرف البعيد من الغرفة الطويلة وسار في اتجاهي ومدَّ ذراعيه، كان يرتدي بدلة أنيقة وحذائه لامعًا مثل مرسيدس في موقف انتظار السيارات.

سألني: "ما نشما، عامي؟".. ذكّرتني عبريته التي لا تشوبها شائبة تقريبًا مرة أخرى بفشلي في تعلم اللغة العربية.

أخبرته عن الكتاب الذي كنت أكتبه، وسألته عن ما إذا كان يُخطط للعودة للسياسة، أو ربما يقدم نفسه على أنه خليفة الرئيس عباس.

هو فقط غمز بعينه.

كان يعمل على إشعال سيجارة، كانت يده الكبيرة التي تلامس الولاعة قد أعطتني انطباعًا على أنه عامل على رصيف، أو ملاكم من الوزن المتوسط، وبدا قتاليًا وكأنه مدفعية مقاتلة تحلق نحوك.

قلت له: "ماذا يقول الأطباء عن التدخين؟".

أخذ نفساً طويلاً من السيجارة وقال: "لا أرى أي أطباء في الغرفة، إلا إذا غيرت مهنتك يا عامي".

ناقشنا الاضطرابات في الحرم القدسي، كما هو الحال دائمًا المكان المناسب للبحث عن صرير معركة هرمجدون القادمة.

كان جبريل، وهو يتحدث بصوت منخفض خشن مثل براندو في فيلم The Godfather (الأب الروحي)، واثقًا من أن الوضع تحت السيطرة، فلم يكن للحكومة الفلسطينية أي مصلحة في انتفاضة شعبية ضد "إسرائيل"، وهي انتفاضة يمكن أن تتجه نحوها بسهولة.

دخل رجل على المكتب مع الشاي والبسكويت، وكما في المرة الأولى التي التقينا فيها، أشار جبريل إلى الصينية وصرخ: "خذ بعضًا". ثم تذكرنا الأصدقاء والمعارف القدامى مزاحاً.. تابعت ذلك بنكتة بالمراهنة على فوز المنتخب الفلسطيني بكأس العالم المقبل.. بدأ بضحكة مكتومة، قهقهة مع الصفير، سمعت منه عدة ضحكات لم أسمعها من قبل، كانت تشبه صوت الشخصية الخيالية وولفرين.

قال: "باروخ هشم".. "الحمد لله!"

"كيف حال بيبا يا عامي؟" كان هناك حنان في صوته الرقيق.. "هل هي لا تزال تحتمل العيش معك؟"

"مثير للدهشة، هي كذلك".

نظرت إليه، وكالعادة وجدت أنه من الصعب ألا أفكر في أخيه، الشيخ نايف الذي يقول إن اليهود قرود، وذلك لأن الأخوين يبدوان متطابقين تقريبًا: نفس العيون الداكنة، نفس بنية الظهر، لحية رمادية بدلاً من شارب شايب.. لقد تساءلت كثيرًا عن شعور الفلسطينيين بالعداء بين القومية العلمانية لحركة فتح، والإسلاميين الراديكاليين مباشرة عبر عائلته، أو من خلال عائلات أخرى مثل عائلة الشقاقي.

في طريق العودة إلى القدس، مررنا مرة أخرى بجوار كلمات الكاتب من جنوب إفريقيا المرسومة ببوية الرش على الحائط، فكرت في أمرٍ قاله نتنياهو مؤخرًا لمجلة نيوزويك: "سنحيط "إسرائيل" بجدران دفاعية ضد الوحوش البرية".

وحوش برية! كيف كنت سأجيب على جيش أجنبي وحشي استولى على بلدي واحتلاله لمدة خمسين عامًا؟

في سن الرابعة عشرة، كنت أسبح في بحيرة طبريا مع سروليك الذي يحلم بلعب دور البطل في المعارك القريبة والبعيدة.

فكرت في جبريل وإخوته الثلاثة عشر، الذين نشأوا من قِبَل الآباء التقليديين في منزل حجري في قرية دورا الترابية، دورا القديمة التي ذكرها جوزيفوس في حروبه اليهودية، وفي الأساطير الفلسطينية مذكور أنه قد دفن نوح في هذه البلدة، وتوجد اليوم مستوطنة يهودية تسمى Adora على بُعد ميلين شمالاً حيث وُلد جبريل.

ولد جبريل عام 1953 وكان يبلغ الرابعة عشرة من عمره عندما احتللنا الضفة الغربية، وبعد ذلك بعام، اعتقله الشاباك لمساعدته في تهريب ضباط عسكريين مصريين، حيث تم القبض عليهم خلف خطوط العدو عام 1967، من الأراضي الفلسطينية.

وكان أول لقاء له مع "الإسرائيليين" عندما جاء ضابط برتبة رائد في الجيش "الإسرائيلي" لاعتقاله، وصفع والده على وجهه أمام جميع أفراد الأسرة، حيث في الأشهر الأربعة التي قضاها جبريل في سجن الخليل، تحمَّل عددًا لا يُحصى من الصفعات والضرب، وأشكال الإذلال الأخرى، وحينها قرر محاربة آسريه، كما أنه التقى أبو علي شاهين، أحد كبار رجال فتح الذي بدا وكأنه جامعة في شخص واحد داخل السجن، وقام بتعليم المراهقين –مثل جبريل– لمحاربة الاحتلال بأي وسيلة لديهم، بما في ذلك السلاح.

خرج جبريل، وحصل على أول رشاش كلاشنيكوف، وأصبح زعيماً للجماعة الطلابية المتشددة صقور فتح، وفي السابعة عشرة ألقى قنبلة على جنود الاحتلال، حكمت عليه محكمتنا العسكرية بالسجن المؤبد.

لمدة سبعة عشر عامًا، جلس جبريل خلف القضبان، حيث تعلم العبرية جيدًا بما يكفي لترجمة ثورة مناحيم بيغن –وهي قصة اليهود السريين– إلى العربية، في النهاية أطلقنا سراحه من السجن في صفقة تبادل عام 1985.

خلال كل تلك السنوات ابتعد شقيقه الأصغر عن السياسة، لم يكن يريد علاقة بحركة فتح وعلمانيتها، حيث درس الشيخ نايف الشريعة الإسلامية في الأردن، واستقرت حياته كزعيم ديني محلي ومربي للنحل.

وخلال الانتفاضة، انجذب إلى منظمة حماس الخيرية الإسلامية بسبب عملها مع الأرامل والأيتام والعائلات التي يُسجن معيلها في سجوننا، قبل أوسلو مباشرةً وتحديداً في عام 1992، أمر رابين، وبإصرار من رئيس الأركان إيهود باراك، باعتقاله واعتقال أكثر من أربعمائة عضو آخر في حماس والجهاد الإسلامي، وإبعادهم إلى الحدود اللبنانية، حيث عاش لمدة عام في مخيم من الخيام في قرية مرج الزهور الجبلية، كما أمضى المبعدون تلك السنة عاشوها في الثلج والوحل والحرارة، ورسموا خطة لإنتاج نموذج مثل حزب الله للجهاد في فلسطين.

بعد أوسلو بقليل، عاد نايف إلى حياته البسيطة في الضفة الغربية: سافر بالحافلة، وعاش في منزل صغير على طريق ترابي، وارتدى زي الفلاحين الذين احتشدوا في مسجده ليسمعوا منه الخطب.

في غضون ذلك، كان جبريل ثاني أقوى زعيم في السلطة الفلسطينية، بعد عرفات مباشرة، من وظيفته جاءت زخارف القوة، لكن لم يكن اعتدال نايف السبب في إبعاد الناس بأعداد متزايدة عن فتح، لقد كان الفلسطينيون يتدفقون على الإسلاميين، لأن الإرهاب جعل من المستحيل على بيريز سياسياً أن يعود بحقل ولو بقدر حجر واحد لعرفات، وبالتالي فإن يد جبريل الثقيلة في منع حماس من قتل المدنيين "الإسرائيليين" لم تسفر عن شيء.

في السنوات التي تلت ذلك، حيث لم يتلق الفلسطينيون سوى قصاصات من 90 في المائة من الأراضي التي اعتقد عرفات أنه سيحصل عليها منا، تحول جبريل من كونه بطلاً في الشوارع، وسجينًا سابقًا قاسيًا فعل ما يلزم لتحريره البلد، لشخص يُنظر إليه على أنه ملوث. وفي نظر الكثيرين، ورث الشيخ نايف، الداعية الأصولي والمعادي للسامية، دور شقيقه كمناضل مِقدَام من أجل الحرية الفلسطينية.

في عام 1996، استغرق وقف المفجرين الانتحاريين من حماس بعض الوقت، وخلال معظم السنة الأولى لي في الشاباك، مات عدد أكبر من المواطنين "الإسرائيليين" نتيجة للإرهاب أكثر من أي وقت آخر منذ تأسيس دولة "إسرائيل"، فالقنابل كانت تدق في كل مكان.

كنت أقضي معظم ليالي الأسبوع في منزلٍ آمن للشاباك في تل أبيب، وفي وقت متأخر من الليل، وبينما كنت جالساً، وأقوم باحتساء البيرة في مقهى أبروبو في شارع بن غوريون، محاولاً جمع أفكاري، كان لدي الكثير لأفكر فيه، لقد دخلت الشاباك كأجنبي ولدي الكثير لأتعلمه

من قدامى الخدمة، في البداية لم أتطرق إلى الثقافة الداخلية للمؤسسة، مثل مدونة آداب المهنة لدينا، حتى لو كنت أشك في أنه سيتعين عليها تغييرها، في النهاية كنت أعلم أنني يجب أن أُظهِر نفسي لأكون قائدًا ذا مصداقية قبل أن أتمكن من التطرق إلى موضوع حساس مثل آداب المهنة.

عندما كنت في البحرية، كان رئيس الأركان ووزير الدفاع مرجعيتي في القرار، الآن تواصلي فقط مع رئيس الوزراء، أما بالنسبة لمعظم القرارات: التنصت على الهواتف، وتوقيع مذكرات الاعتقال، وتسليم المشتبه بهم إلى المحققين لتطبيق "القوة الجسدية المعتدلة"، وهو تعبير قانوني ملطف عن التعذيب-، لم تكن هناك حاجة لطلب الإذن من أي شخص.

كان المقهى ليلاً مكتظًا بأشخاص أقسمت على الدفاع عن حياتهم، وكان مكانًا جيدًا للتفكير في مخاطر السلطة، فلا أحد يعرف من أنا أو ذاك، مع بعض الاستثناءات، مثل القضاة والصحفيين والنواب المنتخبين، فقد كان الشك وحده كافياً لنا لانتهاك خصوصية الناس وحقوقهم بما في ذلك خصوصية كل شخص في المقهى: النادل، الطباخ، الزوجان اللذان يتحدثان العربية في الزاوية.. فقد كان من العار على الشاباك أن يقوم بتصميم وحش بحجة حماية الديمقراطية وبشكل منهجي، لأكثر المبادئ قداسة: الخصوصية والإجراءات القانونية الواجبة، فكرت كثيرًا في كتاب أورويل عام 1984 وكلمات جيمس ماديسون: "أعتقد أن هناك المزيد من حالات اختزال حرية الناس من خلال التعديات الصامتة والتدريجية لمن هم في السلطة أكثر من حالات الاغتصاب العنيف والمفاجئ".

لكن والدي "آبا" هاجر بشكل غير قانوني في الثلاثينيات من القرن الماضي لبناء شخص جديد ومجتمع جديد، وليس لجعل ابنه يتحول إلى جيه إدغاء هوفر في اقصى حالاته تعقيداً، فلم تكن مهمتي الرئيسية في الشاباك قتل الإرهابيين، بل كانت للحفاظ على "إسرائيل" كمجتمع حر.

عندما عدت إلى المنزل في عطلة نهاية الأسبوع، أبقتني بيبا أيضًا مستلقياً على الأرض، كان هناك شيء واحد لا تتحمله هذه المرأة التي تحملت فترات غيابي الطويلة، وتوتري العصبي، وصندوق التنكر الذي احتفظت به في الخزانة: وهو زوج مخمور بالسلطة.

ذكّرتني في كل فرصة بأنني ما زلت غلاماً يرتدي جوارب غير متطابقة، ويحتفظ بأوراق مقعد المرحاض. كانت تقول: "أنا الوحيدة التي تراك من أنت".

في إعادة بناء الشاباك، كنت بحاجة إلى اكتساب فهم عميق لجهودنا السابقة لمكافحة الإرهاب: الاستراتيجيات التي جربناها، وأين نجحنا، وأين فشلنا.

خلال الانتفاضة قبل عشر سنوات، قدَّم الشاباك دراسة حالة بخصوص: لما لا يجب فعله.. فلم يقتصر الأمر على فشل تعنيف الإرهابيين –المشتبه بهم– في إنهاء الانتفاضة، ولكن قسوتنا غالبًا ما أشعلت ألسنة اللهب وأضعفت المجتمع "الإسرائيلي"، ولتجنب فقدان إنسانيتنا في عملية محاولة إنقاذ الأرواح، استنتجت أن ما نحتاجه هو رسم خط أحمر جريء بين الأساليب المسموح بها والمحظورة، أي ما يمكن تسميته: بوصلة أخلاقية للصرف الصحي.

لقد عثرت على دليل حول مكان رسم الخط عن طريق الصدفة، حيث علمت من إحصاءاتنا الخاصة أنه –خلال الانتفاضة– كان مستوى الإرهاب متساوياً في غزة والضفة الغربية، لقد واجهنا نفس الأشخاص، ونفس الشعارات، ونفس قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في المنفى، ونفس اللاجئين الذين يحملون المفاتيح الصدئة لمنازل الأجداد التي تتناثر في جيوبهم.. لكن استجوابات الشاباك في غزة كان بشكل أعنف من الضفة، حيث تلقى المحققون نفس التدريب ونفس الإجراءات والخلفية.. فلماذا انتهى المطاف بالعديد من السجناء في مستشفى غزة أكثر من الضفة الغربية؟

ولكن الباحثون الذين كلفتهم بحل هذا اللغز فشلوا في التوصل إلى نظرية مقنعة، وأخيرًا، اتصلت برئيس قسم التحقيق، لأنه شكل فريقاً من المحققين في الضفة الغربية خلال الانتفاضة الأولى، قال لي في البداية: "لا دليل يا عامي"، أخبرته أنه يمكنه التفكير في الأمر بين عشية وضحاها والعودة بإجابة في الصباح.

في اليوم التالي لم أسمع شيئًا عنه، ربما كان يأمل أن أكون قد نسيت، لذلك اتصلت به، أخبرني أنه تأخر في التفكير في أسئلتي. قال: "كل ما أتذكره هو أن قائد فرقتي، وقبل أن يرسلنا لاستجواب السجناء، قال لنا: "في مهمتكم اليوم، تذكروا أننا جميعًا بشر: رجل حر وسجين على حد سواء"، في غزة حيث لم يكن هناك مثل هذا الروتين اليومي، أجريت استجوابات السجناء وفقًا لمدرسة فكرية "اضرب بالهراوة لتحصل على الخضوع"، بدأت أفكر في أفضل السبل لتغيير آداب المهنة (الأخلاق الداخلية) للشاباك، لقد كانت أدوات الإبهام[1] محظورة، لكن ماذا عن: الإهانات؟ الصفع؟ الابتزاز؟ الرشوة؟ الذل؟ الخداع؟

---

(1) لولب الإبهام: هي أداة تعذيب وضغط شبيهة بزوج من كسارات الجوز، الأداة في شكلها المصقول كانت تتكون من قضيبين حديديين قصيرين في أحدهما ثلاثة قضبان حديدة أصغر حجماً تلائم ثلاثة ثقوب في القضيب الكبير الثاني... بحيث يتم وضع إبهامي يد الضحية أو أصابع يده بين القضيبين الحديديين الكبيرين على جانب القضيب الأصغر المركزي الذي يمكن عندها ضغطه بشكل لولبي محكم وشديد. ثم تطورت هذه الأداة بتزويدها بالمسامير الحديدية التي تنفذ داخل الأظافر.

من الواضح أن وضع قيود واضحة على أساليب الصفعات والأغلال كان الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله، لكن ميثاق الشرف لن يكون كافيًا للتحقيق مع حماس، فقد كنا بحاجة أيضًا إلى إيجاد طريقة لفهم دوافع أعدائنا الإسلاميين، لماذا يرتدي طالب يتمتع بصحة جيدة حزام ناسف ويقتل الناس في طريقهم إلى المدرسة أو أثناء الجلوس في المقهى؟

أنا كجندي، قَتلتُ أناس غُرباء تماماً، لكنهم كانوا مقاتلين، لم أهاجم المدنيين عن قصد، الأشخاص الذين كنت أعتبرهم من المارة الأبرياء.

كيف يمكننا إعادة إنشاء المنظمة لرؤية خصومنا كبشر فرديين؟ بحثًا عن إجابات، قرأت ملفًا وضعه الدكتور ماتي شتاينبرغ، خبير في الشؤون العربية حيث كان اثنين من المدراء السابقين قد وظّفوه كمستشار خارجي، وكان في تلك اللحظة يصقل السيرة السياسية لعرفات.

العديد من المنظمات الأمنية تجلب أكاديميين كمستشارين، ولكن من الناحية العملية، فإن الثقافة المختلفة جذريًا التي تفصل العالم الأكاديمي عن العالم السفلي القذر، تعني أن النصيحة التي تأتي من الخارج عادة ما ينتهي بها الأمر في خزائن الملفات غير المقروءة وغير المهتم بها.

منذ اللحظة التي فتحت فيها الملف الذي قدمه شتاينبرغ، عرفت أنه ربما يكون أحد المستشعرات التي كنت أبحث عنها.

في لقائنا الأول طرحت على ماتي أسئلة عن تاريخ القومية الفلسطينية.. قال لي مباشرة إنني لن أفهم الفلسطينيين أبدًا إذا لم أقرأ عن: شعراءهم الوطنيين، وأتعرف على مؤلفي الأغاني، وفناني الجرافيتي، والصحف السرية.

كما أضاف ماتي إلى قائمة القراءة الخاصة بي أميرة هاس، صحفية في جريدة هآرتس، تكتب عن الشؤون الفلسطينية من رام الله وغزة.. "ستعطيك صورة للشارع الفلسطيني أكثر شفافية من أي شخص هنا"، قال وهو منتشر بذراعيه كما لو أنه سيأخذ كامل الشاباك، وكان يقول بكل احترام إن أكثر من خمسين عامًا من عمل الشاباك، لم تكن كذلك، في مثل عصر التعاون الأمني مع السلطة الفلسطينية برئاسة عرفات.

الصحفية/ أميرة هاس

واستطرد قائلاً إن مصدرًا رئيسيًا آخر بالنسبة لي هو استطلاعات الرأي التي أجراها خليل الشقاقي، كما عرفت من "ماتي" لأول مرة عن عمل الدكتور إياد السراج، الطبيب النفسي في غزة، كانت نقطة "ماتي" بسيطة: انسى فهم الإرهاب إذا لم تكن على استعداد للتعمق في مصدره من الأفكار الأيديولوجية واللاهوتية التي تغذيها التجارب السابقة الجماعية المؤلمة.

مثل غواص يجاهد للوصول إلى سطح الماء، وجدت نفسي أشق طريقي يدويًا عبر تقارير الدكتور السراج، التي كانت مؤلمة للقراءة ولكنها تكشف الحقيقة. ففي إحدى الروايات، قال الدكتور السراج –ورأسه مرتفعًا– لجندي في الجيش "الإسرائيلي" يهدد بضربه: "كن ضيفي، لكن قبل أن تفعل ذلك، أعرف أن هناك إنسانًا حقيقيًا وراء هذا الزي، وأود منك أن تريني هذا الشخص".. فابتعد الجندي بشجاعة.

مثلما كان الأدب الفلسطيني يفتح العينين، وهي "روح" الفلسطينيين كما يقول "ماتي"، لأول مرة قرأت رواية: "بحيرة ما وراء الريح" للكاتب يحيى يخلف، وهي رواية تحكي الأيام الأخيرة قبل نزوح عائلة المؤلف من بلدة السماخ (قرب طبريا) في عام 1948.

"كانت هناك كارثة قادمة، وكان هناك شعور بأن الأرض بدأت تنتفض"، فعندما كنت طفلاً، كنت أحصد الموز في الأرض التي كان "يخلف" يلعب فيها كرة القدم مع أصدقائه.

فدوى طوقان

كان ذلك أيضًا أول لقاء لي مع الشاعرة فدوى طوقان، التي كانت كلماتها هائلة بالنسبة للفلسطينيين، مثل شعر "ناثان الترمان" بالنسبة لنا:

كفاني أموت عليها وأدفن فيها،

وتحت ثراها أذوب وأفنى،

وأبعث عشباً على أرضها،

وأبعث زهرة إليها تعبث بها كف طفل نمته بلادي،

كفاني أظل بحضن بلادي تراباً، وعشباً، وزهرة

الشاعر الوطني الفلسطيني محمود درويش على رأس قائمة المطالعين في دورة "ماتي" المكثفة، عندما كان درويش يبلغ من العمر سبع سنوات نزح مع عائلته عام 1948 من قرية أجدادهم في الجليل الشمالي، والتي أصبحت الآن قرية زراعية "موشاف".. وجدت نفسي لاهثًا وأنا أقرأ "إلى أرضنا":

لأرضنا، وهي جائزة حرب،

وحرية الاختفاء من الشوق والحرق،

وأرضنا في ليلها الدامي،

جوهرة تلمع إلى الأبد،

وينير ما بداخلها.

الشاعر/ محمود درويش

في إحدى الأمسيات، في مقهى أبروبو، قرأتُ بعيون مستيقظة منذ ثمانية عشر ساعة من اليوم، أحد أروع الأعمال الأدبية لدرويش، إعلان الاستقلال الفلسطيني.

لقد كتبه بناء على طلب عرفات في مايو/أيار 1988، وهو نفس العام الذي اقترب إعدامي من غير محاكمة في غزة. استوقفتني الوثيقة، لأن درويش قد استخدم بوضوح إعلان الاستقلال "الإسرائيلي" كنموذج له:

في قلب الوطن، وفي محيطه، وفي منفاه القريب أو البعيد، لم يفقد الشعب العربي الفلسطيني إيمانه الراسخ بحقه في العودة، ولا إيمانه الراسخ بحقه في الاستقلال، لم يتمكن الاحتلال والمجازر والتهجير من تجريد الفلسطينيين من وعيهم وهويتهم، فقد استمر كفاحهم الملحمي واستمر تشكيل شخصيتهم الوطنية مع تصعيد النضال المتزايد.

لماذا اقتبس درويش –كلمة بكلمة تقريباً– من نص إعلان استقلالنا؟ هل كان يكتب أيضًا لجمهور "إسرائيلي"؟ بالنسبة لي، كانت أكثر خطوطه وضوحًا تلك المتعلقة بقراري الأمم المتحدة 242 و338، والركيزة القانونية الدولية لحل الدولتين:

انطلاقا من الشرعية الدولية المتجسدة في قرارات الأمم المتحدة منذ عام 1947، ومن خلال ممارسة الشعب العربي الفلسطيني لحقه في تقرير مصيره واستقلاله السياسي وسيادته على أراضيه: يعلن المجلس الوطني

الفلسطيني، باسم الله وباسم الشعب العربي الفلسطيني، إقامة دولة فلسطين على أرض فلسطين وعاصمتها القدس.

يا إلهي! وجدت نفسي أفكر.

بقبول عرفات قرارات الأمم المتحدة منذ عام 1947، هذا يعني أنه قد تحرر منذ فترة طويلة من الروح الثورية الفلسطينية المتمثلة في فعل ما فعله الجزائريون بالفرنسيين، جاء ذلك من خلال الاعتراف الضمني بدولة "إسرائيل" على طول حدود عام 1967، حيث أعد الرأي العام الفلسطيني أيديولوجيًا للتسوية المؤلمة اللازمة لحلٍ سلميٍ لصراعنا.

سألت نفسي: "لماذا لم نتسلم نحن الأسلاف ترجمات لهذا عام 1988؟"، إذا كنا قد أدركنا التحول الاستراتيجي لعرفات قبل عشر سنوات، فربما لا نواجه انتحاريين من حماس.. ما الذي فعلناه بدلاً من هذا في ذلك الوقت؟ كان رابين، كوزير للدفاع ومن خلال الشاباك والحكومة العسكرية، قد دعم حماس سراً على أمل أن المجموعة الدينية سوف تُقوِّض القوميين في منظمة التحرير الفلسطينية، وقد اعترف أحد كبار جنرالاتنا بقوله: "لقد رأينا المتعصبين على أنهم قوة اجتماعية غير مهدِّدَة".

من "ماتي"، تلقيت أيضًا دروسًا تقشعر لها الأبدان عن حماس وأتباعها الإسلاميين، فقد تمدد نفوذ حماس لسنوات لأنها –بالإضافة إلى تعصبها الديني– كانت أكبر مؤسسة خيرية تخدم الفقراء الفلسطينيين، فقد كان زعيم حماس، الشيخ أحمد ياسين المقعد على كرسي متحرك، سجيناً وراء القضبان في "إسرائيل" منذ عام 1989، بسبب علاقته بالإرهاب والجناح العسكري لحركته، عز الدين القسام، حيث كان الشيخ رمزًا لمعاناة وبؤس الشعب الفلسطيني، وبشَّر بالحلم المسيحي بالانتصار النهائي على الكفار، كما أنه كان لديه خطوط حمراء في موضوع الأخلاق، والذي كان يفتقر إليها عرفات الداهية. كان الشيخ ياسين حتى من سجنه قد وضع سياسة الحركة وعرّفها عندما يكون هناك ما يبرر الهجمات النضالية.

أخبرني "ماتي" أنه لم تكن هناك فرصة لأن تأتي حماس بوثيقة مثل إعلان درويش وعرفات للاستقلال، كان السبب في ذلك بسيطًا: لقد أسسوا سياساتهم على تفسيرات الشريعة الإسلامية التي حرَّمت أي تسوية إقليمية معنا –بالنسبة لهم– نحن الصليبيين في العصر الحديث.

في قراءتهم للإسلام، كانت كل فلسطين التاريخية، بما في ذلك تل أبيب، ملكًا للمسلمين: ينص ميثاق حماس على أن أعضاءها "يسعون جاهدين لرفع راية الله فوق كل شبر من فلسطين" لأنه في ظل "الإسرائيليين" "قد اختفت الحقيقة وحلت محلها حالة الشر".

قال "ماتي" محذراً: "إذا فشل عرفات في إقامة دولة فلسطينية، فإن الجماهير الفلسطينية ستتجه إلى الإسلاميين، وستُفتَح أبواب الجحيم على مصراعيها".

الفصل السادس عشر:

رؤية النفق

في إحدى المرات، التقيت جبريل ودحلان لتنسيق الأنشطة، فقد كانت جهودنا تُؤتِي ثمارها: بحيث قللنا بشكل كبير من تكرار التفجيرات الانتحارية، وقمنا بتعميق تغلغلنا الاستخباراتي في المنظمات الإرهابية الفلسطينية، أيضاً كان علينا بناء جهودنا الاستخباراتية ومكافحة الإرهاب اليهودي، ولكن الإرهاب اليهودي تصدى لنا بتجنيد مخبرين من المستوطنين الأيديولوجيين الأكثر تطرفاً، أولئك الذين قدموا صلاة الشكر عند اغتيال رابين، فقد طوروا التجسس المضاد في محاولة للتعرف على عملائنا في المستوطنات.

أدى استهداف اليهود إلى تفاقم التنافر المعرفي لعملاء الشاباك المخضرمين الذين اضطروا الآن إلى الاستماع إلى الفلسطينيين أعدائنا السابقين، وأخذ آرائهم في الاعتبار، وحتى الاعتماد عليهم، الأمر الذي تطلب عدم معرفة ما تم تلقينهم من أفكار حول منظمة التحرير الفلسطينية منذ الحضانة.

ذات يوم واجهت نوعًا مختلفًا تمامًا من المأزق الأخلاقي، وأثناء تطوير اللائحة الداخلية لأخلاقيات الشاباك، طلبت من رئيس الاستجوابات التأكد من أن الصياغة التي توصلنا إليها لم تكن لغة غير مفهومة أو مبهمة كتبها فلاسفة أو شعراء، ولكنها يجب أن تكون منطقية تمامًا للعملاء في غرف الاستجواب.. جاء أحد الزملاء –دعنا نطلق عليه "X"– جاء إلى مكتبي وأخبر سكرتيرتي أنه يريد مناقشة شيء مهم.

"بالتأكيد.. دعيه يدخل"، فقد كان لدي سياسة الباب المفتوح.

دخل المحقق –ذو أذنين جافة وشعره أسود قصير– إلى مكان عملي، علمت من ملفه أنه كان حفيد أحد علماء التوراة اليمنيين، وأنه نشأ في منزل ديني.

بدأ: "سيدي، كنت تتحدث إلينا عما سنفعله بالسجناء".. في إشارة إلى اللجنة التي شكلتها لاقتراح مبادئ توجيهية للاستجواب.. "ما لم أسمعه منك هو ما تفعله بنا".

"ما الذي تتحدث عنه؟ أنا لا أفعل لك أي شيء!" مع وجود الكثير على حافة الخطر، لم يكن لدي صبر للشفقة على نفسي.

هز المحقق رأسه، يبدو واضحاً أنني أسأت فهمه.

تحدث المحقق موضحاً: "ترعرعت في منزلنا الذي كان مليئًا بالكتب، كانوا في كل مكان، وعلى كل جدار ترى الكتب والموسيقى والأفكار، هذا ما كنت محاطًا به... ولكن منذ أن انضممت إلى الخدمة في الشاباك، كنت أعيش حول الرائحة الكريهة والصراخ والعنف.. لا أعرف كيف يمكنني الاستمرار في فعل ذلك".

ربما كان يشير إلى أحد سجوننا، والذي يُطلَق عليه اسم: "ضريح الرب"، وهو عبارة دير أرثوذكسي روسي سابق، يشبه المسلخ وليله مظلم، حيث وصفه أحد السجناء، وهو نجل أحد قادة حماس، بأنه "أسود وملطخ ومظلم، مثل زنزانات القرون الوسطى المليئة بالفئران التي تراها في الأفلام".

أو ربما ما كان يدور في داخله من الأساليب التي استخدمها المحققون للضغط عليهم للحصول على معلومات للحد من قتل المدنيين، المتمثلة في: الحرمان من النوم، أو إجبار الناس على البقاء في أوضاع مؤلمة ولساعات طويلة مثل وضعية "الضفدع الجاثم".

وعلى الرغم من أننا طبقنا مثل هذه الأساليب –في كثير من الأحيان– أقل من الماضي، إلا أنه لا تزال هناك "قنابل موقوتة" من السجناء، نحتاج مثل تلك الأساليب معهم.

ربما كان يفكر في استخدامنا للابتزاز، في بعض الأحيان ضغطنا على أعضاء حماس للتجسس على زملائهم المقاتلين مقابل الرعاية الطبية –سواء لهم أو لأحبائهم– التي لا يمكنهم العيش بدونها.

القوة المفرطة التي كان يتمتع بها المحقق ضد السجناء، أوجدت جوًا من القسوة والعنف، لم يكن ذلك بسبب تعاطفه مع أعدائنا، كلا لم يفعل، لقد كانت إنسانيته فقط لأنه كان يخشى الخسارة، وهذا هو الشيء الذي كنت أرغب في الاحتفاظ به أكثر من غيره.

سألت: "إذن لماذا تستمر في العمل معنا؟".

أجاب وعينيه دامعتين: "لأنني أنقذ الأرواح".

مددت يدي ووضعتها على كتفه: "في اللحظة التي تتوقف فيها عن طرح هذه الأسئلة، تأخذ أغراضك وتغادر، لا أريدك أن تستجوب الإرهابيين".. ثم أعطيته نسخة من محضر اجتماعي مع جبريل ودحلان: أولئك منا في نفس مستوى القذارة، فقد كانوا يقومون بالعمل القذر حتى يتمكن جنود حفظ السلام من إبرام صفقة دائمة.

كنا –إذا جاز التعبير– مثل جسر عبر نهر روبيكوني، الذي يتعين على السياسيين عبوره لإبرام اتفاق سياسي، والنقطة الأخرى التي أشرت إليها، هي ما يجب أن نفكر به أكثر من أي

قانون أو لائحة، في رسم الخط الفاصل بين المسموح والممنوع في غرفة الاستجواب، هو التذكير اليومي بأن السجين من بني البشر.

كان الجسر عبر نهر روبيكون متذبذبًا في بعض الأحيان.

في أحد الأيام، بعد عدة أشهر من العمل، اتصلت إحدى وحدات الكوماندوز السابق في وحدة الأسطول التابعة لي من خط غير مضمون؛ وذلك لتهنئتي على القتل المستهدف الذي قام به مفجر انتحاري لمركز ديزنغوف في القدس، لقد أصبح صديقي سياسيًا في حزب العمل، وكان في ذلك الوقت رئيس لجنة الشؤون الخارجية والدفاع في الكنيست.

تلقينا معلومات عن هجوم مخطط له على حي جيلو في القدس، والذي يعتبره الفلسطينيون مستوطنة لأننا بنيناها على أراض احتللناها عام 1967، فقد نجحنا في إلقاء القبض على القاتل قبل إصابة أي مدنيين أبرياء، لقد كنا سعداء لأن الإرهابي لم يعد يمثل تهديدًا، وبالتالي فإننا بالتأكيد لم نتفاخر لأنه لا يوجد لنا يد في ذلك الامر.

"ماذا!" أمسكت بجهاز الاستقبال.. "من أخبرك عن العملية؟"

اتضح أن بيريس نفسه أطلعه على المعلومات، لأن ارتفاع عدد الجثث سببت بتآكل شعبيته، فلم يستطع أن يُفوِّت فرصة الافتخار بهذا النجاح الأمني الكبير. قلت له: "لا تقل كلمة لأحد".

أكد لي: "لا تقلق" .. "بصفتي سياسيًا، فإن وظيفتي هي الكذب؛ ووظيفتك هي قول الحقيقة".

جاءت فعاليات تعاوننا الأمني مع عرفات ورجاله لمساعدة رئيس الوزراء بيريز في انتخابات عام 1996 الصيفية بعد فوات الأوان، فقد أعطت استطلاعات الرأي بيريس ميزة واضحة على بيبي نتنياهو من الليكود.. وفي ليلة الانتخابات، نام معظم الناس على افتراض فوز حزب العمل، لكن حملة التفجيرات التي شنتها حماس أثرت على النفسية القومية، وفي حين انخفاض عدد الهجمات، كان الانطباع لدى العديد من "الإسرائيليين" أن أوسلو أدت إلى مزيد من الإرهاب، وأن كل تنازل قدمناه وفَّر البيئة المثالية لحماس والجهاد الإسلامي لإرسال الاستشهاديين. وعندما سيطر الخوف بسبب الإرهاب، تحول الناخبون إلى اليمين، وصوتوا للقادة الذين وعدوا بقتل العدو، وليس لأولئك الذين وعدوا بعالم أفضل وأكثر عدلاً.

نتنياهو كان نوعاً جديداً من القادة "الإسرائيليين": شاباً نشطاً وذكيٌ بمخاطبة وسائل الإعلام، كما أنه كان يصف نفسه بأنه خبير في مكافحة الإرهاب.

في كتابه الأول: (الإرهاب الدولي: التحدي والرد)، يرى أن: "تأثير الإرهاب، ليس فقط على الدول الفردية، ولكن على الإنسانية ككل، هو شر في جوهره، وشرٌ بالضرورة، وشرٌ بالكامل". ثم يتابع في: (الإرهاب: كيف يمكن للغرب أن ينتصر)، يوبخ كل طيف من التهدئة أو التكيف مع اتفاقية ميونيخ الأخرى التي أُبرمت عام 1938.

بنيامين نتنياهو

كنت في تجمع لأنصار الليكود في اليوم التالي لفوز نتنياهو المفاجئ، لأن إحدى وظائفي كانت التأكد من أن زعيمنا الجديد لن يلاقي مصير رابين، حيث كان في التجمع بعض المستوطنين الذين التقيت بهم، والذين كنت أتجسس عليهم سراً، ثم انضم آلاف المتدينين الذين يرتدون ملابس سوداء إلى كتيبة المستوطنين المسلحين.

بعيدًا عن الكاميرات وتدقيق الرأي العام، كان عليَّ أن أقول الحقيقة العارية غير المنمقة وباختصار لرئيس الوزراء، ولكن هناك شيء واحد لم يكن عليّ أن أخبره لنتنياهو، –خريج معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا–، هو أن انتخابه المفاجئ لم يكن ليحدث بدون مساعدة انتحاريين حماس، ونتنياهو كان يعلم أيضًا أن الاحتفاظ بمنصبه سيعتمد على نجاح الشاباك في وقف الإرهاب، لذلك افترضت أنه سيستمع عندما أخبرته أن إحباط الإرهاب يتطلب استمرار تعاوننا الأمني مع السلطة الفلسطينية، والذي من ضمنه تسليح أعدائنا السابقين، كان بيبي يعرف أفضل مني كيف يُروِّج هذا لقاعدته اليمينية.

كنت أقل ثقة في أنه سيلتزم بشروط أوسلو الأخرى، وخصوصاً الانسحابات الإقليمية، فقد كان بيريز قد وعد وهو في حي الخليل بأن عرفات سيظل تحت سيطرتنا، وبدا رئيس الوزراء الجديد أنه ليس في عجلة من أمره لتسليمها، الأمر الذي أثار جنون الشك والاضطهاد لدى عرفات، لقد كان –بعد كل شيء– رجلٌ يعتقد أن هناك حشرات تحت كل صخرة تابعة الشاباك، وحقيقة أن شارون، الرجل الذي دمر أحياء كاملة في بيروت في محاولة لقتله، كان وزيراً كبيراً في حكومة الليكود، مما جعل عرفات يخشى الوقوع في كمين.

لقائي الأول مع نتنياهو كان في مكتب رئيس الوزراء الرسمي، المُصمم على طراز باوهاوس الرشيق في ثلاثينيات القرن الماضي، وهو ابن عم للمتحف المعماري غوغنهايم في نيويورك، ممر الدخول كان عبارة عن ممر سائقي عبر الجدار الأمني المعزز الذي شيدناه بعد اغتيال رابين، مما جعل المبنى يبدو وكأنه ملجأ.

في الطابق العلوي في مكتبه، لاحظت كتب نتنياهو المناهضة للإرهاب على رف خلف مكتبه، افتتح المناقشة بتحليل ذكي لأوسلو، وأشار إلى دعمه لجعل العملية السياسية مشروطة بالتعاون الأمني، لكن على الرغم من رغبته المعلنة في مواصلة محادثات السلام، بدا وكأنه يتراجع عندما تحدثت عن توقعات الفلسطينيين بشأن انسحابنا من الأراضي.

قلت في منتصف الطريق إلى اجتماعنا: "سيتعين على عرفات الحصول على شيء مقابل العمل معنا"، موضحًا ما كرره جبريل في كل مرة التقينا بها تقريبًا، فقد كان رئيسه يدفع ثمناً سياسياً لتوقيع اتفاق سلام معنا، وقمع حماس، وكان الرئيس السوري الأسد يصف عرفات بـ "عاهرة العالم العربي"، لأنه كان يرفع رقبته في كل مرة وبأي مكان، لذا كان من الأفضل أن يكافأ.

وكان من الضروري أيضاً طمأنة الفلسطينيين، قولًا وفعلًا، بأنهم إذا واصلوا تعاونهم الأمني واستمروا في قمع الإرهاب، فسوف نُسلِّم المناطق التي وعدنا بها.

كما أن إرسال المزيد من الجرارات والرافعات لن يؤدي إلا إلى تعزيز الشكوك بين الفلسطينيين بأن أوسلو كانت خدعة، لقد حذرته من أنه إذا شعر عرفات أننا نقيده، فسوف يتوقف هو ورجاله عن تعبئة سجونه من المعارضين لنا.

قال نتنياهو: أجل، أجل، أجل.

تركت مكتبه في ذلك اليوم في عتمة الليل متسائلاً حول ما كان يعتقد حول مشورتي، لكن عندما رأيت وزراء حكومته يبذلون قصارى جهدهم لتقويض أوسلو، أدركت أن فصيل المستوطنين داخل حكومته وقاعدته السياسية بين اليمين في "إسرائيل" الكبرى، كان لهما نفوذ كبير عليه أكثر مما فعلنا في الشاباك، فخلال أحد اجتماعات مجلس الوزراء، رَوَى وزير البنية التحتية الوطنية أرييل شارون قصصًا زائفة عن جبريل الرجوب وهو يتسكع معي في جاكوزي يشرب الشمبانيا، حتى أثناء حديثه، سلمني شارون مذكرة يعتذر فيها عن السكاكر، لقد كانت سياسة، ولا ينبغي أن آخذها على محمل شخصي.

في زيارة عامة إلى مستوطنة آرييل، وهي مستوطنة في وسط الضفة الغربية، أعلن بيبي أمام حشد راقص: "سنبقى هنا بشكل دائم إلى الأبد"، بينما وعد المستوطنين بأنه سيضغط من أجل بناء جديد على الأراضي التي يعيش فيها الفلسطينيون خططوا لبناء دولتهم المستقبلية؟

خلال لقائنا التالي، دق جبريل ناقوس الخطر: "رئيس وزرائكم يقول إنه يريد اتفاقًا، ثم يُعِد بالمزيد من المستوطنات".

قلت: "ربما".. و"لكن ليس من السهل على "الإسرائيليين" أن ينسوا انفجار الحافلات، فلا يزال أمامنا الكثير من العمل قبل أن تتمكن من الادعاء بأن الحكومة "الإسرائيلية" لا تفي بوعودها".

في الأسابيع الأولى من عمله في المكتب، طلب بيبي نصيحتي بشأن قضية سياسية حساسة أخرى، بعد أن قام بحملته الانتخابية بإعطاء وعد بعدم تسليم أجزاء من القدس "المحررة" للسلطة الفلسطينية، فقد كان بحاجة إلى أن يُظهر لمؤيديه أنه الرجل الذي صوتوا لصالحه.

سعى بشكل رمزي إلى تعزيز السيادة "الإسرائيلية" على الحي الإسلامي في البلدة القديمة، من خلال فتح مدخل نفق قديم تم حفره لأول مرة خلال عهد سلالة الحشمونئيم(1)، قبل أن يدمر الرومان السيادة اليهودية على أرض "إسرائيل".

كان النفق، الذي كان جزءًا من نظام المياه، قد تم حفره خلال فترة الانتداب البريطاني، وحتى عام 1996 كان من المعالم السياحية الشهيرة في الحي اليهودي لأنه يمتد على طول حائط المبكى، الوقوف في هذه الحفرة القديمة أعطى للمؤمنين إحساسًا بأنهم قريبون من قدس الأقداس، حيث أراد بيبي فتح فتحة ثانية حتى يتمكن السائحون من دخول النفق في الحي اليهودي والسير على طول النفق بالكامل والخروج مرة أخرى في الحي الإسلامي.

كنت على دراية كبيرة بالمنطقة لأنني أعرف القدس ونهاية العالم المروعة، اعتدت التجول بانتظام في مسجد عمر والمسجد الأقصى وإسطبلات سليمان وغيرها من الأماكن المقدسة، ومثل كل "الإسرائيليين" من جيلي، قرأت عن جبل الهيكل في يوسيفوس(2)، وعندما كان هناك إحساس بالعودة إلى زمن الهيكل الثاني، أو حتى العودة مرة أخرى إلى الوقت الذي استعد فيه إبراهيم أن يقدم ابنه إسماعيل كقربان.

أحيانًا كنت أذهب في مثل هذه الجولات مع مفتي القدس، وهو رجل –مثل كثيرين آخرين– لديه بعض نظريات المؤامرة الغريبة، وخلال جولة في الأنقاض تحت جبل الهيكل، بعد أن رأيت عمودًا مذكورًا في جوزيفوس كميزة للهيكل الثاني، التفت إلى المفتي وقلت له: "كطفل قرأت عن هذا المكان".. لقد شعرت حقًا أنني كنت بجوار جزء من التاريخ اليهودي القديم.

---

(1) السلالة الحشمونية: هي سلالة حاكمة في يهودا والمناطق المحيطة بها خلال العصور القديمة الكلاسيكية، بين عام 140 وعام 116 قبل الميلاد.

(2) يوسيفوس فلافيوس أو يوسيبوس أو باسمه العبري الأصلي يوسف بن ماتيتياهو كان أديباً مؤرخاً وعسكرياً يهودياً عاش في القرن الأول للميلاد واشتهر بكتبه عن تاريخ منطقة يهوذا، والتمرد اليهودي على الإمبراطوية الرومانية والتي تلقي الضوء على الأوضاع والأحداث في فلسطين خلال القرن الأول للميلاد في حين انهيار مملكة يهوذا.

قال: "أنتم أيها اليهود غريبون .. أنتم تخترعون التاريخ دائمًا، ثم تبدؤون في الإيمان بالاختراع"، لقد اعتقد حقًا أننا استحضرنا ارتباطنا التاريخي بالأرض المقدسة من فراغ.

ولأن الأماكن المقدسة لديها خصوصية تدفع الجميع إلى الجنون، فقد حذرت رئيس الوزراء ليقوم بتغطية قواعده، فلم يكن هناك شيء غير مقبول بطبيعته في فتح النفق في الحي الإسلامي.

بيريس –مثله مثل رابين من قبله– كان قد فكر في فتح النفق قبل أن يتخذ قرارًا بعدم التصرف من جانب واحد، الأمر الذي من شأنه أن يُعرِّض محادثات السلام مع الفلسطينيين للخطر.

إذا كان نتنياهو جادًا بشأن فتح النفق، فقد أخبرته أنه سيحتاج إلى التنسيق مع شركائنا المعنيين: مع الوقف الإسلامي في القدس، الصندوق الديني الإسلامي بإدارة المفتي الذي يدير مساجد الحرم الشريف، مع عرفات، ومع العاهل الأردني الملك حسين، فإذا كان الجميع على متنها، فلماذا لا؟ فلا يجب أن يكون علم الآثار سياسيًا طالما أن ما تفعله كان منسقًا وليس من جانب واحد، كررت للتأكيد، ما هي المشكلة؟

بدا نتنياهو راضيًا عن مشورتي، ولم أفكر في الأمر حتى 9/24، أي بعد يوم الغفران، عندما اتصل بي أفضل رجالي في القدس وأخبرني بنبأ مفاجئ، مفاده أنه تحت حراسة مشددة، وسيتم فتح امتداد النفق في وقت لاحق من ذلك اليوم، حينها لم أصدق ما سمعته أذني.

نتنياهو كان في ألمانيا للقاء المستشارة، اتصلت بنائب رئيس الوزراء، وفهمت بسرعة أنه لا يمكنه فعل شيء حيال ذلك، وفي اتصال هاتفي آخر، أخبرني وزير الدفاع أن القدس ليست من مسؤولية وزارة الدفاع، فقد كانت يداه مقيدتان.

في غضون ساعة من الافتتاح، سمع الناس المتواجدين في حي الوقف دوي العصي في حي المسلمين، فقد انتشرت الشائعات كالنار في الهشيم، بأننا نحفر نفقاً تحت مسجد عمر لمهاجمة الإسلام ومعه أيضاً الطموحات والتطلعات الوطنية الفلسطينية.

في صباح اليوم التالي، أصدر نتنياهو، الذي كان لا يزال في ألمانيا في زيارة رسمية، بيانًا وصف النفق بأنه "حجر الأساس لوجودنا". وتفاجأ عرفات من الافتتاح كما تفاجأ مسؤولي الأوقاف، حيث قام عرفات باستغلال الحادث باعتباره تدنيسًا للحرم الشريف، ودعا الفلسطينيين إلى الرد.. "لا يمكننا قبول تهويد القدس .. القدس الشرقية عاصمتنا!" الشعارات التي رفعها الزعيمان حرَّضت على مزيد من العنف، وقوضت نوع التنسيق الذي أوصيت به لرئيس الوزراء.

عرفات، الذي كان ينتظر منذ شهور للحصول على المزيد من الأراضي، استخدم فتح النفق كفرصة له لتذكير "الإسرائيليين" بصلاحياته في أعمال المقاومة، وأصدر مكتبه بياناً دعا فيه الفلسطينيين "للتعبير عن غضبهم من استمرار العدوان على المسجد الأقصى وتدنيس الأماكن المقدسة"، وأمر رجاله بتنظيم احتجاجات عنيفة أصابت جيشنا بخيبة أمل.

انتشرت أعمال الشغب في جميع أنحاء الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية، طغت على جنود الجيش "الإسرائيلي" المتمركزين هناك، والذين كان من المفترض وفقًا لترتيباتنا الأمنية مع السلطة الفلسطينية أن يقوموا بدوريات مشتركة مع الأمن الفلسطيني، ثم دعوا الى إضراب عام، والذي فرضه جبريل ورجاله.

في بيت لحم ورام الله هاجمت الجماهير الفلسطينية جنودنا، وبعد أن أطلقوا الرصاص المطاطي لصد المتظاهرين فتحت شرطة عرفات النار علينا، وقُتل فلسطينيون في تبادل إطلاق النار، الأمر الذي أدى إلى مزيد من التصريحات التحريضية من قِبَل عرفات.

خلف الكواليس عَمِل الشاباك في الضفة وغزة مع جبريل ودحلان وأتباعهم، في محاولة لوقف إطلاق النار، حيث قُتل أحد عشر جنديًا وستة مدنيين "إسرائيليين" ومائة فلسطيني في ما يرقى إلى حرب مفتوحة بين طرفين، يُفتَرض أنهما يبنيان الثقة، ويوقعان الاتفاقيات.. فقد أرادت كل غريزة بداخلي أن أطرح العقل جانباً وأن أجعل الفلسطينيين يدفعون الثمن غالياً، لكن كان علي أن أذكّر نفسي بأن نتنياهو هو من فتح النفق وأطلق الفوضى.

كانت أخطر نتيجة للقتال –بخلاف الأرواح التي زهقت– هي الاختلاف السريع في الروايات والشائعات التي كانت شعوبنا تخبرها لأنفسها، فبالنسبة لعدد "الإسرائيليين" المتزايد، بمن فيهم مؤيدو أوسلو السابقون، فقد كانت مشاهد الشرطة الفلسطينية التي تستخدم الأسلحة التي قدمناها لهم لقتل رجالنا، هي كل الأدلة التي يحتاجونها على مخطط عرفات ذي الوجهين، المفترض للحديث عن السلام، بينما يسعى لتحقيق حلمه طويل الأمد لرمي اليهود في البحر، قالوا: إن لم يكن النفق لَوَجَدَ عُذرًا آخر.. فقد كان الشعار: "أعطينا العرب أرضاً ولكنهم أعطونا الإرهاب" وسيكون له قوة البقاء.

في غضون ذلك، كانت الجماهير الفلسطينية تتجه بشكل متزايد إلى رؤية وخط حماس: بأن اليهود لا يفهمون إلا لغة القوة فقط. فإطلاق النار –وليس الكلام– كان من شأنه منع الاستيلاء على مواقعهم المقدسة.

عندما عاد نتنياهو من رحلته الخارجية، استدعاني إلى مكتبه لمناقشة العنف، فقد كان لدى كلانا خلافات جوهرية حول سبب أعمال الشغب في أنفاق حائط المبكى، حيث أصبحت

الحادثة معروفة لدرجة أنني فكرت في تسليم استقالتي، ولولا إحساسي بالواجب تجاه جيش المحترفين من الشاباك الذين يخوضون في المجاري، والأهم من ذلك كله بالنسبة "للإسرائيليين" العاديين الذين بدأوا يعودون بحذر إلى حافلاتهم ومقاهيهم.

كان وجه رئيس الوزراء شاحباً وتفوح منه رائحة العرق والكولونيا، وكانت قبضته على السلطة مشروطة بوعده بالأمن، ولكن الآن كانت الدولة في حداد على وفاة سبعة عشر "إسرائيليًا".

كان على وشك التوجه إلى واشنطن، تحت ضغط شديد من جميع الأطراف، فقد كان الرئيس كلينتون يريد أن يعرف كيف سيعيد عملية السلام إلى مسارها الصحيح.

حينها سألني عن تقييم الشاباك.

بدأت بالإشارة إلى الفجوة الكبيرة بين توصياتي بشأن فتح النفق وما قام بفعله.. رمش بيبي عدة مرات واستمررت في الكلام.

بدأت بالقول: "السيد رئيس الوزراء، لم يكن هناك شيء مبرر بشأن أمر عرفات لرجاله بإطلاق النار علينا، إنه يخشى أن يفقد دعم شعبه، وأن تحرمه حماس من ألقابه باعتباره ثورياً ومقاتلاً من أجل الحقوق الفلسطينية، وجعله في نظر الناس عميل لدينا".

واصلت.. لقد كانت رحلته إلى واشنطن لحظة الحقيقة، فإذا لم يؤمن بعملية أوسلو، كما قال أثناء وجوده في المعارضة، فعليه أن يُخبر كلينتون أن عملية بناء الثقة التي كانت في قلب أوسلو قد فشلت. وبدلاً من الانسحاب التدريجي من الأراضي، يمكنه الضغط من أجل التوصل إلى اتفاق بشأن القضايا الجوهرية: القدس، والمستوطنات، والأمن، وحق العودة.. وبعد الاتفاق على كل هذه القضايا الجوهرية سيكون –فقط– بمقدوره تسليم الأرض للفلسطينيين.

تساءل: "هل يوافق عرفات؟".

قلت له: إنني لا أعرف، لكن ربما.. ثم قلت: "إذا عَرَضْتَ عليه شيئًا كبيرًا، فسيكون لديه شيء يمكنه استخدامه لإقناع شعبه أن عملية السلام ما زالت قائمة، ثم قد يذهب من أجلها."

"كبيرة؟ ما حجمها؟"

"تجميد كامل للاستيطان، فمثل هذا الاعلان سيُضعِف حماس ويمنح عرفات ومؤيديه اليد العليا".. ثم نظر إلي وكأنه أصيب بعظم سمكة في حلقه.

ما لم أقله لنتنياهو في ذلك اليوم –منذ أن قدمت له نبذة عن الأمن وليس السياسة– هو ما كنت أتعلمه من خلال قضاء الكثير من الوقت في غزة والضفة الغربية، لقد بدأت أرى أن

المزيد من الطرق الالتفافية والبؤر العسكرية والمستوطنات ستقضي في النهاية على أي أمل في حل الدولتين.

وإذا استمرينا في البناء، فبعد فترة طويلة سيَخْلُص الفلسطينيون إلى أنه ليس لدينا نية لإنهاء الاحتلال والسماح بدولة فلسطينية إلى جانب "إسرائيل"، وهذا سيؤدي حتماً إلى فقدان الأمل وانتصار الإرهاب.

عاد بيبي من واشنطن وأعلن –بضغط من الأمريكيين– الانسحاب من حي الخليل، كانت الرسالة التي بعث بها إلى الفلسطينيين أن العنف مؤثر.

وبعد أربعة أشهر، أرسل بيبي رسالة أخرى إلى الفلسطينيين من خلال إعطاء الضوء الأخضر بتشييد مستوطنة جديدة كبرى، هار حوما، في القدس الشرقية المحتلة.

الفصل السابع عشر:

الأخوان عوض الله

من وقت لآخر كنت ألتقي بعرفات في منتصف الليل في المقاطعة، وعادة ما ينضم إلينا جبريل الرجوب.

ظاهريًا، كان عرفات يواصل كرم ضيافته العربية النمطية، ودفع الطعام في وجهي: كُل! تَأكُل! أنت لست جائعاً؟ ما مشكلتك؟! .. كانت لديه طريقة للنهوض من كرسيه تشبه طريقة: "جاك في الصندوق"، يميل رأسه إلى جانب واحد، ويقيس حجم فريسته.

سرعان ما تعلمت أن أرى ما وراء تكلفه المصطنع، فلم يكن أحمق، ومن خلال أسئلة المتابعة الخاصة به حول أي قضايا أمنية أثارته، أثبت ببراعة أنه مدقق في أصغر التفاصيل، ولكن عندما لمست وتراً حساساً فقط، ارتدى عرفات –الممثل الخارق– القناع وتظاهر بالارتباك.

سيكشف لي أخطر إرهابي في حماس قريباً، عما يكمن وراء النزعة المسرحية التي شاركها نتنياهو وعرفات.

موسى غنيمات

في ظهيرة ربيع عام 1997، وتحديداً يوم 21 مارس، غادر موسى عبد القادر غنيمات قرية صوريف بالضفة الغربية حاملاً قنبلة صنعها المهندس عادل عوض الله، قائد كتائب القسام، الجناح العسكري لحركة حماس في الضفة الغربية.

كان هدفه هو مقهى أبروبو، مكاني المألوف في شارع بن غوريون، وبعد دقائق من دخول غنيمات المقهى، قام عنصر آخر بتفجير القنبلة بجهاز تحكم عن بعد.

عندما وصلت إلى مكان الحادث، كانت رائحة الكوردايت النتنة منتشرة في الهواء، وقد تناثرت أشلاء الأشخاص الذين فشلت في حمايتهم عبر الجدران وأطباق السلطة، وكان ضحايا الهجوم ثلاث نساء في أوائل الثلاثينيات من العمر، إحداهن –وهي أم– تلقت الانفجار بجسدها لتنقذ حياة طفلها البالغ من العمر ستة أشهر، الذي كان يرتدي زي المهرج في عيد المساخر.

بعد ثلاثة أشهر، قام رجلان –يرتديان بدلات داكنة ويحملان حقائب معلقة على الكتف ويبدوان بائعين متجولين– بتفجير نفسيهما في وسط محانيه يهودا، سوق الخضار المكشوف في القدس، حيث احتوت حقائبهم على أكثر من ثلاثين رطلاً من المتفجرات البلاستيكية والبراغي والمسامير، حيث سقط ستة عشر شخصاً ضحية القصف، بينهم أمريكي، وجُرح مائة وثمانية وسبعون آخرون.

في سبتمبر/أيلول، أصاب عادل عوض الله مرة أخرى، قام رجل بتفجير نفسه في مركز بن يهودا للمشاة في القدس، وهذه المرة قتل خمسة أشخاص وجرح مائة وواحد وثمانين آخرين.

قام بيبي بعقد اجتماع طارئ لمجلس الوزراء الأمني لبحث موجة التفجيرات المتجددة، واقترح البعض خلال الاجتماع اغتيال الشيخ ياسين –الزعيم الروحي لحركة حماس–، وآخرون يريدون منا القضاء على ياسر عرفات، حينها قال جنرال سابق بلهجة جادَّة: "علينا فقط محو رام الله من الخريطة بالدبابات".

بطبيعة الحال، فإن مهاجمة مَعقِل عرفات لن يؤدي إلا إلى تشجيع المزيد من الإرهاب الإسلامي، لقد بذلت قصارى جهدي لكبح جماح الدعوات المجنونة للانتقام، مذكّراً بيبي مرة أخرى أنه ما لم يكن للفلسطينيين مصلحة في عملية أوسلو، فيمكننا الاعتماد على المزيد من العنف.

رئيس الوزراء وحكومته نظروا إليّ بعداء مُقنَّع لأنني عارضت ذرائعهم لضرب عرفات ونظامه، والتخلي عن اتفاق أوسلو المشئوم، واعتقد معظمهم أن عرفات لم يخدع فقد رابين وبيريز، بل خدع رئيس الشاباك أيضا.

بعد هجومٍ مُروعٍ آخر في الضفة الغربية، عقد نتنياهو اجتماعاً لمستشاريه الأمنيين، قلت إنني بحاجة إلى بضعة أيام لمعرفة من يقف وراء الهجوم، وأنني سأعود عندما يكون لدي معلومات استخباراتية يمكننا التصرف بناءً عليها.

لم يكن هذا هو الرد الذي أراده بيبي، لذلك لجأ إلى قائد القيادة المركزية عوزي دايان للحصول على أفكار حول كيفية الانتقام.

اقترح دايان –ابن شقيق موشيه دايان– تحويل القاعدة العسكرية في الضفة الغربية إلى مستوطنة يهودية جديدة.. وقد هنأه معظم الحاضرين على الخروج بمثل هذا "الرد الصهيوني المناسب" على الإرهاب.

قلت وأنا أقف وأُجَمِّع أوراقي: "السيد رئيس الوزراء.. أريد أن أُوضح شيئًا، إذا كنا هنا لمناقشة الإجراءات المرجوَّة في الضفة الغربية، –وهو المزيد من الدوريات العسكرية، وإضاءة أفضل على الطرق التي يقودها المستوطنون، وما شابه– فمن المنطقي بالنسبة لي أن أكون هنا، لكن إذا كنت ستتحدث عن توسيع المستوطنات، فاستبعدني.. فوظيفتي هي تقديم المشورة بشأن الأمن، أما بناء المستوطنات فهو قرار سياسي، ولن أكون طرفاً في مناقشة الإجراءات التي أعرف أنها لن تؤدي إلا لمزيدٍ من العنف".

في تاريخ الشاباك، لم يحدث أبداً أن يُقال كلمة "لا" لرئيس الوزراء، لكن في هذه المرحلة، قررتُ أن وظيفتي تتطلب مني قول الحقيقة، بغض النظر عما يراه قادتنا.. ارتخى فكِّي عندما استدرت وخرجت من القاعة.

مع وجود معظم مقاتلي حماس الكبار خلف القضبان، أو موتى، كان عوض الله، الذي كان لا يزال طليقًا، هو العامل الأكثر احتمالية لجلب الكارثة.

في غضون ذلك، وبعد عامين في الخدمة، شعرت أن الوقت قد حان لتقديم مدونة لقواعد السلوك، حيث كان الهدف هو الحصول على معلومات استخباراتية أكثر فعالية، وكان من الواضح لي بشكل متزايد أن التعذيب أوجد معلومات استخباراتية سيئة –سيخبرك شخص ما على الرف بكل ما تريد سماعه، كما أدى التعذيب إلى تجريد الجلاد من إنسانيته وإيذاء منظمة الشاباك، لأنه كان لديه وسيلة لتحويل الناعمين فكرياً إلى متوحشين.

لسببٍ ما جاءتني شيفرة خلال تناولي العشاء في وقت متأخر من الليل في إحدى المقاهي، فقد كان عليَّ أن أجد مكانًا جديدًا عندما فجر الإرهابيون مقهى أبروبو، وعلى العشاء سألني صديق محامٍ وفيلسوف عن تجربتي مع الشاباك، كما ذكرني بقصة محقق من الشاباك الذي كذب –بعد أداء القسم– بشأن جرائمه.

جعلني هذا أفكر في جميع الأوقات الأخرى في الماضي التي كذب فيها شعبنا على الحكومة والصحافة وحتى المحكمة العليا بشأن أساليبنا.

قادتنا ليسوا أغبياء، هم يعلمون أنهم يكذبون عليهم، لكنهم لم يعترضوا لأنهم كانوا يكذبون على أنفسهم أيضًا، فعند التفكير في أسباب الأكاذيب وخداع الذات، تحول ذهني إلى قوانين

الروبوتات التي حلم بها إسحاق أسيموف، كاتب الخيال العلمي الذي قرأته عندما كنت طفلاً، حيث ينص قانونه الثالث على أن الروبوت يجب أن يفعل كل ما في وسعه لحماية بقائه.

لقد قمت بترجمة قوانين أسيموف للروبوتات إلى قوانين بقاء المنظمة، أولاً: منظمة مثل الشاباك ستفعل كل شيء لتحقيق مهمتها، وذلك قانون يعني غض النظر للنجاح، وفي حالتنا لمنع الإرهاب فإن المنظمة سوف تُزيل كل العقبات في طريقها، بما في ذلك سيادة القانون وحقوق الإنسان، فهذا هو الحال عندما يُفضِّل الجمهور المذعور الأمن على الحقوق، خاصة عندما تكون الحقوق التي يتم انتهاكها هي حقوق شخص آخر.

كما أن مدونة الأخلاق التي بدأنا في وضعها سعت إلى ترويض هذا الدافع للحفاظ على الذات من خلال قانون أسيموف الروبوتي الأول والثاني، الذي جاء فيه: لا يجوز للروبوت أن يؤذي إنسانًا، أو أن يتقاعس عن العمل، يُسمح للإنسان أن يلحق الأذى ويجب أن يمتثل الروبوت للأوامر الصادرة عن البشر إلا إذا كانت هذه الأوامر تتعارض مع القانون الأول.

في عمل الشاباك، يتم ترجمة الوسائل الجسدية أو النفسية لاستخراج المعلومات، فقط كوسيلة لحماية أرواح الأبرياء، لأن عملنا يعتمد على الحصول على المعلومات الحقيقية الموثوقة، فالأكاذيب لا مكان لها في صندوق أدواتنا.

إحدى الطرق التي حاولنا بها إدخال ثقافة جديدة في مجتمع الشاباك المنغلق بإحكام، كانت دعوة أشخاص جدد، مثل: الفلاسفة والشعراء والصحفيين وأعضاء المحكمة العليا؛ لمخاطبة الضباط.

وابتكار آخر صنعناه كان في التكنولوجيا؛ لاختراق تنظيم حماس العسكري وخلاياها، حيث كنا بحاجة إلى تقنية استخباراتية دقيقة، وإذا أمكن –في الوقت الحقيقي– لتحل محل "الملفات" المذكورة أعلاه.

أحد الحلول التي توصلنا إليها كان التحول الرقمي، بعيداً عن مصطلح: "الدولة الناشئة" "Start Up Nation" الذي لم يُصاغ بعد، مع ذلك فقد كانت التكنولوجيا العالية مزدهرة،

نظرت خارج الشاباك، إلى الجامعات ومعاهد الأبحاث، بحثًا عن المواهب الفنية التي نحتاجها لاختراق شبكات الإرهاب واستخراج معلومات مفيدة من المعلومات الاستخبارية الخام.

كانت للتكنولوجيا حدودها، لأن الإرهابيين الذين كانوا على رأس قائمتنا للقبض عليهم أو القضاء عليهم، اكتشفوا سريعاً أننا نراقب اتصالات الهواتف المحمولة، فكانت طريقة الشاباك الوحيدة التي يثقوا بها هي عن طريق البشر، وهم أشخاص قاموا بفحصهم على أنهم موالون لهم ولعقيدة الإسلاميين المتمثلة في الجهاد المستمر ضدنا، فقد كان الانتحاري الذي استهدف مقهى

أبروبو، موسى عبد القادر غنيمات، قد جنده إبراهيم غنيمات، أحد أقاربه في قرية صوريف، ولم يترك غنيمات أي أثر إلكتروني أو مادي.

في أيلول (سبتمبر) 1998، عدت إلى كرم مهرال، وكالعادة، كنت أسير في غرفة المعيشة محبطًا لأن نجاح الشاباك في منع الإرهاب سمح للقادة "الإسرائيليين" بالعودة إلى العادة القديمة المتمثلة في تجاهل مصدر العنف، وهو الاحتلال.

وقبل بضعة أشهر، في ما يسميه الفلسطينيون يوم النكبة أو ذكرى خسارة جزء كبير من فلسطين عام 1948، أعد الشاعر درويش خطابًا آخر لعرفات، في هذا الخطاب قال الرجل الذي استمر معظم "الإسرائيليين" في رؤيته على أنه تجسيد للشر: "نحن ندرك معاناة الشعب اليهودي .. لا نسعى لأن نكون أسرى التاريخ أو ضحايا الماضي، فقد أطلق الشعب الفلسطيني حملة مبادرة إنقاذ إلى المستقبل، من أنقاض مآسينا وأحزاننا وخسارتنا، نبعث أمة تحتفل بالحياة والأمل"، كان دفاع عرفات عن أوسلو الأكثر ثباتًا حتى الآن، وعندما قمت بترجمته وتوزيعه على أعضاء مجلس الوزراء، أدار الناس الجالسين حول الطاولة أعينهم.

كنت متوتراً أيضًا لأنني قرأت للتو استطلاعًا للرأي من الشقاقي يدعم تقارير من جبريل ومخبرينا في البلدات والقرى الفلسطينية عن سكان يقتربون من نقطة الانهيار والتوتر، فقد كان هناك شك متزايد يغذيه بناء المستوطنات، بأن الاحتلال لن ينتهي أبدًا، وفي نفس الوقت كان التأييد لعملية السلام يتضاءل.

سمعت رنين الهاتف في المطبخ، ومن برنامج تعريف المتصل على الخط الآمن، كنت أعلم أنه يجب أن يكون مهمًا.. فقد كان يوفال ديسكين، الذي لم يتصل بي في المنزل لمجرد الدردشة.

"حصلت على شيء لك".. أخبرتني نبرة صوت ديسكين الخشن أن هذا "الشيء" هو ما نسميه في الأعمال الأمنية الاستخباراتية القابلة للتنفيذ.

"ما هذا الشيء؟"

"عادل عوض الله".

قال لي بكلمات مقتطعة إن لدينا "مكانه المحدد".

شعرت بقشعريرة في جلدي عندما استوعبت الأخبار التي تفيد بأننا تعقبنا الرجل الذي كان يتمكن من الهرب من شبكتنا لفترة طويلة، من الصور التي لدينا في ملف عادل عوض الله، لم يكن يبدو عليه أنه متعصبًا نمطيًا، فقد كان من الممكن أن يكون طالب الرياضيات والتكنولوجيا

السابق في جامعة القدس التابعة لساري نسيبة مبرمجًا لشركة IBM في نظاراته الفولاذية الشديدة، لكن السنوات التي قضاها هربًا منا وجاذبيته الشديدة، حوّلت صانع القنابل والخبير الاستراتيجي وراء قوة وبطش حماس إلى بطل شعبي فلسطيني.

أخبرني ديسكين كيف هرب عماد عوض الله، شقيق عادل، البالغ من العمر ثمانية وأربعين عامًا، من سجن فلسطيني قبل ذلك بشهر، حيث كان محتجزًا بتُهم تتعلق بقتل عالم آثار أمريكي، وأصدر جبريل تعليمات لمحققيه بوضع عماد على الرف لانتزاع المعلومات حول مكان وجود شقيقه، ولكن دون جدوى.

بعد هروب عماد من السجن، تعقب محللونا الشقيقين إلى مزرعة في خربة الطيبة، وهي قرية قريبة من الخليل كانت موطناً لحركة حماس، ولأول مرة كان لدينا كلا الشقيقين في متناول أيدينا.

هنأت ديسكين على عمله الجيد، ثم قلت، "توصل الآن إلى خطة جاهزة للتنفيذ"، ثم انقطع الخط.

في مطبخي، تساءلت كم من الوقت كان لدينا للقبض على الأخوين؟ وكم من الوقت سيبقون في المزرعة؟ بضع ساعات؟ يوم؟ لم يكن لدينا وقت لنضيعه.

في اليوم التالي اجتمع فريق قيادتي لمناقشة كيفية المضي قدمًا، حيث قدَّم ديسكين خطة للقضاء على الإخوة من الجو، وهي عملية بسيطة وقاتلة لا تشكل خطورة كبيرة على رجالنا، وبما أنهم كانوا وحدهم في بيت المزرعة، فإن هذا النهج لن يضر بالمارة.

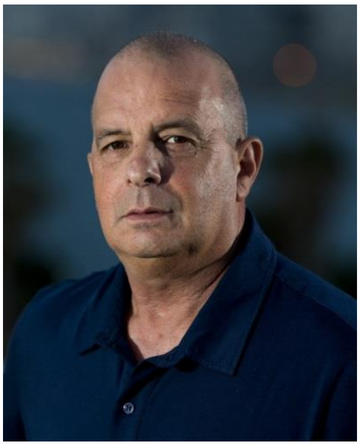
ديسكين

أخبرت ديسكين أننا نريد اعتقال الإرهابيين الاثنين وهم على قيد الحياة، في هذه المرحلة من فترة ولايتي، كنت قد صغت سياسة لعمليات القتل المستهدف، والتي جلبت قدرًا بسيطًا من أخلاق المهنة بجانب الأعمال القذرة التي نقوم بها، وأن القتل يجب أن يكون فقط كملاذ أخير.

أما في حالة الأخوين، فإن هجومًا عسكريًا واسع النطاق من الجو للقضاء عليهم، من شأنه أن يؤدي إلى استشهادهم، مما يُلهم مجموعة جديدة من المفجرين الانتحاريين، لقد رأيت أنه من الأفضل بكثير ربطهم بالكرسي والضغط عليهم لاستخراج المعلومات، لأن تلك الجماعة السرية مثل حماس لا تخشى شيئا أكثر من أن ينكسر أحد قادتها أثناء الاستجواب.

بمجرد أن توصل ديسكين إلى خطة أولية، اتصلت بمكتب رئيس الوزراء نتنياهو، لوضعه في صورة المخاطر، على افتراض أن الإذن بتنفيذ العملية سيكون مجرد إجراء شكلي.

عندما دخلت إلى الطابق العلوي لبيبي في ذلك الصباح في سبتمبر 1998 قمت بمسح الغرفة بعيني، وكالعادة أُعجبت بالصورة المؤطرة لثيودور هرتزل معلقة على الحائط.

نتنياهو: "الإرهاب: كيف يمكن للغرب أن ينتصر".. قالها وهو ينظر إليَّ من رفوف الكتب.

جلس رئيس الوزراء خلف مكتبه مرتديا نظارة قراءة نصف القمر التي يستخدمها في الأعمال الورقية، نظر إلى الأعلى من قراءته وأشار لي أن أجلس.

ثم سألني وهو يميل رأسه لأسفل حتى يتمكن من النظر إلي من فوق نظارته، "ماذا لديك لي يا عامي؟".

قلت: "عوض الله، لقد تعقبنا كلا الأخوين".. لقد عرضت الحقائق، ثم توقفت للحظة لأترك ثقل الأخبار تُغرِقُه قبل أن أطلب الإذن بتنفيذ خطتنا، انحنى نتنياهو على كرسيه، واضعًا يديه على مكتبه الخشبي الطويل، ثم وقف وساعته الفضية مرئية من تحت طرف قميصه الأبيض.

قام بإمالة رأسه إلى الخلف وحدق بشكل مجرد في الزاوية، وكان ضوء القمر يتوهج من خلال نوافذ باوهاوس ليضيء وجهه المهيب.. ثم أخيرًا قال: "لا" وهو يقوس حاجبيه.. "لا يمكنني السماح بذلك".

لقد ابتُلِعتُ بشدة، فلو كان سياسيًا عاديًا، لما ألومه على الشعور بالدوار والذعر من فكرة أن ضرب عوض الله قد يُطلق العنان لموجة جديدة من الهجمات الانتقامية، لكن هذا الرجل كان قد اتهم عرفات أمام الكاميرا بعدم القيام بدوره في اعتقال الإرهابيين، وهو الآن يرفض أفضل فرصة كانت متاحة له خلال فترة ولايته للقيام بدوره.

بدأت: "سيدي" –وأنا أقيس كلماتي بعناية– "الاستخبارات السرية من هذه النوعية تأتي مرة واحدة في العمر، وليس لدي نية لتحويل الإخوة إلى شهداء، سنبذل قصارى جهدنا لإبقائهم أحياء، وإذا انتقمت حماس حسنًا، سيتعين علينا فقط التعامل معها، ولكن المعلومات التي سنحصل عليها منهم حول البنية التحتية الإرهابية لحماس: –المفجرين وصانعي القنابل والخلايا النائمة ومصدر التمويل–، يُمكن أن تُساعدنا في تقليل مستوى العنف".

استدار ونظر إليَّ، ولكن ليس في عيني هذه المرة، وبدلاً من ذلك حدق تحت وجهي في حلقي، وهز رأسه مرة أخرى وهو يحدق وقال: "لا".

"سيدي، لقد جعلناهم محاصرين!"

"قلت لك جوابي".

مع وجود أرواح "الإسرائيليين" الأبرياء بين يدي، ما كان عليَّ أن أتراجع، أوضحت له أن هناك لحظات اضطررنا فيها للسير في حقل الألغام، لقد فهمنا أن القبض على الأخوين قد يدفع إلى القتل الانتقامي، وأن حماس قد تحاول خطف "إسرائيليين" لإطلاق سراح الأخوين، ولكننا عرفنا كيف نتأقلم، لقد تحسن مستوى تعاوننا مع السلطة الفلسطينية، وكان اختراق المخابرات أفضل بكثير مما كان عليه قبل أكثر من عامين، عندما أدى مقتل المهندس عياش إلى تفجير حافلات.

رد عليَّ بحسم: "حسنا، فليعتني عرفات بعوض الله".

لقد كان موقفًا رأيته كثيرًا بين كبار قادتنا: *لن نجازف برد حماس الانتقامي*، واتبعنا هذا المنطق: *لكننا سنجبر عرفات على فعل ذلك، حتى لو كان ذلك يعرض نظامه للخطر، لماذا يجب أن نهتم بعرفات بأي طريقة؟ فيما مضى إرهابياً، دائماً إرهابي*.

واصلت: "سيدي"، منتقلًا من لهجة الاحترام إلى لهجة أكثر وضوحاً، "عرفات لن يفعل هذا لنا، إنه لا يعمل لدينا"، إلى جانب ذلك، ذكرته أن الإخوة في قرية تحت سيطرتنا الأمنية، ولن يسمح الجيش "الإسرائيلي" للفلسطينيين بتنفيذ عملية في المناطق التي قمنا بدوريات فيها.

نتنياهو عض على شفتيه للتو.

ذهبنا في حلقة مفرغة لمدة ساعتين، وعندما فشل التكرار والتخبط، لعبت الورقة الأخيرة التي حصلت عليها: "سيدي رئيس الوزراء، لا أحد يفهم خطر الهجمات الانتقامية أكثر مني، صدقني، لكن اليوم الذي سنتوقف فيه عن الدفاع عن أنفسنا لأننا نخشى العواقب هو اليوم الذي نرفع فيه الراية البيضاء، ومع كل الاحترام الواجب، ما تقوله لي هو أن حماس قد انتصرت!، فإذا لم أتمكن من اتخاذ إجراء عملي ضد قائد كتائب القسام، فإن هناك شخص يعمل حاليًا لوقت إضافي لقتل أكبر عدد ممكن من المدنيين "الإسرائيليين"، وعندها لا يمكنني الاستمرار في القيام بعملي، وإذا لم تسمحوا بالعملية الآن، فلن أتمكن من الاستمرار في منصبي".

رئيس الوزراء كان هادئا، أشعل سيجارًا، وبدأ بإيماءة رأسه وهو يفرك جبهته بإصبع واحد بعناية، افترضت أنه كان يحسب التداعيات السياسية لاستقالتي، ثم قال أخيرًا: "حسنًا، ولكن لا تُفسد الأمر".

بعد أن قررنا بالفعل أننا سنحاول إلقاء القبض عليهم أحياء، التقى فريقنا لمناقشة اللوجستيات مع أعضاء وحدة مكافحة الإرهاب التابعة للشرطة، والتي ستساعدنا في تنفيذ العملية، وأخرجت خرائط للمنطقة المحيطة بالخليل، وهي منطقة تلال وعرة مليئة بجحافل من المحبين والمؤيدين لحركة حماس، رأينا أنه يجب أن تتم العملية تحت جنح الظلام، وسيكون عنصر المفاجأة هو المفتاح، وسنحتاج أيضًا إلى الخروج من القرية بالابتعاد عن الحشد الذي من الممكن أن يسد طريقنا.

استغرق الأمر عدة أيام أخرى من جمع المعلومات الاستخبارية والتخطيط، وأخيراً القليل من الحظ، قبل أن نكون مستعدين، فقد كنا نعرف مكان وجود الإخوة، كيف غادروا بيت المزرعة، وكيفية دخول المبنى.

في إحدى مرات غيابهم، قام أحد خاصتنا بتحويل المكان إلى أستوديو تلفزيون، في الواقع لم يكن هناك ركن بالمنزل غير مجهز بكاميرا الأشعة تحت الحمراء وميكروفون، استمعنا ولمدة أربعة أيام إلى محادثات الأخوين: نقاشات حول إنتاج صواريخ بجودة حزب الله، واستعدادات لتفجير خمس سيارات مفخخة ضخمة في مدن "إسرائيلية"، وخطط لنشر أسلحة كيماوية، وتسميم إمدادات المياه في تل أبيب، كما وتتضمن مخطط آخر لاختطاف الجنرال رافول إيتان، والمدراء السابقين في الشاباك، يعكوف بيري وكارمي جيلون.

كما علمنا من خلال الميكروفونات الخفية أن حماس –رغم كل عنفها– لديها خطوط حمراء، فعندما تعهد عماد بقتل جبريل لتعذيبه، قال عادل: "لا، نحن لا نستهدف إخواننا المسلمين".

وفي لحظة أن كنا مستعدين، أرسلنا قوات الكوماندوز الخاصة بنا، منتظرين في مكان قريب في قافلة مكونة من ثماني شاحنات وعربات صغيرة، لاقتحام المزرعة.

تسلقت وحدة صغيرة من الكوماندوز، برفقة كلاب هجومية، الجدار المحيط بالمنزل واقتحمت المبنى.

من داخل مركز قيادة الشاباك، كنت أشاهد في بث الفيديو المباشر، بينما كان عادل يمد يده إلى سلاحه ويطلق النار على الكلب قبل أن يقتله رجالنا، وفور استيقاظ شقيقه، تحرك سريعاً للحصول على بندقيته، ولكن تم قتله.

وبعد مقتل الأخوين، قام أفراد الكوماندوز بتفتيش المنزل وعثروا على تسع قنابل يدوية وسلاحين آليين ومسدسين ورصاص وخمسة أنواع من الشعر المستعار، أحدهم بلون أشقر.

كنت أرغب في أن يكون الإخوة على قيد الحياة من أجل المعلومات الاستخباراتية التي ربما استخلصناها منهم، لكننا وجدنا "كيس تبادل معلومات" مربوطة بظهر عادل ربما تكون أكثر قيمة من أي شيء يمكن أن يُخرجه المحقق منه: كيس ضخم يحتوي على عدة مئات من الوثائق التي تصل إلى الدماغ والجهاز العصبي المركزي للبنية التحتية العملياتية الاستخباراتية لحماس في الضفة الغربية.

لم أكن أعتقد أن عادل –المقاتل المخضرم في حرب العصابات–، سيرتكب مثل هذا الخطأ الأساسي حتى في أحلام اليقظة، ومن السخرية أنه لم يثق في أي شخص آخر غيره بالمواد، التي كان يخشى أن ينتهي بها المطاف بين أيدي الصحفيين وينشرونها قريباً، اتضح بعد ذلك أن خوفه كان له ما يبرره.

قبل منتصف الليل بقليل، بعد انتهاء العملية مباشرة، اتصلتُ بنتنياهو وأصررت على إجراء لقاء آخر وجهًا لوجه؛ لشرح الظروف المحيطة بالعملية.

التقينا في مكتبه بعد نصف ساعة، وبينما كنت أتحدث، انحنى إلى الأمام في كرسيه، ومرفقيه على المنضدة، ونظر إليَّ مباشرة، وبقعة الصلع أعلى رأسه تعكس ضوء المصباح، وبرز نعله المنزلي من تحت مكتبه.

تسائل: "ماذا ستفعل؟".

أجبته: "سيتعين علينا إصدار بيان للصحافة".

وقف ومد ذراعيه وساقيه وتنهد بصخب، بدا رئيس الوزراء فجأة ضعيفاً وسط زخارف السلطة وعلم نجمة داود خلف المكتب، وصورة بإطار لهرتسل معلقة على الحائط.

"الصحافة.. نعم، لنفترض أنها كانت حادث عمل آخر". واقترح علينا أن نُعلن أن الإخوة فجروا أنفسهم أثناء التحضير لهجومنا عليهم.

أجبته: "السيد رئيس الوزراء.. الجميع يعرف أننا كنا في المنطقة، ومن المحتمل أن الشائعات تنتشر بالفعل في كرمة العنب الفلسطينية وبين المستوطنين، ولا يمكن المراهنة على أن الصحفيين لن يصطادوا في الماء العكر قريبًا، فأنت رئيس الوزراء ويمكنك أن تقول للعالم أي رواية تريدها، أما بالنسبة لي: فإني لن أكذب على وسائل الإعلام، لأنه إذا بدأنا في الكذب، فلن يصدق أحد أي شيء نقوله فيما بعد، فهذه مسألة تتعلق بمصداقية دولة إسرائيل والشاباك".

قال بيبي: "المصداقية ليست من عملك". "التزم بالأمن".

"قدرتنا تعتمد على مصداقيتنا.. كما قلت: لن أكذب على وسائل الإعلام".

قال بيبي: "أنت لا تفهم في الإعلام".

ثم رفع نتنياهو إصبعه مثل تلميذ في فصل دراسي، ثم بدا وكأنه غيَّر رأيه، ثم أعاد يده إلى المكتب.. سمعته يقول شيئًا ما في أنفاسه بدا وكأنه يلعن، ثم اعترف أخيراً: "حسنا يا عامي، ماذا تقترح أن نفعل؟".

وأضاف: "سننشر في الصباح بياناً للصحافة، وعلينا أيضا أن نوضح تماماً لعرفات ما نتوقعه، لأن ردة فعله ستكون مفتاحاً لأحجام حماس عن الانتقام".

"كيف سنقوم بفعل ذلك؟"

"سأذهب لرؤيته الآن".

امسك ذقنه وكأنه يتمنى لي حظًا سعيدًا.

بعد منتصف الليل بفترة طويلة، اتصلت بمدير مكتب عرفات، وأخبرته أنني في طريقي لرؤية رئيسه، وطلبت حضور جبريل ودحلان.

وصلت إلى المجمع الرئاسي في رام الله بعد ساعة في سيارة لا تحمل لوحات تعريفية، توقفتُ قبل أن أُسلِّم نفسي للمسلحين الذين يحرسون المجمع، الذين أخذوني إلى الطابق العلوي إلى الرئيس عرفات.

أشار عرفات إلى كرسي معدني قابل للطي، وبعد أن جلستُ بقليل، دخل رجلٌ من الباب يحمل طبق من الشاي والحلوى.. "تأكل!" كان عرفات قد أمره، وأشار إلى طبق كنافة –فطيرة بالجبنة الحلوة– كان يعرف أنني أُحبها، ولكن العقدة والغصة في معدتي جعلتني لا أشتهي شيء.

كان ذلك في وقت مبكر من الصباح، وبدا قلقًا، كان عرفات يرتدي –بالإضافة إلى الكوفية ذات اللونين الأسود والأبيض–، كان يرتدي قميصًا قطنيًا رخيصًا به زر في الأسفل، وسترة ساحة المعركة لونها خضراء زيتونية مكوية بعناية، كان الزر العلوي كبيرًا بعض الشيء بالنسبة له على الرغم من بدانته، وبدت ثابه بأكملها وكأنها قد أتت من مركز إيواء، كان هذا أيضًا جزءًا من شخصيته الاسطورية: ليس اناني، ويحتقر للرفاهية، ورجل مخلص بالكامل لتحرير فلسطين.

ارتجفت يده من مرض باركنسون الأولي وهو يرفع كأس الشاي، لقد تغير بشكل ملحوظ منذ لقاءنا الأول في عام 1996، عندما كان بيريس في السلطة وكانت أوسلو عملية قابلة للحياة، كانت معيبة لكنها كانت قوية بما يكفي لإنهاء الصراع، لقد تحمَّل الآن عامين مع نتنياهو، وقد ظهر ذلك في سلوكه المفعم بالشك.

لجأت إلى المطاردة: "سيدي الرئيس، قتلنا عادل وعماد عوض الله هذا المساء، وباسم دولة "إسرائيل"، نطلب منك أن تفعل كل ما في وسعك لمنع حماس من الانتقام، إنهم أعداؤك كما هم أعداءنا".

جلس عرفات مستقيماً على كرسيه، وحدق في عينيه المحتقنة بالدماء، رده سيحدد ما إذا كانت عملية السلام ستعيش حتى ترى يومًا آخر.

أخذت نفساً عميقاً وواصلت حديثي الذي تدربت عليه طوال نصف ساعة بالسيارة من القدس: "الرئيس عرفات، إذا ردت حماس أو أي شخص آخر على هذا الحدث بقصفنا، يمكنك أن تنسى الاتفاقات والعمليات".. لم تكن هناك حاجة للخوض في التفاصيل، كانت العواقب المحتملة واضحة وضوح الشمس لعرفات، توقف، وأضاف المزيد من العسل في الشاي.

وأخيرًا قال وهو يرتشف من فنجان الشاي: "أنا بحاجة إلى يومين حتى أستعد"، فقد كان يقصد أنه سيقوم باكتساح نشطاء حماس أو تحذيرهم من التراجع، حينها طلب منا تأجيل إعلان موت الأخوين حتى يكون جاهزاً.

"يومان؟"، نظرت إلى جبريل ثم عدت إلى عرفات.. "بعد أربع ساعات سننشر بيانًا للصحافة في الساعة السادسة صباحًا، ونحتاج إلى استباق وسائل الإعلام التي بدأت بالفعل في تشمم القصة".

كانت جفونه ترفرف، وتململ بشيء على مكتبه، ربما كرة تنس أو زوج من حجارة النرد.. سألني عما أعتقد أنه يجب أن يفعله أولاً، نظرتُ إلى جبريل الذي قابل نظراتي.

قلت له: "جبريل يعرف".

استدار عرفات إلى جبريل، حبست أنفاسي، كنت أعرف طريقته بالصراخ في وجه الملازمون حوله، أو سبهم، أو إبعادهم عن دائرته الداخلية بسبب جرائم شبيهة.

"ماذا تقول؟" .. سأل جبريل باللغة العربية حيث يمكنني فهمهم بسهولة.

أومأ جبريل برأسه، وقال: "نحن نعرف ماذا نفعل، نحن فقط بحاجة إلى إذنك".

"لديك الإذن".

أما في غزة، فقد رد الشيخ ياسين على الخبر بقوله لمؤيديه: "هذه هي طبيعة الحرب، أحياناً ننتصر وأحياناً نخسر، ردنا قريب بإذن الله".

وبعدها بأيام، احتشد آلاف من أنصار حماس في شوارع الضفة الغربية مطالبين بـ "الانتقام الآن"، بدأت الشائعات تنتشر بأن "الشهداء" هم ضحايا تعاون جبريل معنا، مما دفع بعض قادة فتح إلى المطالبة بالانتقام لأن العنف -كما قالوا- هو اللغة الوحيدة التي يفهمها "الإسرائيليون"، فلم يعرف الفلسطينيون جبريل جيدًا كما عرفته أنا، وكان آخر شيء يمكن أن يفعله هو تسليم فلسطيني بأيديه لنا.

بينما قامت حماس بأعمال نضالية وتوعدت بالانتقام، فقد تأملنا في المعلومات التي وقعت في أيدينا: من مئات الوثائق المسجلة على ظهر عوض الله، يمكننا رسم هيكل حماس بالكامل في الضفة الغربية، فقد حصلنا على أسماء النشطاء ومواقعهم وخريطة لخلايا حماس الإرهابية المختلفة.

لقد مكننا الكنز الدفين، من خلال التحليل الدقيق وعشرات العمليات الاستخباراتية، من تحطيم ثغرات في البنية التحتية الإرهابية لحماس، حيث أدت عشرات العمليات التي نفذها الجيش والشاباك، بالتنسيق مع الفلسطينيين في كثير من الأحيان، إلى وقف الإرهاب خلال عام 1999 وحتى عام 2000.

لكن لو تصرف سياسيونا بحكمة لكنا قد شللنا منظمة حماس بشكل دائم.

الفصل الثامن عشر:

القنبلة الموقوتة

بحسب اتفاقية أوسلو، فإنه بحلول نهاية عام 1998 كان من المفترض أن يكون الفلسطينيون قد استلموا معظم الأراضي المحتلة، وكان على الجانبين الدخول في مفاوضات حول: الحدود النهائية والأمن والقدس والمستوطنات والمياه واللاجئين، لكن الإرهاب الفلسطيني واليهودي اقترن بالتوسع المستمر في المستوطنات لتدمير أوسلو.

وبحلول تشرين الأول (أكتوبر) من ذلك العام، لم يتلق عرفات سوى جزء ضئيل مما شعر أنه قد وُعد به، وكان صبره ينفد لأنه لا يستطيع أن يُظهر لشعبه أن التفاوض مع "الإسرائيليين" جعلهم أقرب إلى إنهاء الاحتلال.

الأمريكيون شاركوه إحباطه، بدأ كلينتون في الضغط على نتنياهو لاستكمال نقل الأراضي، وفي موازاة ذلك أصدر تعليماته لوكالة المخابرات المركزية لتعزيز جهود جهاز الأمن الفلسطيني لمكافحة الإرهاب.

وافق نتنياهو أخيرًا على المشاركة في قمة استضافها الرئيس كلينتون في واي ريفر في ماريلاند حيث سيتفاوض نتنياهو وعرفات أخيرًا وجهاً لوجه، حيث كان على الطاولة اقتراح قدمه كلينتون، مفاده أن تنسحب "إسرائيل" من 13٪ إضافية من الضفة الغربية.

جانب من توقيع اتفاقية واي ريفر 1998

عشية قمة كلينتون ونتنياهو وعرفات، أعلنت حكومة نتنياهو عن خطط لبناء 1200 منزل بالقرب من مستوطنة "آلي زهاف"، على بُعد ثلاثة أميال داخل الضفة الغربية.

العجيب أن جبريل الرجوب وقواته واصلوا العمل معنا، في إحدى المرات حصلنا على معلومات عن هجوم في وسط "إسرائيل" تم التخطيط له في منطقة نابلس من قبل ناشط في حماس مقرب من الشيخ ياسين، كان الناشط في طريقه إلى غزة للقاء ياسين من أجل الحصول على الضوء الأخضر الأخير، ولكننا أسرناه عند نقطة تفتيش إيريز.

من خلال وسائل مختلفة، علمنا بالفعل من هو صانع القنابل في نابلس، وعرفنا أنه يخطط للهجوم في اليوم التالي.. ولكن ما لم نكن نعرفه هو المنزل المحدد، حيث يمكننا تعقب الإرهابيين قبل أن يتمكنوا من العمل، فقد كانت لدينا قنبلة موقوتة كلاسيكية في أيدينا، وتوقعت أن يقوم المحققون بسحب كل ما في وسعهم من السجين لاستخراج موقع تلك القنبلة.

عندما اتصل بي رئيس التحقيق، طلبت منه المضي قُدُماً في الاستجواب، كما لو كان يتعامل مع "قنبلة موقوتة"، حينها تخيلت أن سيارة ما ستنفجر أمام روضة أطفال في مكان ما، كنت سأخلع أظافر الرجل بأسناني إذا كان هذا ما يتطلبه الأمر؛ لمنع القنبلة من الانفجار، ولكن لم يكن هناك شيء ضروري للغاية للسلوك الهمجي.

في غضون نصف ساعة، ودون أي ضغط –حتى لم يمسك المحقق بإصبعه–، اعترف الرجل بكل شيء: الموقع الدقيق للمتفجرات، والخطوط العامة للهجوم.

في الحال اتصلت بجبريل وأخبرته بما نعرفه، واتفقنا على أن ينضم أحد أفراد فريقنا إلى فريقه في تنفيذ الاعتقالات، ثم يقوم بتسليم الإرهابيين إلينا.

سارت الأمور كما هو مخطط لها، ولكن بمجرد أن أصبح الإرهابيون في قبضته، تراجع جبريل عن اتفاقنا، وقال: "لا يمكنني تسليم الفلسطينيين "للإسرائيليين"، هل كنت ستعطيني يهوديًا خطط لشن هجوم علينا؟".

كنت على وشك طرحه أرضاً بسبب التراجع عن اتفاقنا عندما أضاف سطرًا يُسكتني: "عامي، نحن معنا فلسطينيين، وليس سايسون"، وهو تعبير فرنسي يعني "موسم الصيد". كان جبريل يترجم مناحيم بيغن، فقد أشار إلى عملية اعتقال للمقاتلين اليهود اليمينيين السريين، والتي تم تسليمها إلى البريطانيين، كما أمر بذلك بن غوريون عام 1944.

بينما كان يتحدث، ظهرت ابتسامة خبيثة على وجهه، بالطبع لقد كان محقاً، فهمت فعلته وحررته من الوعد، ثم أعطانا جميع المعلومات التي كشفها عن الإرهابيين، وعرض على المحققين أن ينضموا إليه في معرفة المزيد منهم، ولكني قد رفضت العرض، لأن جميع رجاله

خضعوا للاستجواب بدون نظامنا القانوني ومحكمتنا العليا ومنظمات حقوق الإنسان التي تراقبنا، مثل اللجنة العامة لمناهضة التعذيب.

علمت أيضًا أننا لا نستطيع الاعتماد على هذا التعاون الأمني إلى الأبد، فقد أوضح جبريل أنه يعمل معي فقط لأنه يعتقد أن ذلك سيؤدي إلى إنهاء الاحتلال، سألت نفسي ألف مرة: ماذا سيحدث إذا فقدت الشرطة الفلسطينية والمليوني فلسطيني في المدن ومخيمات اللاجئين الأمل في أننا سنخرج من الضفة الغربية؟ هل سيتجه شركاؤنا إلى العنف خوفًا من أن يتدفق مواطنوهم الغاضبون إلى حركة حماس إذا لم يفعلوا؟ وهل يمكن أن ينضموا إلى حركة الجهاد؟

في مايو 1999، دَفعتُ هذه المخاوف من ذهني، بينما كنت أسير بعصبية خلف المنصة التي أقيمت في مكان التجمع العام في تل أبيب المعروف سابقًا باسم ميدان ملوك "إسرائيل"، والذي أُعيدَ تسميته بميدان رابين في عام 1995 بعد اغتياله في ساحة انتظار السيارات المجاورة، كان على المنصة يقف إيهود باراك، رئيس الوزراء الجديد الذي أقسمت على حماية حياته، لقد هزم زميلي القديم ورئيس الأركان العامة السابق بنيامين نتنياهو للتو في الانتخابات الوطنية، وأعلن أمام حشد من المؤيدين في المسيرة عن "فجر يوم جديد".

على عكس نتنياهو، الذي اعتَبَر أوسلو كارثة على الشعب اليهودي، قال باراك إنه يؤمن بدولتين لشعبين، فقد كان شعاره الانتخابي، الذي تكرر ألف مرة هو: "نحن هنا، وهم هناك".

كنت مشغولًا جدًا بمراقبة من يحتمل أن يكونوا مقلّدين لإيجال عامير –قاتل رابين–، لإيلاء الكثير من الاهتمام للخطب والصخب، للأشخاص الذين يحملون زجاجات الشمبانيا مع وجه إيهود على الملصق.

كانت الجماهير في ذلك المساء –مثل الفلسطينيين– تؤمن بأن باراك –الجندي "الإسرائيلي" الأكثر تزينًا والعبقري الذي اشتهر بقدرته على بناء مصيدة فئران–، سوف يُكمِل من المكان الذي توقف فيه زميله السابق في حزب العمل رابين، وعلى الرغم من أن نتنياهو لم يُنفِّذ سوى جزء بسيط مما وعد به في قمة واي ريفر، إلا أن عرفات كان واثقًا أيضًا من أن باراك سوف يُسلمه الباقي ويدفع العملية السياسية نحو الحل، كما أن هناك سبب آخر للتفاؤل الحذر في تلك الأيام، حيث إنه وبشكل لا يصدق، كانت حماس وجناحها العسكري مجردة مما كانت عليه في السابق.

في غزة، قال الزعيم الروحي لحركة حماس الشيخ أحمد ياسين، الذي أُطلِقَ سراحه مؤخرًا من السجن، قال لصحفي "إسرائيلي": "علينا أن نكون واقعيين، نحن نتحدث عن وطن سُرق منذ زمن طويل في عام 1948 ومرة أخرى في عام 1967، دعونا نُعلِن وقف إطلاق نار مؤقت،

ودعونا نترك القضية الأكبر للأجيال القادمة لتقررها".. في تلك الأيام أدركَ الشيخ ياسين أن هذا ما يريده "الشارع الفلسطيني".

بعد أيام قليلة من أداء اليمين، عُدتُ إلى مكتب الطابق الثاني في شارع بلفور، حيث كان إيهود ثالث رئيس وزراء أعمل معه، علماً أنني كنت أعرفه منذ سنوات، فقد كنتُ أعرف سلوكياته.

لم أر كتب بيبي التي تتحدث عن الإرهاب، لكن خلاف ذلك بدت الهيئة متشابهة إلى حدٍ ما، ولم أر الهدية التي كنت قد أهديتها لإيهود قبل أربع سنوات بمناسبة تقاعده من الجيش، وقبل دخوله عالم السياسة.

لقد كانت الهدية ما يشبه آلة السدس الموجودة في السفينة، وهو نموذج لأداة ملاحية من القرن الثامن عشر تسمح للقبطان برؤية أفق البحر وفي نفس الوقت قياس زاوية الأجسام الهيكلية، والبدايات، والشمس.. ويمكّن هذا الجهاز القبطان من التنقل عبر الموجات المتتالية أثناء رسم مسار باتجاه الوجهة النهائية.

على الرغم من أنه كان لدينا الكثير لنناقشه، ولكنني بدأت بسؤاله عن سبب عدم تعليق "السدس" هديتي على الحائط، وسبب عدم الجلوس على مكتبه، هز كتفيه، فقمت بتذكيره بما قلته عندما أعطيته الهدية لأول مرة، إذا كانت عصا المارشال ترمز إلى القوة والسلطة العسكرية، فإن هذا "السدس" يوضح جانباً رئيسياً من جوانب القيادة السياسية الحكيمة، ومن وجهة نظري لإيهود هي أنه سيضطر إلى إدارة الشؤون اليومية لبلدنا ولكن دون إغفال رؤية "النجوم"، الرؤية الطويلة الأمد للمستقبل.

لاحظت وميضًا لما قد يكون ابتسامة منه.

بعد ذلك، قدمت تقييمي للوضع الأمني، بفضل التعاون الأمني مع الفلسطينيين وأرشيف حماس الذي استولينا عليه من عوض الله، قمنا بتفكيك شبكة حماس الإرهابية في الضفة الغربية.

عام مضى على مقتل آخر مواطن "إسرائيلي" في هجوم إرهابي، كان لدى الإرهابيين دوافع مثل أي وقت مضى لقتل مدنيين "إسرائيليين"، ولكنهم لم يتمكنوا من اختراق دفاعاتنا، كما أن انخفاض الدعم الشعبي بين الفلسطينيين عرقلهم عن الإرهاب، ويرجع ذلك –جزئيًا– إلى إيمانهم بالقيادة الأمريكية، التي نجحت في واي في إعادة "الإسرائيليين" إلى طاولة المفاوضات.

بدا رئيس الوزراء الجديد مرتاحًا، وفكرت مرةً أُخرى فيما قلته لجبريل ذات مرة: أن مهمتنا كانت خفض مستويات العنف حتى يتمكن السياسيون من المضي قدمًا في مهمة إبرام اتفاق سلام.

واصلت: "لا تزال هناك مخاطر جسيمة".

"مخاطر؟".

"تخبرنا معلوماتنا الاستخباراتية أنه إذا لم يتمكن عرفات والسلطة الفلسطينية من الوفاء بوعودهما، فإن الناس في الشارع الفلسطيني سيرفضون الدبلوماسية ويلجئون إلى العنف، وسيرون أجهزة الأمن التابعة للسلطة الفلسطينية متعاونة مع الاحتلال".

شرحتُ له أن الأمن يعتمد على أفق سياسي من الأمل، ولكن لم يقدمه نتنياهو قط، فقد اعتقد معظم الفلسطينيين أننا استخدمنا أوسلو كذريعة لتوسيع المستوطنات، ومن وجهة نظر عرفات أيضًا، فهو لم يحصل على شيء مقابل كل رأس المال السياسي الذي أنفقه في حبس أعدائنا.

تحرك إيهود في كرسيه.

وأضاف: "عليك أن توضح للفلسطينيين أننا جادون هذه المرة، بسرعة، الأمن الدائم يعتمد على إقامة علاقة ثقة مع عرفات".

قال أخيرًا: "عامي" .. "أنت لا تفهم هذه الأشياء"، أعتقد أنه يقصد هنا السياسة، لأنه كان يعتقد أنني أضيع وقتي في الحديث عن أهمية الثقة، ورؤية الصراع من وجهة نظر عرفات، والاهتمام باستطلاعات الرأي.

بعد معرفتي بباراك لفترة طويلة، سمحت لنفسي بالتحدث بصراحة: "ايهود، لا أعتقد أنك تفهم عرفات".. ووصفت له نفسية الزعيم الفلسطيني كما عرفتها من لقاءاتي معه، وأخبرته عن تقارير المخابرات، والصحافة، والكتب، وأخبرته أيضًا بما اعتقدت أنه سيكون ضروريًا لعقد صفقة معه، فهو يحتاج إلى رؤية شيء ملموس على أرض الواقع بعد أن غدر به نتنياهو.

تظاهر باراك بالاستماع، بل وقام بتدوين بعض الملاحظات على دفتر أصفر، ثم سأل: "كيف تقترح بناء الثقة مع عرفات؟"، ولكنه بدا وكأنه يفكر بالفعل في موعده التالي.

اقتراحي كان لقاء وجهاً لوجه مع عرفات، يتلوه انسحاب سريع من المنطقة التي وعده بها نتنياهو في واي.

قال: "شيء ما للتفكير فيه"، ثم ضرب راحة يده على مكتبه، ووقف ورافقني إلى الباب.

غادرت المكتب خوفاً من أن إيهود قد يكون شديد التركيز على النجومية، وأعمى عن الموجات المهلكة القادمة إليه وإلى "إسرائيل".

خلال الأسابيع السبعة التالية، ركز إيهود على تشكيل حكومته التي ضمت عددًا من الوزراء المؤيدين للاستيطان، وقد لاحظ الفلسطينيون أنه لم يجد وقتًا للقاء عرفات، كما كان يقوله في الصحافة العبرية، وقال إن إيهود يفضل أن يتجاوز عن الانسحاب الذي وعد به نتنياهو لعرفات، والتوجه مباشرة إلى مفاوضات الوضع النهائي.. وللحفاظ على ائتلافه متماسكًا، تفاخر أيضًا أمام وسائل الإعلام العبرية كيف أن حكومته ستبني مستوطنات أكثر من نتنياهو، وأكثر من أي رئيس وزراء آخر قبله، حيث بدأ في إعادة صياغة خطاب قديم حول كون "إسرائيل" "فيلا حديثة ومزدهرة في وسط الغابة حيث لا أمل لمن لا يستطيع الدفاع عن نفسه ولا رحمة للضعفاء".

قال لي جبريل: "انتظر لحظة" .. "هناك شيء لا يضيف شيئًا، السيد باراك يخبرنا أننا نتجه نحو اتفاقية دبلوماسية، ثم يستدير ويقول شيئًا آخر بالعبرية؟ هل الشخص الذي يقف أمامنا هو رابين حقًا، فليرقد بسلام، أم أنه مجرد نتنياهو آخر؟".. كان خوفه أن باراك يتحدث بلغة القوة فقط، ولا يؤمن بالدبلوماسية.

خلال كل لقاء مع باراك، كررت تقييم الشاباك بأن الاجتماع الفردي مع عرفات سيبدد الشكوك المتزايدة حول نوايا باراك، وأخيراً رتَّب إيهود وعرفات للقاء عند حاجز إيريز شمال قطاع غزة.

بينما كنا بصدد الانتهاء من الترتيبات الأمنية، سألت شخصًا من مكتب رئيس الوزراء عن نوع الهدية التي سيحضرها إيهود.

"هدية ؟" بدا الرجل متفاجئًا.

"نعم".. ذكّرت الرجل بأننا نعيش في الشرق الأوسط، حيث الهدايا هي علامات احترام.

"ليس لدينا أي شيء نعطيها له".

"ستحتاج إلى ابتكار شيء ما".

كان من الواضح أنهم لن يفعلوا ذلك، ولكن ظهور إيهود خالي الوفاض في أول لقاء لهما، وأمام الصحافة العالمية التي ستتواجد هناك لتوثيق الازدراء البائس، ربما سيكون بمثابة صفعة على وجه عرفات.

تسابقنا لمكتب الشاباك للحصول على أفكار، ثم حصلنا على أموال من صندوق الطوارئ، واشترينا مصحفًا وتوراة باللغتين العربية والعبرية مطليين بالفضة.

في معبر إيريز، صافح باراك عرفات وسلمه الصندوق الذي ربما لا يعرف ما بداخله، ومن مكاني حيث كنت أقف، رأيت ما بدا وكأنه دموع تنهمر في عيني عرفات.

بعد أسبوعين قابلت عرفات في رام الله، وكانت الدموع لا تزال موجودة، وبإخلاص لم يسعني إلا الإعجاب، أثنى الإرهابي السابق "عرفات" على إيهود، لأنه أتى بالمبادرة الصحيحة: لقد لامس القرآن والتوراة أعصاب كلا الشعبين، وكانت الهدية علامة يفهمها باراك.

أومأت برأسي باحترام، بينما كنت أخشى أن صديقي القديم "باراك"، في الواقع لم يكن لديه أدنى فكرة عن محتوى الهدية.

كان الاجتماع في معبر إيريز مهمًا، لكنه لم يستطع أن يحل محل السياسات والإجراءات في هذا المجال، فخلال هذا اللقاء طرح باراك خطة جديدة لعرفات: "دعونا نوقف كل شيء ونبرم اتفاقية إطارية أثناء بحث القضايا الجوهرية" – الحدود، المستوطنات، حق العودة، الأمن.. فقد أراد وبشكل ملموس تأجيل انسحابات واي لمدة ستة أشهر والبدء في محادثات الوضع النهائي.

قال: "فكر في الأمر".

عرفات: "لقد اتخذت قراري، لا أريد هذا، نفِّذ واي على الفور! نتنياهو وافق بالفعل".

ردَّ باراك: "فقط فكر في الأمر".

توجه إيهود إلى واشنطن لاستمالة كلينتون لخطته، كما أن الرئيس المصري مبارك انسحب، مع كل هذه المناورات، كان إيمان عرفات بأن باراك هو تجسد رابين الذي بدأ يتلاشى بسرعة.

الرئيس عرفات بصحبة الرئيس كلينتون وايهود باراك في البيت الأبيض عام 2000

في غزة، هدد دحلان بالاستقالة إذا وافق عرفات على المحادثات قبل الحصول على وعد بالأراضي في واي، وكان جبريل يشك أيضًا.

"عامي"، لا بد أنه قال عشرات المرات، "لسنا معاونين لك، نحن لا نضع أعضاء حماس في السجن نيابة عنك، نحن نفعل ذلك فقط لأن جمهورنا يعتقد أنه في نهاية اليوم، ستكون هناك دولة لنا نحن، إلى جانب دولة "إسرائيل"، في اللحظة التي نتوقف فيها عن الاعتقاد، يمكنك أن تنسى التعاون".. كانوا يخاطرون بشن حرب أهلية مع حماس من أجل تأجيل نهايتهم من الصفقة، وبراك لم يمنحهم حتى الراتب الزهيد الذي وعد به بيبي.

لم أتلق أي رد، على أي حال، ذكَّرت نفسي أن وظيفتي لم تكن ممارسة السياسة، كانت الرسالة التي قدمتها هي: وقف التفجيرات، ومنع اشتعال النيران في المناطق، وتقديم معلومات ونصائح موضوعية لرئيس الوزراء؛ ليكون حارس البوابة.

للقيام بذلك، كان عليَّ أن أعرف الوضع السائد بين الفلسطينيين، وقراءة استطلاعات الرأي التي أجراها الشقاقي، حيث شعرت أننا على وشك الانحدار إلى الهاوية، ومع ظهور أزيز خلاطات الإسمنت في الأراضي المحتلة، بدأت أفكار حماس تظهر وتتأرجح أكثر من أي وقت مضى، وأن أوسلو كانت خدعة، وأن الصهاينة لا يستجيبون إلا للقوة والقوة.

المستشار/ ماتي شتاينبرغ

أخبرني مستشاري ماتي شتاينبرغ، والصحفية أميرة هاس في رسائلهما في صحيفة هآرتس أنه إذا اندلعت انتفاضة ثانية، فسيكون ذلك اندلاعًا تلقائيًا من الشارع، تغذيها خيبة أمل مريرة من الفساد الذي شاهده الناس في قادتهم، ومعظمهم جاءوا مع عرفات من تونس ولم يواجه الجيش "الإسرائيلي" والشاباك خلال الانتفاضة، والسبب الرئيسي هو فقدان الأمل في عملية لم تؤد إلا إلى المزيد من المستوطنات وحواجز الطرق والإذلال.

خلف الكواليس، حوّل باراك انتباهه إلى اتفاق سلام مع الرئيس السوري الأسد، ورمى الفلسطينيين إلى الوراء، كان تقييمنا في الشاباك أن هذه خطوة كارثية، فقد يستغرق اتفاق سلام محتمل وحقيقي مع سوريا وقتًا، بينما كان الوقت متاح، ولكن لم يكن لدينا متسع من الوقت مع الفلسطينيين، فكل رؤساء أجهزة المخابرات –الموساد والمخابرات العسكرية للجيش "الإسرائيلي"– وافقوا معنا، حيث التقينا ايهود لتوضيح موقفنا لكنه لم يتزحزح عن قراره، ثم التفت إلى الأمريكيين لمعرفة ما إذا كان بإمكانهم التفكير معه، لكنهم انتهى بهم الأمر إلى دعم ما يمكن أن يكون

تمرينًا غير مجدٍ، كما أن المحادثات مع الأسد لم تسفر عن شيء، في غضون ذلك شعر عرفات بالخيانة.

لقد استهلك الأمر من الأمريكيين كل ما لديهم من براعة وتدليل وقليل من التسليح لطمأنه عرفات بأن باراك ظل شريكًا ملتزمًا، ولكن في النهاية، وبمساعدة الدبلوماسيين المصريين، أقنع الأمريكيون عرفات بالتخلي عن نقل الأراضي، والشروع مباشرة في مناقشة القضايا الجوهرية.

في محادثاتي مع إيهود، ظللت أضغط من أجل بناء ثقة أكبر، خاصة بعد كارثة سوريا، فقد كانت عيوب أوسلو كثيرة، ولم يكن هناك شيء مقدس في النهج الذي اتخذه المفاوضون قبل خمس سنوات، كانت هناك مشكلة واحدة فقط في نهج باراك: "إذا كان عرفات لا يثق بك، فلن يتزحزح عن موقفه"، ولن تؤدي المفاوضات إلى أي مكان، وقد تندلع جولة جديدة من العنف.

مرة أخرى، قرع أصابعه على مكتبه وطردني.

في أوائل سبتمبر، عرض ملياردير يهودي فرنسي لتناول عشاء خاص بين باراك وعرفات في فيلته في بلدة سافيون "الإسرائيلية"، ربما، وربما فقط، الزعيمان، كلاهما مصاب بجنون العظمة، سوف يتقربان من بعضهما البعض بعيدًا عن وسائل الإعلام وفرق الدبلوماسيين، ربما يتحدثون حتى عن مستقبل أفضل لكلا الشعبين، وربما يكون لديهم قَدَرٌ ضئيل من الثقة.

جاء باراك مع زوجته نافا، كنت هناك مع رئيس أركان باراك وجنرال سابق، كما وانضم أبو مازن، الرجل الثاني لعرفات، انضم إلينا حول الطاولة، وياسر عبد ربه، الذي كان يومًا ما عضوًا في مجموعة ماركسية–لينينية، وكان هدفًا متكررًا لقوات الكوماندوز البحري (فلوتيلا 13)، كان هناك أيضًا.. لم يعلم أحد ما كان سيحدث في العشاء؛ ولكن علم بها أعضاء في مجلس الوزراء "الإسرائيلي" بعد ذلك.

على الكسكس المغربي والطاجن، كانت الفكرة هي أن يؤدي الحديث الصغير الأولي إلى جو مريح للقائدين للتحدث، حيث بدأ باراك بقول نكتة، ولكن عرفات حدق في الفضاء، فقد كان الجو باردًا بينهما، وكان انعدام الثقة بين الرجلين واضحًا.

ولكن بمجرد وصول الطعام، أفسح المُزَاح الخفيف المجال لجو أكثر برودة، أحب إيهود أن يأكل ويغوص في الكسكس، أما عرفات تناول طعامه ولم يقل شيئا، القَدْر الوحيد من الدفء جاء في النهاية عندما وضع عرفات قبلة على جبين نافا باراك، بعدها أصبح العشاء كارثة.

كان تدخل الأمريكيون على الأقل لتحريك المياه الراكدة، وفي النهاية رضخ عرفات للضغوط الأمريكية، ووافق على مناقشة نهج باراك البديل مع "الإسرائيليين"، حيث قال له باراك إنه سيرسل كبير مفاوضيه لتقديم بعض الأفكار، وسرعان ما شكَّل عرفات فريق تفاوض برئاسة

وزيرين، لكن باراك واجه عقبات ولم يتمكن من تشكيل فريقه التفاوضي، فقد كانت مسألة ثقة، فلم يكن هناك أحد في ائتلافه الحكومي أو حكومته يتمتع بثقته الكاملة.

اقترح باراك –الذي كان يعاني صعوبة– أن أكون رئيس فريقه التفاوضي، فرفضت على الفور بسبب تضارب المصالح بين موقفي في الشاباك وقيادة المفاوضات السياسية، كما أن هناك سبب آخر لعدم النظر في العرض، وهو تجربتي مع إيهود.. فقد كنت أعرفه جيدًا وبما يكفي، لأعرف أنه سيحتفظ بقنوات اتصال متعددة، وأنه سيكون الوحيد الذي يرى جميع الأوراق، فلم تكن الشفافية والثقة جزءًا من قاموسه، ولم يقتصر الأمر على تعامله مع الفلسطينيين.

استطلاعات الرأي في "إسرائيل" وفلسطين، واصلت إظهار الدعم المستمر كالنزيف لكل من عرفات وباراك، فلم يبق لعرفات ما يقدمه للمجتمع الفلسطيني لإقناعهم بأنهم سيتوصلون في النهاية إلى اتفاق مع "إسرائيل"، وكان الشاباك يتلقى المزيد من التقارير عن تهريب أسلحة، وفي سبتمبر/أيلول، نفَّذت حماس تفجيرات داخل "إسرائيل"، لكن الذين قُتلوا فقط المفجرين، ولكن هذا الحدث أظهر أن حماس تُعيد بناء شبكتها، وأن "الإسرائيليين" دخلوا دائرة الخوف.

في اللحظة التي أدركت فيها أن كل شيء قد انتهى، كنا ننتظر بالفعل اندلاع جديد للعنف، ولكنها جاءت في نوفمبر بعد أشهر من التأخير، وبينما شكَّل إيهود فريق التفاوض الخاص به، حضر فريق عرفات من كبار الوزراء لحضور اجتماع للاستماع إلى كبير المفاوضين المكلفين من قِبَل باراك، وهو سفير سابق في الأردن.. بينما على الجانب الفلسطيني، كانت التوقعات عالية، لأنهم وأخيرًا كانوا يسمعون أفكار رئيس الوزراء للسير قُدُمًا إلى مفاوضات الوضع النهائي.

بالنسبة للفلسطينيين المهتمين بالمكانة، فإن الجلوس في غرفة مع دبلوماسي وليس زميل وزير كان بمثابة صفعة على الوجه، والأسوأ من ذلك كانت الملاحظات الافتتاحية للرجل: "أيها السادة، ليس لدي صلاحيات لمناقشة الموضوعات الأساسية"، وأضاف أن لديه تفويضًا لمناقشة عددٍ قليلٍ من القضايا البسيطة نسبيًا، فلا شيء يمس الحدود والقدس واللاجئين.

"إذن لماذا نحن هنا؟" استدار الفلسطينيون وتهامس بعضهم لبعض.. "للحديث عن كرة القدم؟".. وبناءً على المعلومات التي وصلتني، فإنه عندما قرأ عرفات تقريراً عن الاجتماع كان غاضباً، وشعر أنه يُلعَب به مرة أخرى.

عندما سألني فريق التفاوض الأمريكي عن موقفي، مستشعراً بأزمة جديدة، لم أتراجع عن ذلك، فقد أراد مبعوثا كلينتون، دينيس روس ومارتن إنديك، الاجتماع في كل مرة يصلون فيها إلى "إسرائيل" في سياق محادثات السلام.

أخبرتهم عندما جلسنا: "انظر، إذا لم يكن هناك تغيير في الاتجاه في العملية خلال الأشهر الستة المقبلة، فنحن نتجه نحو انتفاضة شعبية عنيفة، ربما يقودها شباب محبطون يلوحون بالأعلام الفلسطينية، أفضل تخميني هو أنه ستتم تفجيرات حول المستوطنات أو جبل الهيكل منطقة المسجد الأقصى في القدس".

نظر إلى روس وإنديك، كما لو أن ضغوط العمل قد أصابتني. "مستحيل! لقد وَعَدَنا عرفات للتو بأنه لا ينوي اللجوء إلى العنف، كما أكد لنا رئيس الوزراء أنه وعرفات يمكنهما عقد صفقة".

"أيها السادة: معلوماتي تقول غير ذلك، الصحف الفلسطينية واستطلاعات الرأي تُخبرنا أن عرفات لم يَعُد يمثل تطلعات الشعب الفلسطيني، حاول أن تجد لي فلسطينيًا لا يزال يرى عرفات كزعيم، فهو ليس الرجل الذي نتحدث إليه، الانفجار سيأتي من الشارع ونعتقد أنه سيأتي بنهاية عام 2000، لماذا؟ لأن الفلسطينيين العاديين فقدوا الثقة بعرفات مثلما فقد رئيس وزرائي دعم الكنيست ووزرائه".

"بالتأكيد عامي".

نظرت حولي إلى هذين الرجلين ذوي النية الحسنة اللذان يعملان من أجل رئيس حسن النية، كنت أقدر الأمريكيين وعلمت أنه بسبب دعمهم وضغطهم فقط نجحت عملية السلام من نتنياهو، لكنني كنتُ أيضًا عاملاً في إحدى الأماكن القذرة في الشرق الأوسط، وعرفت من خلال تعاملاتي مع وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي أن هؤلاء الأشخاص، بكل نواياهم الطيبة، يئسوا من تعقيد المنطقة، فلم آخذ تقييماتهم على محمل الجَد؛ لأنهم لم يفهموا أننا نقف على الخط الخطأ، وأن بعض الزلازل هي هزات أرضية تهز النجفات، ويمكن للآخرين تدمير حضارة بأكملها.

الفصل التاسع عشر:

كسر صمتي

هناك ألف هزة على أغصان الشر لمن يضرب الجذور.

-هنري ديفيد ثورو-

-هنري ديفيد ثورو-

عندما توصلت إلى قائمة بالأشخاص لإجراء مقابلات معهم من أجل مذكراتي، قمت بتضمين رجل كان ضابطًا كبيرًا تحت إمرتي، التقينا في حانة أيرلندية في الطابق الأرضي من ناطحة سحاب في تل أبيب تضم شركات التكنولوجيا ومكاتب المحامين، بالرغم من أن أصواتنا كانت بالكاد تُسمع بسبب ضجيج الأشخاص الذين يتحدثون، وموسيقى البوب الصاخبة، فقد كان مكانًا جيدًا لإجراء محادثة حول السرية والمكائد، لقد طلبنا البرغر ونصف لتر من البيرة الباهتة الصغيرة.

قال الرجل: "كيف حالك يا عامي؟".

"على المستوى الشخصي، لم تكن الأمور أفضل من أي وقت مضى، العائلة بخير، انتهيت للتو من إعادة تصميم الطابق العلوي، الكثير من الوقت للقراءة، القيام بجولات كل يوم في حمام السباحة الموجود في الفناء الخلفي للحفاظ على لياقتي.. ومع ذلك -من الناحية السياسية- أشعر بالاكتئاب أكثر من أي وقت مضى".

أضاف الرجل: "أنا أعرف هذا الشعور".. أومأ الزميل القديم برأسه، ورفع الكأس الممتلئ بحجم نصف لتر من البيرة عالياً، وكأنه يواسيني.

فقد وافقني الراي في معظم ما قلته حول كيف أن الروايات الوطنية المتباينة قد أشعلت الانتفاضة الثانية، ولم يبد أي اعتراض على تحليلي بأن معظم "الإسرائيليين" استمروا في الاعتقاد بأننا أردنا الأمن وحصلنا على الإرهاب، بينما شعر الفلسطينيون، الذين أرادوا الاستقلال، أنهم حصلوا فقط على المزيد من المستوطنات والمزيد من الاحتلال العسكري والمزيد من الإذلال عند نقاط التفتيش.. لقد دمرناهم.

كان من الجيد اللحاق بكم، لكنني غادرت الحانة محبطاً، إذا كان الشقاقي قد أجرى استطلاعًا مرتجلًا لأولئك الموجودين في الحانة، وأعضاء النخبة من رجال الأعمال في "إسرائيل"، فأنا متأكد من أن معظمهم كانوا سيوافقون على تقييمنا المحبِط، ثم عادوا إلى مكاتبهم لإبرام الصفقة الكبيرة التالية.

الإيديولوجيا ليست هي المشكلة مع "الإسرائيليين" ذوي التوجهات المهنية، أو مع دافعي الضرائب، أو مع الليبراليين المنفتحين عقلياً مثلي أنا والعميل السابق، فمشكلتنا هي أننا لا نغضب بما يكفي لنهز القارب، ربما لأن الحياة جيدة جداً.

فعلى سبيل المثال: سنشارك في مسيرة الكبرياء، أو ننشغل في موضوع حقوق الحيوانات، لكن لا يمكننا أن نتضايق من محنة الفلسطينيين على الجانب الآخر من جدار الفصل، وربما نكون خائفين أيضًا، فعلى الرغم من أن ديمقراطيتنا قد تبدو للأجانب صلبة مثل دبابة الميركافا، إلا أنها في الواقع هشة ويمكن أن تؤدي بسهولة إلى الاقتتال الداخلي.

وعلى الرغم من أننا نشتكي من السياسة، إلا أننا جزء كبير من نظام يخدمنا جيدًا لتحمل المخاطر التي قد تضر بسمعتنا، تذكرني السطور التي قرأتها في مكان ما من هنري ديفيد ثورو بما لا نفعله نحن الليبراليون "الإسرائيليون": "إذا كانت آلة الحكومة ذات طبيعة تتطلب منك أن تكون وكيل الظلم تجاه شخص آخر، فأنا أقول: اخرق القانون، وَدَعْ حياتك تكون احتكاكًا مضادًا لإيقاف الماكينة".

السبب الوحيد الذي يجعلني أنظر إلى نفسي في المرآة هو أنني في أفضل لحظاتي منذ أن تركت الشاباك، وجهت بعض مفاتيح الربط إلى الآلة.

في طريقي من الحانة مررت لآخذ بيبا من منزل أختها في ضاحية جفعتايم في تل أبيب، ثم توجهت إلى المسرح الأول في "إسرائيل" "هبيم"، من أجل حضور مسرحية شكسبير عن الحب وهي حفلة خيرية لصالح منظمة "AKIM"، وهي منظمة غير حكومية وطنية للأشخاص ذوي الإعاقات وأسرهم، والتي أترأسها.

خلال العرض، تحول عقلي إلى الطريق الملتوي الذي قادني من محاربة الإرهاب إلى مشاهدة رجال يرتدون لباس ضيق يتمايلون على خشبة المسرح، ابنة أخي زوهارا لديها احتياجات خاصة، وخلال الفترة التي قضيتها في الشاباك، عاشت في منزل جماعي تحت إشراف مؤسسة آكيم، وخلال زياراتنا إلى زوهارا، تأكدت بيبا من أنني أطلع على عمل المنظمة الجيد، والآن بعد عشرين عامًا أصبحت رئيسًا متطوعًا للمؤسسة.

كان الأداء الخيري في ذلك المساء مؤثرًا بشكل خاص، لأنه –من على المنصة– كرَّمت مؤسسة أكيم امرأة عربية "إسرائيلية" غير عادية كانت شجاعتها في مواجهة تحديات الحياة تتجاوز أي شيء قمت به في ساحة المعركة، فإذا أردنا نحن "الإسرائيليين" الحفاظ على ديمقراطيتنا وتعزيزها، فسيتعين علينا تسخير قيم الشمول والعدالة والإنسانية التي تجسدها مؤسسة أكيم، على حد تعبير الحاخام جوناثان ساكس، الرجل الذي أحترمه كثيرًا: "نكرم الله بتكريم صورته" في الأشخاص الذين كثيرًا ما يتم تجاهلهم أو تجنبهم.

لا يتعلق دعم أكيم بإلقاء الألم من الكائن الحي، حيث توجهت أنا وبيبا في المساء التالي، ثم سافرنا إلى يافا لحضور حفل للترحيب بالمدير الجديد لمنظمة "كسر جدار الصمت"، وهي منظمة مكروهة في معظم الأوساط، حيث أسسها جنود مقاتلون حزينون مما رأوه وفعلوه أثناء خدمتهم في الضفة الغربية وغزة، فشهادتهم العلنية تخلق احتكاكًا مضادًا من خلال الكشف عن الجرائم التي تُرتكب باسمهم للمجتمع "الإسرائيلي".

استغرقنا نصف ساعة من القيادة في الشوارع الجانبية المظلمة في يافا للعثور على المبنى، وعندما وصلنا رأينا رجل يحمل وشمًا على ذراعه –ربما كان جنديًا سابقًا– كان يفحص الحقائب خارج المدخل، صعدنا السلالم لأن المصعد كان معطلاً، وتجنبنا القطط الضالة، ومشينا فوق مقاعد السيارات المكسورة وبطاريات السيارات الهالكة.

في الطابق السادس، كما هو الحال في أفلام العصابات القديمة، أطل شخص ما من خلال شق في الباب للتأكد. أخيرًا، دخلنا إلى غرفة مليئة بالمحتفلين وهم يهتفون بصوت موسيقى البوب "الإسرائيلية".

وضع الناس مشروباتهم لتحيتنا وعناقنا أثناء قيامنا بجولة تمهيدية في الغرفة، انتقلت بعد ذلك عبر الحشد، وصافحت عشرات الأيدي أو أكثر، حتى أتمكن من الوصول إلى الحانة، وشرب اثنين من بيرة "ماكابي" قبل أن أعود لأجد بيبا تقف في زاوية عميقة في محادثة مع الأصدقاء القدامى، الذين رغم كل انتقاداتهم هم وطنيون صهاينة، يؤمنون بدولة يهودية ديمقراطية إلى جانب دولة فلسطين.

بينيت

بالطريقة التي أراها، فإن كسر جدار الصمت يتبع التقليد "الإسرائيلي" المتمثل في الهجمات الخطابية اللاذعة على الظلم: خلال نقاش الكنيست حول اقتراح الوزير بينيت بحظر "كسر جدار الصمت" في المدارس، قرأ عضو الكنيست ومؤيد "كسر جدار الصمت" بصوت عالٍ قصيدة ناثان الترمان "الزوت"، وهي نفس القصيدة التي قرأها لي والدي في سن الثالثة.

بدأت بمتابعة عمل المنظمة بعد حرب 2009 الكارثية في غزة، وعلى الرغم من أنه يؤلمني سماع جنود أقوياء يصفون مشاهدتهم للدمار الذي لا طائل من ورائه لمئات المنازل والمساجد، والجنود يطلقون النار على المدنيين الذين تستخدمهم حماس كدروع بشرية، علمت أيضًا أنهم ليسوا دعاة سلام يلقون بالورود، ويجب أن تُنشَر شهاداتهم في أخبار الصفحة الأولى.

قبل الحفلة بوقت قصير، أحدثت المنظمة موجات (الاحتكاك المضاد) عبر أخذ مجموعة من الكُتَّاب الأمريكيين في جولة في الضفة الغربية، حيث قال أحد الكتاب، الروائي اليهودي مايكل شابون، بعد ذلك: "الأمن هو اختراع لسجاني البشرية، أينما نظرت، كان ولا يزال دائمًا يد قوة ترسم الحدود، وتضع حواجز الفصل وتُروج للكراهية والخوف من الناس على الجانب الآخر من الجدار، الأمن يعني بالنسبة للبعض السجن للجميع".

شابون على حق، لم نحقق توازنًا أبدًا بين تحديد المخاطر الأمنية وتحديد فرص السلام.

منذ وقت ليس ببعيد، قال لي صحفي أرجنتيني خلال مقابلة أن "حارس البوابة"، الفيلم الوثائقي الذي تعاونت فيه، كان نسخة الشاباك لكسر الصمت.. لم أطرح أي اعتراض على المقارنة مع أكثر المنظمات غير الحكومية المكروهة في "إسرائيل".

لقد دافعت في الماضي عن المنظمة علنًا، وعندما هددت حكومتنا بإغلاق معرض في القدس لاستضافة أحد أحداثهم، على سبيل المثال، أخبرت الصحفيين أننا في "إسرائيل" نشهد "طغيانًا متزايدًا"، هذا التعبير أخذته من صديقي براين جنكينز، مستشار رئيس مؤسسة "راند" وموظف سابق في الولايات المتحدة القوات الخاصة بالجيش الخامس.

في حقائق الحرب التي لا تنتهي أبدًا، يتم تغليب الأمن على الحقوق المدنية، وحماية الأقليات، والتعددية.. وبموافقة المحكمة، نقوم بتفريغ المجتمع المدني وننزلق في أغلالنا، ولكن في يوم من الأيام سنستيقظ ونتذكر أننا في يوم من الأيام كنا نعيش في ديمقراطية.

في أوائل عام 2000، طلب مني باراك البقاء في الشاباك حتى نهاية العام على الرغم من انتهاء فترة ولايتي في مايو، وبما أنه سيوقع قريباً اتفاقية إطار العمل جديدة مع عرفات، فقد أكد لي وهو يشع بالثقة، وأراد مني المساعدة في توجيه الوكالة إلى العصر الجديد، رددت بأنني سأغادر كما هو مخطط، وأنه يجب أن يبدأ في البحث عن بديلي على الفور لأن خليفي يجب أن يكون مستعدًا لمواجهة انفجار العنف الذي رأيناه قادمًا لا محالة.

لم يعرف إيهود عما أتحدث عنه لأنه فقد الاتصال بالواقع، فلم يشعر بارتفاع درجات الحرارة، والأمواج التي تشكل القمم البيضاء، والغيوم الرقيقة السوداء، وهذه كلها علامات منبهة لإعصار قادم في طريقنا.

في مايو، سلمت شارة انتسابي وبطاقتي الممغنطة، وعيّن باراك آفي ديختر، كنت في الخامسة والخمسين من عمري، وكان عليَّ أن أعرف ما أفعله بنفسي.

من الناحية المهنية: قد تقول إنني وصلت إلى قمة الجبل، حيث جاءتني عروض العمل تتدفق من القطاع الخاص، لكنني كنت لا أزال أحد أبناء الكيبوتس السابقين؛ للانضمام إلى خبراء سابقين في الشاباك والموساد في بيع الأسلحة، أو تقديم المشورة للشركات والسياسيين والأنظمة المارقة في فنون الأمن المظلمة، إذن ماذا كنت أفعل بنفسي؟

في نهاية المطاف، توليت منصب رئيس مجلس إدارة شركة نتافيم (Netafim)، وهي شركة لتصنيع معدات الري بالتنقيط التي أطلقها كيبوتس في النقب، لقد كانت طريقة للعودة إلى جذوري في الكيبوتس مع تقديم مساهمة خارج حدود "إسرائيل": تقنية التنقيط التي اخترعتها شركة نتافيم تساعد في إطعام مئات الملايين من الناس في جميع أنحاء العالم.

كما أنني أصبحت زوجًا وأبًا بدوام كامل لأول مرة في حياتي، انتزعت الأعشاب الضارة وقلمت الأغصان الميتة، والعَرَق الذي ينسكب على وجهي بصحبة أفضل أصدقائي في الحياة، زوجتي "بيبا"، فهذا ذكرني بالعمل البدني الصادق الذي نشأت على عشقه.

عندما كنت طفلاً، كنت أحمل كميات من الموز على ظهري، وأخذت إجازة للغوص في جزر كوكوس في المحيط الهندي، وسبحت مع أسماك القرش، وبدأت في قراءة الروايات مرة أخرى.

لكن عقلي لم يتخلى عما كان يحدث في بلدي، لقد جرت محادثات السلام في تموز (يوليو) كما كنت أخشى، فمن المؤكد أن باراك دفع كلينتون إلى إقناع عرفات بمناقشة القضايا الجوهرية في كامب ديفيد في غابات ماريلاند، وعندما قدَّم إيهود لعرفات صفقة، عرفات انسحب.

اتصل بي إيهود من مقصورته في الطائرة، وطلب مني السفر والانضمام إليه لأنه يحتاج إلى الدعم بمجرد أن تُعلق وسائل الإعلام الدولية ستهب رياح الهزيمة.

ما كان يحتاجه حقًا هو شريك في إعادة كتابة التاريخ، فقد أراد مني أن أقف بجانبه وهو يهز رأسه وهو يقول للعالم: "أنا هنا أكشف عن وجه عرفات الحقيقي، عرفات ليس شريكاً، الفلسطينيون ليسوا شركاء".

ولكنني رفضت طلبه، من يدري إذا كان عرفات شريكاً؟ كنت أفكر عندما أغلقت الهاتف، الشراكات تتطور من عملية بناء الثقة المتبادلة، فمنذ وفاة رابين وهزيمة بيريز في الانتخابات، لم يُحرك نتنياهو ولا باراك ساكناً لبناء مثل هذه الشراكة.

عاد باراك إلى "إسرائيل"، وحمّل عرفات وحده مسؤولية فشل القمة، وأثبت خط "لا شريك" أنه أكثر حيلة علاقات عامة كارثية في التاريخ السياسي "الإسرائيلي".. تحدثت معه بحرية: "الأمر متروك لنا لتقرير القصة التي نرويها لأنفسنا، فعرفات في تجربتي ليس لديه وجه واحد، لديه ألف وجه، ويمكنك اختيار الوجه "بلا شريك" بنفس السهولة التي يمكنك بها أن تواجه شريكًا، والوجه الخاص الذي كنت تصدره للجمهور يقول عنك أكثر مما يفعل عرفات.

دعني أخبرك بشيء، كشخص رافقك منذ اليوم الذي أصبحت فيه رئيسًا للوزراء، أيٍ من وجوه عرفات تختار أن تقدم له إن العالم الآن هو أهم قضية لديك، وأنت مدين لمواطني "إسرائيل" بالاختيار الصحيح".

خلال شهر أغسطس، شعرت وكأنني قبطان سفينة يتعقب عاصفة قادمة، وفي سبتمبر/أيلول أخبرت مجلة نكودا، وهي نشرة شهرية تصدرها حركة المستوطنين، بالحقيقة المرة التي لا هوادة فيها: لقد خسرنا الانتفاضة الأولى، تمامًا كما كنا نخسر الانتفاضة الجديدة في طريقنا، شهق الصحفي مندهشاً، لأنه غير معتاد على رجل عسكري يلعب دور نوستراداموس[1].

بعد أسبوعين من صدور المقابلة في نيكودا "بمعنى: لا مكان"، سار آرييل شارون، زعيم حزب الليكود المعارض، إلى الحرم القدسي، المكان الذي شعرت به في حدسي من شأنه أن يؤدي إلى نهاية العالم.

عند هذه النقطة كان باراك أضعف من أن يمنعه سياسيًا، وأعلن شارون، وهو محاطاً بعشرات من رجال الشرطة المسلحة، أنه كان هناك لتأكيد مطالب اليهود، قات الشرطة

---

(1) نوستراداموس: صيدلاني ومترجم فرنسي، نشر مجموعات من النبوءات في كتابه (نبيون).

"الإسرائيلية" بالرد على الفلسطينيين مثيري الشغب، بإطلاق الرصاص المطاطي والغاز المسيل للدموع.

من وجهة نظر شارون، كانت الزيارة بلا شك ضربة خارقة، وفي نفس الوقت حشدت دعم المستوطنين وتوجيه ضربة جسدية لباراك، كما أن هذه الخطوة قد أصابت عرفات بالشلل، لأن الجماهير –بما في ذلك العديد من مؤيديه– فقدت الأمل في طاولة المفاوضات.

انتشر العنف في الأقصى مثل الفيروس إلى قرى "إسرائيل" العربية في الشمال، ثم إلى غزة والضفة الغربية، كان موقف الشاباك هو أن فقدان الأمل أدى إلى الانتفاضة، وزعم الجيش "الإسرائيلي" أن الأمر برمته كان عملاً حربياً مع سبق الإصرار، وكأن عرفات قرر إثارة الفوضى بعد أن فشل في تحقيق أهدافه في كامب ديفيد، واتهموا نظامه بالتنسيق مع العرب في "إسرائيل" وتوجيه الانتفاضة المسلحة لتدمير "إسرائيل".

قَبِل باراك برواية الجيش التي لا أساس لها، واعتقد الجيش "الإسرائيلي" أنهم كانوا يقاتلون بالنيران، باستثناء أنه في هذه المرحلة كان المشاغبون مسلحين في الغالب بالسكاكين وزجاجات المولوتوف وإشعال الإطارات المحترقة والحجارة، وخلال الأيام القليلة التالية قام الجيش "الإسرائيلي" بإطلاق 1.3 مليون رصاصة.

في البداية كان عرفات مهتمًا بتهدئة الأمور، ولكن مع تضاعف المواكب الجنائزية، جعلت حاجته الغريزية يتحدث عن الجهاد، وفي إذاعة "إسرائيل"، قارنتُ عرفات برجل يمتطي ظهر نمر بري يتظاهر بتوجيه الوحش، ولكن في الواقع لم يكن لديه أي سيطرة على الإطلاق.

في 13 أكتوبر / تشرين الأول، تلقيت مكالمة من منتج برنامج إخباري في القناة الثانية، يطلب مني إجراء مقابلة مع شيلي يحيموفيتش، وهي صحفية "إسرائيلية" ومُقدمة أخبار بارزة. المقابلة المقرر إجراؤها بعد ظهر ذلك اليوم، كانت في استوديو القناة الثانية الرئيسي على الطريق من تل أبيب إلى القدس.. ترددت؛ حيث كانت حياتي المهنية بأكملها في مجال الأمن وراء الكواليس، فإذا وقفت أمام الكاميرا، وهو ما لم أفعله إلا بشكل قليل وبتردد كبير، فقد كان ذلك لتقديم الحقائق كما رأيتها كمحترف يعمل في جيشنا أو حكومتنا.

فكرت فيما قاله لي صديقي السياسي: "وظيفتي هي الكذب، ومهمتك هي قول الحقيقة".

لقد حان الوقت بالنسبة لي لكسر صمتي، لذلك قد وافقت.

وخلال ساعات قليلة جلست أمام الأضواء الساطعة والكاميرات التي تصدر صفيرًا، وشُغِّلت شاشة خلفي تعرض لقطات من الإعدام خارج نطاق القانون مِرارًا وتكرارًا.

في اليوم السابق، اتخذ العريف يوسي أفراهامي والرقيب فاديم نورزيتز منعطفًا خاطئًا أثناء قيادتهما إلى قاعدتهما في بيت إيل، وهي مستوطنة بالضفة الغربية، وانتهى بهما المطاف محاطين بحشد غاضب في حي بائس في رام الله، حيث قام رجال شرطة عرفات بجر نورزيتز وأفراهامي، المتزوجين حديثًا، إلى الطابق الثاني من مركز شرطة حجري قديم في البيرة، على مسافة قصيرة من المقر الرئاسي لعرفات، ثم اندفعت حشود متعطشة للدماء على جنودنا بقضبان معدنية وسكاكين.

كما ظهرت على الشاشة ورائي صور للشاب عزيز صالحة، وهو فلسطيني عاطل عن العمل يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، وهو يرمي المستوطن "نورزيتز"، –زوجته كانت حاملاً في شهرها الثالث– ألقاه من النافذة إلى الغوغائين الذين استجابوا له مثل أسماك مفترسة تسعى لتتغذى.

بعد ذلك، رفع صالحة يديه الملطختين بالدماء في الهواء وكأنه سجل هدف الفوز، ووقف أحد أفراد قوات الأمن التابعة لعرفات متفرجًا ولم يفعل شيئًا، وأصبعه على زناد بندقية كلاشينكوف، بينما كان الغوغائين يضربون جسد نورزيتز الميت بالعصي.

سألت يحيموفيتش، وعيناها تتأرجحان بين صور الإعدام خارج نطاق القانون، عما إذا كنا نحن "الإسرائيليين" متجهين نحو المياه الضحلة، وهل قاربنا الوطني على وشك الانقلاب؟ وهل حان الوقت لتكسير قوارب النجاة؟ وهل حُكم علينا بالفناء؟

في أعالي البحار، أجبت: يمكن لقبطان ماهر وطاقم جيد إدارة معظم العواصف، مهما كانت شرسة، ولكن فقط عندما تضرب الطبيعة سفينة من ثلاث جهات –العاصفة المثالية– تكون الصلوات صحيحة، هذا ما كان يحدث لبلدنا، قلت: "العاصفة شديدة، وليس هناك شك في أنه في الشرق الأوسط هناك دائمًا خطر انقلاب سفينتنا".

يحيموفيتش، بصوتها المنخفض، كررت ما قاله الجميع في "إسرائيل"، أن البشر ليسوا قادرين على مثل هذه الهمجية، وبالتالي –ضمنيًا– يجب أن يكون الفلسطينيون نوعًا من الحيوانات البرية. فمن الواضح أنها كانت تأمل –في ضوء تجربتي– أن أقدم نظرة ثاقبة مميزة إلى الأمراض القاتلة لأعدائنا، فقد قدمنا السلام لعرفات وعصابته من المشاغبين وانظروا ماذا حصلنا في المقابل! الهراوة والسوط، وليس معاهدات السلام، هذا ما تفهمه هذه الحيوانات.. "هل الفلسطينيون قادرون حتى على أن يكونوا شركاء في السلام؟" أرادت أن تعرف.

أتذكر أنني جلست منتصباً على كرسي، ونبضي يتسارع، وقلمٌ في يدي يحدق مباشرة في الكاميرا، لقد كان وقتًا جيدًا مثل أي وقت آخر لدحض الأساطير "الإسرائيلية" العزيزة.

قلت بعيون ناظرة الى يحيموفيتش: لأكثر من أربع سنوات كنت أعمل عن كثب مع العديد من الفلسطينيين، من عرفات إلى الأسفل؛ لمنع الهجمات والقبض على الإرهابيين، وشرحت بلهجة موزونة بقدر ما يمكنني فعل ذلك، أنه عندما شعر الفلسطينيون أن منع الإرهاب سيؤدي إلى إنهاء احتلالنا وإقامة دولتهم، تعاونوا معنا.. ولكن ما سعى إليه معظم الفلسطينيين، أكثر من أي شيء آخر، فلم يكن دمائنا هي الهدف، بل أرادوا فقط الوثوق في أن الحكومة "الإسرائيلية" ستنهي الاحتلال وتسمح لهم بالحرية، ولكننا لم نعطهم شيئاً للثقة بنا، هذا ما كنت أفكر فيه ولكني لم أستطع حتى الآن أن أقوله علنًا: هو أن سعينا لتحقيق السلام كان خدعة، نحن ما زلنا عالقين في صهيونية جيل والديّ الذي رأى أرض "إسرائيل" بأكملها حقًا لنا، ومنذ أن رفضنا الاعتراف بأن للفلسطينيين حقوقًا وجذورًا في يهودا والسامرة أيضًا، وكنا نبحث دائمًا عن طرق للتراجع عن وعودنا، نحن ما أردناه هو الأمن، وإذا تمكنا من الحصول عليه دون تسليم المزيد من أراضي "إسرائيل"، فسنقوم بذلك.

"لكن..."

لقد قاطعتها.

إن لجوئنا الغريزي إلى القوة غير المتكافئة -كما أشرت- أوجد عكس ما نريد تحقيقه، نحن نُعرِّض أمننا للخطر في كل مرة باسم الأمن، ويقوم جنودنا بإطلاق النار على رماة الحجارة الفلسطينيين، وأفعالنا تغذي الدعوات إلى الانتقام.

أخيرًا تدخلت يحيموفيتش بالسؤال الذي يدور في أذهان الجميع: "فماذا عن مثيري الشغب هؤلاء؟" أرادت أن تعرف، وتعيد المحادثة إلى الإعدام خارج نطاق القانون. "من هؤلاء؟"

"سأخبرك من هم".. ومض في ذهني شيء قرأته في أحد تقارير الدكتور الشقاقي: الأشخاص الذين يقفون وراء الانتفاضة الثانية كانوا من المؤيدين لعملية السلام بخيبة أمل، "إنهم ليسوا متعصبين، قد لا أعرفهم شخصيًا، لكنني قابلت الكثير من الأشخاص مثلهم، الذين كانوا ذات يوم من المؤيدين المتحمسين لأوسلو".

كنت أفكر في الرجال الذين قابلتهم والذين يعملون لدى جبريل، رجال خاطروا بأعناقهم لملاحقة إرهابيي حماس، إذا كان بعض هؤلاء الرجال يرقصون الآن في دمائنا، فليس ذلك لأنهم كانوا وحوشًا، بل لأنهم فقدوا الأمل.

في نهاية المقابلة استخدمت نفس التشبيه الذي جربته مع إيهود باراك دون نجاح يذكر، لقد شرحت أن القيادة الحقيقية تُبقِي عينًا واحدة مدربة على الحقائق الموجودة على الأرض، والأخرى ثابتة الى أين ومن نريد أن نكون في المستقبل.

لابد أن يحيموفيتش أُعجبت لأنها سألت إذا كنت سأفكر في السياسة..

"لا، أبدًا"، صرحت بهدوء وأنا أنظر مباشرة إلى الكاميرا.

حاولت التأكد: "هل تعني حقا ذلك؟" فالجنرالات السابقون بعد كل شيء يملأون الرتب الحاكمة في "إسرائيل".

طمأنتها بنشوة: "ليس لدي أي اهتمام بالسياسة على الإطلاق".. المفارقة هي أنه في أوائل عام 2006، أي بعد أربع سنوات، كنا سننتخب أنا وشيلي للكنيست.

الفصل العشرون:

"الأمل سلاح قوي"

أنت تستخدم دبابة حتى لو كان طفلاً يحمل مسدس هوائياً .. لماذا؟ لأنك دولة. والدولة تستخدم الأدوات الفخمة.

-آفي ديختر، حارس البوابة-

اعتقد معظم الأشخاص الذين اتصلوا بي بعد مقابلة القناة الثانية أنني قد أصبت بحالة حادة من متلازمة ستوكهولم، وهي أزمة سميت على اسم الأشخاص الذين تم احتجازهم كرهائن خلال عملية سطو على بنك في ستوكهولم عام 1973، والذين رفضوا -عندما تم إنقاذهم- أن يشهدوا ضد آسرهم السابق، حيث كان من الأسهل على الناس افتراض أنني فقدت عقلي بدلاً من الاعتراف بأن تقييمي قد يكون صحيحًا.

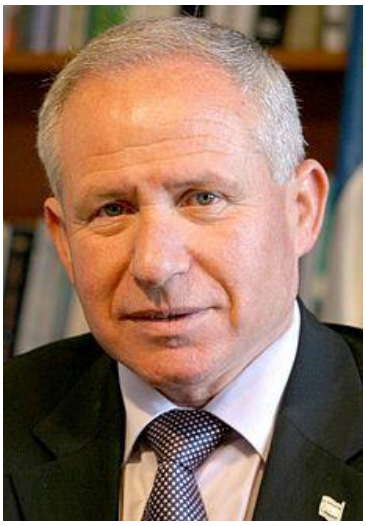

آفي ديختر

استفادت حماس من المناخ السياسي اليائس وتعافت بسرعة من الضربات التي وجهناها لبنيتها التحتية الإرهابية، وسرعان ما تحولت الصخور وزجاجات المولوتوف لانتفاضة شعبية، إلى موجة من الهجمات الانتحارية، حيث قُتل ستة مدنيين "إسرائيليين" في سلسلة من التفجيرات، وهي نذير شنيع لما سيأتي.

كانت عمليات القتل الموجهة التي قمنا بها خلال السنوات الأربع التي قضيتها في الشاباك مركزة بإحكام، وتم تنفيذها بأكبر قدر ممكن من السرية، وعادة ما عرفت على أنها "حوادث عمل".

لقد أوصلت هذه الضربات الهادئة رسالة مفادها أننا استهدفنا فقط القنابل الموقوتة، والتهديدات الوشيكة على المدنيين، كان هذا شيئًا تعلمته في الكوماندوز العاملين داخل مخيمات

اللاجئين في لبنان: إذا كنت تريد إرسال رسالة إلى أعلى التسلسل القيادي، فمن الأفضل إطلاق رصاصة واحدة بين عيني الشخص على أن تقصف المعسكر بأكمله. الدقة تحمل طابع الذكاء.

لم نتمسك بهذا النهج في عام 2000، مع تجدد الهجمات من قبل حماس، زادت حكومتي بشكل جذري من عدد عمليات القتل خارج نطاق القضاء، وتفاخرت علنًا بالأفعال التي كانت فعالياتها –على الأقل خلال فترة ولايتي– تعتمد على الإنكار المعقول، حيث قال رئيس الأركان شاؤول موفاز أن: "تصفية المطلوبين تثبت جدواها".. "يشل ويخيف قرى بأكملها"، اما نائب وزير دفاع باراك قال: "إذا كانت اللعبة حرب عصابات، فنحن أبطال العالم".

بدا لي أنه لا أحد يطرح السؤال، من هو الهدف المشروع؟ إلى جانب "القنابل الموقوتة"، هل يمكننا أن نستهدف بشكل شرعي أشخاصًا وراء الكواليس: المخطِّط، أو مُورِّد الأسلحة، أو صانع القنابل، أو المساعدون، أو السائق الذي ينقل الانتحاري إلى الهدف، أو حتى القيادة الدينية والسياسية الحركة، من يلقن الإرهابي؟

إن تحويل سياسة مطاردة القنبلة الموقوتة، إلى سياسة تعقب "بنية تحتية موقوتة"، يشبه تحويل تكتيك إلى استراتيجية، ولكن الإرهاب قد انتشر، في نهاية ديسمبر / كانون الأول، اتصل بي المستوطن المتشدد نعوم ليفنات، الذي أصر على مقابلتي قبل أن أتولى قيادة الشاباك، لطلب المساعدة. وقال: "لقد قتل الإرهابيون بنيامين كاهانا وزوجته، والآن أطفاله في خطر".

كان بنيامين من أنصار فكرة والده مئير كاهانا لطرد العرب من أرض "إسرائيل" بأكملها، كان يسافر في الضفة الغربية عندما قام مسلحو حماس برش شاحنته بالرصاص، وتابع نعوم: "قُتل جدهم"، في إشارة إلى اغتيال مائير على يد أميركي مصري في مدينة نيويورك عام 1990، و"قُتل آباؤهم، والآن أحتاج منك أن تساعدني في إنقاذهم"، كان الظلام قد حل، ويمكن أن يكون المسلحون في أي مكان.

مائير كاهانا

التفت إلى قائد القيادة المركزية للجيش "الإسرائيلي"، وطلبت منه إرسال عربة مصفحة لحماية أطفال كاهانا.

بعد ثلاث ساعات من مقتل كاهانا، كان الدكتور ثابت أحمد ثابت، عضو منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان، وعلى مدى سنوات أحد كبار مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية المرتبطين بحركة السلام الآن، يسير عن طريقه للوصول إلى العمل، فقد كان طبيب أسنان،

ومحاضرًا في الصحة العامة في جامعة القدس، ومديرًا عامًا لوزارة الصحة الفلسطينية، وأمينًا عامًا لحركة فتح في طولكرم، وكان أيضًا قائدًا لجماعة "التنظيم" المسلحة التابعة لفتح، وهو شخص عاد إلى شعار منظمة التحرير الفلسطينية القديم بأن العنف هو اللغة الوحيدة التي يفهمها المحتلون.

بمجرد وصول الطبيب إلى نهاية طريقه الخاصة، أطلق فريق من القناصة –استعاره الجيش "الإسرائيلي" من وحدة الكوماندوز القديمة التابعة للاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13)– النار عليه.

الشهيد/ رائد كرمي

فسَّر رجال فتح، المترددون حتى الآن في الانضمام لحملة القتل التي شنتها حماس، فسَّروا الاغتيال على أنه رد "إسرائيل" على العمليات التي تنفذها حماس، وتعهدوا بالانتقام، وفي كانون الثاني (يناير) 2001، انطلق ابن شقيق الدكتور ثابت، رائد كرمي، عضو جهاز الأمن الفلسطيني التابع لجبريل، للانتقام لمقتل عمه، باسم "كتيبة ثابت ثابت"، حيث خطط لاختطاف وقتل اثنين من أبناء عمومته اليساريين كانا يديران مقهى عصري يسمى "المذاق" الكائن في شارع شنكين في تل أبيب، ووقع الهجوم بينما كان أبناء العم يأكلون الحمص مع صديق فلسطيني في قرية عربية خارج طولكرم.

أمر جبريل باعتقال الكرمي، لكن بضغط من مظاهرات الشوارع أطلق سراحه.

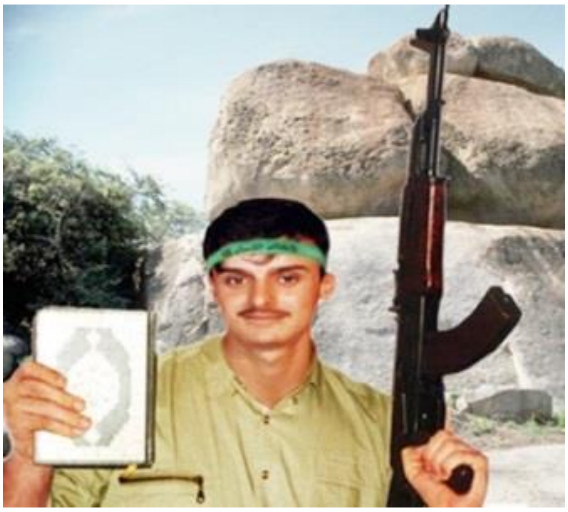

الشهيد/ سعيد الحوتري

وتضاعفت الهجمات، بتاريخ 1 يناير جُرِح ستون في قصف لحركة حماس في بلدة نتانيا "الإسرائيلية"، وأصيب "الإسرائيليون" العلمانيون بصدمة شديدة جراء هجوم على ملهى دولفيناريوم الليلي على شاطئ البحر في تل أبيب الذي نفذه الإسلامي سعيد حوتري البالغ من العمر 22 عامًا، والذي قُتل فيه 21 "إسرائيليًا"، وبعد المجزرة رتب جيران حوتري في قلقيلية الزهور على شكل قلب وسترة ناسفة تكريما له، وأقسم الأطفال على اللحاق به إلى

جنة الشهداء، بالمقابل قام حشد "إسرائيلي" بمهاجمة مسجد في تل أبيب، حيث قُتل صاحبا المطعمين، ثم الأطفال في الديسكو جعل "البوهيميين" في شارع "شنكين" يرددون شعار باراك "لا شريك".

استقال باراك، الذي أصيب بالشلل بسبب القتال، وفي فبراير فاز أرييل شارون في الانتخابات بمنصب رئيس الوزراء، لقد خرج من تحت الأنقاض السياسية ملكاً "لإسرائيل" لأنه وعد باستخدام قوتنا العسكرية لسحق الانتفاضة.

مع شارون المسؤول، بدأنا في إنهاء الأشخاص "مع التحيز الشديد"، لتبني لغة السي آي إيه "وكالة المخابرات الأمريكية"، ثم التفاخر بها كما لو أننا وضعنا الرؤوس على الرمال، حيث نشر مكتب وزير الدفاع قائمة بالرجال المطلوبين –بما في ذلك ابن شقيق الدكتور ثابت رائد كرمي– والتي كانت إلى حدٍ ما قائمة تصفية أقل.

الشهيد/ محمود أبو هنود

في مايو، استخدمت القوات الجوية طائرات مقاتلة من طراز F16 لقصف سجن في نابلس يديره جهاز الأمن التابع لجبريل، حيث نجا الهدف "محمود أبو هنود" المخطِّط وراء هجوم الدولفيناريوم بجروح طفيفة، لكن أحد عشر من سجانيه لقوا حتفهم.

في يونيو، قُتِلَ أسامة فاتح الجوابرة، أحد الرجال المدرجين على القائمة "الإسرائيلية"، عندما استخدم هاتفًا عامًا مفخخًا في مدينة نابلس القديمة، الأمر الذي فجّر رأسه من الانفجار.

في وقت لاحق من ذلك الشهر، دخل وقف إطلاق النار بوساطة أمريكية حيز التنفيذ، وانخفض عدد الهجمات.

مع علمي بما فعلتُه بشأن عرفات والسلطة الفلسطينية –بأن عرفات شجع الهجمات فقط لأنه لولا ذلك لكان الفلسطينيون سيحولون غضبهم إليه–، اعتقدت أن وقف إطلاق النار لديه فرصة، ثم بعد سبعة أسابيع من الهدوء النسبي، في 1 أغسطس، أطلقت مروحية تابعة للجيش "الإسرائيلي" صواريخ عبر نوافذ مكتب لحماس في وسط نابلس، واستهدفوا جمال منصور عضو في الذراع السياسية لحركة حماس، وقيادي طلابي جامعي في نابلس، ورئيس المركز الفلسطيني للدراسات والإعلام، وقتل في الانفجار منصور، وصحفيان، وشقيقان، أحدهما في السابعة من عمره والآخر في الخامسة من عمره.

اعتقدت أنني كنت سأفقد عقلي، لم يكن جمال منصور إرهابيًا فحسب، بل كان أيضًا شخصية إعلامية بارزة تنتمي إلى الجناح السياسي لحركة حماس، كما دعم علنًا قرار عرفات بفرض وقف إطلاق النار.

كان قتل منصور مثالاً كلاسيكيًا على إنتاج الإرهاب باسم محاربته، خيانة لمدى ضآلة اهتمامنا بالعودة إلى طاولة المفاوضات، انتهكنا وقف إطلاق نار هش بالفعل لاغتيال مؤيد لنهج سياسي لحل النزاع، نشَّطت صواريخنا بذور الذرائع داخل حماس وقدمت دفعة للمقاتلين المتشددين.

اتصلت بخلفي آفي ديختر ونفست من خيبات أملي.. "منذ أسبوعين فقط خرج منصور ببيان قال فيه إنه يجب إعطاء فرصة لعملية السلام!" قال آفي: "لم أسمع به من قبل".. "على أي حال، ما الفرق الذي يحدثه ذلك؟"

قلت بصوت هادئ رغم أنني شعرت بالصراخ: "هل تمزح معي؟.. منصور كان قائداً دينياً، نشر في وسائل الإعلام دعوته للمؤمنين لتوفير فرصة لعملية سياسية! كل العالم الملعون يعرف! كيف يمكن أن تكون في الظلام؟".

لم يضيع الفلسطينيون أي وقت في الانتقام لمقتل منصور: أصاب مسلحون خمسة "إسرائيليين" في إطلاق نار من سيارة مارة بعد أيام قليلة، ثم تعهدت حكومتنا بمواصلة المسار، وأعلن وزير الأمن العام في حكومة شارون، عوزي لانداو، أن "مثل هذه الهجمات على [منصور] يجب أن تستمر، وبشكل أكثر كثافة".

بتاريخ 6 سبتمبر، أطلق سلاح الجو صاروخاً على رائد كرمي، الرجل الذي خطط لاختطاف وقتل "إسرائيليين"، حيث أصاب الصاروخ الكرمي بجروح بالغة فيما قُتِل ناشطان شابان من مخيم الشمس للاجئين.

بعد هجمات 11 سبتمبر 2001 في نيويورك، اعتقدت أن حكومتي وعرفات قد يخرجون من الزاوية التي زنقوا أنفسهم فيها، حيث أعلن كولن باول أنه قادم إلى "إسرائيل"، وأصدر عرفات

تعليماته لقائد التنظيم مروان البرغوثي والناس تحت قيادته مثل رائد الكرمي بوقف كل الهجمات، وقال الشاباك لشارون: إن عرفات جاد هذه المرة.

مروان البرغوثي

وتوقف الإرهاب لبضعة أسابيع، كان هذا حتى يناير 2002، لأنه من خلال المخبرين، علم الشاباك أن كرمي كان يزور عشيقته بعد الظهر، يتنقل عبر ممر ضيق بجوار مقبرة نابلس القديمة، ويبدو أنه متأكد من أن مروحية "إسرائيلية" مسلحة من طراز أباتشي لم تستطع رؤيته إذا ظل بالقرب من الجدار وتحت طبقة معلقة، ومع ذلك كانت هناك احتياطات أخرى لم يتخذها، فقد قتله جزء مفخخ من الجدار أثناء مسيرته بعد الظهر.

كانت الخطة هي جعل الأمر يبدو كما لو كان الكرمي يحمل قنبلة انفجرت بالخطأ، وهو ما لم يصدقه أحد، وما زلت لا أستطيع أن أقول على وجه اليقين ما الذي يكمن وراء قرار شارون الأحمق بالتخلص من الكرمي، فقد اعتقد معظم الفلسطينيين أن الهدف من القتل هو القضاء على أي فرصة لاستئناف العملية السياسية مع وصول كولن باول إلى المنطقة، كل ما تبقى من المذهب العملي "البراغماتية" في صفوف نشطاء فتح اختفى.

للمرة الأولى، بدأ قادة فتح في تنظيم هجماتهم الانتحارية، في تل أبيب قام إرهابيان، أحدهما من الجهاد الإسلامي والآخر من فتح، بتنفيذ عملية انتحارية مشتركة في مركز تجاري خارجي.

بعد عملية الكرمي مباشرة، دعاني آفي ديختر مع ثلاثة مديرين سابقين آخرين: أفراهام شالوم، ويعقوب بيري، وكارمي جيلون، إلى مقر الشاباك في تل أبيب لمناقشة اغتيال كرمي.. كنا رجال مسنين محبطين، مثل الخبراء المتقاعدين في الأمراض المعدية المتجمعة بعد تفشي الطاعون مجددًا.

ضربنا آفي بالانتقادات على الطريقة "الإسرائيلية"، دون اعتبار للبروتوكولات أو التفاصيل، كان الكثير من القضايا على المحك بالنسبة لنا، وكان علينا الامتناع عن الإشارة إلى المشاكل الاستراتيجيته، وفقد اقتراح ما يمكن فعله لمنع حمام الدم التالي.

ذكرته أنه في الاثني عشر شهرًا التي سبقت الانتفاضة الثانية، قُتِل "إسرائيلي" واحد فقط على أيدي الإرهابيين. لماذا ا؟ لأنه في ذلك الوقت كان معظم الفلسطينيين يعارضون الإرهاب، وبالتالي كان بإمكان قوات الأمن التابعة لجبريل وعرفات محاربة حماس دون أن يُنظر إليهم على

أنهم عملاء وخونة، وذلك على الرغم من حقيقة أن عدد المستوطنين في الضفة الغربية قد تضاعف منذ أوسلو من 100,000 ألف إلى 220,000 ألف.. "والأن؟" واصلت. "إننا نتعرض لمزيد من الإرهاب لأن طريقتنا في محاربته حرمت الفلسطينيين من أي أمل في أننا مستعدون لمنحهم حريتهم".

قال ديختر: "أنا لا أمارس السياسة".. "كانت لدينا فرصة لضرب إرهابي، لذلك انتهزناها".

"لكن، آفي، وظيفتك ليست قتل الإرهابيين، إنها منع الإرهاب، وهذا ليس نفس الشيء، لقد أيَّد الكرمي وقف إطلاق النار، والآن سنواجه المزيد من الإرهاب، وليس أقل".

استخدم يعقوب بيري لغة أكثر سخونة لانتقاد السياسة الجديدة: "لا يمكن للخدمة أن تكون مورداً لإرضاء رئيس الوزراء وملء بطنه، وهو بالفعل منتفخ من شرائح اللحم وغيرها من الأطعمة الشهية، نحن نقتل العرب صباحًا، وظهراً، وليلاً".

تجاهل آفي تحذيراتنا واستمرت عمليات القتل.

غادرت الاجتماع وأنا محبط للغاية لدرجة أنني طلبت مقابلة رئيسه بنيامين بن اليعازر، وزير الدفاع في حكومة شارون.. وخلال لقائنا، سألته لماذا أمر بالقضاء على كرمي؟

قال: "ماذا تريد مني؟ .. هذا هو التفكير المجنون في الشاباك. شعرت بالاستعلاء".

"لكنك وزير الدفاع.. هذه مهمتك".

"عامي، لماذا لا تستمتع بتقاعدك فقط؟ لقد حصلت عليه".

لأكثر من أربع سنوات، كنا في الشاباك نعمل على إزالة آثارنا لمنع الهجوم التالي، أما الآن مع الوقت للتفكير، أدركت أن الدرس الأكثر قيمة الذي تعلمته من رؤية الفلسطينيين كأشخاص، وليس أهدافًا، كان له تأثير مؤسسي طويل المدى على الشاباك، ولا شيء على الجيش.

قادني إحباطي إلى قبول دعوة الأستاذة "ماري كالدور"؛ للمشاركة في حلقة نقاش في لندن حيث التقيت برجلين متشابهين في التفكير، الدكتور إياد السراج وساري نسيبة.

على متن الطائرة التي عادت من ذلك التجمع، لم أستطع التوقف عن التفكير في تأكيد الدكتور السراج أن نجاحاتنا العسكرية التكتيكية كانت تمنح "النصر" للإرهابيين، فقد كانت حماس تربح من خلال إغرائنا بالعنف غير المبرر وسفك الدماء، مما يُقوض أساسنا الأخلاقي كديمقراطية ليبرالية.

بالعودة إلى "إسرائيل"، كان جزء مني لا يريد أكثر من المشي لمسافات طويلة مع بيبا، والتعرف على أولادنا الثلاثة بشكل أفضل، والانضمام إلى رؤية نيتافيم لـ "رسم العالم باللون الأخضر" من خلال ثورة في الزراعة، كنت أرغب في مقابلة مزارعين في الصين والهند وأستراليا والبرازيل، لكنني لم أستطع النظر إلى نفسي في المرآة إذا لم أفعل شيئًا لترجمة معرفتي الجديدة حول دور الأمل إلى عمل، عدت إلى ما خربشته على المنديل في اجتماعي في لندن مع ساري.

لقد جندت مجموعة صغيرة لمساعدتي في صقل الأفكار، حافظ آرييه روتنبرغ على وعده وانضم إلى عملية العصف الذهني، وكذلك فعل صديقي القديم أورني بتروشكا، وبوعز تامير، الاقتصادي والدكتور في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا الذي كان أيضًا زميلًا في شركة نتافيم، كنت قد أحضرته للعمل كمستشار خلال سنواتي في الشاباك.

لقد أمضينا عدة أشهر نتحرك ذهابًا وإيابًا، ونضيف بشكل أساسي سطورًا عن لاجئي 1948 الفلسطينيين، حتى شعرت بالاستعداد لتقديم الأفكار إلى ساري، اتصلت به وسألته عما إذا كان بإمكاننا الاجتماع في مكتبه في القدس، قال مُرحِّباً بزيارتي دون تردد: "أهلًا وسهلا".

أوقفت السيارة في القدس الغربية وسرت باتجاه بوابة الزهور في البلدة القديمة، حيث كان المبنى الإداري لجامعة القدس في فيلا عربية قديمة مقابل متحف روكفلر.

فوق تلك الكتل القليلة وجدت نفسي أنظر إلى المدينة بعيون متيقظة لعلامات الحرب العرقية، فعندما كنت طفلاً، اعتادت أمي أن تخبرني كيف أنها عندما كانت تلميذة كانت تدخل المدينة القديمة عبر بوابة "دونج" وتتجول في الشوارع، وهي رحلة كانت تأخذها أحيانًا عبر بوابة العامود إلى الأحياء الغنية خارج أسوار المدينة القديمة حيث احتفظ النسيبة والحسينيين والنشاشيبي بفيلات حجرية كبيرة.

الشوارع المتهالكة التي مررت بها في ذلك الصباح كانت تصطف على جانبيها عشرات من حرس الحدود ذوي القبعات الخضراء الذين يراقبون الشباب والفتيان العرب الذين جابوا الحي، ورائحة الغاز المسيل للدموع الحامضة لا تزال في الهواء، فلا بد أن عملاء الشاباك الموجودين في كل مكان كانوا يخدشون رؤوسهم عندما رأوني أمشي في الشوارع، بدون سلاح.

كان ساري ينتظرني في مكتب يليق بسليل إحدى أكثر العائلات شهرة في القدس، كانت صورة والده أنور –المحامي الذي تلقى تعليمه في أكسفورد والذي كان وزير الدفاع الأردني قبل حرب 1967– معلقة على أحد الجدران. بينما كان والدي يقاتل السوريين في غور الأردن والأردنيين في مركز شرطة جيشر على نهر الأردن عام 1948، خسر أنور نسيبة إحدى رجليه

في قتال قواتنا في القدس، ثم وجه آخر تعرفت عليه على الحائط هو أبو جهاد، أحد مؤسسي فتح والرجل الذي ساعدت في اغتياله.

شرحت لساري، الذي كان يفرك "السُّبحة" سلسلة من خرز أزرق، أنني أردت أن أطلعه على نسخة معدلة ومهذبة من النقاط التي وافق عليها في لندن.

قال وهو يضع حبات الخرز ويشعل سيجارة: "هيا"..

"لا شكرا"، أجبته عندما قدم لي واحدة.

"شاي أم قهوة، إذن؟".

"ماء فقط".. سحبت من حقيبتي قصاصة من الورق بها اقتراحي.

لكن ساري طلب مني أن أضعها: "لا أريدك أن تقرأ. أخبرني فقط بما توصلت إليه".

وصل أحد المساعدين وأحضر زجاجة ماء لي، وكوب شاي لساري، نادرًا ما أشعر بالتوتر، لكنني شعرت في ذلك الصباح بارتعاش في صوتي عندما وضعت الخطة، عند هذه النقطة اتفقت مع بيبي وإيهود على شيء واحد: النهج المجزأ لن ينجح، خرائط الطريق وإجراءات بناء الثقة تعطي القوة فقط للمفسدين، بغض النظر عن مدى يقظة دفاعاتنا، كان لا بد أن يمر شخص ما، أو ذئب وحيد، أو ربما سائق جرار ساخط ينحرف نحو محطة للحافلات.

قال ساري: "هيا".. ثم أشعل سيجارة جديدة من الجمر القديم.

أعطيته النسخة الجديدة من اقتراحي بالمنديل في لندن، بما في ذلك الحل المقترح لمسألة اللاجئين، عندما انتهيت من الحديث رفعت حاجبي كأنني أقول ما رأيك؟

قال وهو يمرر أصابع إحدى يديه عبر "ممسحة فرو" ذات الشعر الأبيض: "لنفعل ذلك". ويده الأخرى لا تزال تسيطر على حبات الخرز "السُّبحة".

الفصل الواحد والعشرون:

أخطر عدو لنا

لطالما كان الفلاسفة مفتونين بي؛ بسبب أمرٍ قاله لي ديفيد، والد زوجتي بيبا، ذات مرة: الفلاسفة والكوميديون لديهم رؤى خاصة –لا نتميز نحن بها– لأنهم يعرفون كيفية الخروج من الواقع اليومي ورؤية أنفسهم والمجتمع من منظور غريب.. كان هذا صحيحًا بالنسبة لساري، لكن هذا لم يوضح كيف كان بإمكانه أن يتعاون معي بهذه السرعة.

ربما كنت وقتها أضع سمعتي على المحك في مشروعنا المشترك، لكن كنت أعرف أنه لا أحد يفكر بقتلي، ومن ناحية أخرى: من خلال التعاون مع المدير السابق لنفس المنظمة المعادية، والتي كانت منشغلة بإرهاب المجتمع الفلسطيني، فإن ساري دخل عن طيب خاطر في حقل ألغام، وكان وصفه بأنه متعاون مع "إسرائيل" –بالنسبة لمجتمعه– هو أسوأ جريمة في سيرته الذاتية، وفي الخليل اتُّهِمَ موسى الرجوب –ابن عم جبريل– بهذه التهمة، وقام حشدٌ من الثائرين بإطلاق النار عليه وضربوه وعلقوا جسده من قدمه اليسرى في عمود كهرباء.

بعد فترة وجيزة من بدء العمل سوياً، قمت بدعوة ساري إلى منزلي، ومن خلال كلام المصارحة قد نُظهِر أشياء جديدة حتى لا تُصبح بعد ذلك وكأنها مفاجآت، وتخيلت لو اكتشف أحد أعداء ساري أن شريكه "الإسرائيلي" يعيش في منزل عربي سابق!.

لقد بحثت أيضًا عن عائلة ساري، حيث كان من المعروف للجميع أن والده كان قاضيًا ووزير دفاع أردني سابق، لكن معرفة قصة والدته "نزهة" عمّق إعجابي بشجاعة ساري الأخلاقية في العمل معي.

في عام 1948، عندما كان والدي يدافع عن كيبوتسنا على بحيرة طبريا، ضد إطلاق النار والقصف المستمر من الجيش السوري، كانت "نزهة" –المولودة لعائلة من الأرستقراطيين– تعيش في بلدة الرملة، وفي يونيو طرد الجيش "الإسرائيلي" "نزهة" بناءً على أمر ضمني من رئيس الوزراء بن غوريون، وبقيادة إسحاق رابين قائد البلماح، طردوا مع بقية العرب من الرملة، وكانت والدة ساري –والتي كانت حاملًا به في ذلك الوقت– تسير عبر خطوط العدو سيرًا على الأقدام، لقد ربت ساري للاعتقاد بأن الفلسطينيين –على حد قولها–: "سُرقوا من قبل أناس أشرار، أناس أتوا من العدم، من المريخ".

أثناء زيارة ساري لمنزلنا، اصطحبته أنا وبيبا للطريق الترابي، لنريه بيوت المزارع الحجرية الفارغة التي كان يسكنها أهالي إجزم، وفي حديقتنا ناولت ساري تينًا من شجرة زرعها أفراد الأسرة –المحرومين– الذين عاشوا في المنزل قبلنا.. تناولها وقطف أخرى دون أن يتكلم، فلا بد أنه قد أخذ تلك العظة، مثل تلك الموجودة في "عدن الأسطورية"، كان هذا الأمر مؤلمًا بالنسبة لرجل ربته أمٌ لم تنسى أحداث الماضي الصادمة.

بعد العشاء، أخبرت ساري –حسب اعتقادي– أنه من غير المرجح أن نطور نوعًا من العلاقة الدافئة بيننا، كالتي كانت لدي مع جبريل.. قال: إنه كان يعاني دائمًا من حساسية تجاه العنف بجميع أشكاله، ولا سيما عندما يأتي هذا العنف من رجالٍ يرتدون الزي الرسمي.. ثم قال وهو ينظر إليَّ بحدة: "عادة لا أحب الجيش".. ومن المفارقات –فكرت في نفسي–: "ولا أنا أيضاً".

لكن القاسم المشترك بيننا هو: أن كلانا، "ساري" بصفته وطنيًا فلسطينيًا، وأنا بصفتي صهيونيًا فخورًا، قد سعينا إلى مخرج من كارثتنا الإقليمية، وسنعمل على سلسلة من المبادئ البسيطة التي يمكن أن نقدمها للناس كنهج براغماتي منطقي لإنهاء الصراع، مرةً واحدةً وإلى الأبد.

كان أملُنا أنه خلال عدة اجتماعات خاصة –في مكتبه الجامعي في القدس، أو في فندق نيو إمبريال داخل بوابة يافا–، يمكننا بسرعة وفي غضون أسابيع أن نأخذ مسودتي، ونصقل مواقفنا المشتركة بشأن القضايا الشائكة، مثل: الحدود، والأمن، والقدس، والأماكن المقدسة، والمستوطنات اليهودية، واللاجئين.

ومن أهم الإضافات التي أضافها ساري أنه: يجب على "إسرائيل" أن تُعرب عن أسفها للمعاناة التي سببتها للاجئين، وأن تشارك في صندوق دولي لتقديم تعويضات مالية، والعمل على إعادة التوطين في دولة فلسطين.

وجدنا أنفسنا نضحك على جرأتنا، معتقدين أنه يمكننا تنفيذ ما فشل كلنتون وباراك وعرفات في فعله في كامب ديفيد.

لقد كانت خطتنا جيدة، ولكن كما هو الحال مع معظم الخطط في منطقتنا، عندما دخلت للواقع، فالأسابيع تحولت إلى أشهر، وكان عليَّ أن أعمل من أجل لقمة العيش، وكذلك فعل ساري، الذي أدار القدس لصالح عرفات، وكان رئيسًا لجامعةٍ تحت حصار الجيش "الإسرائيلي".

لقد أمضيت وقتًا طويلاً في متابعة قضية في محكمة العدل العليا، ففي يناير 2002، طلبت سهام ثابت، أرملة الدكتور ثابت، وبدعمٍ من حزب حداش اليهودي العربي الشيوعي،

واللجنة العامة لمناهضة التعذيب، طلب من المحكمة منع الحكومة من "إعدام الفلسطينيين دون محاكمة".

جادلت السيدة ثابت ومحاموها في بلدٍ لا توجد فيه عقوبة الإعدام، حيث تتحمل المحاكم مسؤولية وضع حدٍ لفِرَقِ الإعدام.

تم تحضير حجة الحكومة من قِبَل القسم القانوني في جيش الدفاع "الإسرائيلي"، واستندت إلى المنطق الذي كان صديقي بريان جينكينز قد وصفه بأنه: مثال على الاستبداد المتزايد. لقد كان موقفهم منذ فترة طويلة أن العنف الفلسطيني ضد دولة "إسرائيل" هو من تدبير السلطة الفلسطينية، وبما أن "لإسرائيل" الحق في الدفاع عن نفسها، وبالنظر إلى حقيقة أنه لا يمكن في كثير من الأحيان اعتقال أعدائنا واحتجازهم، فيكون بذلك للدولة الحق في استخدام وسائل مميتة لحماية المدنيين، ما لم تطلبه حكومتنا هو ما إذا كانت الانتفاضة انتفاضة شعبية مستقلة عن مكائد القادة، وما إذا كانت أفعالنا، بدلاً من وقف العنف، قد أضافت المزيد من الوقود إلى النيران.

الآن علمت على وجه اليقين أن الإرهابيين كانوا ينتصرون، لقد قامت حماس بإغراء المجتمع "الإسرائيلي" بأسره، بدءًا من قادتها المنتخبين ديمقراطياً، إلى اتخاذ إجراءات لا ينبغي لأي مجتمعٍ حُر أن يسمح بها.

إن ما كان في يوم من الأيام حرباً مشروعةً ضد المنظمات الإرهابية، قد تحول إلى حربٍ ضد الشعب الفلسطيني، فكانت ديمقراطيتنا –شيئًا فشيئًا– تتحول إلى طُغيان، وكانت مسألة وقت فقط قبل أن نتحول إلى جورج أورويل 1984.

كنا –نحن "الإسرائيليين"– منشغلين للغاية بهجومنا الشامل على الإرهابيين، وكذلك على عدد كبير من النشطاء المسالمين "غير المسلحين" المؤيدين للفلسطينيين، لدرجة أننا أهدرنا فرصًا لإسكات القنابل الموقوتة الحقيقية.

في حوالي الخامسة من مساء 27 مارس 2002، بينما كان ملايين "الإسرائيليين" –مثلي– يتسابقون حول منازلهم استعدادًا لعيد الفصح، وقف عبد الباسط عودة أمام كاميرا ممسكًا ببندقية هجومية من طراز AK-47 في مدينة طولكرم بالضفة الغربية.

عبد الباسط عودة

الصورة، التي تمت مشاهدتها لاحقًا على موقع حماس على شبكة الإنترنت، لا تكشف عن أي تعصب جامح من تعابيره، فقد كان من الممكن أن يتقدم للحصول على رخصة قيادته، حيث كان الشاب البالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا قد فشل في الحصول على تأشيرة عمل لأمريكا هربًا من حياته المسدودة بالعمل في كشك الخضار الخاص بوالده، جاءه الخلاص عندما وعدته كتائب القسام –الكتائب السرية– بمسار سريع إلى الجنة مع عدم وجود ما يخسره، قَبِلَ عودة مهمته وهي: الانتقام لاغتيالنا رائد كرمي.

بعد تسجيل الفيديو، أزال عودة المنديل الأخضر من حول جبهته، وحلق قصته الخفيفة، وارتدى ثوب وشعر مستعار بلون بني وصل للكتفين.

بعد الساعة الخامسة مساءً بقليل، غادرتُ أنا وعائلتي "كريم مهرال"، وتوجهنا إلى منزل أخت بيبا لحضور عيد الفصح وتناول وليمة "سيدر": وهي وليمة ظهرت في الكيبوتس تعبر عن التحرر من الطغيان، ثم مررنا في رحلتنا بمدينة نتانيا على ساحل البحر الأبيض المتوسط، واختفى الغسق عن الأنظار وكذلك المباني الزجاجية والمعدنية المتلألئة التي تضم شركات التكنولوجيا الفائقة التي تصطف على الطريق السريع.

الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود

كنت في حالة مزاجية جيدة على نحوٍ غيرُ مألوف، كفرحة القمر بشأن الأخبار السعيدة القادمة من قمة الجامعة العربية في بيروت، حيث كان الملك عبد الله، في ذلك الوقت ولي عهد المملكة العربية السعودية، الذي قدم في ذلك اليوم للتو خطة منحت "إسرائيل" الحق في "العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها".

"أتعلم ماذا يعني هذا يا بيبا؟ هذا انتصار! العالم العربي كله، بدءاً من السعوديين، أعلنَنَا للتو فائزاً بحرب المائة عام".

شعرت بأنني أتدحرج من النافذة والصراخ في الأشخاص المجاورين لنا في زحمة السير، لقد فزنا! أخيرًا، كان لدينا شيء نحتفل به.

كنت بالفعل أتدرب على إجابتي على سؤال عيد الفصح التقليدي، لماذا تختلف هذه الليلة عن الليالي الأخرى؟ لأننا فزنا، كنت على استعداد للقول.

ما زلت على الطريق، حيث أعطيت "ماتي شتاينبرغ" خاتمًا. وسالته: "ماذا تعتقد عن..؟"

قطع جملتي بقوله: "المبادرة السعودية؟" .. "إنه زلزال يا عامي، السعوديون مستعدون لدفن الأحقاد ولديهم علاقات طبيعية معنا على أساس الانسحاب من الأراضي المحتلة، حقيقة إعلانهم في عيد الفصح تدل على شيئًا ما".

"تقصد، هدية لليهود".

"يمكنك قول ذلك، دعنا فقط نرى ما إذا كنا نحن اليهود سوف نفهم الأهمية التاريخية للعرض"، حيث وضعت مبادرة السلام العربية رسمياً حداً للأوهام مثل: العودة إلى خطة التقسيم لعام 1947، أو البُعد القياسي لما بعد 1967 المتمثل في "لا تفاوض مع الكيان الصهيوني". فعرفات نفسه وصفها بأنها "مبادرة قوية للغاية"، رغم أنه لا يمكن أن يكون في بيروت شخصيًا، لأن حكومتنا منعته من السفر إلى لبنان.

قلت بتفاؤل: "لن يكون لدينا خيار"، أعني كيف لنا أن نرفض عرضاً وقعت عليه جامعة الدول العربية ودعمه السعوديون؟

قال ماتي إنه معجب بتفاؤلي، لكنه قال بعد ذلك عبارة من جملة "أبا إيبان" التي كثيراً ما يتم اقتباسها، وهي: أن "العرب لا يُفوِّتون أبداً فرصة لتفويت أي فرصة". في تقديم ماتي لتلك العبارات المبتذلة، كان دورنا للعب دور الأحمق.

بحلول هذا الوقت تقريبًا، كان عودة يقف في شارع الملك ديفيد أمام فندق بارك في ناتانيا، مرتديًا باروكة شعر مستعار ولباس تنكر، فلم يلاحظ حارس الأمن شيئًا غير عادي بشأن قيام المرأة متوسطة الحجم بتدوير حقيبتها عبر المدخل إلى قاعة الطعام، حيث كان المئات من اليهود "الإسرائيليين"، بمن فيهم عدد من الناجين من المحرقة، بالإضافة إلى ضيوف من أوروبا وأمريكا، ينتظرون بدء قراءات عيد الفصح، فلم يسبق لهم أن وصلوا إلى تلك الآلهة الآرامية القديمة "هذا هو خبز البلاء".

في حوالي الساعة السابعة وأربعين دقيقة، كنا في وسط مطعم "سيدر" مع أخت بيبا عندما وصل الخبر عبر الراديو، حيث حوَّلت المتفجرات الموجودة في حقيبة عودة –الكرات والشظايا المعدنية– إلى مقذوفات قوية بما يكفي لإسقاط السقف، وانقطعت الكهرباء في الفندق وانفجرت أنابيب المياه. وقُتِل في الهجوم ثلاثون شخصاً، وجُرِح أكثر من مائة، بينما نجت امرأة في التاسعة والثمانين من عمرها من أوشفيتز لتقتلها قنبلة عودة.

تحول حزننا إلى سخط بمجرد أن علم "الإسرائيليون" بردود الفعل الفلسطينية على المذبحة، حيث سمع الصحفيون الذين زاروا قريته في اليوم التالي السكان المحليين يمتدحون جرائم عودة المروعة، فقد أعلن والده محمد "نفعل لهم ما يفعلونه بنا".. "إذا قتلونا، فإننا نقتلهم في

اليوم التالي، لن يتوقف الأمر أبدًا"، ووصف قاضي محكمة جنايات البلدة، أحد أعمدة المجتمع، –وهو يرتدي ببدلة وربطة عنق يجسد الاحترام– وصف الجريمة بـ "الرائعة"، ورأى أنه "في كل مرة يحدث فيها عمل يكون هناك رد فعل"، بينما برر عضو في فتح ونائب في البرلمان الفلسطيني الهجوم الانتحاري على أنه دفاع عن النفس: "ليس لدينا أي شيء آخر نحارب به هذه الآلة الضخمة "لإسرائيل"، لديهم كل شيء؛ لديهم كل القوة، ليس لدينا سوى أجسادنا".

مبادرة السلام العربية لم تكن على بال أحد، حتى شمعون بيريز، وزير خارجية شارون والرجل الذي يقف وراء أوسلو، بدا وكأنه صقر عسكري في رده عليها، حيث أطلق عليها اسم: "الإملاءات"، متهماً السعوديين بدفعنا إلى الزاوية، واشتراط رد "إسرائيلي" إيجابي بـ "إنهاء الإرهاب"، وهي حالة كلاسيكية لوضع العربة أمام الحصان.

في تلك الليلة أعلن شارون حالة الطوارئ، واستدعى عشرين ألفاً من جنود الاحتياط، وأطلق عملية "السور الواقي"، والتي تعتبر أكبر عملية عسكرية في الضفة الغربية منذ عام 1967.

ومع اشتداد العملية، اتبعنا الطريق الذي مهده المسلحون من كلا الجانبين: للفلسطينيين، ولحماس والانتحاريين.. أما بالنسبة لنا، إيغال عامير، باروخ غولدشتاين، واليمين المتطرف.

تم استدعاء ابننا الأصغر روي كجندي مظلي، زوجتي بيبا لم تكن متوترة أبدًا، بسبب طوال سنواتي في الكوماندوز؛ شكوكي حول العملية أثرت على كلانا، ثم انتهى به الأمر للانضمام إلى إعادة احتلال نابلس.

عرفات، الذي أصبح ضد تفجيرات حماس، كان مع ذلك الهدف الأول لشارون، ورأى دعاة حكومة "إسرائيل" أن الهجوم بمثابة حرب عرفات ضدنا، وقصف الفندق هو الضربة الأخيرة فقط في هجوم قومي امتد إلى مفتي القدس في الثلاثينيات.

أدى الهجوم الهائل للجيش "الإسرائيلي" إلى تفكيك أجهزة الحكم في السلطة الفلسطينية، حيث في هجوم وقع قبل الفجر، غزت الدبابات والدروع والقوات "الإسرائيلية" رام الله، وفرضت حظر تجول على المدينة بأكملها، وطوقت مَجْمَع عرفات "المقاطعة".

ومن الغريب أن عبثية عدم التوافق بين القوة العسكرية الأولى في الشرق الأوسط، ورئيس السلطة الفلسطينية –الذي أضحت بلا سلطة– قد عززت عرفات، الذي عاد إلى دوره كرمزٍ للمعاناة والمقاومة الفلسطينية، حيث ظهر على تلفزيون أبو ظبي، وهو يتلعثم من خلف الأنقاض: "ألا تعرفني الآن؟ أنا شهيد في طور التكوين". وكرر ثلاث مرات: "أكرمني الله بالاستشهاد".

قدم محمود درويش –الذي لا يزال أحد الشعراء الرئيسيين–، شكلاً مختلفًا من التحدي، شكلٌ أقل مأساوية وبلا حدود: "حالة الحصار"، القصيدة التي كتبها في تلك الأيام، موجهة إلى "القاتِل":

إذا تَبصَّرتَ في وجه الضحية التي قتلتها، فستتذكر والدتك في الغرفة الملیئة بالغاز، وكنتَ ستتحكم بنفسك قبل إطلاق الرصاصة، وغيرت رأيك: "لن أجد نفسي أبدًا هكذا".

الكاتبة أميرة هاس، كالعادة تكتب حقائق موثوقة، أعادت تسمية عملية "الدرع الواقي" إلى "عملية تدمير الحقائق"، لأنها: "لم تكن مهمة للبحث عن البنية التحتية للإرهاب وتدميرها .. بل كان هناك قرار بتخريب البنية التحتية المدنية والإدارية والثقافية للمجتمع الفلسطيني"، حيث أنتجت عملية "السور الواقي" أرضًا محروقة، ولم تترك سوى حفرة فارغة اختفى فيها ما تبقى من السلطة الفلسطينية، ولكن لا أحد طرح مثل هذا السؤال البسيط: بعد أن قتلنا الإرهابيين، من سيتحدث عن بناء مستقبل أفضل؟

كان وقف الإرهاب يتطلب معلومات استخباراتية متطورة، ولذا عندما هاجم الشاباك أنظمة الكمبيوتر التابعة للسلطة الفلسطينية، لم يعد بإمكان جبريل احتواء حماس –ربما كان هذا هو الهدف– على أي حال، سرعان ما كان جبريل عاطلاً عن العمل حيث قام عرفات بطرده بعد مشاجرة لفظية، لأن جبريل ناشد عرفات أن يتخذ إجراءات صارمة ضد "كتائب شهداء الأقصى"، ورد عرفات بأن الرجوب سمح لمجموعة فلسطينية بإطلاق سراح ستين إرهابياً من حماس من سجن في الخليل، وفي النهاية أخرج المتقلب عرفات مسدسه الزئبقي ووصف جبريل بأنه "جاسوس إسرائيلي" و "عميل وكالة المخابرات المركزية".

بدأتُ أقلق بشأن ساري، فمنذ لقائنا الأول في مكتبه، نما إعجابي بالرجل بما يتناسب –بشكل مباشر– مع بصيرتي في علاقته بالمجتمع المدني الفلسطيني، حيث إن جامعة القدس التي يديرها تلبي احتياجات السكان الأفقر من بين الجامعات الأخرى في الضفة الغربية، ومع نسبة أعلى من الطلاب من مخيمات اللاجئين.. حيث في كليات العلوم والتكنولوجيا، قام العديد من الطلاب الأكثر موهبة وطموحًا بدعم حماس، فقط لأنهم استفادوا من العمل الخيري لحماس، ومن بين العباقرة المهوسين، اعتُبِر عادل عوض الله –الطالب السابق هناك– بطلاً.

اكتشفت أن ساري كان خبيرًا في التنقل بين هذه الفصائل الطلابية المتباينة، ويمكنه دفع طلاب حماس في مختبرات الكيمياء –على سبيل المثال– إلى الامتناع عن بناء القنابل، وتوجيه إحساسهم بالإذلال والغضب، إلى مساعي بناءة مثل الحصول على شهادة وإيجاد وظيفة.

جعله اعتداله الماهر هدفاً "إسرائيلياً"، حيث نشرت صحيفة الغارديان قصة حول كيف "بدأ مسؤولو المخابرات "الإسرائيلية" في مطاردة أعضاء إدارة السيد عرفات، بمن فيهم ساري نسيبة". ونشرت صحيفة "يديعوت أحرونوت" اليومية "الإسرائيلية" قصة مماثلة نقلاً عن مصدر أمني رفيع قوله: "بسبب حنكته، فإن نسيبة أخطر بكثير –من وجهة نظرنا– من شخصيات أخرى في القيادة الفلسطينية". ومقال آخر في يديعوت كان بعنوان: "دكتور ساري نسيبة: احذروا من ثعابين المرجان القاتلة التي تتظاهر بأنها ثعابين "سكيبجاك" غير ضارة".

في مساء يوم 2 أبريل، اقتحم جنود "إسرائيليون" محطة تلفزيون ساري خارج رام الله، حيث كان هذا هو المكان الذي أنتج فيه ساري النسخة الفلسطينية من *شارع سمسم*".

تحت تهديد السلاح، حبس الجنود الموظفين في الطابق السفلي قبل نهب بقية المبنى المكون من أربعة طوابق، ثم نشروا المواد الإباحية لتحل محل الرسوم المتحركة ورشوا كتابات على الجدران مثل: "فلسطين، لن تكون أبداً للعرب!"، ثم حطموا المعدات، وأخذوا من أجهزة الكمبيوتر، وألقوا كاميرات التلفزيون من نافذة الطابق العلوي.

على الرغم من أنني كنت سأتفهم أنه كان يريد أن يظل صوته منخفضًا لفترة من الوقت، إلا أن ساري تجاهل الهجوم، وواصلنا التركيز على صياغة ورقتنا المشتركة، فعلى الرغم من أننا اضطررنا للتخلي عن خطتنا للاجتماع على جزيرة في بحر إيجه –بناءً على دعوة من الحكومة اليونانية– لإنهاء العمل لأنه لم يستطع الحصول على تصريح للمغادرة من القدس الشرقية المحاصرة.

ما توصلنا إليه أخيرًا كانت مجموعة من ستة مبادئ، وُضِعت بين قوسين من التاريخ والعقائد الدينية، ليس لأنها كانت غير مهمة ولكن بسبب قوتها الكامنة: فهي "حقوقنا المطلقة" الحق التاريخي لليهود في وطن أجدادهم، وحق الفلسطينيين في أراضي أجدادهم فيما يعرف الآن "بإسرائيل"، لأنها كانت في مثل هذا الصراع الأساسي، ولم يكن هناك جدوى من مناقشتها.

افترضت أن "الإسرائيليين" الآخرين مثلي: من خلال الكتاب المقدس وقصص والديّ، شعرت بالارتباط بكهف الأولياء، وقبر راحيل في بيت لحم، وجبل الهيكل.. ولكن لمواصلة بناء دولة "إسرائيل" بروح إعلان الاستقلال، كان علينا فصل الأحلام عن الواقع، وعلى هذا النحو، لم أتطرق مطلقًا إلى حقوق ساري التي ما زال متمسكًا بها، ولم يسحب مفتاحًا من فيلا والدته على الأرض التي أصبحت الآن جزءًا من بلدة نيس زيونا "الإسرائيلية"، "معجزة صهيون".. لأن السلام أهم من العدالة التاريخية المطلقة.

كان من المهم بالنسبة لنا أن نختصر اتفاقنا في صفحة واحدة، بدون ملاحق أو هوامش، ولا شيء من "الغموض البناء" لهنري كيسنجر، وبلا طباعة فاخرة، ولا خدع، فما الذي يمكن تحقيقه

بشكل واقعي في ضوء الحقائق السياسية والأمنية في منطقتنا؟ .. حيث تركزت الرواية التي اخترناها على المصلحة الذاتية "للإسرائيليين" الذين أرادوا الجلوس لتناول الغداء دون أن يقتلهم انتحاري، وكذلك مصلحة الفلسطينيين الذين أرادوا مغادرة قراهم دون مواجهة مراهق يرتدي الزي الرسمي للجيش وينبح عليهم.

في تلك الصفحة الواحدة، وضعنا خطتنا: دولتان لشعبين على أساس حدود 4 يونيو 1967، مع تبادل انتقائي للأراضي من فدان إلى فدان لصالح كلا الشعبين، وسيعود اللاجئون الفلسطينيون بشكل أساسي إلى دولة فلسطينية منزوعة السلاح، بينما سيتم إخلاء المستوطنات اليهودية التي بقيت في الأراضي الفلسطينية بعد الاتفاق على الحدود، كما اتفقنا على أن تعترف "إسرائيل" صراحة بدورها في معاناة الفلسطينيين وتعهدنا بالمشاركة في صندوق دولي لتعويض اللاجئين الفلسطينيين عن خسائرهم عام 1948، وبمجرد التوقيع على اتفاقية السلام، يتخلى الطرفان بشكل لا لُبسَ فيه عن جميع المطالبات.

أما بخصوص القدس: فستكون القدس عاصمة مفتوحة للدولتين، مع السيطرة الفلسطينية على الأحياء العربية، بينما الأحياء اليهودية ستصبح تحت السيطرة "الإسرائيلية"، واتفقنا على أن المفهوم القياسي للسيادة الوطنية لا ينطبق على الأماكن المقدسة في القدس، إذ تُعيَّن فلسطين وصياً على الحرم الشريف لصالح المسلمين، بينما تقوم "إسرائيل" بحراسة حائط المبكى لصالح اليهود.

بخصوص الأماكن المقدسة: لم نقول أي شيء جديد، فكل هذه النقاط –باستثناء الحرم القدسي–، تم الاتفاق عليها خلال محادثات السلام من (1993–2000) بشكل مخفي، وذلك بسبب "الغموض البنَّاء" لقادتنا، ولم يكن هذا معروفًا للجمهور، فأردنا توضيحه بلغة صريحة.

بمجرد رفع حصار القدس جزئيًا وتمكُّن ساري من السفر؛ دعاه وزير الخارجية اليوناني جورج باباندريو مرة أخرى، كما ودعا مع مجموعة من الأكاديميين، الحائزين على جائزة نوبل، والرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون (في أحد الاجتماعات)، دعاهم إلى جزيرة يونانية لمناقشة الاتجاهات التي كانت تسير عليها أوروبا والشرق الأوسط.

في طريقنا إلى اليونان، تلقينا تذكيرًا مفاده: لماذا اتفاقنا ضروري جداً؟.

ارتديت بنطلوني الجينز والصندل، ووصلت الأمن في مطار بن غوريون، تم سحب ساري – كان يرتدي الجاكيت الأكاديمية وربطة العنق– سحبه جانبًا من قبل ضابط أمن في العشرين من عمره، ربما أنهى للتو خدمته العسكرية، أردت التدخل وتوجيه إصبعي في وجه الضابط الطفل، لكنني علمت أن ساري لن يوافق على "الحماية"، بل أراد مني أن أشاهد بنفسي الإذلال اليومي الذي يعاني منه الفلسطينيون، لذلك بقيت حتى انتهاء الفحص، ثم نظر رجال الأمن في وجهي بعيون واسعة متسائلاً: ماذا كان يفعل رئيس الشاباك السابق مع فيلسوف فلسطيني؟

في الجزيرة اليونانية، وقف بيل كلينتون –الذي أهدر الكثير من رأسماله السياسي مع فشل قمة كامب ديفيد–، بجانب باباندريو واستمع إلى عرضنا.. بدا كلينتون منبهراً من بساطة مقاربة حرب المائة عام التي وَلَّدَتْ بلايين الكلمات ومكتبة من المقترحات.

بعد العرض الذي قدمناه، همس ساري لي أنه يتوقع إنصافا من كلينتون، الذي أومأ برأسه إلى عرضنا، وأن يقول شيئًا على غِرَار خطبة جنازة بريكليس: "لذلك، بعد الحكم على أن السعادة تعني أن تكون حُراً كن حُراً، ويعني أن تكون شجاعاً ولا تبتعد عن مخاطر السلام".. لقد تعجب كلينتون بالفعل من بساطة الوثيقة ووضوحها.. "كيف تمكنت من تلخيص جوهر الخطة التي حاولت الترويج لها خلال سنواتي الثماني في المنصب في صفحة واحدة ؟"

أثناء تجمُّعَنا معًا في الجزيرة، أمر وزير الأمن العام في القدس عوزي لانداو –وهو معجب كبير بالاغتيالات المستهدفة–، أَمَرَ عشراتٍ من رجال الشرطة وعملاء الشاباك بالاستيلاء على مكتب ساري الجامعي.. في المداهمة الليلية، فتح خبير في الأقفال الباب الأمامي، وتم تحميل عربات الشرطة بالملفات وأجهزة الكمبيوتر، ثم أُغلق المبنى بأكمله بقضبان فولاذية ثقيلة وضعت على الأبواب والنوافذ.

أثار الاعتداء احتجاجاً دولياً، حتى أن السفير الأمريكي "دان كيرتزر" وبَّخ شارون ولنداو، واحتج لقمع رجل معتدل كان في الخارج يدفع باتجاه السلام.

كنتُ في حيرة من أمري، لذلك اتصلت بلنداو لسؤاله عن سبب قيامه بذلك: "إنه يدعو علانية إلى وضع حد لقتل المدنيين "الإسرائيليين"، وقد تعرض لهجوم من قِبَل شعبه، فقط أخبرني: لماذا بحق الجحيم لاحقته؟ إذا كان أحد يمثل الأمل للفلسطينيين، فهو هو".

"لماذا؟"

بدا لانداو مندهشًا حقًا من سؤالي، كما لو أن الإجابة على اللغز كانت واضحة.

"لأن أستاذك هذا هو أخطر عدوٍ لنا".. وفي مكان آخر، أطلق الوزير لانداو على ساري لقب: "الوجه الجميل للإرهاب".

بمثل هذا الحديث من لانداو، محلل نظم حسب المهنة، وحاصل على درجة الدكتوراه من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، كان لديَّ دليل على أن "إسرائيل" لم تكن تتجرف إلى الاستبداد فحسب، بل كنا نتجه بسرعة إلى الجنون.

الفصل الثاني والعشرون:

السفر مع ساري

"ما تكرهه لا تفعله بجارك"

هذه هي التوراة كلها وكل ما تبقى هو تعليق

–الحاخام رابي هليل–

الحاخام رابي هليل

في نهاية يوليو 2002، وقَّعتُ أنا وساري اتفاقنا بقص شريط متواضع في فندق أمام داعمينا الأساسيين، في البحرية كنا نحب تلاوة الكاتب الروماني سينيكا، الذي قال: إنه لن تساعد الرياح أي بحَّار لا يعرف إلى أين يريد أن يُبحِر، ومع اختيار وجهته، يمكن لنفس البحار استخدام أي ريح للوصول إلى هناك، فـ "ورقتنا" هذه، التي أطلقنا عليها اسم "خريطة الوجهة"، كانت تهدف إلى تحديد هذا الهدف.

لكن الفيلسوف والأدميرال المتقاعد الذي تحوَّل إلى مدير تنفيذي للري بالتنقيط احتاج إلى أكثر بكثير من مجرد غرفة مليئة بالمهنئين للفت الانتباه إلى خطتنا.

قبل ذلك بشهور، بدأ الرئيس بوش باقتباس مثير من كتاب سفر التثنية: "لقد حددتها قبل حياتك وموتك؛ لذلك، اختر الحياة"؛ بالترويج لخريطة الطريق إلى السلام، حيث دفع بوش الأوروبيين والروس، إلى جانب شارون وعرفات، للتوقيع على مسارٍ عَرَفتُ أنا وساري أنه لن يؤدي إلى أي مكان، أولاً: طالبت الفلسطينيين بالأمن المطلق، الذين لا يستطيعون –حتى لو أرادوا ذلك– توفيرها لمؤسساتهم المحطمة، وكما أنها كانت غير قابلة للتطبيق بسبب النجاح

الكبير لشعار باراك "لا شريك"، إلى جانب استراتيجية شارون لتدمير المؤسسات الفلسطينية، فقد كان يقول إن الفلسطينيين لن يكونوا شركاء أبدًا، لذلك يجب أن نتصرف بصرامة من منطلق مصلحتنا الذاتية، دون اعتبار للتطلعات الفلسطينية.

لم تُحدث الحكومة الفلسطينية الجديدة، التي تم تشكيلها من خلال الضغط الدولي، أي تغيير في الموقف الأساسي للحكومة "الإسرائيلية"، فعلى الرغم من أن رئيس الوزراء محمود عباس، وهو براغماتي ومعارض قديم للعنف السياسي، كان لديه الشجاعة ليقول لشعبه أن الإرهاب والعنف لن يؤديا إلا إلى الدمار والموت، ومعه الرجل الثاني في القيادة، وزير المالية سلام فياض، خريج جامعة تكساس، والذي عارض بنفس القدر انتفاضة مسلحة، بينما ترأس عباس المؤسسات المدمرة.

واستمرت حربنا، حيث إنه في غضون أيام من حفلنا في بهو الفندق، أسقطت طائرة من طراز F-16 قنبلة وزنها طن على منزل صلاح شحادة، الذي تولى –بعد إطلاق سراحه من السجن "الإسرائيلي" في عام 2001– منصب قائد كتائب القسام التابعة لحركة حماس في غزة، وقُتِل في الانفجار خمسة عشر شخصاً بينهم شحادة وزوجته وابنته البالغة من العمر أربعة عشر عاماً، وأصيب العشرات من المارة.

أدى هذا الهجوم، الذي أشاد به شارون باعتباره "أحد أعظم نجاحاتنا"، إلى إدانة دولية ومعارضة واسعة النطاق داخل سلاح الجو "الإسرائيلي"، فقد وقعت مجموعة من ثلاثين مروحية من طراز بلاك هوك، وطيارون الطائرات المقاتلة من طراز F-16 وقعوا خطابًا يرفضون شن غارات جوية على المدن الفلسطينية، حيث قال أحد الطيارين: "تسمعه في شوارع "إسرائيل"، يريد الناس الانتقام".. "لكن لا ينبغي أن نتصرف على هذا النحو.. فنحن لسنا مافيا".

في هذا السياق، وخلال الأسابيع التالية، أظهر ساري لي نفسه أكثر من أنه مجرد فيلسوف في برج عاجي، فبعد أن عرفته منذ ما يقرب من عشرين عامًا، أستطيع أن أقول عن ساري إنه يمتلك عقلًا فضوليًا لا نهاية له مقرونًا بتصميم فولاذي على هزيمة احتلالنا باستخدام الكلمات والحجج والنشاط الشعبي.

خلال الانتفاضة الأولى، اصطدم ساري مع الشاباك، وانتهى به المطاف خلف القضبان، لأنه قام بتهريب رسائل من أبو جهاد إلى النشطاء، لقد أظهر أيضًا استقلالًا واستعدادًا دائمًا مما يكون هناك نقص في العرض في منطقتنا من العالم لكسر المحرمات القومية، وبعد حرب الأيام الستة بوقت قصير، تطوع للعمل في كيبوتس وذلك فقط للتعرف على "الإسرائيليين".

عادة ما نلتقي أنا وساري أيام الجمعة في الفنادق أو المقاهي أو في مكتبه، حيث ساعدتني محادثاتنا في فهم وتفسير الأحداث في الضفة الغربية، وعلمت منه كيف تحولت المناطق التي كان يحكمها عرفات حتى الآن إلى إقطاعيات يحكمها أمراء الحرب، حيث كان الأولاد ذوو الزغب الخوخي (شوارب ولحية المراهقين)، يسحبون المدافع الرشاشة ويُطلقون الأوامر، وبدلاً من نجوم كرة القدم، كان الأطفال يعبدون "الشهيد البطل"، فقد قال لي ساري نقلاً عن زعيم محلي: "الآلاف من الشبان والشابات جاهزون للتفجير".. "هذه ظاهرة جديدة، ليس لديك أي فكرة عن حجمها".

اعتقد ساري أن الكثير من الفوضى في فلسطين نشأت مباشرة بسبب دماغ شارون الشيطاني، وقال: إن الهدف النهائي لرئيس الوزراء، نقلاً عن عالم السياسة "الإسرائيلي" باروخ كيمرلنغ، هو "الإبادة السياسية" لتدمير إرادة الفلسطينيين في تقرير المصير والسيادة على ما يعتبرونه وطنهم، حيث نوَّه ساري بطريقة مستحسنة من كتاب كيمرلينغ: *محاربة الشياطين: جنرال "إسرائيل" القاتل وإرثه*: "الهدف .. هو جعل الحياة لا تطاق لدرجة أن الغالبية العظمى من السكان المنافسين، وخاصة النخبة والطبقات الوسطى، ستغادر المنطقة "طوعاً وبمحض إرادتها"، وعادة ما يتم اتخاذ جميع هذه الإجراءات باسم القانون والنظام؛ والهدف الرئيسي هو تحقيق القدرة على تحديد جانب المرء باعتباره المسؤول عن تطبيق القانون، والآخر كمجرمين وإرهابيين".

كان ساري يعرف التاريخ الفلسطيني أفضل بكثير مما كنت أعرفه، وقد ألقى قائمة طويلة من محاولات شارون لقتل عرفات وتدمير منظمة التحرير الفلسطينية، وقال ساري إن مؤامرة شارون الحالية كانت لإحداث فوضى شبيهة بالفوضى الصومالية في الضفة الغربية وغزة، وبالتالي نزع الشرعية عن القومية الفلسطينية وتبرير استمرار احتلالنا.

مثل محامي في قاعة المحكمة، قدَّم ساري كشاهد على المداهمات المستمرة لجامعته، وكذلك الطريقة التي قامت بها قوات الجيش "الإسرائيلي" بنهب المكتب المركزي للإحصاء التابع للسلطة الفلسطينية، وإغلاق مكاتب غرفة التجارة العربية والبورصة الناشئة في نابلس: "الحرب على الإرهاب شيء، لكن لماذا تلاحق البورصة؟"

لم أستطع المجادلة ضد أطروحة ساري السياسية، ولكن بعض زملائي في الجيش أحبوا أن يقولوا عن شارون إنه كان كله تكتيكات وليس استراتيجية، فهذا التقييم قلَّلَ بشكل سيئ من أهمية الرجل، حتى عندما كان مخطئًا، كان يفكر دائمًا في المصطلحات السياسية الاستراتيجية، بينما لا يمكن لأحدٍ أن يقول ما إذا كان شارون قد أدرك أنه كان يُسلِّم فلسطين إلى حماس من خلال تفكيك نظام عرفات، فإنه يعرف بالتأكيد ما كان يفعله عندما سحق الآمال في أن يكون الفلسطينيون شركاء.

كانت استراتيجيتنا منذ اجتماعنا الأول هي: تغيير رواية الصراع من خلال إخراج الدبلوماسية من الغُرف الخلفية المليئة بالدخان، إلى الشوارع.

وكان السؤال الآن: كيف نجعل الجمهور ينتبه إلى اقتراحنا؟ أرييه روتنبرغ، الذي أصدر التحدي الأصلي الذي دفعني إلى الاقتراب من ساري، افتتح المحادثة باقتراح إطلاق حملة علاقات عامة مليئة باللوحات الدعائية والإعلانات الإذاعية، لكننا كنا نعلم أنه يتعين علينا بذل المزيد من الجهد للحصول على عدد التوقيعات التي كنا نصبو إليها.

ذات يوم في ديسمبر 2002، وبعد وقت قصير من طرد عرفات –ذلك المستبد الذي لا يمكن التنبؤ به–، كممثل لمنظمة التحرير الفلسطينية في القدس، جلست أنا وساري في مقهى وناقشنا المفارقة المركزية في صراعنا.

مع تسارع دائرة القتل والهجمات الانتقامية، لاحظنا مفارقة غريبة، فقد واصلت استطلاعات الشقاقي إظهار أن "معدل متوسط" من "الإسرائيليين" والفلسطينيين كانوا مستعدين للسلام بشكل أو بآخر على غرار ورقتنا، بينما أراد سبعون بالمائة من كلا الجانبين حل الدولتين، وهو أعلى رقم مسجل في التاريخ.. ومع ذلك، كان هؤلاء الأشخاص أنفسهم يطالبون بالدم.

في مواجهة تهديد مباشر –على ما يبدو– يغفل الناس عن سبب قتلنا وقتلهم، ويلجئون إلى رجل قوي يعد بالأمن، ولكن نفس هؤلاء الأشخاص، عند سؤالهم عن المستقبل، يقولون إنهم يريدون السلام والازدهار لأطفالهم في إطار حل الدولتين، ويدَّعُون أنهم سيفعلون أي شيء –تقريبًا– لتأمينه.

افترضنا أن سبب الفصام هو أنه تقريبًا لم يثق أحد في القيادة على الجانب الآخر، واعتقدنا أننا إذا أظهرنا "للإسرائيليين" والفلسطينيين أننا جميعًا نريد مستقبلًا أفضل على نفس المنوال إلى حد ما، فيمكننا ترجمة استطلاعات الرأي المتفائلة إلى حركة جماهيرية، وسيُطلب من الأفراد التعبير عن معارضتهم للوضع الراهن ودعمهم لحلنا المقترح من خلال عملية بسيطة تتمثل في التوقيع بأسمائهم على وثيقتنا.

بينما لم تكن لدينا أي فكرة عن عدد التوقيعات التي سنجمعها، كان سعينا على الجانب "الإسرائيلي" هو جمع ما يكفي لخلق ضغط من الرأي العام على أعضاء الكنيست والوزراء لتبني برنامجنا.

حددنا الانطلاقة الرسمية في يونيو 2003، ومنحنا ستة أشهر لإنشاء منظمتين، واحدة "إسرائيلية" والأخرى فلسطينية، لجمع التوقيعات.

أطلق ساري على منظمته اسم "الحشد"، وهو اختصار عربي لـ "الحملة الشعبية من أجل السلام والديمقراطية"، وقدَّم منبرًا برسالة تحرير فلسطين، حيث كان على الفلسطينيين إنهاء الانتفاضة المسلحة، ووقف الإرهاب، وإظهار "الإسرائيليين" المتشككين على أنهم شريك.

وكان التهديد الضمني هو: أنه إذا استمرت الحكومة "الإسرائيلية" في رفض شروط السلام، يُمكن للجماهير أن تشكل حملة عصيان مدني غير عنيفة، على غرار المؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب إفريقيا.

بالاعتماد على تجاربه كقائد خلال الانتفاضة الأولى، قام ساري بتجنيد سجناء ذوي مصداقية في الشوارع كقادة محليين، حيث أصيب أحد مجنديه في معركة بالأسلحة النارية مع مستوطن، وقضى تسع سنوات في السجن، في نابلس كان أحد رجاله ومساعديه يُدعى أبو جهاد، ونائب آخر قد طوَّر خبرته في صنع قنابل المولوتوف خلال الانتفاضة الأولى، حيث كان مسؤوله الرئيسي في الخليل قد عمل لدى جبريل الرجوب بعد أن أمضى عقوبة بالسجن لمدة عشر سنوات.

كان لمنظمتنا "الإسرائيلية" "صوت الشعب"، مجلس إدارة يتألف من أربعةٍ وعشرين عضوًا ينتمون إلى كل القطاعات تقريبًا، بما في ذلك زعيمة منظمة نسوية، ورئيس شرطة "إسرائيلي" سابق، ومسؤول كبير سابق في الموساد، وأستاذ الدراسات اليهودية، وصاحب وكالة المواهب، ومع ذلك، لا يوجد مواقف سلبية سابقة.

بالنسبة لمقرنا، استأجرنا غرفتين في مبنى مجاور للبورصة في رمات جان، وقمنا بتجنيد عشرات المتطوعين الذين أخذوا وقتًا مستقطعًا من وظائفهم المعتادة للمساعدة في جمع التوقيعات، وتم تحديد مئات الطلاب للطرق على الأبواب، وإيقاف الناس في الشارع، والاقتراب من المتسوقين في مراكز التسوق.

في نهاية حزيران، في مؤتمر صحفي في تل أبيب، أطلقنا الحملة أنا وساري، كنت أعمل دائمًا بحذر –تحت سطح البحر وفي الظلام–، والآن كان عليَّ أن أُثير الدعم في قاعات التجمع والمدارس والنوادي الاجتماعية، وأصافح الناس وأتحدث معهم من جميع الخلفيات، بما في ذلك الروس والإثيوبيين واليهود المتدينين اليمينيين والعرب "الإسرائيليين"، وكان وضع نفسي في دائرة الضوء بالنسبة لي، مثل فتح صنبور الماء والزحف على الأرض.

في ثنايا خطبتي، تجنبت تعثر النظريات السياسية أو التأملات حول كلاوزفيتز، لقد حذفت من كلامي ذكريات الماضي عن النزعة الإنسانية اليهودية لإعلان الاستقلال، وقمت بتلخيص رسالتنا في جوهرها القوي: كنا بحاجة إلى حل الدولتين ليس لأننا نحب الفلسطينيين أو

نعتقد أن عرفات يستحق دولة، ولكن لأننا إذا لم ننسحب من الأراضي الفلسطينية ونعترف بحقهم في الحصول على دولتهم الخاصة، لا يمكن "لإسرائيل" أن تحيا كدولة ديمقراطية يهودية، لأن استمرار الاحتلال سيؤدي حتماً إلى دولة واحدة وإنهاء الصهيونية التي نعرفها.

في البداية، واجهت رسالتي الكثير من الشك.. "نعم، نعم، ساري رفيق عظيم"، لقد سمعته مائة مرة، "لكننا لا نصنع السلام معه، ولكن معهم" – سكان الغابة القتلة العنيفين. ومع ذلك، سرعان ما بدأت التوقيعات تتدفق، وبأعداد أكبر مما كنت أتوقع.

بحلول أكتوبر، كان تسعون ألف "إسرائيلي" قد وقّعوا على البيان، وفي كل شهر كنا نحصل على عشرين ألفًا آخرين، وبناءً على فكرة من أورني، حصلنا على توقيعات من ثلاثة مدراء سابقين للشاباك: أفراهام شالوم، ويعقوب بيري، وكارمي جيلون. وأيضا والديّ، وكذلك معظم أعضاء كيبوتس معجان وقعوا على الخطة، على الرغم من أن مستوى مياه بحيرة طبريا أو حجم محصول الموز، ربما كان أكثر أهمية بالنسبة لهم من السلام مع الفلسطينيين.

صحفي "إسرائيلي" وصف حملة ساري بهذه الطريقة: "مقارنةً بالمُمَوّلين والمديرين وخبراء الإعلان الذين يعملون مع عامي أيالون، يُعطي نسيبة الانطباع بأنه يحاول التجول في طريق ترابي مسدود في المناطق بسيارة قديمة متهالكة.. ونظرًا لأن خطوط الهاتف والإنترنت نادرًا ما تعمل في المناطق التي تم قصفها بفلسطين، كان من الضروري جمع التوقيعات واحدة تلو الأخرى وجهاً لوجه.. حيث قام ساري ومجموعته من: السجناء السابقين، وراكبي الحمير، وسائقي جرارات المزارعين، بكل ما يتطلبه الأمر للوصول إلى القرى ومخيمات اللاجئين والمدن الخاضعة لحظر التجول.

تعرض نشطاء ساري أحيانًا للمضايقة من قبل حماس التي اعتبرتهم أعداء ومتعاونين مع "الإسرائيليين"، وفي بعض الأحيان اعتقلهم جنود الجيش "الإسرائيلي" عند نقاط التفتيش لأنهم أمضوا وقتًا في السجون "الإسرائيلية"، ثم تم استدراج بعض أعضاء فريق ساري في جنين من قبل عملاء الشاباك الذين حاولوا إقناعهم بالعمل كمخبرين، وعندما رفضوا، رد العملاء: "لكنكم بالفعل متعاونين، انظر أنت تعمل لدى ساري، وهو يعمل مع عامي، وكان عامي في السابق رئيس الشاباك".

قام نُقَّاد ساري بالاعتراض على تلك الشراكة مع "الرجل الذي هاجمنا وعذبنا واغتال قادتنا"، وتوقعوا أن توقيعه سيكون هو التوقيع الوحيد الذي يجمعه، فعلى سبيل المثال "نزهة" والدة ساري، قد رفضت التوقيع.

ورد ساري على منتقديه: "عامي كان عدوًا، سأعترف بذلك".. "لكنك لا تصنع السلام مع دعاة السلام، وإلى جانب ذلك، لدينا مصالح مشتركة.. إنه يعلم أن الأفضل "لإسرائيل" هو أن تكون لنا دولتنا".

إصرار ساري وإخلاصه وقوته المنطقية نجحت في جلب التوقيعات، حيث في مخيم العروب بالقرب من الخليل، انضم ألف ومائة مؤيد من أصل تسعة آلاف، بينما في جنين فاز ساري بأكثر من ثلاثة آلاف مؤيد وسبعين من قادة فتح المحليين، وجاءت آلاف التوقيعات من غزة حيث كانت مَعقِل حماس. إحدى النساء قالت لساري: أنها وقَّعت لأنها فقدت ابنها في الأسبوع الأول من الانتفاضة، لقد دعمتُ الحملة لأنني "لا أريد أن أفقد المزيد من الأطفال".

لقد جذبنا أيضًا الكثير من الدعم على المستوى الدولي، حيث صادق البرلمان الأوروبي على مشروعنا، وفي صحيفة نيويورك تايمز، انضم روبرت ماكنمارا، الذي كان وزيرًا للدفاع خلال حرب فيتنام، إلى زبيغنيو بريجنسكي، مستشار الأمن القومي لجيمي كارتر، وفرانك كارلوتشي، وزير دفاع ريغان، ووارن كريستوفر، وزير خارجية كلينتون، في بيان الدعم.

كولن باول

وبشكل منفصل، أشار وزير خارجية بوش، كولن باول، إلى موافقته في تصريحات عامة أدلى بها المتحدثون باسمه.

في أكتوبر 2003، شاركت أنا وساري الاستعراض على الطريق، فقد أمضينا ساعة مع نائب وزير الدفاع بول وولفويتز، أحد صقور المحافظين الجدد الأمنيين، في مكتبه في البنتاغون المطل على نهر بوتوماك، حيث وَجَد خطتنا مقنعة جدًا لدرجة أنه أشاد بها في خطاب عام في جامعة جورج تاون.

وبعد موافقة شخص مؤثر للغاية داخل الإدارة الأمريكية على الخطة، قام صُنَّاع السياسة "الإسرائيليون" بالاجتماع فجأة، قال مسؤول "إسرائيلي": "الجميع في "إسرائيل" يقرأون (خطاب وولفويتز) بعناية شديدة" .. "إذا جاء منه فهو خطير".

بالعودة إلى "إسرائيل".. تلقينا دعوة في أواخر ديسمبر، لتقديم خطتنا في مؤتمر هرتسليا، وهو تجمع سنوي للنخبة المالية والسياسية والأكاديمية في "إسرائيل" والعالم اليهودي.

تطوّر المؤتمر إلى منتدى؛ لإدخال أفكار جديدة حول القضايا الاستراتيجية التي تواجه "إسرائيل"، وهو المكان الذي يُقدِّم فيه رئيس الوزراء عادةً، النسخة "الإسرائيلية" من الخطاب الرسمي لحالة الاتحاد.

وصفها ساري بأنها مسابقة جمال، لأنه كان من المقرر مناقشة خطتنا، ومختلف خطط السلام الأخرى، فكما كان مشكوكًا فيه لأنه –قبل عام، استغل شارون المؤتمر للكشف عن خطته لإقامة جدار يفصل "إسرائيل" عن معظم الضفة الغربية وغزة، حيث كان يمر مباشرة عبر حرم جامعة القدس في القدس الشرقية.

أكدت له أن حضور المؤتمر سيكون شيئًا جيدًا، فقد كانت فرصة ذهبية لقول الحقيقة للنخبة السياسية والفكرية "الإسرائيلية".

في غضون ذلك، توصل أورني إلى طريقة مختلفة لإيصال رسالتنا إلى الجماهير، كانت فكرته هي جعل صحيفة يديعوت أحرونوت، بنُسخها البالغة ستمائة ألف في يوم الجمعة، أن تُجري مقابلة معي ومع الرؤساء الثلاثة السابقين من الشاباك الذين دعموا "صوت الشعب"، الأمر الذي اعتبرته يديعوت احرونوت أنه انقلاب لم يسبق له مثيل، حيث أصاب رؤساء الشرطة السرية لدينا الغموض.

أُصيبَ قُرَّاء مقابلة الجمعة بالصدمة، وذهب المقال إلى أن: "رؤساء الأمن السابقين" حذروا من "كارثة" وشيكة "لإسرائيل"، وحثوا الجمهور على الالتفاف حول وثيقة تم إنشاؤها، والتي تُحدد مبادئ حل الدولتين "لإسرائيل" وفلسطين".

خلال المقابلة، تجاهل يعقوب بيري –المُخرِج خلال الانتفاضة الأولى– أي تلميح بأنه هو، أو أي أحدٍ منا "يساريون".

"في يوم من الأيام يجب أن يدرس شخص ما هذه الظاهرة الاجتماعية: لماذا يُصبح الجميع –رؤساء الخدمة، ورؤساء الأركان، ورجال الأمن السابقون– بعد مسيرة أمنية طويلة حاملي لواء المصالحة مع الفلسطينيين؟ لماذا؟ لأننا كنا هناك، نحن نعرف الناس، والمناظر الطبيعية؛ نحن نعرف كلا الجانبين".

قام الرئيس السابق للشاباك "كارمي جيلون"، بترجمة رسالة "صوت الشعب" إلى مصطلحات يمكن أن يفهمها "الإسرائيليون" العاديون: "أنا قلقٌ جدًا بشأن مستقبلنا، أنظر إلى بناتي، اللائي ما زلن صغيرات في السن، ومن الواضح لي أننا نتجه نحو التفكك".

لقد فكرت في ذلك إذا واصلنا السير في المسار الحالي، فإن انتصارنا على الإرهاب "سيدفعنا بثبات نحو مكان لن تكون فيه دولة "إسرائيل" ديمقراطية ووطنًا قوميًا يهوديًا".

في وقتٍ لاحق، استرجعت أكثر كلماتي الحاسمة، كما سأتعلم في مؤتمر هرتسليا القادم هي: "في هذه الظروف الرهيبة، عندما يُذبح المواطنون في المطاعم وفي الحافلات، لا أعتقد أن هناك أي طريق آخر سوى اتخاذ خطوات مستقلة.. فإذا استيقظت دولة "إسرائيل" صباح الغد

وخرجت من غزة، وبدأت بجدية في تفكيك المستوطنات غير القانونية كما وَعَدْنَا الرئيس الأمريكي، فأنا أعتقد –من سنوات معرفتي بشركائنا في المستقبل– أن الفلسطينيين سيأتون إلى طاولة المفاوضات".

إن تسليمنا غزة إلى السلطة الفلسطينية سيُثبت أننا جادون في المفاوضات، ويُجبرهم على عدم تصعيد الأمور، كما وسيعمل على إعادة بناء علاقة عمل أوقفت إرهاب حماس مرة، ويمكنها أن تفعل ذلك مرة أخرى.

الفصل الثالث والعشرون:

الطريق الخطأ للخروج

افتُتِح مؤتمر هرتسليا في 18 ديسمبر، حيث طُلِب من مجموعات مختلفة، بما فيهم "صوت الشعب"، بتقديم خطط لحل النزاع "الإسرائيلي" الفلسطيني، ثم تصويت المشاركون في المؤتمر على المقترحات المختلفة قبل الانتقال لتناول طعام الغداء.

أول الأشخاص على المنصة، هو "الإسرائيلي" يوسي بيلين والفلسطيني ياسر عبد ربه، قدّموا اتفاقية جنيف الخاصة بهم، وهي خطة مشابهة لخطتنا، وإن كانت بدون عنصر القاعدة.

عبد ربه وبيلين عند إطلاق وثيقة جنيف (16 ديسمبر 2003)

أفيغدور ليبرمان

المقدم التالي كان أفيغدور ليبرمان، المدير السابق لمكتب رئيس وزراء نتنياهو، ومؤسس حزب "إسرائيل" بيتنا اليميني، والذي أصبح وزير الدفاع "الإسرائيلي" من (2016-2018)، حيث كانت خطته كما تتوقعه من شخص مثله: حيث اقترح إغراق السجناء السياسيين الفلسطينيين في البحر الميت، كما دعا إلى ضم كل الأراضي الخالية في الضفة الغربية للعمل على حل مشكلة القنبلة الديموغرافية داخل "إسرائيل"، في ترتيب فصل عنصري مباشر.

وبما أنه كان من المقرر تسليم المناطق الواقعة داخل حدودنا قبل عام 1967 والتي تضم عددًا كبيرًا من السكان العرب إلى عرفات، وبالمقابل سيتعين على العرب الباقين في "إسرائيل" أداء قَسَم الولاء لـ "الدولة اليهودية الصهيونية"؛ وخِلاف ذلك سيتم طردهم بكل بساطة.

آخر مقترح قدمناه أنا وساري، وعندما قام المنظمون بفرز الأصوات، حصلنا على 65%، واتفاقية جنيف 25%؛ ومخطط ليبرمان للضم 10٪، ولكن تلك النتائج لم تجعلنا أنا وساري نربت على ظهر بعضنا البعض، لأن الأشخاص في الغرفة كانوا من النخبة، وليسوا من القاعدة الشعبية، لكن التصويت لا يزال ذا قيمة، خاصةً بالنظر إلى ما كان على وشك الحدوث في جلسة بعد الظهر.

شارون

عندما صعد رئيس الوزراء أرييل شارون إلى المنصة، وذلك بعد أسبوع من زيارة مجموعة من القادة اليهود الأمريكيين لشارون في مكتبه ملوحين بنسخة من "السلام السابق"، حيث لم يعرف أحد من خارج دائرته المقربة بهذه الزيارة، وقد ترجمت تلك النسخة في مقال يديعوت أحرونوت اليهودي.

قالوا لشارون: "بعد هذه المقابلة، سنجد صعوبة في الدفاع عنك"، وإلى جانب الدعم الدولي المتزايد لخطة جنيف لبيلين وعبد ربه، جنبًا إلى جنب مع مجموعة من المستنكفين ضميريًا، والضباط والطيارين الذين رفضوا الخدمة في الأراضي المحتلة، أقنع الاجتماع شارون باتخاذ إجراء صارم لإبقاء اليهود الأمريكيين إلى جانبه، في حربه ضد الحكومة الفلسطينية.

بالنسبة لرئيس الوزراء، الذي كان يرتدي بدلة داكنة وربطة عنق حمراء زاهية، كان خطاب هرتسليا بمثابة النظير السياسي لعبور السويس، وتطويق الجيش الثالث المصري خلال حرب يوم الغفران، ثم بدأ بمناقشة دور "إسرائيل" في العالم، وكيف كنا بحاجة إلى مجتمع مفتوح إذا أردنا التنافس في الاقتصاد العالمي الجديد، وكيف يعتمد الأمن "الإسرائيلي" على علاقتنا مع الديمقراطيات الغربية، وكيف كنا بحاجة إلى أن نكون وجهة جذابة، حيث اعتاد اليهود الأمريكيون والأوروبيون العيش في مجتمعات حرة تحكمها القوانين.. كان بإمكاني كتابة وإلقاء هذا الجزء من الخطاب بنفسي.

وبصوت واثق وثابت، شرح شارون بعد ذلك رؤيته للمستقبل التي يمكن أن تأتي أيضًا من كُتيِّب "صوت الشعب"، وقال: إن "إسرائيل" ترغب في التعايش مع "دولة فلسطينية ديمقراطية

ذات تواصل جغرافي في الضفة الغربية وقابلية للنمو الاقتصادي".. لم يسمع أحدٌ من قبل مثل هذه اللغة الحميمية من الجنرال.

ساري، وهو يرتدي سماعات الأذن للترجمة الفورية، التفت نحوي وعيناه مفتوحتان.

أشرت بيدي: "فقط انتظر".. كنت أعرف شارون جيدًا جدًا بحيث لا يمكن لأحد أن يتحمله، فهناك رائحة شيء مريب.

من المؤكد أنه خلال برهة قصيرة عادت الجرافة البلدوزر، وأعلن شارون أن "الأمن وحده هو الذي يقود إلى السلام".. وفي هذا الترتيب، وبصفتي مدير الشاباك، أخبرت ثلاثة رؤساء وزراء بشكل لا لُبسَ فيه أن السلام والأمن متشابكان.

كان التعاون الأمني مع الفلسطينيين أساسياً في محاربة الإرهاب، ولم يكن هذا التعاون ممكناً إلا في سياق أمل حقيقي بين الجمهور الفلسطيني بأن احتلالنا سينتهي، حيث ذهبت رسالة شارون في الاتجاه المعاكس، مع تعرية أولئك الذين "يخدعون الجمهور" وينشرون "الأمل الزائف":

> بدون تحقيق الأمن الكامل في إطار تفكيك المنظمات الإرهابية لن يكون من الممكن تحقيق سلام حقيقي.. التصور المعاكس، الذي يرى أن التوقيع ذاته على اتفاقية سلام سيُنتج الأمن من فراغ، قد تم تجربته بالفعل في الماضي وفشل فشلاً ذريعاً.. وسيكون هذا هو مصير أي خطة أخرى تُروَّج لهذا المفهوم.. هذه الخطط تخدع الجمهور وتخلق أملاً زائفاً.. ولن يكون هناك سلام قبل القضاء على الإرهاب.

لقد كان معيارًا مستحيلًا "الأمن الكامل" و "القضاء التام على الإرهاب".. وذلك نظرًا لعنف المستوطنين والجيش المستمر، فلا يمكن لأي حكومة، ولا حكومتنا وبالتأكيد ليست السلطة الفلسطينية المعطلة بشدة، تقدر على تحقيقها.

ثم ألقى شارون قنبلته: اقترح إخلاء مستوطنات "لن يتم تضمينها في أراضي دولة "إسرائيل" في إطار أي اتفاق دائم مستقبلي محتمل"، مع "تعزيز سيطرتنا على تلك المناطق نفسها في أرض "إسرائيل" التي ستعمل على ذلك، والتي تشكل جزءًا لا يتجزأ من دولة "إسرائيل" في أي اتفاق مستقبلي". فمن المفترض أن المستوطنات الموجودة على جانبنا من السياج الأمني والتي كانت حكومتنا تبنيها بهذه الحماسة ستبقى تحت السيادة "الإسرائيلية".

شارون كان استراتيجياً، خطواته محسوبة بعناية، ما الذي يريد هو أن يصل إليه؟ .. كان التصور العام هو أن رئيس الوزراء اقترح أن يُأرجح كرة الحديد الهدامة من داخله، من خلال

اتخاذ أول خطوة ملموسة "لإسرائيل" على الإطلاق نحو إنهاء الاحتلال، عن طريق إزالة المستوطنات.. ولكنني لم أكن متأكداً تماماً.

بعد أسابيع فقط من المؤتمر، تم الإعلان عن تفاصيل ما أطلق عليه "خطة فك الارتباط" لحكومة شارون، وهي: انسحاب كامل من غزة ومن أربع مستوطنات صغيرة في الضفة الغربية، وترك الغالبية العظمى من المستوطنات في يهودا والسامرة في المكان الذي بدأت أفهم فيه بعض الفروق الدقيقة في اقتراح شارون.

لطالما كان القطاع –بمخيماته المزدحمة–، مصدر إزعاج "لإسرائيل".. من وجهة نظر شارون، فك الارتباط كان فرصة لتخليص يديه من هذه المسؤولية مع تحصيل الفضل لدفع عملية السلام قُدُماً، هل ستكون غزة إخلاء تجريبي، يتبعها إخلاء مستوطنات رئيسية في الضفة الغربية، أم أن شارون بمغادرة غزة كان يضحي لإنقاذ المملكة يهودا والسامرة؟

لقد استطلعت آراء أصدقائي للحصول على آرائهم. فاجأني "بينشيس والرستين" بمزيج من البراغماتية والمعارضة، حيث أخبرني أن العديد من المستوطنين استسلموا لمغادرة غزة، لأن الأمر بالنسبة لهم أيضًا أصبح كابوسًا.. ومع ذلك، اعتَقَد بينشيس أن شارون "باع روحه للشيطان".

في خطابات سياسية سابقة، هاجم شارون حزب العمل بسبب أي تلميح للانسحاب من غزة، وقال: إن المستوطنات جزء من "إسرائيل" مثلها مثل تل أبيب.. والآن، بدون مناقشة وبالكاد إشارة إلى العملية الديمقراطية، كان ينوي إخراج المستوطنين بسحبهم من أقدامهم إذا لزم الأمر، وقال: "شارون خطير لأننا اعتقدنا أننا نحصل على شيء والآن يبدو أن لدينا شيء آخر".

لقد كان تقييم ماتي شتاينبرغ لاذعًا، حيث قال ايضاً: إن "صيغة شارون الفظة أحادية الجانب"، وأنه أدار دبابة شيرمان على الفلسطينيين العلمانيين المعتدلين مثل ساري ومحمود عباس الذين يمكن أن نتوصل معهم إلى تسوية لإنهاء الصراع بشكل نهائي.

من خلال قتل الأمل، ورفع الشك والخوف إلى مبادئ استراتيجية جوهرية، قَلَبَ شارون ميزان القِوَى تُجَاه حماس في غزة، وبالتالي إثارة نوع من الفوضى التي يمكن أن تُبَرِّر خُطوات أُحادية إضافية.. فبدلاً من دولة فلسطينية واحدة إلى جانب "إسرائيل"، ستكون هناك دولتان على الأقل –وربما أكثر–، "الفلسطينيون" امتلأوا بالغضب حتى أسنانهم ويشعرون باليأس.

كرَّر "ساري" ما قاله "ماتي": كانت خطة شارون حيلة متقنة لسحق المعتدلين، وتعزيز المتعصبين أنفسهم الذين يرتكبون معظم الهجمات الإرهابية.. قال ساري إن الفكرة كانت "احتواء الحيوانات" يقصد الفلسطينيون "على الجانب الآخر من الجدران".. لقد تم تصميمه خصيصًا لمنع

حملات التعايش مثل حملاتنا، ولكن مهما كانت نوايا شارون، أصبحت خطته بالنسبة لمعظم الناس، بما في ذلك الإدارة الأمريكية، اللعبة الوحيدة في المدينة.

لقد ضاعفنا أنا وساري جهودنا لمواجهة سياسة الخوف التي يتبناها شارون.

بالتوقيعات، أظهرنا أن شعوبنا يمكن أن يكونوا شركاء في السلام، وبحلول أوائل عام 2004، انضم 350,000 "إسرائيلي" وفلسطيني إلى حملتنا، قام ساري بإقناع رئيس فتح في غزة أن يُوقع، كما ووقع أيضاً محافظ نابلس الذي قُتِل أبناؤه على يد "الإسرائيليين".

عرفات غريب الأطوار، امتنع عن إرسال الحمقى لسحب ساري إلى السجن كما كنا نخشى ودعمناه ضمنيًا، وعندما حضر ساري إلى اجتماع لقيادة فتح وعرض نقاطنا الأساسية، صاحوا بأنه خائن لأن خطتنا تخلت عن حق العودة. أما عرفات، الذي كان بارعًا في الغموض، لم يقل شيئًا، وهو ما فسره ساري على أنه موافقة.

واستمرت عمليات القتل الجماعي.. ففي يناير وفبراير، أرسلت حماس بمشاركة كتائب الأقصى، -وهي عبارة عن مزيج من الجماعات المسلحة العلمانية، والعديد من الجماعات التابعة لفتح-، مفجرين انتحاريين لقتل المزيد من "الإسرائيليين".. عندها قرر شارون أن الوقت قد حان لاغتيال الشيخ أحمد ياسين، صاحب الشلل الرباعي، المؤسس والزعيم الروحي لحركة حماس.

في 22 مارس 2004، بينما كان الحراس الشخصيون يقتادونه إلى مسجد لأداء صلاة الفجر، قتلته مروحية أباتشي، ومعه حراسه، وتسعة من المارة، بصاروخ من طراز هيلفاير أمريكي الصنع.

بعد محاولة اغتيال سابقة ضده، قال الشيخ بذكاء: "الأيام ستثبت أن سياسة الاغتيالات لن تقضي على حماس، لأن قادة حماس يرغبون في أن يكونوا شهداء، وهم لا يخافون الموت، وطريق الجهاد سيستمر والمقاومة ستستمر، حتى النصر أو الشهادة ".

شارون بقتله ياسين سلَّم حماس شهيداً بارزاً، وضَمِنَ انتشار المرض الإرهابي الذي كان شارون يحاول احتوائه، حَضَر مائتا ألف شخص جنازة الشيخ، وللمرة الأولى أظهرت استطلاعات الرأي التي أجراها الشقاقي بين الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة أن الأغلبية تدعم حماس.

أدت المرحلة التالية من خطة شارون لفك الارتباط إلى تأرجح حجر البندول أكثر تجاه حماس، والابتعاد عن فتح العلمانية والبراغماتية.

أعلن شارون في رسالته في 14 أبريل، التي أرسلها إلى الرئيس جورج دبليو بوش، أنه: "لا يوجد شريك فلسطيني يمكن معه التقدم سلمياً نحو تسوية"، كما أن شارون لن ينسق الانسحاب من غزة مع حكومة رئيس الوزراء الفلسطيني أبو مازن في رام الله، حيث كان الجيش "الإسرائيلي" ينسحب فقط ويسمح لحماس أعنف قوة في غزة بالظهور على القمة.

بينما كنت أؤيد مغادرة غزة، وليس قبل يوم واحد، مع أحادي الجانب لشارون أردت أن أضع رأسي بين ركبتي، فحتى قبل أن نُنزِل أعلامنا ونُزِيل قواعد الجيش "الإسرائيلي" والمستوطنات في غزة، كانت حماس تستمتع بانتصارها، واستفادت من السرد السائد بين الفلسطينيين بأن مفاوضات السلام مع "إسرائيل" لم تؤد إلا إلى الهلاك، حيث انتقلت المزيد من القوة إلى حماس.

حماس بدأت حملتها بمجزرة كرد فعل على أوسلو، لقد ساعد قتلها لمئات من "الإسرائيليين" في إخراج عملية السلام عن مسارها، وكانت حكومتنا على وشك أن تكافئهم بتسليمهم غزة مجانًا.

كتبتُ في مقال رأي لصحيفة جيروزاليم بوست بعنوان: "الطريق الخطأ للخروج"، "من خلال استعدادها لاجتياح مجتمعات "إسرائيلية" بأكملها دون أي شيء في المقابل، ودون تحديد هدف نهائي، يبدو أن شارون قد حقق التطرف العربي وهي أحلام طَرِدنَا بالقوة وشيئاً فشيئاً".

في مايو، نظَّم حزب العمل ما كان متوقعاً أن يكون أكبر تجمع لمعسكر السلام "الإسرائيلي" منذ وفاة رابين، مُظاهرة لدعم سياسة شارون في غزة.. السلام الآن، نفس المنظمة التي احتجت على مذبحة صبرا وشاتيلا قبل عشرين عاماً، انضمت إلى التخطيط.. والمنظمون، الذين ساووا بين فك الارتباط والأمن، طلبوا مني افتتاح الحدث، متحدثًا قبل شمعون بيريز.

وافقت لأنه كان من الواضح أننا لا نستطيع مغادرة غزة في وقت مبكر جدًا، ففي الأسبوع الذي يسبق المظاهرة، قام إسلاميون في غزة لإحياء ذكرى النكبة باستهداف آليات للجيش "الإسرائيلي"، مما أدى إلى مقتل ثلاثة عشر جنديًا.. وانتقاماً من الجيش "الإسرائيلي" تم ضرب غزة بقوة، وقُتِل في الهجمات ما يُقارب 32 فلسطينياً، وأُصيب أكثر من ثلاثمائة.

كان هناك سببٌ آخر لموافقتي على القيام بالافتتاح، فسنواتي التي قضيتها في الشاباك حولتني إلى تلميذ ماهر في الروايات الوطنية، ولسنوات كنت أُحذِّر "الإسرائيليين" من خطر منح حماس انتصارًا من جانب واحد، ودعم روايتهم بأن الصهاينة لا يفهمون سوى القوة، الآن رأيت رواية أخرى مقلقة للغاية تتجذر.

فك الارتباط أدى إلى تقطب "إسرائيل"، ورسم خطاً بين الأكثرية التي أرادت الخروج من غزة بسرعة، وبين المستوطنين المتدينين.. لكن إذا لم يكن اليسار عالقًا في الضباب، لكانوا قد رأوا أن المستوطنين، وهم طليعة الصهيونية الحدودية، كانوا نسخة حديثة من الكيبوتسات، مثل والديَّ: الذين زَوَّرُوا الاستيطان "الإسرائيلي" وروح الأمن.

ما فشل "الإسرائيليون" العلمانيون في رؤيته هو أننا جميعًا نتشارك حبًا شرسًا لأرض "إسرائيل"، وليس لدينا أدنى شك في أنه من حقنا "استردادها".. منذ عام 1967 كان المستوطنون المتدينون يسكبون عرقهم ودمائهم في الضفة الغربية وغزة، وقد دفعت جهودهم العالم العربي للتصالح معنا.. فبدلاً من نبذ المستوطنين والتعامل معهم وكأنهم أعشاب عدوانية ضارة يجب اقتلاعها من جذور حدائقنا العلمانية المشذبة بعناية، يجب علينا نحن القوميون العلمانيون أن نَحمِلَهُم على أكتافنا كأبطال قوميين عائدين إلى الوطن.

انتهيت من كتابة الخطاب قبل دقائق قليلة من ركوبنا أنا وبيبا في السيارة للتوجه إلى تل أبيب.

احتشد أكثر من 150 ألف "إسرائيلي" في ساحة رابين مساء ذلك اليوم: السبت 15 مايو، حيث تم تزيين المنصة التي في الخلفية بلافتة كتب عليها: "أُخرُج من غزة، ابدأ الحديث".. على الرغم من أن "الحديث" لم يكن له دور في لعبة الشطرنج لرئيس الوزراء.

كانت الجماهير اليسارية العلمانية في مزاج احتفالي، واحتفلت بما اعتبروه فك ارتباط عن الفلسطينيين، ولا أقل عن اليهود "للمتعصبين" في مدارسهم الدينية ومستوطناتهم لعنة "إسرائيل" "لدينا".

كان توقيت التجمع، بعد يوم السبت مباشرة، حيث استُبعِد بالمناسبة اليهود المتدينين؛ لأنهم لم يتمكنوا ببساطة من الوصول إلى هناك في الوقت المناسب.

عندما صعدت المنصة ونظرت لأسفل إلى لافتات حركة "السلام الآن"، والبالونات، والصراخ، والمزاج الاحتفالي، حينها عادت إليّ مقتطفات من الحديث مع الحاخامات والمستوطنين، كم كانوا محقين في الإشارة إلى نِفَاق يساريون يعيشون بلا ذنب على أراضٍ عربية سابقة، بينما كانوا يشيرون بأصابع الاتهام إلى مستوطنين في الضفة الغربية.

في مرحلة معينة من الخطاب، بعد دعم فك الارتباط، سألت: "أين إخواننا المتدينون المستوطنون في يهودا والسامرة وغزة؟" ساد الصمت على الحشد.. كانت الأضواء تُعمي، وبالكاد استطعت التعرف على صوتي، حيث تم تضخيمه ألف مرة لملء مكان التجمع.. "أليسوا هنا لأننا لا نريدهم أن يكونوا؟

تابعت: "لم نقم أبدًا بحوار حقيقي مع المستوطنين، لأننا لم نرغب أبدًا في ذلك.. لقد حوّلنا المستوطنين إلى أعداء.. لقد أبعدناهم بغطرسة.. لقد احتكرنا البحث عن السلام.. ولهذا السبب لم تأت الأغلبية هنا اليوم، على الرغم من أنني أعلم أنهم أرادوا المجيء اليوم أكثر من جميع الأيام، فالغالبية تريد مغادرة غزة بقدر ما نريد.. لكنهم يريدون أن يفعلوا ذلك بعد خفض العلم الوطني إلى نصف السارية، والتزام الصمت لمدة دقيقة ومسح دمعة من تحطم حلمهم الصهيوني.. فالغالبية ستشعر بالارتباط بنا فقط عندما يغرق ألم أولئك الذين سيتم إجلاؤهم مقابل فرحة أولئك الذين سيقومون بالإخلاء".

لقد كلفتني شراكتي مع ساري بالفعل فُقدَان أصدقاء على اليمين، ومع الخطاب الذي ألقيته في تل أبيب في تلك الليلة فقدت أيضا أصدقاء على اليسار.

سألني الناس: "إلى جانب من أنت؟"، لم أكن متأكدًا من كيفية الإجابة.. ما زلت أعتقد أنني كنت أدافع فقط عن الصهيونية التي نشأت عليها.

الفصل الرابع والعشرون:

آلة السدس(1)

حيث لا توجد رؤية، الناس يهلكون

–الملك سليمان–

لن نعرف أبدًا ما الذي قصده شارون حقًا بفك الارتباط، هل كان حقا يُضحِّي بغزة، البيدق(2)، دفاعاً عن ملكة يهودا والسامرة؟ فسَّر "دوف ويسجلاس" –المدير العام لمكتب رئيس الوزراء، فك الارتباط على أنه وسيلة لمنع الحل السياسي، لأن التخلي عن غزة "يوفر كمية من "الفورمالديهايد" –وهو: "غاز عديم اللون"– الضرورية حتى لا تكون هناك عملية سياسية مع الفلسطينيين، وعندما تُجمِّد هذه العملية، فإنك تمنع إقامة دولة فلسطينية، وتمنع نقاشاً حول اللاجئين والحدود والقدس.. فعلياً، تمت إزالة هذه الحزمة الكاملة المسماة الدولة الفلسطينية، بكل ما تنطوي عليه، إلى أجل غير مسمى من جدول أعمالنا .. حتى يتحول الفلسطينيون إلى فنلنديين".

ساري، غير المعجب بالفورمالديهايد، انتقل إلى معهد رادكليف بجامعة هارفارد في خريف عام 2004 لكتابة مذكراته، في نفس الوقت الذي توفي فيه عرفات فجأة في باريس، فقد كان ساري مقتنعًا مع معظم الفلسطينيين بأن شارون قد وضع خصمه في القبر، ونظرًا لأن جامعة هارفارد لم تَعُد تسمح بالتدخين داخل المباني، فقد كتب ساري ذكرياته على دفاتر الملاحظات أثناء الجلوس أو السير في ميدان هارفارد.

آلة السدس

(1) السدس: جهاز بقوس متدرج بزاوية 60 درجة وآلية رؤية، وهو آلة فلكية تستخدم لقياس مسافات الزاوية بين جسمين أو نجمين، وهو خاصة لأخذ الارتفاعات أثناء التنقل، اخترعه: أبو محمود الخجندي في القرن العاشر.

(2) البيدق: هو القطعة الأكثر عددًا في لعبة الشطرنج، وهو أضعف قطعة في معظم الظروف.

بدأ مذكراته بالسرد عن والده أنور، القاضي الذي تلقى تعليمه في أكسفورد، ونضاله ضد جيل والدي من الصهاينة.. فعندما كنتُ طفلاً، بدا البحر والسماء والصحاري بلا حدود حتى نظرت إلى الشرق من مزارع الموز لدينا، وهناك شكَّلت الأسلاك الشائكة والألغام الأرضية والمدافع السورية على الجولان حاجزًا منيعًا، وكان العالم العربي بالنسبة لي أرضًا شاسعة محرمة.

بدأت الأرض المحرمة لساري خلف فيلا عائلته، وعندما كان طفلاً، حيث كان يحب الجلوس في غرفة نومه في الطابق العلوي والتحديق في: محطة مراقبة تابعة للأمم المتحدة وعبور الحدود، والعلامات التحذيرية من الألغام الأرضية، وكرمة العنب التي تمكنت من النجاة من القتال، كما كان يحدق أيضًا في الجدار الخلفي ويتساءل عن اليهود على الجانب الآخر.

في الحقيقة هو لم يستطع المرور عبر بوابة ماندلباوم، بسبب نقطة تفتيش تشارلي بين القدس الشرقية والغربية، فهو لم ينتُج عنه إحساس بالخوف من الأماكن المغلقة لأنه قبل عام 1967، كان بإمكان الفلسطينيين السفر بسهولة إلى بقية الشرق الأوسط.

كان والد ساري ذو الساق الواحدة، الذي أصيب على يد أحد قناصينا أثناء دفاعه عن البلدة القديمة في القدس عام 1948، قادرًا على توجيه سيارته القديمة بحرية إلى دمشق أو بيروت أو بغداد.

ينتهي كتاب ساري بوصفه لحياته الفلسطينية المعاصرة في أحد أحياء القدس الشرقية المتاخم لجدار شارون:

> أحببت أنا وزوجتي لوسي الجلوس على الشرفة قبل الغسق مباشرة وإلقاء نظرة على أبراج الكنيسة على جبل الزيتون، والاستمتاع باللمعان الذهبي المنبثق من قبة الصخرة، وخطوط نسج جدران سليمان العظيم تلتف في طريقها حول المدينة. لقد سُكرنا على حد سواء بالاندماج الفريد للأرض وضوء الشمس الذي يغمر المحيط الرعوي بأكمله. اليوم، إذا تمكنتُ بطريقة ما من الصعود إلى شرفة الشقة، التي تم التخلي عنها - كنت أرى حاجزًا فولاذيًا محصنًا بارتفاع 20 قدمًا مُتوَّجًا بأسلاكٍ شائكة، مكتمل بأبراج مراقبة ... يشق طريقه عبر القدس مثل الخبيث في نحت المناظر الطبيعية.

وتشمل الصور القاتمة الأخرى للكتاب على: صور "جنود جيش الدفاع "الإسرائيلي" يسيرون في شوارع القدس"، و"التعصب والقداسة للسلطة الرسمية الإسرائيلية"، وصور "الهجوم

المستمر على المدينة التي عاشت فيها عائلتي منذ 1300 عام"؛ وشبح "واقع ثنائي القومية مروع للفصل العنصري".

بحلول نهاية عام 2004، قادني مشروعي المشترك مع ساري إلى إعادة تقييم التعهد الذي قطعته على شيلي يحيموفيتش قبل أربع سنوات في المقابلة التلفزيونية، وبدأت أفكر في الدخول في معترك السياسة، لقد تأثرت أيضًا بفك الارتباط وردنا عليه، ووافق معظم "الإسرائيليين" على أنه يتعين علينا مغادرة غزة إذا كنا سنحقق السلام مع الفلسطينيين، فمشكلتي مع شارون كانت في كيفية إخراجه للمستوطنين، ولكن أفعاله أحادية الجانب عززت موقف حماس القائل: "أننا لا نفهم إلا القوة".

على الرغم من عشرات السنوات من الخبرة التي اكتسبتها، استطاع الدكتور السراج أن يفتح عينيّ على "انتصار" حماس علينا، فلا يمكنني لوم "الإسرائيليين" العاديين على خطأ القوة الغاشمة بالقوة، لذلك فقد احتاج "الإسرائيليون" إلى آلة سدس لمساعدتهم على معرفة إلى أين يأخذهم قادتهم، كما احتاجوا إلى قادة تلهمهم أفعالهم بالأمل في مستقبل أفضل لنا وللفلسطينيين، حينها شعرت أنه ليس لدي خيار سوى محاولة إلقاء المعاناة في نظامنا السياسي المعطل.

في كانون الأول (ديسمبر)، توجهت إلى مقر حزب العمل في تل أبيب، وألقيت قبعتي على "الطوق" للانتخابات البرلمانية القادمة، وعندما سألني مراسل خارج المبنى عن نواياي، لم أتراجع عن شيء، وقلت: "أنا لا أدخل السياسة لأكون عضوًا آخر في الكنيست، إذا دخلت الساحة السياسية، فأنا أريد أن أصبح رئيسًا للوزراء.. بعد فترة"، لقد كان التصريح بطموحي صراحةً، هو الأول من بين العديد من الأخطاء التي قد أرتكبها في السياسة.

صنعت في أول يوم لي في الحياة السياسية أعداءً أقوياء، يُدار النظام السياسي في "إسرائيل" بواسطة آلات حزبية وزُمَر نفوذ، مما يجعل من المستحيل على الغرباء مثلي الوصول إلى القمة.

بيبا، التي لم تشكك أبدًا في براعتي في خوض المعارك البحرية والمعارك مع الإرهابيين، اعترفت بأنها لا تعتقد أنني قد انقطعت عن السياسة، حيث قالت لي ذات يوم في محل البقالة: "أنت صادق للغاية".. بالإشارة إلى ثقتي بالنفس المغرورة خارج مقر الحزب.

أجبتها بيبا: "يا حبيبتي، أنا أدخل السياسة لأنني صادق". مشيراً إلى المتسوقين الآخرين، أضفت، "كل ما عليَّ فعله هو إعادة إشعال أمل الناس في مستقبل أفضل".

حاولت بيبا، بالاعتماد على خبرتها التي امتدت لعقود من الزمن كعاملة اجتماعية ومعالجة أسرية، أن تتحدث إليَّ بعض الشيء.. قالت وهي تسحب الأشياء من الرفوف وتضعها

في العربة التي كنت أدفعها: "انظر".. "أنا أحبك، لكن دعني أخبرك شيئًا. إذا تم تربية طفل منبوذ، فسيكون لديه الأمل.. ولكن إذا تم التخلي عن نفس الطفل مرة أخرى، فإن خوفه من التخلي عنه يكون شديدًا لدرجة أنك لن تعيد إشعال هذا الوميض الأوَّلي للأمل.. الخوف خيار أكثر أمانًا.. أنت تحلم إذا كنت تعتقد أنه يمكنك إقناع "الإسرائيليين"، الذين تعرضوا للخيانة كثيرًا، بالأمل".

على الرغم من أنني كنت أشك في أنها كانت على حق، إلا أن رسالتها تعارضت مع تربيتي، لأنه من المؤكد أن قرونًا من الاضطهاد، ولكونهم محاطين بالأعداء، قد تكون علَّمت اليهود أن يصبحوا خائفين، ولكن جيل والديّ طمر الماضي المؤلم وركز على بناء مستقبل أفضل، فإذا كان بإمكانهم فعل ذلك بعد أن فقدوا أفراد عائلاتهم في الهولوكوست، فلماذا لا نستطيع ذلك؟ اعتقدت أننا نحتاج فقط إلى نوعٍ مختلفٍ من القادة، شخصٌ يُوجهنا نحو احتمالات المستقبل وليس صدمات وإخفاقات الماضي.

اتضح أن دخولي في السياسة سيتعين عليه الانتظار لمدة عام، كان حينها فك الارتباط الذي بادر إليه شارون على قدم وساق، وخلال تلك الفترة تحديدا، ولأول مرة في زواجنا، تعاونت أنا وبيبا سياسيًا للضغط من أجل أن تصبح "إسرائيل" أفضل، كلانا كان متعاطف مع المستوطنين، ولكننا تساءلنا: كيف سيكون شعور والدي إذا أرسل الجيش "الإسرائيلي" جرافات لاقتلاع مزارعنا وهدم كل شيء بنيناه؟

أصبحت "بيبا" عضوًا مؤسِّسًا في منظمة "شوفي" وتعني: "العودة"، وهي منظمة مجتمع مدني لدعم المستوطنين الذين فقدوا منازلهم ومعابدهم ومقابرهم.

كما قلت في الخطاب أمام حشد تل أبيب في ميدان رابين، كانت رسالة "شوفي" أن المستوطنين ليسوا أعداءً أو بلا قيمة، لقد كان لهم دورٌ فعالٌ في إجبار العالم العربي على التصالح معنا، وعلى هذا النحو يجب على مؤيدي السلام حملهم على أكتافنا كأبطال عائدين.

في خضم الاضطرابات التي أحاطت بفك الارتباط، ماتت أمي، تاركةً أبي وحده في الكوخ الذي عاشا فيه لأكثر من نصف قرن، وكانت العمة "حافا" أيضًا مريضة بالسرطان، وكانت تذهب إلى الكيبوتس كلما استطعت.

مع صحافية في صحيفة يديعوت أحرونوت اليومية العبرية، والتي أرادت أن تعرف المزيد عن نفوذي وأنا شاب، عادت بي الذكرى إلى بحيرة طبريا ومقبرة طبريا، ولكنني لم أحضرها إلى الكيبوتس لمقابلة أبي.

سألتني: "لما لا؟".

أخبرتها أن والدي، المثالي والحالم على الإطلاق، لم يكن يحترم السياسيين هذه الأيام بمن فيهم أنا: "إنه سعيد بالحديث عن المساواة والتضامن وأنبياء الكتاب المقدس أو إعلان استقلالنا، لكن حواراتنا تنأى بنفسها عن السياسة المعاصرة".

"وما هو حلمه الآن؟"

"أن يكون عمر الإنسان أقصر من تاريخ انقضاء أحلامه".

عندما قلت هذا، لم أكن أعتقد أن الصحفية كانت تدون الملاحظات، لذا اندهشت، وعندما نُشر المقال الذي تضمن سطورًا عن أحلام والدي المحطمة، اتصلت بوالدي على الفور واعتذرت.

قال: "لا حاجة".. "لم تكن المقالة سيئة للغاية.. لقد قلت الحقيقة".

بدأ أبي يفقد وزنه، ولأول مرة في حياته، ينحني ويشعر بالثقل عندما يتنفس، فقد كان يشتبه في إصابته بالسرطان، لكن الأطباء لم يجدوا شيئًا خطأ، وعلى الرغم من أنني لم أجرؤ أبدًا على إثارة الموضوع معه، إلا أنني ظننت أنه عانى من موت حلمه.

لقد أصبحت "إسرائيل" برجوازية، وخصخصت العديد من الكيبوتسات؛ حتى "دغانيا أ"[1]، والدة الكيبوتسات –التي تضم متحفًا البصيرة اليوتوبية أهارون دافيد جوردون[2]– تم خصخصتها. وهناك سبب إضافي لحزنه هو أن ثورة الكيبوتس، والتصميم على استعادة فدان من أرض "إسرائيل"، كان أكثر حيوية في المستوطنات الدينية المزدهرة في يهودا والسامرة، فقد رأى بوضوح تام كيف تحولت المُثُل العُليا التي سعى إليها في شبابه إلى رؤية دينية مسيحية أدت إلى اضطهاد الشعب الفلسطيني.

في كل مرة غادرنا الكوخ الضيق واتجهنا إلى البحيرة، أجرينا نفس المحادثة تقريبًا، حيث كنت أسأله عن حالة قلبه، وكان سيغير الموضوع بالإشارة إلى مجموعة من الصخور المكشوفة بالقرب من الشاطئ.

---

(1) دغانيا ألف: هي أول كيبوتس مستعمر من قبل اليهود على أرض فلسطين التاريخية تحت ولاية الدولة العثمانية ثم الانتداب البريطاني من بعد. أُسست في عام 1910 على يد عشرة رجال وامرأتين، يتزعمهم جوزيف باراتز. دغانيا ألف هي مسقط رأس موشي ديان.. في عام 1947 بلغ عدد سكانها 380، دُمِّرت المستعمرة بالكامل خلال حرب 1948 من قِبَل الجيش السوري.

(2) أهارون دافيد جوردون: كان منظراً صهيونياً من مؤسسي الصهيونية العملية والصهيونية الاشتراكية .. أسس جماعة العامل الشاب، وهي من المنظمات الصهيونية ذات التأثير، هاجر إلى فلسطين في عام 1904 وعمل في الزراعة.

"الجزيرة لا تزال هناك."

"نعم إنها كذلك."

"الجفاف الملعون.. هل تتذكر مدى ارتفاع البحيرة عندما كنت صبياً؟"

"أعرف".

كان يقول بعبوس: "إن تغطية تلك الصخور يتطلب عاصفة كبيرة".. "هل تعتقد أن هذا سيحدث؟"

"لقد شهدنا عواصف كبيرة في الماضي، يا أبي".

"ولكن، ماذا لو لم تأت العواصف؟"

"أبي، ستعود العواصف".. وأضفت أنه حتى لو نفد الماء، فإننا نقود العالم في تكنولوجيا تحلية المياه والري بالتنقيط.

بعد إحدى هذه الزيارات، وفي السيارة التي كنت أقودها في طريق عودتي إلى المنزل، اتضح لي أخيرًا أن أبي لم يمسح سجل التاريخ تمامًا كما زعمت لساري والعاملين في كلية ماكاليستر في مينيسوتا.. لقد أحكم الماضي قبضته عليه، حتى لو لم يكن على علم بذلك، وحينما بدأت أشك –على سبيل المثال– في أنه أبقاني في الجهل لسنوات بشأن ترك والديه في رومانيا ليس لأنه لم يكن مهمًا ولكن لأنه شعر بالذنب لأنه تركهم وراءه لمواجهة الهولوكوست.

كلما قضيت وقتًا أطول معه، لاحظت تناقضات أكثر، لقد تخلى عن الدين في شبابه واستبدل الله بالتضامن البشري، لكنه لم يمس لحم الخنزير أبدًا.. قال لي: "لدي معدة يهودي متدين"، وفي يوم السبت، كان يستمع إلى الحفلات الموسيقية في الراديو.

أدركت أيضًا أنني ورثت بعض تناقضات أبي، فخلال مناقشة حول فك الارتباط عن غزة، سألني الحاخام يوئيل بن نون، وهو شخصية بارزة في مجتمع المستوطنين المتدينين وكان أحد المظليين في عام 1967 الذين احتلوا الحرم القدسي، لقد كنت أشعر وكأنني أجنبي في الخليل.

الخليل؟ .. أخبرته أنني كرهت هذا المكان، فخلال الفترة التي قضيتها كرئيس للشاباك، كان السبب الوحيد لذهابي إلى هناك هو أن عربيًا قتل يهوديًا، أو يهوديًا عربيًا.

أجاب بقلق كأنه يتحدث بروح ضالة: "دعني أعيد صياغة السؤال .. في الحرم الإبراهيمي في الخليل، هل تشعر أنك غريب بدون أي صلة روحية، مثل سائح "إسرائيلي" يزور نصب لنكولن التذكاري؟"

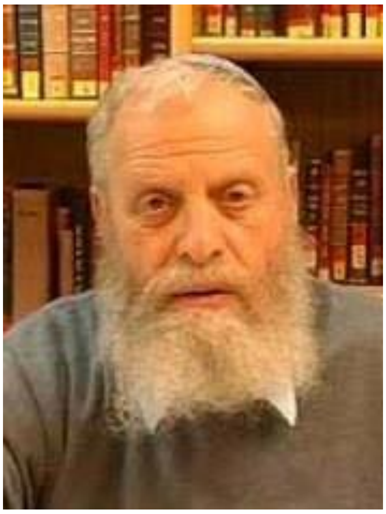
الحاخام/ يوئيل بن نون

خلال حرب عام 1967، تذكرت الشعور بالبهجة عندما وردت أنباء عن استيلاءنا على الحائط الغربي وقبر راحيل وضريح الإبراهيميين.. لقد حررنا ما سُرق من الشعب اليهودي قبل ألفي عام.. أجبته أخيرًا: "لا يا حاخام، لا أشعر أنني أجنبي في الخليل".. "بصفتي يهوديًا، فإن كهف الأولياء جزء مني".

قال الحاخام وهو يفرك لحيته البيضاء الخيطية بين أصابعه: "عامي، أنت شخص يمكنني التحدث إليه، فليس لدي ما أقوله لليسار الذي يُخبرني أن كهف الأولياء يملكه شيخ، فإذا وافقنا أن الخليل لنا، ومن ثم علينا الاحتفاظ بها أو التخلي عنها، سنستعيدها عندما يأتي المسيح بمشيئة الرب، المهم هو أن الجميع يعلم أنها ملك لنا".

سوف تمر سنوات قبل أن أتخلى أخيرًا عن الاعتقاد المسموم، بأنه يمكننا صنع السلام مع الفلسطينيين، دون التشكيك فيما إذا كنا –نحن اليهود– وحدنا الذين كان لنا حقوق تاريخية في أرض "إسرائيل".

في أغسطس 2005، ساعد بنشاس والقادة الدينيون للحركة الاستيطانية، في منع رد فعل عنيف عندما أعادت حكومتنا ثمانية آلاف مستوطن في غزة، وألف مستوطن في شمال السامرة إلى دولة "إسرائيل"، حيث أخبرني القادة الشباب العلمانيون المتورطون في إخلاء حومش، وهي مستوطنة بالقرب من الحاخام شابيرا يتسحاق، أخبروني عن مدى صعوبة إجلاء اليهود المتدينين، وهم الأشخاص الذين اعتقدوا أنه لا يوجد شيء مشترك معهم تقريبًا.

وكما كان متوقعاً، نالت حماس الفضل في إخراجنا من غزة، ولكنني خفت قبل فترة طويلة أن نشهد حربًا دينية شاملة على أيدينا، وهذه الكارثة السريعة أحيت النية في تغيير السياسة "الإسرائيلية".

عززت الانتخابات الفلسطينية المقرر إجراؤها في أواخر يناير 2006 من عزيمتي، حيث ذهب الفلسطينيون إلى صناديق الاقتراع لاختيار حكومتهم، وكان من المقرر أن يكون جبريل، الذي ترأس قائمة فتح في منطقة الخليل، وهو شخصية قوية، فربما وجدت نفسي أفكر، يمكننا

نحن الاثنين الاستغناء عن أسطورة باراك حول "لا شريك" وإنهاء ما بدأه زعماءنا القتلى، رابين وعرفات.

قامت الولايات المتحدة بدفع ملايين الدولارات لدعم حركة فتح، من خلال بناء المدارس وتنظيف الشوارع وتوفير أجهزة الكمبيوتر للمراكز المجتمعية وتنظيم بطولة لكرة القدم، ولم يعتقد أي شخص تحدثت إليه تقريبًا أن حماس لديها فرصة، لأن برنامجها بدت بعيدة المنال، وأعلنت حماس أنه "لن يتم التنازل عن شبر واحد من أرض فلسطين التاريخية" ودعت إلى تحرير كل فلسطين قبل عام 1948، بما في ذلك تل أبيب وحيفا.

قبل أسبوعين من الانتخابات، بدت حركة فتح على وشك تحقيق نصرٍ ساحقٍ عندما أصيب أريل شارون –ذلك المدمر العظيم للأحلام الفلسطينية– بجلطة دماغية في مزرعته في النقب.

إيهود أولمرت

ثم تولى رئيس بلدية القدس السابق إيهود أولمرت زمام الأمور ودعا على الفور إلى إجراء انتخابات مبكرة في نهاية مارس، للتلويح بأوراق اعتماده الأمنية، حيث عرض عليّ رئيس حزب العمل الجديد، عمير بيرتس، مكانة عُليا في قائمة مرشحيه، وقد قبلت بعرضه.

مع اقتراب الانتخابات الفلسطينية، كان خليل الشقاقي وغيره من المستطلعين متفائلين، بينما الناخبون الذين أنهكتهم أربع سنوات من الصراع، وبعد أن دفنوا أكثر من ثلاثة آلاف شخص، والاقتصاد الذي أصبح في حالة يُرثى لها، سوف يَمنحون حركة فتح العلمانية النصر بالتأكيد.

لكن حماس لم تدخل في الانتخابات وفق برنامج الشريعة الإسلامية أو صواريخ القسام، فقد قامت بإعادة تسمية نفسها على أنها "حزب التغيير والإصلاح"، ووعدت بالقضاء على سنوات من محسوبية فتح، والحكم الفاسد، وأمن المواطن.

وعندما ظهرت النتائج، قامت حركة حماس –وهي مؤسسة خيرية مع شبكة سرية من المقاومة–، بسحق حركة فتح القوية، وهي منظمة كانت حتى الآن مرادفة للنضال الفلسطيني من أجل الاستقلال.

لم أجرؤ على الاتصال بجبريل للحصول على تقييمه، لأن الشائعات كانت مفادها أن الناخبين رفضوه جزئياً لأنه تعاون مرة واحدة مع "إسرائيل" لقمع الإسلاميين، بينما فاز شقيقه الشيخ نايف الرجوب زعيم حماس في الضفة.

لفهم انتصار حماس، التفتُّ إلى جهاز الاستشعار ماتي شتاينبرغ، فقد كان ماتي لسنوات يُخبِر مُدراء الشاباك ورؤساء الوزراء ووزراء الحكومة وكبار ضباط الجيش "الإسرائيلي" أن حماس تَحظَى بشعبية أكبر بكثير مما يعتقده الناس، واتفق ماتي مع ما قاله لي الدكتور إياد السراج في لندن: "ضربةٌ تلو الأخرى، تعزز توسعنا العسكري فهي حركة تغذي اليأس ومشاعر الضحية".. وبعد أن ذهبت تحذيراته أدراج الرياح، وصف ماتي حالته الذهنية لي من خلال تشبيهه بالمعارض الصيني الذي أراد النقش على شاهد قبره: (هنا يكمن أحدهم الذي قام ببعض الأشياء التي يجب القيام بها وقال بعض الأشياء التي يجب أن تقال).

تنبأ ماتي قائلاً: أن هناك فلسطينيان، أحدهما في غزة، وهو مُؤلِم ومُزمِن تديره منظمة إرهابية منتصرة، والآخر في الضفة الغربية يعتمد على "إسرائيل" لإبقاء حكومته في السلطة، وقال ماتي عن استراتيجية "إسرائيل" التي تدمر نفسها: "أفكر في العبء الهائل الذي نفرضه على الأجيال القادمة".

دخلت الكنيست في مارس، وكان حزب العمل عضواً صغيراً في الائتلاف الحاكم مع حزب كاديما وأولمرت كرئيس للوزراء.. كان عمير بيريتس، –وهو من حزب العمل، الذي قاتل في حرب يوم الغفران، ولكن بدون خبرة كقائد عسكري–، كان قد تَوَلّى وزارة الدفاع، بينما كان بنيامين نتنياهو –وكأنه قام من الموت– هو من قاد المعارضة.

اندلعت الحرب الأهلية الفلسطينية المتوقعة في غضون أشهر، فعلى الرغم من أن الرئيس بوش كان يتحدث عن الديمقراطية في الشرق الأوسط منذ سنوات، إلا أنه ألقى دعمه وراء أولمرت وقراره بمقاطعة واعتقال قادة حماس المنتخبين ديمقراطياً على أمل إبقاء أبو مازن في السلطة، وبحسب ماتي، فإن هذه المكائد لم تؤد إلا إلى تقوية حماس، التي وصفت نفسها الآن كحزب وطني يعمل نيابة عن الشعب الفلسطيني، ضد "إسرائيل" والحكومة الفلسطينية المتعاونة مع المحتل، كما أعطت تصرفات الحكومة "الإسرائيلية" مصداقية لحجة حماس بأن العنف –وليس الدبلوماسية– هو السلاح الأكثر فعالية ضد الاحتلال.

بعد الانتخابات، سيطرت حماس بالكامل على غزة، لأن مقاتلو حماس أسرع وأذكى من فتح، حيث أطلقوا قذائف الهاون على مقرات القوات الأمنية في غزة، واعتلوا أسطح مجمعات المباني، حيث إنني أعرفهم جيدًا من لقاءاتي هناك في التسعينيات.

قامت حماس بإعدام بعض رجال أمن فتح بطلقات نارية في مؤخرة الرأس، والبعض الآخر ألقوا من فوق أسطح الأبنية الشاهقة.

في 12 يوليو، قام أشقاء حماس الأيديولوجيين في لبنان "حزب الله"، بقتل ثلاثة جنود "إسرائيليين" في عربات "همفي" المدرعة وهي تسير على الجانب "الإسرائيلي" من الحدود، وقاموا باختطاف جنديين آخرين، كما وقتل خمسة جنود آخرين في محاولة لإنقاذ رفاقهم المختطفين.

في صباح اليوم التالي استيقظتُ على صفير جهاز النداء الخاص بي، فقد كان وزير الدفاع عمير بيرتس، حيث اتصل للحصول على مشورة مني ولاطلاعه على آخر التطورات، وذلك بعد بضع دقائق من هجوم حزب الله.

"نصيحتي هي أن تَعقِد مع أولمرت مؤتمراً صحفياً، وأمام وسائل الإعلام العالمية، تعطي حزب الله والحكومة اللبنانية إنذارا مدته 24 ساعة لإعادة الجنديين المخطوفين".

"هل تعتقد أنهم سيقبلون مطلبنا؟"

"لا، لكنها ستشتري لك يومًا واحدًا، لأنه لا أولمرت ولا أنت قادة حروب، وأنت بحاجة إلى وقت لوضع استراتيجيتك، ونصيحتي أن لا تبدأ حربًا أبدًا إذا كنت لا تعرف كيف ستنهيها".

في النهاية تجاهل رئيس الوزراء أولمرت ووزير الدفاع عمير بيريتس نصيحتي وقاما بإحدى الحروب التي لا داعي لها في تاريخ دولة "إسرائيل"، استمرت لمدة أربعة وثلاثين يومًا، شاهدت حركة سرية مع بضعة آلاف من المقاتلين لصد أقوى جيش في الشرق الأوسط، وكانت باربرا توكمان ستُطلق على الحرب اسم "مسيرة الحماقة".

كما هو الحال مع حماس، كلما قطعنا رأس حزب الله ذو الشر المتعدد، زاد دعمها من الجماهير الفلسطينية والحكومات الإسلامية، حيث إن السعوديون والإيرانيون وغيرهم من الخصوم المحتملين لاحظوا فشلنا.

بحلول الوقت الذي توقف فيه القتال أخيرًا وتباطأت الجنازات العسكرية إلى حد كبير، كنت مقتنعًا بأن بيرتس –كرئيس لحزب العمل– لا ينبغي أن يكون مرشحنا في الانتخابات العامة المقبلة، وكعضو في اللجنة الفرعية للشؤون الخارجية والاستخبارات الأمنية في الكنيست، رأيت عن كثب الغطرسة الفظيعة للقادة الذين أوصلونا إلى الحرب.. قلت لبيرتس إنني كنت أتحداه في وقت أبكر مما كنت أخطط له، فإذا فزت، فسوف أتولى وزارة الدفاع في بلد يعاني من كارثة لبنان الأخيرة.

ومع احتدام الانتخابات لرئاسة حزب العمل، عاد إيهود باراك من التقاعد ليتحداني، لقد استمتعت بمسرحية الحملات الانتخابية ضده، وذلك لأنني تحدثت في قاعات البلديات أو صالات الألعاب الرياضية في المدارس الثانوية في كل مجتمع في "إسرائيل"، اليهودية والعربية.

تأتي المعارك في أشكال عديدة: بالنسبة للبعض عليك أن ترتدي بذلة مبللة وتسبح عبر خطوط العدو؛ بينما يتطلب البعض الآخر أن تنصت بغطاء أسود.. لهذا السبب كانت أسلحتي

عبارة عن خُطَب ومصافحات ومناقشات مع إيهود حول أكبر التهديدات والفرص التي توفرها "إسرائيل".

كان نموذجي هو توني بلير، وشعاري كان "حزب العمال الجديد"، حتى أنني جندت أصدقائي من الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13)؛ للظهور معي في برنامج حواري، لأنه لا يوجد شيء يمقته الكوماندوز أكثر من السياسة والعلاقات العامة، ولكن بالنسبة لي جلس رفاقي السابقون في السلاح في استوديو تلفزيوني، وأخبروا الجمهور "الإسرائيلي" أنهم مستعدون للدخول في معركة معي للدفاع عن القيم والأفكار التي تشاركناها.

قلت للناخبين إن باراك لم يتعلم دروس التسعينيات، ونحن بحاجة إلى تعزيز الثقة، وهذا مفهوم ينقصه شرح، فإذا أردنا تقليص الخلافات الواسعة داخل "إسرائيل" بين العلمانيين والدينيين، وأردنا هزيمة الجناح الإرهابي لحركة حماس، فإننا نحتاج أيضًا إلى استعادة ثقة شركائنا الفلسطينيين من خلال اتخاذ خطوات ملموسة نحو الاستقلال الفلسطيني، لأن مساعدة الفلسطينيين على بناء دولتهم سيجعل "إسرائيل" أكثر أمانًا وعدالة.

بينما كنت أتحدث عن الثقة والأمل، قام إيهود بتأسيس برنامجه على الخوف، حيث قال: كنا نعيش في غابة، مع وجود حزب الله في الشمال وحركة حماس في الجنوب، هل أراد الناخبون حقًا أن يكون صاحب القرار مثل هذا السياسي غير المختبَر "اليساري المتطرف" عامي أيالون؟ .. لا، لأن "إسرائيل" بحاجة إلى رجال أفذاذ لا أصحاب أوهام.

وقبل أربعة أيام فقط من انتخابات حزب العمال، كانت رسالتي بعنوان "الأمل" متقدمة بنسبة أربعة في المائة في استطلاعات الرأي، حيث كان الناس بالفعل يصفعونني على ظهري: إليكم وزير الدفاع القادم! إليكم رئيس الوزراء القادم!

حذرني المزيد من الأصدقاء المتشائمين: "ليس بهذه السرعة".

حيث قام إيهود بتجنيد جميع وزراء حزب العمل، ومعظم أعضاء الكنيست –وكنا بين 120 ألف عضو في حزب العمل– حيث كان هناك أيضا نفسية لدينا ملتوية في العمل، فقد قال أحد الأصدقاء القدامى الذي كان في اللعبة لفترة أطول بكثير: "عامي.. لا تصدق استطلاعات الرأي، قد يقول الناس إنهم يريدون الأمل، لكن في اللحظة التي يدخلون فيها إلى حجرة الاقتراع والستائر مسدودة، سيصوتون بشجاعتهم، فلا تقلل من شأن قوة الخوف".

كم كان هؤلاء المتشائمون على حق.

الفصل الخامس والعشرون:

حرب بين الناس

"يجب أن يكون الأمل حقل ألغام".

"يهودا عميشاي"

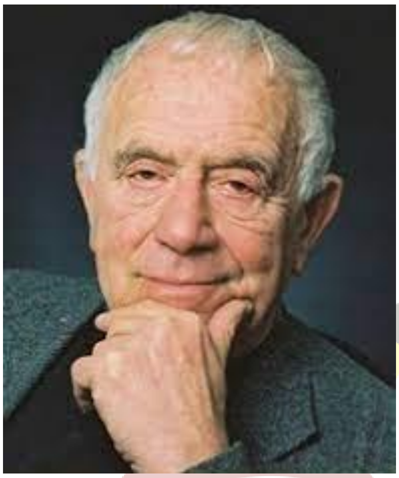

يهودا عميشاي

تماماً كما حذَّر الناس، فقد اختار أعضاء حزب العمل في كابينة التصويت إيهود.

بعد فترة وجيزة من الخسارة، دعاني رئيس الوزراء أولمرت إلى مكتبه في الطابق العلوي في شارع بلفور، وهو مكان كنت أعرفه جيدًا في هذه المرحلة، وبمجرد أن استقريت في مكاني المعتاد أمام مكتب رئيس الوزراء قال: "عامي، أود منك الانضمام إلى حكومتي"، لقد أراد مني أن أكون ما عيّنه "وزير في مكتب رئيس الوزراء"، مما يعني أنني سأكون الرجل المهم في أي شيء يختاره.

فتحت فمي مستعدًا لتكرار ما قلته لرابين عام 1995: "مستحيل، لطالما ارتبط أولمرت باليمين المتشدد، فقد كان يردد ولسنوات شعار "أنه يجب علينا الاحتفاظ بكل بوصة مربعة من أرض إسرائيل"، حيث عارض اتفاقية كامب ديفيد التي أعطتنا السلام مع مصر، وعندما ككان رئيس لبلدية القدس أرسل أساطيل من شاحنات الإسمنت لبناء مستوطنات في القدس الشرقية، وسمى اتفاق أوسلو بـ "سحابة مظلمة فوق المدينة".

أنا كنت اريد أن أترشح لمنصب لأنني أردت تغيير الأمور، وليس بيع روحي لشركة "فولفو" ذات الإصدار الحكومي أو لراتب كبير.

لكن قبل أن أتمكن من إخراج الكلمات، انطلق أولمرت وقال: "عامي، أريدك في حكومتي لأنني أعتقد أن رؤيتك لاتفاق مستقبلي مع الفلسطينيين هي أفضل فرصة لنا لتحقيق السلام".. تراجعت بسرعة وكأنني أمنع نفسي من الهلوسة.

أكد لي أولمرت، وعيناه موجهتان إلى عيني، أنه يريد صفقة عادلة مع أبو مازن على غرار الاتفاقات التي أعددناها مع ساري وزوجتي، فقد كنت متشككًا، ولكنني صدقته، لأنني عرفت أنه رجل يلتزم بكلمته.

"أين أوقع، سيادة رئيس الوزراء؟"

وعلى الفور دفعت أولمرت من أجل التوصل إلى اتفاق سلام مع أبو مازن، في محادثات السلام في أنابوليس التي نظمها الرئيس بوش، حيث وعد "بمفاوضات جادة ومعمقة لن تتجنب أي قضية أو تتجاهل أي انقسام يُلقي بظلاله على علاقاتنا مع الشعب الفلسطيني لسنوات عديدة".

تفسيره لإلحاحه بدا وكأنه شيء مباشر من كتيب "صوت الشعب": موضحاً "إذا جاء اليوم الذي ينهار فيه حل الدولتين، ونواجه صراعًا على غرار جنوب إفريقيا من أجل حقوق تصويت متساوية (أيضًا للفلسطينيين في المناطق) إذن بمجرد حدوث ذلك تنتهي دولة إسرائيل".

لم يسبق لأي رئيس وزراء أن أجرى صفقة بهذا القدر من الاقتناع، فهو بالنسبة لنا جميعًا مأساوي، وبعد شهر من دخولي إلى الحكومة، أمر المدعي العام بإجراء تحقيق ضد أولمرت بتهمة خيانة الأمانة والاحتيال، وبعد أقل من عام، أعلن أولمرت أنه سيتنحى بمجرد أن يعقد حزبه كاديما انتخاباته التمهيدية.

بطبيعة الحال، كانت محادثات السلام على الجليد، حيث تحول مجلس الوزراء إلى ما يشبه محكمة بورجيا، فقد انقسم إلى فصائل تتنافس على السلطة، وتوقفت الحكومة عن العمل.

بالتوازي مع سعيه الجاد للتوصل إلى اتفاق سلام، تسبب أولمرت في فوضى في غزة، فبعد سيطرة حماس على السلطة، تعاونت "إسرائيل" مع مصر لفرض حصار مُحكَم على غزة، مما أدى إلى حبس مليون ونصف المليون شخص بالأسلاك الشائكة وبالسفن الحربية، فقد كانت الفكرة أننا إذا صعَّدنا مستوى اليأس، فإن سكان غزة سوف يتمردون على حماس، وكما في هجومنا المضلل على حزب الله في لبنان، شرعنا في استراتيجية لا يوجد دليل يدعمها، ولكن احتياجاتي لم تلق آذاناً صاغية داخل الخزانة، حيث كان زملائي الوزراء يفتقرون إلى الإرادة

لفحص الوضع أو الدخول في نقاش صادق، فقد كنا مثل البحارة المخمورين على متن سفينة متجهة إلى المياه الضحلة.

في يوم الثلاثاء 4 نوفمبر، في تمام الساعة 6:00 صباحًا، اشتريت العدد الصباحي لصحيفة هآرتس من الساحة الأمامية، وقرأت أن استطلاعات الرأي توقعت فوز باراك أوباما في الانتخابات الرئاسية الأمريكية في ذلك اليوم.

أمريكا، كانت أقوى أمة على هذا الكوكب، قوة عظمى أحادية القطب، تسببت حربها على الإرهاب في إحداث الفوضى في ركنين من العالم، وعلى وشك انتخاب شاب مثالي.

حتى لو قام معظم زملائي في الجيش والحكومة بشطب أوباما باعتباره يعيش في خياله، وأنه من المحتمل أن ينحاز للفلسطينيين، فقد تركت نفسي آملا أن يوجه أوباما أمريكا نحو سياسة خارجية أكثر تعاونًا ويترك وراءه الحروب الطائشة التي لا تكترث سوى للقضاء على الإرهابيين.

بعد ساعتين توقف سائقي خلف المنزل ليأخذني إلى المطار، فقد كنت أنوي السفر إلى مدريد وباريس للتحدث في مراسم تأبين رابين، وقبل يومين خلال الإفطار، قال ابني جاي مازحاً: "أبي" قال وهو ينظر في وعاء من رقائق الذرة، "إذا ألقوا القبض عليك، فنحن جميعًا" – كان يقصد هو وإخوته – "سوف نفعل عمل الكوماندوز لإنقاذك".. ضحكت وقلت له سأكون بخير.

في هولندا، طلب محامي فلسطيني يُدعى الشامي توقيفي وتسليمي لتعذيبه خلال عملي في الشاباك، وأكدت له أن الفرنسيين وعدوني بعدم تقييدي بالأغلال وتسليمي إلى الهولنديين.

لحق بي كلبان إلى الخارج، على أمل الإمساك بي أو خدش اذني من الخلف، ثم انفتح السياج الأبيض المرتفع، وتسلقت الجزء الخلفي من فولفو، وبمرة واحدة على الطريق، واصلت قراءة "فائدة القوة" للسير روبرت سميث، الجنرال البريطاني الذي ترأس قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في البوسنة.

استمع الجنرال سميث لما عشته في غاراتي على معسكرات حرب العصابات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية في السبعينيات: "فلم تعد الحرب موجودة كمعركة في ميدان بين الرجال والآلات" أو "كحدث حاسم ضخم في نزاع في الشؤون الدولية"، ففي تحليل سميث التاريخي، كان آخر صراع صناعي واسع النطاق بين الدول هو حرب يوم الغفران، حيث تميل الحروب منذ ذلك الوقت إلى "أن تكون خالدة، وحتى لا تنتهي"، و "تخاض بين الناس، وليس في ساحة المعركة".

هذا هو سبب فوزنا بالجولة تلو الأخرى بينما نخسر الحروب، فالحروب "العادلة" تنطوي على استخدام القوة النسبية والتمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين، ويجب خوضها فقط كملاذ أخير، فحصار غزة لم يلبي أيًا من هذه الشروط، وكتبت في هوامش كتاب سميث: أنه "يجب أن تستخدم الحرب العادلة ضد الإرهاب بالأسلحة المناسبة، واليوم يجب أن تتضمن هذه الأسلحة الأمل لسكان "العدو"، فحربنا في غزة لم تجب سوى اليأس.

بعد خطابي في باريس، صافحت شخصيات محلية قبل أن أرفض بأدب دعوة العشاء، وعندما خرجت من القاعة في اتجاه برج إيفل للانضمام إلى الحشود التي تنتظر نتائج الانتخابات من الولايات المتحدة، كان الفرنسيون قد اقاموا أكبر حزب انتخابي شرق شيكاغو، وملأوا السماء بالونات حمراء وبيضاء وزرقاء، وفي تلك الليلة لمع برج إيفل بألف ضوء وامض، في بحر من عشرات الآلاف من الناس، لا أحد يعرف من أنا أو يهتم بي، وبعد عامين في دائرة الضوء، كان من المريح أن تكون مجرد واحد من الحشود.

بعد ذلك، مع حلول صباح يوم بارد في شهر نوفمبر، حيث شاهدنا جميعًا الأخبار الحية على شاشة فيديو خارجية، بجانب شاحنة نصف مقطورة، تُطلق العد التنازلي بمزيج من الفرنسية والإنجليزية: عشرة، تسعة، ثمانية، سبعة ... ربما كنتُ الشخص الوحيد الذي يصرخ بالأرقام بالعبرية.. كما صرخت "آخاد" واحد! – واحد!.

ثم أعلنت شبكة سي إن إن أن باراك حسين أوباما هو الرئيس المقبل للولايات المتحدة، فقد كان هدير الحشد يصم الآذان أكثر من مدافع البارجة، فشعرت لحظتها وكأنها نقطة انعطاف في التاريخ، ورصاصات يغئال عامير (قاتل رابين) في الاتجاه المعاكس.

وقفت إلى جانبي امرأتان ترتديان الحجاب، ترتديان قمصان أوباما المطابقة مع كتابة الأمل بأحرف كبيرة، وأمامنا رجلان موشومان يمسكان أيديهما، ورجل عجوز يرتدي قبعة كان يحمل لافتة مكتوب عليها باللغة الفرنسية: نعم نستطيع.. سمعت في اذني كلمات هازال الشهيرة: "إذا كنت ترغب في ذلك، فهي ليست قصة خرافية".

قلت لنفسي: "هذه هي الديمقراطية".. في الجو المسكر بنفحة التمرد، تلاشت بصمت سطور الشاعر يهودا عميشاي:

يجب أن يكون الأمل

مثل الأسلاك الشائكة لإبعاد اليأس،

يجب أن يكون الأمل حقل ألغام.

بينما كنت أتجول بعيدًا عن الزحام، فكرت في قراراتي وأفعالي خلال الأشهر الماضية، حيث توفي والدي في يناير الماضي، وفي مراسم بسيطة قمنا بدفنه بجانب إيما ويونا وهافا، أربعة رواد تحت صف مستقيم من شواهد القبور، وعندما كنت أمسح أشيائه القليلة، وجدت دفاتر مليئة بخربشاته، وكانت هناك أيضًا مجموعة من الصور التي التقطت خلال أيام شبابه في معسكر التدريب الصهيوني في جبال ترانسيلفانيان عام 1935، وقد أدهشني التفاؤل في عينيه، حيث انبثق الحلم الصهيوني لوالدي ووالدتي من آمال دِوَل "تقرير المصير"، التي كانت تُطالب بها نفسها بعد الحرب العالمية الأولى، ولكن بنفس القدر من السعي لبناء مجتمع منصف وعادل، حيث كان من الممكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى الجامعة ودرسوا القانون، لكنهم اختاروا أن يتحدوا الجيش البريطاني وحرارة الصحراء الجهنمية، بعد أن أثارهم منظمة "إم تيرتسو" ومنظمة "عين زو أغادا".

بالتفكير في بساطة حياة والدي في الكيبوتس، أصابني شعور بالكآبة، فلماذا لا تستطيع أرض عمال المعجزات ذوي التقنية العالية أن تختار زعيمًا شبيهًا بأوباما، قائد برؤية تمثل أفضل ما في البشرية؟ ولماذا كان خبراء العالم في المعالجات الدقيقة وأنظمة الري بالتنقيط بارعين أيضًا في بناء الجدران وإحداث اليأس؟

عبرتُ نهر السين عبر جسر بونت نيوف، وتوقفت عند مقهى بالقرب من نوتردام، وبينما كنت أرتشف كابتشينو، سألت نفسي إذا كان الوقت قد حان لترك القتال، فلم يكن لدي أي تأثير حقيقي داخل الحكومة الحالية، وكل المؤشرات تشير إلى أن الحكومة التالية لن تكون عدوانية مثل أولمرت في الدفع باتجاه اتفاق سلام.

عندما عدت من رحلتي، توجهت مباشرة من المطار إلى مؤتمر حزب العمل الذي جمع بين ذكرى رابين ومناقشة الانتخابات المقبلة، وبعد المتاجرة بالخيول بعد ظهر ذلك اليوم، أكد أعضاء الحزب أن باراك، الذي كان يُجري الاقتراع بأرقام فردية، سيكون مرشحهم ضد حزب الليكود بيبي نتنياهو.. فبالنسبة لي، لم يكن هناك تناقض أكبر مما يمكن تخيله بين إحياء ذكرى رابين وإرثه وعقد الصفقات في الكواليس، جلست إلى الجانب وأتمنى أن أقوم بتقليم أشجار الزيتون مع زوجتي بيبا بدلًا من مشاهدة انهيار الحزب الذي بنى "إسرائيل".

بعد المؤتمر الذي تم بثه على الهواء مباشرة، اتصل ابني نير وأخبرني أنه لم يعد بإمكانه التصويت لصالح حزب العمل في الانتخابات القادمة، وبهذا ختمتها، واستقلت على الفور من الحكومة.

كنت قد جمعت أموالي بالفعل في الوقت الذي دَخَلَت فيه غزة في كارثة أكبر من لبنان، حيث كانت حماس تطلق صواريخ القسام على جنوب "إسرائيل" منذ شهور قبل أن يتفاوض المصريون على وقف إطلاق النار لمدة ستة أشهر، وبمجرد انتهاء وقف إطلاق النار، في منتصف ديسمبر، اقترحت حماس تمديده لمدة ستة أشهر أخرى، ولكن فقط إذا رفعت "إسرائيل" الحصار عن غزة.

قال يوفال ديسكين، متحدثاً باسم الشاباك، للحكومة أن حماس: "مهتمة بمواصلة التهدئة، لكنها تريد تحسين شروطها ... تريد منا رفع الحصار عن غزة، ووقف الهجمات، وتمديد التهدئة إلى أن تشمل الضفة الغربية".

رفض أولمرت الشروط، فأطلقت حماس المزيد من صواريخ القسام، ثم تحرك الطرفان ذهاباً وإياباً حتى قال أولمرت أنه قد اكتفى، وقال أولمرت بدعم من باراك: إن الصواريخ اتخذت "قراراً عسكرياً" ضرورياً.

بطريقة ما، كان أولمرت، العقلاني للغاية في سعيه لتحقيق السلام، ولديه نقطة عمياء عندما يتعلق الأمر بغزة، وببساطة لم يستطع رؤية أن القتال بالنار أدى إلى تعزيز شعبية حماس في الشارع الفلسطيني، في عالم الحرب غير المتكافئة المجنون والمقلوب –الصاروخ الخام مقابل طائرات F16–، فإننا كذلك نُقوّي العدو من خلال ضربه، حينها احتفظ أولمرت برأسه في الرمل وتحطم رأسه.

انطلقت عملية "الرصاص المصبوب" في 27 ديسمبر 2008، وتعبير الجنرال سميث "الحرب بين الناس" يصف بشكل جيد ما حدث في غزة في ذلك الشتاء.

منذ البداية، لم تحدد حكومتي أي هدف استراتيجي، ولم تعلق أي أمل في محادثات السلام بمجرد انتهاء الأعمال العدائية، ولم تقدم شيئًا لسكان غزة، ولم تكافح من أجل النجاح الدبلوماسي ولا لاستعادة الأراضي والإطاحة بحركة حماس، بينما واصل الصحفيون والكثير من الجمهور خط الحكومة.

في اليوم الثالث من القتال، عرض وزير الخارجية الفرنسي برنار كوشنير وقف إطلاق النار لأسباب إنسانية، لكن الحكومة "الإسرائيلية" رفضت.

لمدة 23 يومًا، كانت حماس تستخدم استراتيجية قيادة الجيش "الإسرائيلي" إلى القتال في منطقة حضرية مزدحمة، مع اللامبالاة السخيفة لسكان غزة، حيث دعت حماس الدمار الشامل في محاولة منها لتصوير "إسرائيل" على أنها مُحتلة بلا قلب، فقد أخذنا الطعم بحماقة، حيث قام الطيران "الإسرائيلي" بقتل ألفٌ وأربعمائة فلسطيني وأثار الرأي العام العالمي ضدنا.

بما يعنيه الدكتور السراج، كانت حماس هي المنتصرة: كأطفال في الكيبوتس، لعبنا لعبة روك، ورق، مقص. يتغلب الورق على الصخور لأنه الحجر، فعلى الرغم من أنه أقوى، فقد كان يفتقر إلى المرونة.. وبالمثل كانت حماس ورقة على صخرة الجيش "الإسرائيلي"، لقد قاموا بقصف عسكري لكنهم انتصروا في الشارع الفلسطيني لأنهم رفضوا الاستسلام وتعهدوا بمواصلة القتال، لقد ربحوا لأنهم فهموا طبيعة الحرب الحديثة أفضل بكثير مما فعلناه.

الفصل السادس والعشرون:

حراس البوابة

على الرغم من فوز كديما بأكبر عدد من المقاعد في الكنيست، فقد فشلت تسيبي ليفني، التي تولت قيادة الحزب من أولمرت في تشكيل حكومة.

عاد نتنياهو إلى السلطة وتخلى بشكل متوقع عن تحرك أولمرت الجريء نحو السلام، وفي غزة ضاعف من أخطاء رئيس الوزراء برفضه التعاون مع فريق من المحققين الدوليين بقيادة القاضي الجنوب أفريقي ريتشارد غولدستون في جرائم حرب محتملة، وفي وقت لاحق انتقد بيبي تقرير غولدستون ووصفه بأنه "جائزة للإرهاب".

في ربيع عام 2010، دعتني كلية لندن للاقتصاد للمشاركة في حلقة نقاش حول التقرير، كان السفير البريطاني في تل أبيب قد حذرني من المشاركة، وحذَّر من أنه "لا يمكنني ضمان عدم إلقاء القبض عليك"، بسبب الجهود التي تبذلها جماعات الحقوق المدنية لـ "تقديمي للعدالة" بتهمة تعذيب الفلسطينيين، بدوري شكرت السفير على المحامي لكنني قررت الذهاب على أية حال، قامت زوجتي بيبا بإعطائي قصة بعنوان "حب وظلام" لعاموس أوز لأقرأها على متن الطائرة، وربما خلف القضبان، فهي تعتبر على نطاق واسع القطعة المصاحبة لساري نسيبة، Once Upon a Country "ذات مرة: حياة فلسطينية"، وكنت حريصًا على قراءتها.

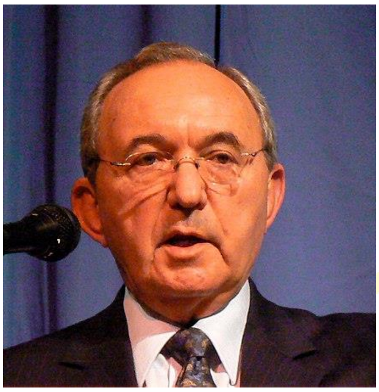
ريتشارد غولدستون

لحسن الحظ، لقد أبحرت بطريقة تقليدية في مطار هيثرو بدون حوادث، وأثناء وجودي في لندن، أدهشتني الرواية التي سمعتها من وسائل الإعلام البريطانية: "إسرائيل" هي المسؤولة عن معاناة الفلسطينيين.

ولكن استخدام حماس الإجرامي كدروع بشرية لغير المقاتلين كان بالطبع انتهاكًا لقوانين الحرب، لكن آليتنا الدعائية لا يمكنها فعل أي شيء لمواجهة مقطع فيديو فيروسي مدته ثلاث دقائق لجندي يطلق النار بشكل غير قانوني على مدني أعزل يحمل علمًا أبيض، فقد كانت أدوات الدبابات الحربية الحديثة والقناصة وطائرات الهليكوبتر الحربية وخطب السياسيين التلفزيونية عديمة الفائدة ضد مثل هذه الصور.

عند عودتي إلى "إسرائيل"، تلقيت رسالة لأبناء بلدي الوطنيين يضعون الرغوة في فم القاضي غولدستون أو قول الحقيقة لشهادات كسر الصمت، أو حقيقة أن منظمات حقوق الإنسان الأوروبية هددت باعتقال رئيس الشاباك السابق.

في عصر كاميرات الفيديو الرخيصة والإنترنت، قلت مرارًا وتكرارًا، بأن معركة الرأي العام الدولي لا تقل أهمية عن أنظمة الأسلحة بالنسبة لأمننا. والأهم من ذلك هو تصور العدالة.

شعرت وكأنني كنت أتحدث إلى الحائط مع الحكومة اليمينية الجديدة، فلطالما كانت المدن خالية من الانفجارات، والاقتصاد مزدهر، ولكن يبدو أن لا أحد يهتم بأننا نحفر قبورنا، ثم سألت نفسي كيف يمكنني أن أخترق ضبابًا كثيفًا وراسخًا.. لقد حاولت وفشلت في إقناع الناس من خلال السياسة، لأن حضور المؤتمرات الأكاديمية أو كتابة المقالات حول طبيعة الحرب الحديثة، بالرغم من كونها مفيدة، لا يمكن أن يكون أبدًا "احتكاكًا مضادًا لإيقاف الآلة" للعودة إلى شعاري من الكاتب "هنري ديفد ثورو".

في مايو 2010 وصل إحباطي إلى نقطة الغليان، حيث غادرت السفينة التركية (مافي مرمرة) "مرمرة الزرقاء"، متوجهة إلى غزة، فيما قال المنظمون إنها مهمة إنسانية لكسر الحصار "الإسرائيلي" الذي حوّل غزة إلى أكبر سجن في العالم.

جلعاد شاليط

مع تحرك السفينة نحو غزة وتعهد الحكومة "الإسرائيلية" بإيقافها، أجريت مقابلة واقترحت فيها إنشاء أسطولنا الخاص المكون من عشرات اليخوت الخاصة، ثم نلتقي القوارب في وضح النهار مع لافتات ضخمة تقول مرحبًا، وفي غضون ذلك سنلتقي في غزة بجلعاد شاليط، الجندي "الإسرائيلي" الذي اختطفته حماس في عام 2006، حتى أننا سنحضر والدي شاليط حتى يتمكنوا من رؤية ابنهم لأول مرة منذ خمس سنوات.

"هل تعتقد أن حماس ستمضي قدما؟"

ذَكَّرتُ القائم بإجراء المقابلة؛ بأن: فكرتي كانت تجربة فكرية وليست خطة تشغيلية، فربما لم يكن القادة السياسيون لحماس يعرفون حتى مكان احتجاز شاليط، كما وقلت: وليس لديهم سيطرة على المسلحين، كانت وجهة نظري الحقيقية أن مرمرة كانت مسرحًا سياسيًا، وكان

المنظمون يعلمون جيدًا أننا سنوقف السفينة، وخاصة إذا كانت هناك إصابات، فسيكون هذا مثالًا آخر على قيام "إسرائيل" بدور "جالوت" الوحشي ضد "داود" الأعزل.

بطبيعة الحال، لم تطلب الحكومة نصيحتي ولم تستمع إليها، وعندما صعد أفراد من وحدتي البحرية القديمة (فلوتيلا 13) إلى السفينة لمنعها من الوصول إلى غزة، هاجمتهم مجموعة صغيرة من النشطاء بالقضبان والسكاكين، حيث أسفر رد الكوماندوز عن مقتل تسعة نشطاء، ومن غير المستغرب أيضاً أن وسائل الإعلام الدولية ألقت باللوم على "إسرائيل"، وانتصرت حماس مرة أخرى.

في أواخر عام 2010، تلقيت لمحة أخرى عن المستقبل الكئيب الذي يقودنا قادتنا إليه، حيث في كانون الأول (ديسمبر)، لاحظتُ أعمدةً من الدخان تتصاعد مثل سحابة عيش الغراب من الفناء الخلفي لمنزلنا في كيرم ماهارال، اتصل بي ابني جاي وأخبرني أن كيبوتس بيت أورن الذي يطفو على قمة جبل الكرمل، قد أُمِر بالإخلاء بسبب حريق غابة مُسْتَعِّر يتسابق عبر التلال التي جفت بسبب سنوات من القحط، وانتشر الحريق بسرعة كبيرة لدرجة أنه حاصر وقتل حافلة من رجال الإطفاء ذوي الخبرة، حيث تجاهل الرجل وعدد من الأصدقاء الأوامر وظلوا في أماكنهم لإنقاذ منازلهم في الكيبوتس، ثم جاءت زوجة جاي وطفليه للإقامة معنا.

أيضاً سكان قرية "عين حوض" العربية المجاورة رفضوا مغادرة منازلهم، ولكن لأسباب مختلفة للغاية، فعندما أَرسَلَت خدمات الإنقاذ والإطفاء إنذارات تحذيرات أن حياتهم كانت في خطر، أصروا على البقاء.. وقالوا: "لقد غادرنا مرة واحدة" في إشارة إلى النكبة في عام 1948، حيث طردتهم قوات الجيش "الإسرائيلي" من قريتهم الأصلية عين حوض، حيث يعيش صديقي يهودا الآن.

من وجهة نظرهم، فإن مطالبة دولة "إسرائيل" بإخلائهم كان استمرارًا للنكبة، الذي انعكس خوفهم غير العقلاني على خوفنا، حيث أكد رئيس الشرطة ووزير الداخلية في البداية، دون أي دليل، أن النار قد أضرمها إرهابيون عرب، على الرغم من أننا علمنا بسرعة أن فتى درزيًا يدخن الشيشة قد تسبب في الحريق عن غير قصد، ومن جنون الارتياب عند اليهود "الإسرائيليين"، والشك خلف الوجوه المبتسمة للعرب الذين يبنون منازلنا أو يبيعون لنا الطماطم، نشتبه في أن الإسلاميين يجاهدون في عقولهم.

على الرغم من حقيقة أن العرب في "إسرائيل" يسعون إلى المساواة داخل دولة "إسرائيل"، وقد أثبتوا ولائهم في نضالهم السلمي من أجل حقوق متساوية كمواطنين، فإننا نعتقد أنه إذا أتيحت لهم الفرصة لقيادتنا إلى البحر فسيفعلوا.

إن حقيقة أننا نمتلك اقتصادًا مزدهرًا وخامس أقوى قوة عسكرية على وجه الأرض، بعيدًا إلى حد كبير عن الواقع، فقد كان أعدائنا العرب تحت تصرفنا، ولا نفعل شيئًا لتهدئة انعدام الأمن

الأساسي لدينا، والذي قد يكون مصدره هو تاريخ الترحيل والمذابح والمحرقة الذي يقوم السياسيون أتباع النظرية الشعبية بجلدهم بذلك؛ ليتم انتخابهم.

حتى لو لم أفهم تمامًا المصدر العميق –وغير المنطقي بالنسبة لي– لمخاوفنا، فقد شعرتُ بالحاجة إلى مواجهة الشك والتشاؤم اللذين ينهشان المجتمع "الإسرائيلي"، فمثلما كانت شركاتنا الناشئة تغزو بورصة ناسداك، كنا ننتحر بشكل جماعي في كساد اقتصادي، ولم يكن هناك شيء في ترسانة مجموعات وشركات المجتمع المدني يبدو قادرًا على إخراجنا منه.

بمجرد أن بدأْتُ أشك في أنه –كما هو الحال في منزل مجنون– فقط العلاج بالصدمة هو الذي يمكن أن يقودنا بعيدًا عن الحافة النتوءات، وصلني ذات يوم من أيام الفراغ اتصال من المخرج الوثائقي درور موريه لمناقشة فكرة اعتقدت أنها قد تنجح.

قال: "أريد أن أصنع فيلماً عن الشاباك".. كانت فكرته في ذلك الوقت هي تسمية فيلم (Shomrei HaSaf) "حراس البوابة"، كما في كتاب "الخروج".

سألته: "كيف؟ هل أنا مناسب؟".

على الرغم من كونه يساريًا، مثل الكثير من الأشخاص في صناعة السينما لدينا، إلا أن "درور" قد طوَّر سحرًا مع شارون لدرجة أنه صنع فيلمًا عنه، فمن خلال المقابلات التي أجراها مع أعضاء الدائرة المقربة من المستشارين لشارون، بمن فيهم المدير العام فايسغلاس، علم "درور" أن قرار شارون الانسحاب من غزة كان مدفوعاً بالمقابلة التي أجراها رؤساء الشاباك المتقاعدون في صحيفة يديعوت العبرية في عام 2003، فلو كنا من رجال السلام اليساريين، كان شارون سيتجاهل رسالتنا، في الحقيقة أننا كنا متخصصين في مجال الأمن، وأُعجِب شارون بنا وعرفنا شخصيًا، والذي لم يكن مستعدًا لخسارة دعمه مثل بيبي، الأمر الذي دعاه إلى إعادة تقييم جوهري لاستراتيجيته.

قال لنفسه: "إذا تمكنا من إنتاج فيلم وثائقي عن "إسرائيل" وفلسطين، فسيكون ذلك غير عادي".

ما برح في ذهني عندما صاغ ردًا كان صورًا من (Fog of War) "ضباب الحرب"، وهو فيلم وثائقي للمخرج غاستون موريس، الحائز على جائزة الأوسكار عن روبرت ماكنمارا، فعندما كان طفل نابغة في كلية هارفارد للأعمال، عَمِل وزيراً للدفاع للرئيسين كينيدي وجونسون وكان مهندس كارثة حرب فيتنام.

لقد برز مشهد واحد على وجه الخصوص في ذاكرتي: بعد عقود من الحرب، هز ماكنمارا بإصبعه أمام الكاميرا، مثل الشخصية الخيالية د. فرانكشتاين وهو يواجه وحشه الخاص، ويعترف أنه في بداية الحرب، شعر بشكل بديهي أن الأمريكيين لم يتمكنوا من الربح، فلم تكن فيتنام ألمانيا

الصناعية، ولا يمكن قصف جيش الفلاحين الفاسد ليخضع، فقد مات أكثر من مليون شخص لأن ماكنمارا لم يُترجم مشاعره الغريزية إلى سياسات مختلفة، حيث كان يقول ليس لدي أي حق أخلاقي في عدم قول الحقيقة بأن حكومته قد أرسلت شبابًا إلى قتال لا داعي له، وعاد الكثير منهم إلى ديارهم في صناديق.

ربما يعرض الفيلم صراعنا بطريقة واحدة؛ لإخبار "الإسرائيليين" بنفس الشيء، بأنه لا يمكننا كسب معركتنا لإبقاء الفلسطينيين تحت أقدامنا، وربما يكون الفيلم هو العلاج بالصدمة الذي كنت أعلم أننا بحاجة إليه.

شَرْطِي الوحيد لدرور هو أنني أردت مشاركة جميع المخرجين السابقين الآخرين، فقد قمت بجولات وساعدت درور في جعل الجميع يوافقون على إجراء مقابلات معهم أمام الكاميرا.

خلال إنتاج الفيلم، اندهش درور مرارًا وتكرارًا من "الديناميت على يدي"، على حد تعبيره. وهو أحد الأمثلة التي تداولت في مقابلة مع يوفال ديسكين، حيث اقتبس درور أقوال الفيلسوف "الإسرائيلي" يشعياهو ليبوفيتز الشهيرة بعد عام من حرب الأيام الستة، التي جعلت للشاباك وجودًا خبيثًا: "إن الدولة التي تسيطر على سكان معادين يبلغ عددهم مليون أجنبي يجب أن تكون بالضرورة دولة "شين بيت"، مع كل ما يتطلبه، مع تداعيات على التعليم وحرية التعبير والفكر والحكم الديمقراطي، كما أن الفساد الذي يتميز به كل نظام استعماري سيصيب دولة "إسرائيل"، وسيتعين على الإدارة التعامل من ناحية بقمع حركات التمرد العربية، ومن ناحية أخرى بزرع الخونة العرب".

قال ديسكين، بدون أن يرف له جفن، وعيناه متجهتان على درور: "أتفق مع كل كلمة". في الواقع، كلنا –مدراء الشاباك السابقين– فعلنا ذلك.

وصف ديسكين أيضًا تجربة الاضطرار إلى الشراكة مع إرهابيي منظمة التحرير الفلسطينية السابقين لوقف حماس: "كيف لي أن أجلس فجأة مع الإرهابيين الذين قضيت مسيرتي المهنية في مطاردتهم؟ أدركت أننا –بطريقةٍ ما– متساوون، كما يقول المثل: رجل إرهابي هو مقاتل من أجل حرية رجل آخر".

أبراهام شالوم، حارس البوابة خلال الانتفاضة الأولى، الذي اضطر إلى الاستقالة لأنه أمر بإعدام الإرهابيين على غرار المجلس العسكري، لإيصال رسالة مفادها: أنه لن ينجو أي إرهابي قام بالاعتداء علينا، وذهب إلى حد وصف الجيش "الإسرائيلي" بـ "جيش احتلال وحشي"، وقارنهم مع الألمان في معاملتهم لغير اليهود في أوروبا الغربية المحتلة.

أبراهام شالوم

نشأ شالوم في النمسا النازية، وعايش بشكل مباشر بكل ما يعني أن تكون منبوذًا في نظام عنصري، وأضاف: "لقد أصبحنا –ببطء– غُزَاة محترفين، ومن هذا ينبع سلوك خطير جدًا فيما بيننا، لأنه سلوك يصبح في النهاية جزءًا من شخصيتك، وهذا ما يخيفني، أنت تقف في طريق مسدود، وإذا سئم أحد العرب من الوقوف في الصف وانفجر، فعندئذ تضربه بعقب بندقيتك، وهذا ليس بالشيء غير المعتاد، حيث يصبح هذا هو القاعدة بالنسبة لك"، حيث انسجم مع كارمي جيلون، مدير الشاباك السابق: "نعم، نحن نتسبب في جعل حياة الملايين من الناس مستحيلة".

قصصت بعض الحكايا عن الصياد العجوز في غزة ومنهج الدكتور السراج: "النصر أن أراك تعاني"، لقد تأكدت كيف أن تكتيكاتنا المختلفة لمكافحة الإرهاب، مثل: بناء الجدران، وإيقاع الفلسطينيين في شراك مدنهم وبلداتهم خاضعة لغاراتنا دون سابق إنذار، وقطع الكهرباء والمياه، وحصار غزة–، كيف كل ذلك ينتج المزيد من الإرهاب، وبالتالي تعزز خوفنا.

تحدثت أيضًا عن التعاطف: كيف يتطلب محاربة الإرهاب رؤية أفعالنا من خلال أعين العدو، وكيف يؤدي القمع العنيف إلى تصعيد دائرة العنف.

اتَّفَقَ معي جميع زملائي عندما حاولت توجيه الفيلم في اتجاه إيجابي من خلال الاقتباس من كلاوزفيتز: "النصر ببساطة هو خلق واقع سياسي أفضل"، حيث إن المستقبل المشرق الذي يجب أن نهدف إليه –كما قلت– هو "إسرائيل"، كدولة ديمقراطية ذات أغلبية يهودية وتعليم تقدمي وأنظمة رعاية اجتماعية بروح إعلان الاستقلال، فهل قربتنا الانتفاضتان أو الدرع الدفاعي والرصاص المصبوب من هذا المستقبل؟ .. لا، في هذا الصدد، كانت "إسرائيل" تكسب المعارك وتخسر الحرب ضد الإرهاب لجيل كامل.

ولكنني لم أترك الأمر عند هذا الحد، حيث أخبرت "درور" عن الذهاب إلى شارع بلفور في القدس بعد حرب يوم الغفران، وعدم العثور على رجل عجوز حكيم في نهاية ممر طويل يحفظنا جميعًا بأمان، وهي حكاية كنت آمل أن تمثل الرسالة المركزية للفيلم:

إنها لحظةٌ حزينةٌ جدًا لمعظم الناس عندما تُدرك فجأة أنه لم يكن أحد خلف الباب، فبالنسبة لي كان الأمر كما لو أنني رأيت النور فجأة، حينها أدركت المفهوم البسيط للديمقراطية، فأنا من يحتاج إلى تحمل المسؤولية، أنا المسؤول، لأن الديمقراطية تقول أن لكل منا الحق في التأثير، وفي حالة الأزمات ليس لدينا الحق فقط، ولكن مسئولية التأثير، فهذه نصيحتي لكل شاب "إسرائيلي"، إن لديك الحق والمسؤولية في التأثير، فحتى لو كنت في أقلية لا تفترض أن القائد يهتم بفعل الشيء الصحيح؛ لأنه في الغالب ما تكون قراراتهم مدفوعة بالبقاء في السلطة وليس ما هو الأفضل "لإسرائيل"، والأمر متروك لك.

هذا ما قصده هرتزل عندما قال: "إن شئت، فهذه ليست قصة خيالية".

جلسنا نحن الستة من "حراس البوابة" السابقين (مدراء الشاباك السابقين) في الصف الأمامي لحضور العرض الأول للفيلم الوثائقي في مهرجان القدس السينمائي، وهي المرة الأولى التي رأيت فيها الإنتاج في شكله النهائي.

أعادني المشهد الافتتاحي إلى الواقع الوحشي للعمل في "المجاري" (الشاباك) حيث: طائرة عسكرية تتبع شاحنة بيضاء عبر مخيمات اللاجئين، والتعليق الصوتي يشرح معضلة وجود إرهابي كبير على مرمى البصر، ومع ذلك لا يعرف ما إذا كان هناك أشخاص أبرياء معه في الشاحنة، ماذا تعمل؟ لا يوجد قاضٍ بجوارك، ولا رئيس وزراء، إنها قرارك، تنفجر الشاحنة مع نفخة من الدخان الرمادي.

خلال الجزء الأخير من الفيلم، بعنوان: "الرجل العجوز في نهاية الممر"، انتظرت عبثًا ما تخيلته سيكون لحظة تعويضية في هذا الفيلم الكئيب بلا هوادة.

قلت لنفسي، مسترخيا في مقعدي: "بحق الجحيم؟".. قطع "درور" رسالتي عن الديمقراطية والحرية، وأنهى فيلمه الوثائقي بملاحظة قاتمة.

كتب الناقد السينمائي لصحيفة نيويورك تايمز: "إذا كنت بحاجة إلى تطميناتٍ أو أسبابٍ للتفاؤل بشأن الشرق الأوسط، فلن تجده".

وكان هذا بالنسبة لي مشكلة كبيرة، فقمت بالاتصال على درور وسألته عن سبب تحريره لرسالة الأمل؟ فأجاب: أنه قرار فني.

"أنت الفنان يا "درور"، وهذا فيلمك، ولكن هناك ما هو أكثر من الفن على المحك هنا، فهذا هو مستقبلنا الذي نتحدث عنه!"

"ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا أرى مخرجاً".

"لكنني أخبرتك خلال مقابلاتنا كيف اعتقدت أنه يجب عليك إنهاء الفيلم، فقوة الصهيونية هي أن مصيرنا في أيدينا، وليس الرب، ولا توجد بعض القوى التاريخية الخارجة عن سيطرتنا، كما لا يزال بإمكاننا تغيير الاتجاه وتجنب كارثة، فمستقبلنا في أيدينا، كما أنني اقتبست شعار هرتسل: "إذا شئت، فهي ليست قصة خيالية".

اعتقد درور أن الخط من هرتزل هو صرخة حرب.

"ليست كذلك!"

قال بضحكة مكتومة: "إذن اصنع فيلمك الخاص".

تم ترشيح الفيلم لجائزة الأوسكار، لكن لم يقرع القادة اليهود الأمريكيون باب مكتب نتنياهو – كما فعلوا ردًا على تعليقاتنا في مقابلة يديعوت أحرونوت الأصلية– فربما أدت النظرة القاتمة للفيلم إلى انتشار كسادنا القومي للأمريكيين، فعلى الرغم من أنها كانت ضربة كبيرة على التلفزيون "الإسرائيلي"، إلا أن "حراس البوابات" فشلوا بسبب سلبياتهم في كسب جمهور المشاهدين.

لقد جاهدت، وكررتُ ما اعتَبَرَهُ أشخاص مثل "درور" رسالتي الخيالية المتمثلة في: "إذا صح التعبير، فهذه ليست قصة خرافية"، إلى الدائرة المتضائلة باستمرار من الأشخاص المستعدين للاستماع، لأنني كوني متهماً بارتكاب جرائم حرب، وكذلك تعاملاتي مع تقرير غولدستون، حفزني على متابعة درجة الماجستير في القانون من جامعة بار إيلان، فقد كنت أرغب في الحصول على فهم أفضل للقانون الدولي، وكنت أبلغ من العمر الثانية والستين، أكبر رجل في فصل دراسي مليء بالطلاب الذين أشعلوا –كطلاب مدرسة– مليون شمعة بعد اغتيال رابين، فقد كان زملائي في الفصل أمثلة رئيسية على معضلة "إسرائيل"، وكانوا متفائلين بشكل مذهل بشأن حياتهم الخاصة، ومتشائمون بشدة من أننا سنجد حلاً سلميًا لمأزقنا مع الفلسطينيين.

بقيت أنا ودرور على اتصال، وذات يوم اتصل ليسألني إذا كنت قد سمعت خطاب الرئيس أوباما في مركز مؤتمرات في القدس مكتظ بطلاب الجامعات، أجبته: "لا" .. "لقد دُعيتُ للحضور، لكنني سئمت من الخطب التي لا تقود إلى شيء".

قال: "من المؤسف أنه فاتك ذلك"، لأن الرئيس دفع –كلمة بكلمة بشكل أساسي– من أجل ما كنت أدافع عنه، حيث قال أوباما للطلاب المجتمعين هناك: "لا يوجد جدار مرتفع بما يكفي لمنع كل عدو ينوي القيام بإلحاق الأذى"، وقال: إذا كنت تريد الأمن، فابدأ "بوضع نفسك في مكان

الفلسطينيين، وانظر إلى العالم من خلال عيونهم، لأنه ليس من العدل ألا يكبر الطفل الفلسطيني في دولة خاصة به، ويعيش حياة كاملة في ظل وجود جيش أجنبي يسيطر ليس فقط على تحركات هؤلاء الشباب ولكن يسيطرون على آباءهم وأجدادهم في كل يوم".

كان في الواقع خطابًا رائعًا، ورد الطلاب على حديثه بالتصفيق الهادئ، لكنني علمت من التجربة الشخصية أنه مثلما لم يستجب الناخبون "الإسرائيليون" لرسالة "حراس البوابة"، فإن الطلاب الذين شجعوا أوباما سيكبرون وهم غير قادرين على التصرف بناءً على أمره، لأنه لم يكن خطاب رئيس أمريكي حسن النية، وبديلاً عن زعيم "إسرائيلي" يُعطي شعبنا خطة واقعية لتأمين بقائنا كديمقراطية.

مع الإرهاب والأمن في أذهان الجميع، بقيت متحدثًا شعبيًا في الندوات والمؤتمرات ومراكز الفكر، لكني كنت أعظ الطبقة، وكان بإمكاني عرض مائة من مديري الموساد والشاباك السابقين، وجنرالات الجيش "الإسرائيلي" المتقاعدين، وخبراء أمنيين آخرين أمام الصحافة، وكلهم يقولون الشيء نفسه: إذا واصلنا نبذ الذل واليأس، فستزداد شعبية حماس، وإذا نجحنا في إخراج حماس من السلطة، فسنطرد القاعدة، وبعد القاعدة داعش وبعد داعش لا يعلم إلا الله، بينما سيواصل غالبية الناخبين وكأنهم محاصرون برغبة جماعية في الموت، ودعم حكومة يمينية عازمة على خيانة القيم الإنسانية التي تأسست عليها "إسرائيل".

بدأت في رفض طلبات إجراء المقابلات الإذاعية والتلفزيونية لأن لا شيء قلته يبدو أنه يُحدِث فرقًا كبيرًا، فقد كان الأمر سيئًا بما يكفي بأن أفشل في أهم مهمة في حياتي.

ومما يبعث على الأسى أكثر، أنني لم أكن أعرف لماذا تميل "إسرائيل" إلى المبالغة في رد الفعل تجاه أصغر التهديدات، ولماذا نفضل الرصاص على الكلمات، ولماذا نرفض استكشاف فرص الحل السلمي للنزاع، ولماذا نبتلع الغوغائية السياسية بسهولة.

وكما قال آري شافيت في كتابه "أرض الميعاد": فإننا نتصرف كما لو كنا في "حالة سيئة"، ولم أكن أعرف السبب.

حتى ربيع 2013، كنت في المحطة الثانية من رحلة شاقة استغرقت 23 ساعة إلى سيدني، حيث دعتني منظمة يهودية هناك للحديث عن "حراس البوابة"، وخلال الرحلة قلّبتُ كتابًا لفيلسوف تل أبيب حاييم غانس "نظرية سياسية للشعب اليهودي"، فلو سقطت لوحتان حجريتان أخريان من السماء فلن تصدمني أكثر مما وجدته في هذا الكتاب.

الفصل السابع والعشرون:

حجر الفلاسفة

"من يسيطر على الماضي يسيطر على المستقبل"
"من يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضي"
-جورج أورويل، 1984-

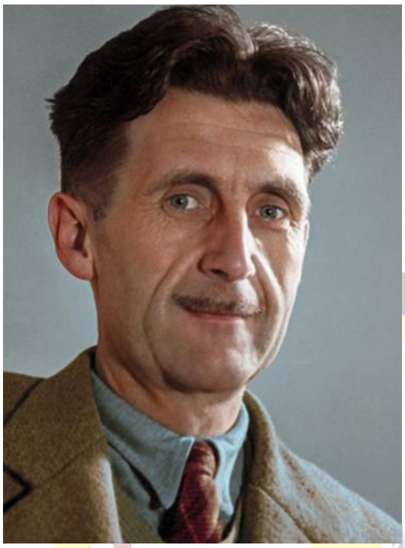

جورج أورويل، 1984

في يوم حار من شهر يوليو من عام 2017، كان العرق يتدفق على وجهي، حيث دخلت إلى مقهى تل أبيب المفضل للبروفيسور جانز، متفادياً الأطفال الذين يتسابقون على الزلاجات الخطية، وبمجرد دخولي استقبلتني نفحة من الهواء البارد، ورائحة البن المطحون الطازج، وصوت أغنية أريك أينشتاين المفضلة لزوجتي بيبا في الخلفية:

من فضلك، لا تودعني

فقط قل "أراك قريبًا"

لأن الحرب حلم

غارقة بالدم والدموع.

على الرغم من أننا تواصلنا عبر البريد الإلكتروني لترتيب لقائنا، إلا أنني لم أقابل البروفيسور شخصيًا، قمت بالنظر سريعاً إلى كل الطاولات التي تم الجلوس عليها، ثم لاحظت رجلاً ضخمًا في ساقه، ونظارات ذات إطار سلكي دائري، وبقايا ذقن خفيفة بيضاء لم تحلق منذ ثلاثة أيام، وكان يرتدي قميصًا كاكيًا على غرار رحلات السفاري يلوح لي في اتجاهه.

وقف ليحييني، وصافحت يده اليسرى لأنه كان بيده اليمنى يمسك عكاز، بادرته قائلاً: "من الجيد أن ألتقيك أخيرًا".

"وأنا كذلك"، كان صوته رقيقًا بشكل ملحوظ بالنسبة لهذا الرجل الضخم.

بينما كان حاييم يعرج مثل جندي جريح إلى غرفة الرجال، طلبت عصير برتقال وكرواسون، وألقيت نظرة خاطفة على العناوين الرئيسية في نسخة يديعوت أحرونوت التي كانت ملقاة على الطاولة، وكان هناك شيء ما عن قيام حماس بحفر المزيد من الأنفاق، ومقال آخر عن فضائح رئيس الوزراء نتنياهو في الرشوة والعمولات، همست داخل نفسي: "لا شيء جديد تحت الشمس".

عاد حاييم، لكن قبل أن يجلس مثل رجل يريد أن يأخذ شيئًا من صدره، أثنى عليَّ لتصريح قلته مؤخرًا لصحفي من الجارديان، حول كون "إسرائيل" في قبضة "استبداد متزايد"، وكيف ضمنت "الحرب المستمرة" ضد الفلسطينيين "وجود عدو دائم مثل عدو أورويل عام 1984".

أومأ برأسه، ثم قلت له: "في صباح يومٍ مشمسٍ سنستيقظ ، وعندما ننظر إلى الوراء سندرك أننا خسرنا حريتنا منذ فترة طويلة، ولن نعرف كيف نستعيدها".

بعد أن جلس حاييم، قفزت مباشرة لأسأله عن قصته الشخصية، ولكن ضجيج المقهى وصوته شبه المخملي أجبرني على الاتكاء على الطاولة لسماعه، أخبرني كيف وصل والديه إلى فلسطين في عام 1934 من ترانسيلفانيا، والتي تقع على الجانب الآخر من جبال الكاربات التي نشأ منها والداي، ثم توقف التشابه عند هذا الحد، حيث احتفظ والده، الأرثوذكسي المتشدد، باسم العائلة الأوروبي، وقام بتربية حاييم في منزل من الطبقة الوسطى في تل أبيب.

في المدرسة الثانوية، كان حاييم –المولود بعدي بثلاث سنوات– يتنقل من حركة شبابية إلى أخرى، حيث كان بالفعل متمردًا قبل سن السادسة عشرة، واستمر يومين فقط في حركة "بني عكيفا"، وهي عبارة عن مجموعة من الشباب المتدين، التي منحه التمهيد لبعض المخالفات.

قال: "الدين لم يكن حقيبتي".

"كيف كان رد فعل والدك؟"

"لم يتفوه بكلمة، فصمته قال كل شيء".

بعد ذلك بعامين –وليس ثمانية عشر عامًا–، سمع حاييم من زميل له في المدرسة تاريخًا "لإسرائيل" يتعارض مع معتقدات الكتب المدرسية القياسية: لم يَترُك العرب في عام 1948 قراهم ومدنهم اعتقادًا منهم أن الجيوش العربية المنتصرة ستدفع اليهود إلى البحر؛ بل تَم طَردُهُم في الغالب.

قال: "لقد كانت صدمة بالنسبة لي عندما علمت بما حدث بالفعل، لأنني اعتقدت أننا أهل الصالحين، وأننا "نور الأمم".

أخبرته كيف نشأنا في الكيبوتس على الاعتقاد بأننا حررنا أرض "إسرائيل"، و"لم يتحدث أحد عن عرب عام 1948، وأنه لم يكن العرب موجودين إلا كعصابات إرهابية خارج الحدود؛ أما بالنسبة للمواطنين العرب في "إسرائيل" في القرى والبلدات في حيفا واللد وحولها، فقد ظلوا غير مرئيين طالما لم يكونوا كذلك ولم يحملوا السلاح ضدنا، وبذلك فهم لم يكونوا مجرد جزء من الواقع الذي نشأنا فيه".

وقال: إن "معظم الإسرائيليين ما زالوا يؤمنون بهذا".

"ولهذا طلبت مقابلتك".

بعد تخرجه من المدرسة الثانوية، وقبل أداء خدمته العسكرية، انتقل للعيش مع صديق له في أحد أحياء القدس بالقرب من الجامعة العبرية، وبعد بضعة أشهر، بدأ حاييم خدمته العسكرية في وحدة تعمل باستمرار للمساعدة من أجل الاستيلاء على الضفة الغربية خلال حرب الأيام الستة، حيث سيفقد صديقه حياته في الحرب.

عند نقطة واحدة دخلت وحدة حاييم إلى مخيم الدهيشة للاجئين، "لم أصدق عيني: فقر وبؤس اللاجئين الفلسطينيين، كيف يمكنني أن أُوضَع بين بؤس الدهيشة وحياتي المريحة في القدس؟".

توضح قصة حاييم التالية كيف حصل على 15 عامًا من السبق في إلقاء نظرة على قسوة احتلالنا.

في أوائل السبعينيات، بينما كنت أقوم بغارات كوماندوز حول البحر الأبيض المتوسط، أوقف استدعاء للاحتياطي في غزة دراسة حاييم للقانون والفلسفة اليونانية في الجامعة العبرية، حيث كان مقاتلو عرفات الفدائيين يشُنُّون هجمات عبر الحدود المصرية، ومن أجل منعهم؛

وضع أرييل شارون استراتيجية وحشية لمكافحة التمرد شملت الجنود الذين أطلقوا الرصاص الحي على حشود المتظاهرين، فما شهده حاييم في غزة جعله من أشد منتقدي الاحتلال.

ثم غادر "إسرائيل" لبضع سنوات، مما ساعده على كسب مسافة كافية لرؤية المجتمع والتاريخ "الإسرائيليين" بموضوعية أكبر.

كان كتابه الأول، الذي كتبه بالإنجليزية واستند إلى أطروحته في أكسفورد، عن: الفوضوية الفلسفية والعصيان السياسي، وهي موضوعات جعلتني أفكر في اقتباس "ثورو" المفضل لديَّ حول كونه "الاحتكاك المضاد لإيقاف الآلة".

أخبرت حاييم تقييمي لكتابه: "نظرية سياسية للشعب اليهودي"، بالنسبة لي قلت له: "ربما تكون قد ربحت بعض الأتعاب من جميع النسخ التي وزعتها على أصدقائي".

قال مبتسماً: "الفطور عليّ"، قبل أن يُلح عليّ لمشاركة الجوانب التي أحدثت مثل هذا التأثير في كتابه.

شرحت لحاييم: "لأطول وقت، كنت أظن أن تشاؤمنا القومي قد يكون له علاقة بالهولوكوست، حتى لو كانت عمتي "هافا"، التي لم تقل شيئًا تقريبًا عن شبابها، تتحدث أكثر عن الجندي الألماني الذي أنقذ حياتها من أهوال "أوشفيتز"، ولكن الأمر لم يكن كذلك إلا بعد أن قرأت نظريتك عن الروايات في لمح البصر، فقد كان خوفنا الجماعي منطقيًا، بالإضافة إلى العديد من الأشياء الأخرى".

أجبرني كتاب غانس على تحويل أدوات استجوابي إلى الداخل، فبعد طول انتظار بدأت أفهم نفسي، وأن أفهم البلد الذي خدمته طوال حياتي.

في الحقيقة مشكلتنا ليست مع الفلسطينيين، إنما بيننا نحن اليهود "الإسرائيليين" الذين لم نقرر بعد أي نوع من الأمة نريد أن نكون في أرض "إسرائيل"، علاوة على ذلك، فإن القصص التي نرويها لأنفسنا عن أنفسنا مَعيبة بشكل قاتل.

"ما قاله أورويل ..".

قاطعني حاييم وانتهيت من تفكيري.

"من يريد أن يتحكم في المستقبل، عليه أن يتحكم في الماضي؟"

"بالضبط، ومن يتحكم في الحاضر، يتحكم في الماضي".

أخبرته لماذا جعلت نظريته في سرد تلك الموازين تسقط من عيني، فمثل معظم الناس، كنت أفترض دائمًا أن التاريخ عبارة عن مجموعة من الحقائق الثابتة، فقد تعلمت من حاييم أن تصورنا للماضي هو مزيج من الحقائق والخرافات التي نقولها لأنفسنا، نحن نجمع الحقائق بشكل انتقائي لتعزيز الماضي كما اخترنا فهمه.

فعلى سبيل المثال، قام جيل والديّ من الاشتراكيين بتكوين قصة عن عودتنا إلى الأرض التي سُرقت منا ونهبها واحتلها الآخرون، فهو عاد إلى العصر البطولي لممالك "إسرائيل" وإلى حروبنا ضد الإغريق والرومان، وكان أقرب أقربائهم اليهود من المقاتلين أثناء تمرد بار كوخبا، ففي ذلك الوقت وكما هو الحال الآن، كان القتال يدور حول تحرير ما هو حصريًا لنا، حيث كان حاييم يطلق على هذه التركيبة اسم "صهيونية كبار الملاك".

استخدم اليهود الأوروبيون –الذين وجدوا أنفسهم بعد ذلك في صراع مع العرب الأصليين– المحاريث والبنادق وأبراج المراقبة وغارات الكوماندوز لتحقيق روايتنا عن كوننا المالكين الوحيدين لأرض "إسرائيل"، لقد قامت رواياتنا التاريخية بتحويل الفلسطينيين إلى "ناهبين" أو "أصحاب ممتلكات مسروقة"، فهذه الأيديولوجية بررت حرب الاستقلال وجميع الأعمال التي ارتكبت خلال الحرب، وبمجرد "تحرير" الضفة الغربية عام 1967، هرعنا للخروج من كيبوتساتنا لبناء مستوطنات جديدة، فقد اقتبست له من أحد سطوره: كيف أَدْخَلَت "إسرائيل" –في الضفة الغربية– نِظَام "هيمنة راسخة لليهود على الفلسطينيين"، والأسوأ من ذلك، "التزام هيكلي بعنف الدولة".

باختصار، إذا كانت الأراضي المحتلة ملكًا لنا، فعندئذٍ فإن جميع أفعالنا –المستوطنات التي نبنيها على أنقاض المدن التي دمرناها في الحرب، واستغلال الموارد والجدران ونظام السيطرة– لها ما يبررها.

ذكّرت حاييم: "انظر، أنا رجل أمن، ولست أكاديميًا، لست يساريًا أو يمينيًا، الشيء الوحيد الذي أهتم به، إلى جانب عائلتي وعدد قليل من أصدقائي، هو أمن دولة "إسرائيل"، فإذا سألني أحدهم في عام 1969 لماذا كنت متجهًا إلى معركة –نحن أو هم– مع المصريين، كنت سأجيب بالحجج المعتادة حول الاستيطان والأمن، فقد كانت وظيفتي هي محاربة أعدائنا، ويمكن لمواطني بلدي بمن فيهم العديد من أصدقائي، الاستيطان في أراضينا المحررة حديثًا".

"لاحقًا، في الثمانينيات والتسعينيات، كنت مدفوعًا مرة أخرى بالأفكار الأمنية عندما خلصت إلى أنه حتى لو كنا المالكين الحقيقيين لأرض "إسرائيل"، فإننا بحاجة إلى التراجع الاستراتيجي من معظم مناطق الضفة الغربية، والتنازل عن السيطرة للفلسطينيين من أجل الحفاظ

على النظام الديمقراطي الليبرالي الذي يمنح جميع "الإسرائيليين" –بمن فيهم عرب "إسرائيل"– المساواة والشعور بالانتماء، فقد عشت في الوقت الحاضر، ولم يخطر ببالي مرة واحدة أن أتساءل عن كل تلك القصص، لقد نشأ "الإسرائيليون" على تحديد الطريقة التي نتصرف بها وكيف ننظر إلى المستقبل".

أومأ حاييم برأسه، مثل طبيب نفسي أكثر منه فيلسوفًا، كما رويت كيف أن حججه –أثناء الرحلة إلى سيدني– فسَّرت الكثير من الأشياء.

على سبيل المثال، كيف أن شخصًا مثل "آبا"، وهو رجل لم يشرع أبدًا في قمع شعب آخر، لم يعترض أبدًا على قيام الجرافات بتدمير قرية "السماخ" حتى لا يكون لسكانها السابقين مكان يعودون إليه، فإذا كنت محاصرًا داخل قصة، فإن كل ما تصادفه يميل إلى تعزيزها، وكل عملٍ إرهابيٍ يُعزز الاعتقاد بأن الفلسطينيين متطفلين، مُستَقْطَبِين يتم حشوهم على أرض مملوكة لنا بحق.

ذكّرت حاييم بالطريقة التي وصفها بالنفاق لاقتباس من الكاتب المسرحي اليساري المهاجم للمستوطنين شموئيل حصفري، المدير الفني لأحد المسارح الطليعية في "إسرائيل"، حيث قال حصفري ذات مرة: "نحن هنا لأن الكتاب المقدس هو عملنا لأرضنا الحبيبة إسرائيل"، فكيف يمكن لأحدٍ أن يُصدق هذا، وبحسن نية، يفجر المستوطنين لبناء مستعمرات في الضفة الغربية؟

لوقت طويل كنت أفكر تمامًا مثل حصفري، فحتى بعد تجربتي في مخيم اللاجئين في عام 1988، لم أستطع الإجابة على السؤال الأساسي حول سبب اختلاف الكيبوتسات التي بناها جيل والديّ عن مستوطنات الضفة الغربية، فإذا كانت الصهيونية مجرد استيلاء على أرض الأجداد، فإذن لا يوجد فرق أخلاقي بين ما فعله والداي وما كان بنشاس ورفاقه يفعلونه حتى عام 1967.

نظرت حول المقهى مرة أخرى، كان معظم الناس يتحدثون العبرية، لكن زوجين قريبين كانا يتحدثان بالروسية، وبعض الكلمات الإنجليزية معلقة في الهواء أيضًا.

نظرت من خلال النافذة، ولاحظت وجود صف من الزبائن الذين يفوح منهم العرق ينتظرون الطاولات خارج الباب، سألت نفسي: كم من هؤلاء الناس سمعوا حتى عن كتاب حاييم؟ لا شيء على الأرجح، ولكنني لم أستطع إلقاء اللوم على أي منهم لعدم دراسة هذا العمل النظري الصعب، فكم من العقود استغرقتُ قبل أن أكون مُستعدًا لقراءة مثل هذا الكتاب واستيعاب دروسه؟

"كان هناك شيء آخر شرحه لي كتابك".

انحنى حاييم على كرسيه وقال: "أخبرني".

"كانت كيفية إعادة اختراع الماضي".

كررت له بقدر ما استطعت من الإخلاص والوضوح، أن بديله عن الصهيونية الاحتكارية التي طورها في كتابه الجديد "مجرد صهيونية"، وما أطلق عليها "صهيونية المساواة وتقرير المصير"، والتي أعتقد أنها توفر الحل الوحيد، ستبقى الأساس الشرعي لوجودنا القومي كدولة في أرض "إسرائيل"، فلم يكن حاييم بحاجة إلى أن أعيد سرد نظريته بالطبع، لكني أردت التأكد من أنني تلميذ مخلص.

لقد أعطيته نفس زاوية الارتفاع الذي قدمته لأي شخص يرغب في الاستماع: فعلى مدى قرن من الزمان، اعترف المجتمع الدولي بحق الشعب في تقرير المصير داخل دولة قومية يمكن أن يعيش فيها وفقًا لثقافته ولغته وتقويمه وقادته، ولتعريف أنفسهم كما يحلو لهم.

وهذا ما جاء لفعله جيل والديّ، حيث قَدَّمت خطة الأمم المتحدة للتقسيم عام 1947 أساسًا قانونيًا لهذا الحق الطبيعي: لقد اتفق العالم لليهود –خاصة بعد الهولوكوست– على الحق في بناء دولتنا القومية وممارسة حقنا في تقرير المصير في أرض "إسرائيل" بسبب شعورنا بالأمة، وذاكرتنا التاريخية، وثقافتنا المتجذرة في هذه الأرض.

كما ويتحدث إعلان استقلالنا عن حق "إسرائيل" الطبيعي في "أن تتحكم في مصيرها، مثل جميع الدول الأخرى"، وهو حقٌ وافق عليه المجتمع الدولي في تشرين الثاني (نوفمبر) 1947، إلى جانب روابطنا التاريخية بأرض "إسرائيل"، وهو أحد الأساسان اللذان قامت عليهما دولة "إسرائيل".

تقرير المصير –وليس صكًا قديمًا على الأرض– جعل حجر الزاوية في مطالباتنا أمرًا منطقيًا للغاية، بالنسبة لي، لأنه أوضح ما كنت أقوم به معظم حياتي، لقد قاتلت وقَتَلْت ودفنت أصدقاء، لأن العرب في عام 1948 رفضوا حقنا في تقرير المصير في أرض "إسرائيل"، لقد هاجمونا وعلى مدى عقود بعد حرب الاستقلال، واستمرت الهجمات حتى عام 1967، وكانت الحروب التي خضناها والإجراءات التي اتخذناها مُبَرِرة، لأننا كنا ندافع عن حق أيده معظم العالم.

حتى منذ عام 1967، بقينا في حالة حرب ضد أعداء يسعون إلى حرماننا من حقنا في الوجود كأمة على هذه الأرض، وفي هذا الصدد، لقد قَتَلتُ ودفنتُ أصدقاء لي طيلة ثلاثين عامًا في سياق حربٍ عادلة.

لكن إذا كانت حروبنا عادلة، فلماذا تشاؤمنا الوطني؟ والشعور بأننا غارقون إلى الأبد في "القذارة العميقة"؟

قلت: "وهذا هو المكان الذي تكون فيه نظريتك أداة تحليلية قوية بالنسبة لي" أكثر من أي وقت مضى، يبدو أن "الإسرائيليين" يعتقدون أن أرض "إسرائيل" هي أرضنا جميعًا، وبما أن معظم مواطني بلدي يعتقدون أيضًا أن الطرف الآخر يشعر بنفس الطريقة تجاه فلسطين التاريخية، فإنهم يستنتجون أن تقديم أي تنازلات إقليمية هو أن تكون أبله ومغفل، حيث يتم تعزيز المستوطنين الذين يلوحون بسند ملكية إلهي وبقناعة، أنه بغض النظر عما نفعله سيستمر الفلسطينيون في مهاجمتنا، أما الكلام عديم الجدوى والدبلوماسية فهي للحمقى، والرصاص هو اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب.

خلال شُربَة ثانية من الإسبريسو، لخصت فرضيتي بأننا نحن "الإسرائيليين" في حرب مع أنفسنا، وليس مع الفلسطينيين.

"لقد أنشأنا بالفعل حالة فصل عنصري في الضفة الغربية، حيث نُسيطر على الفلسطينيين بالقوة، ونحرمهم من حق تقرير المصير، وفي النهاية سيتخلون عن حلم الدولة، وسيطالبون هم ومعظم العالم بدولة واحدة، حيث سيفقد اليهود أغلبيتنا ويمكننا تقبيل وداع حق تقرير المصير، فمن وجهة نظر أمنية، عند هذه النقطة سنتوقف عن خوض الحروب فقط ونصبح خبراء عالميين في الحروب الظالمة".

أومأ حاييم برأسه متأملًا قبل أن ينظر إلى ساعته، وخلال هذا الوقت زادت خطوط العرق المتصبب من الناس خارج المقهى، وعرَفتُ أننا بحاجة إلى إنهاء الأمور، ثم قام بدفع ثمن القهوة والكرواسون تمامًا كما وعد، وقبل أن يقف على قدميه، سألني بنبرة حزينة، كم عدد "الإسرائيليين" الذين أعتقد أنهم "يتفقون معنا".

"في قلب قلوبهم، ليسوا كثيرًا، ولكن يمكنني أن أعدهم على أصابعي التسعة ونصف"، ضحكت وأظهرت له أن أحد أصابعي كان ينقصه مِفصَل، "لكنني لست هنا لإلقاء اللوم على أي شخص، لأن إعادة اختراع الماضي ليس بالأمر السهل، وعادة ما يَحدُث ذلك فقط بعد وقوع كارثة".

شكر وتقدير

أود أولاً أن أشكر زوجتي وشريكة حياتي ببيا؛ لعملها معي بدءاً من إعداد المسودات الأولية إلى إعطائي النقد والنصيحة، والتي كانت مهمة لهذا الكتاب مثل أي شخص آخر.

كما وأود أن أشكر: تشيب فلايشر، الناشر والمُحرر، والذي آمن بشدة بهذا الكتاب منذ البداية.. كما لا يفوتني أيضًا أن أشكر ريبيكا رادينغ على تعديلاتها القيمة، وشعورها الرائع بصياغة تلك القصة.. وأخيرًا صديقي أورني بتروشكا والذي يُعتَبر شخصية مهمة لتلك الرسالة الشاملة.

أما أنتوني ديفيد فإنه يود أن يشكر صديقه أنور ماجد، الباحث والروائي المغربي الأمريكي الذي علمه كيفية الكتابة بشكل مؤثر في السياسة.

عزف على عشب الكيبوتس عام 1947 مع سروليك (إسرائيل جوتمان).

يتسحاق أيالون وجونا روزين ، في وقت قريب كانا بمثابة رؤساء متتاليين لمهمة سرية لتهريب اليهود من المجر إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية.

لاجئون فلسطينيون يغادرون قرية في الجليل بعد خمسة أشهر من إنشاء دولة "إسرائيل".

عامي أيالون مع رفيقه في الجيش

عامي أيالون مع زملائه من الكوماندوز في وحدة الاسطول البحري الثالث عشر (فلوتيلا 13)

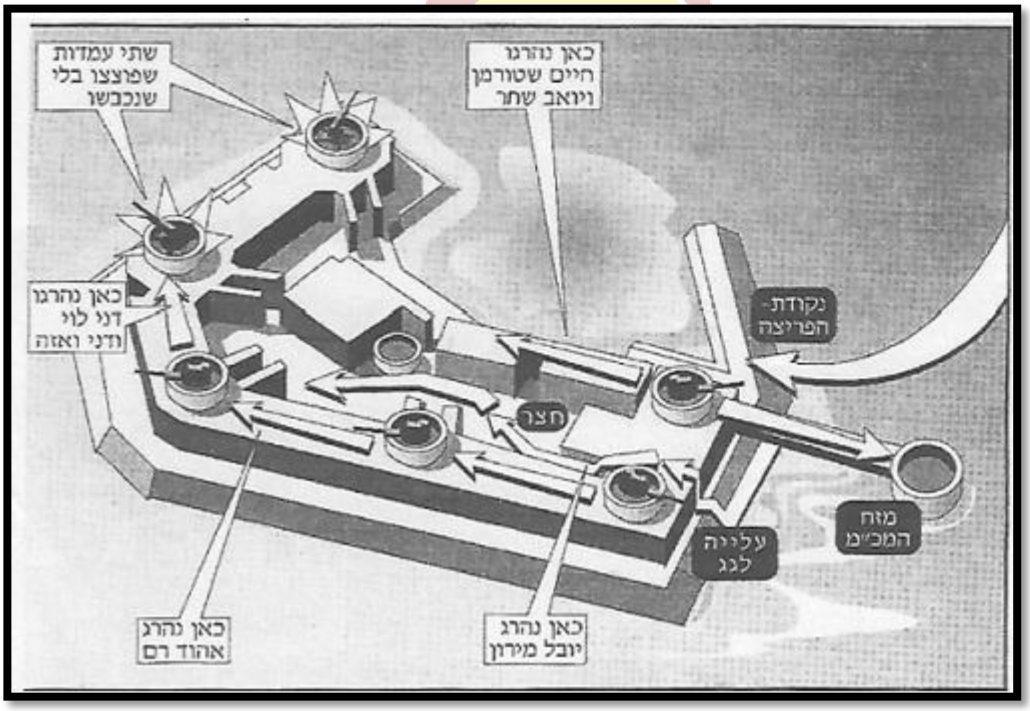

مخطط معركة الجزيرة الخضراء، يوليو 1969م

الحصول على وسام الشجاعة، وهو أعلى وسام عسكري "إسرائيلي"، من رئيسة الوزراء غولدا مئير في يوم الاستقلال عام 1972م.

عامي أيالون مع زئيفي المونج خلال عملية الإنزال في لبنان

رئيس الوزراء اسحاق رابين في عام 1995 في المقر الرئيسي للبحرية بعد الموافقة على مشروع الغواصة الذي دعا إليه عامي أيالون.

مع شمعون بيرس وكارمي جيلون في العام 1996 خلال تنصيب عامي أيالون رئيساً للشاباك.

عامي أيالون مع بنيامين نتنياهو في العام 1997 في المقر الرئيسي للشاباك.

رئيس الوزراء ايهود باراك مع عامي أيالون في نهاية خدمته مديراً لجهاز الشاباك، مايو 2000م.

برفقة ساري نسيبة في عام 2003 خلال حملة رفع التواقيع لإنهاء الصراع "الإسرائيلي" الفلسطيني.

جانب من تدريبات وحدة الكوماندوز البحرية الأسطول الثالث عشر

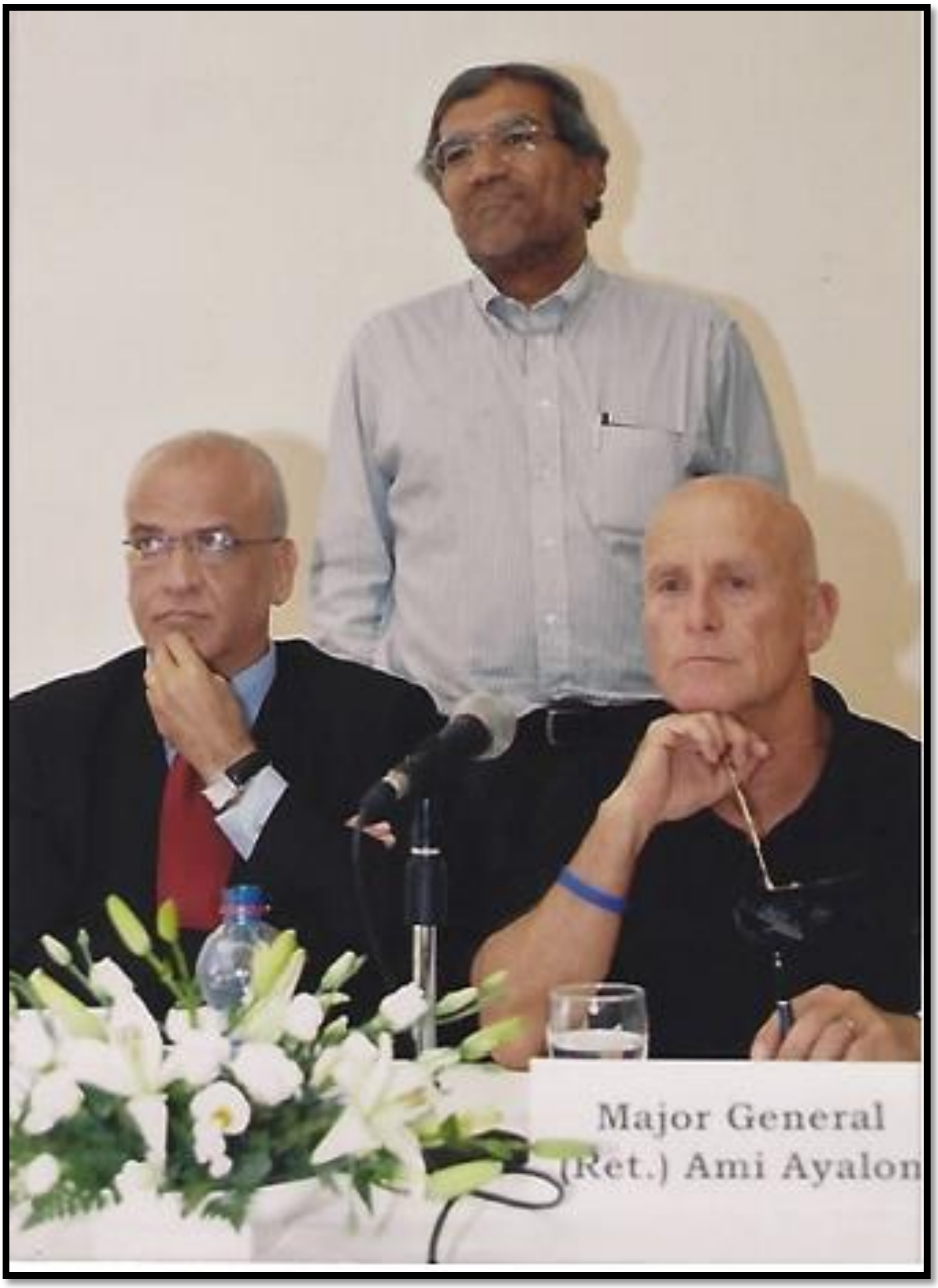

عامي أيالون، وصائب عريقات، وخليل الشقاقي في رام الله.

عزيز صالحة، عاطل عن العمل ويبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، يحتفل بعد إلقاء جثة فاديم نورزيتز الرقيب الاحتياط في جيش الدفاع "الإسرائيلي" الذي قُتِل بالضرب والطعن، وسط حشد غاضب في أحد أحياء رام الله العشوائية.